

أمهات مقاصد القرآن

وطرق معرفتها ومقاصدها

الدكتور

عزالدين بن سعيد كشنيط الجزائري

إشراف الدكتور

عبد الستار حامد الدباغ



أهمّات مقاصد القرآن
طرق معرفتها ومقاصدها

أمهات مقاصد القرآن طرق معرفتها ومقاصدها

تأليف الدكتور

عز الدين بن سعيد كشيت الجرائري

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد الستار حامد الدباغ



جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عن أي طريق، سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أم بالتصوير، أم بالتسجيل، أم بخلاف ذلك دون الحصول على إذن الناشر الخطي وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة القانونية.

الطبعة الأولى
2011 - 2012م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2011/ 1/209)

225

الجزائري، عز الدين كشنيط

أمهات مقاصد القرآن: طرق معرفتها ومقاصدها/ عز الدين كشنيط.-

عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2011

(560) ص.

ر.أ: (2010/1/209)

الواصفات:/ألفاظ القرآن// القرآن

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

(ردمك) ISBN 978-9957-02-428-4

Dar Majdalawi Pub.& Dis.

Telefax: 5349497 - 5349499

P.O.Box: 1758 Code 11941

Amman- Jordan



www.majdalawibooks.com

E-mail: customer@majdalawibooks.com

دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

تليفكس: ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩

ص. ب. ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١

عمان - الأردن

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار الناشرة.

الإهداء

إلى

والديّ الكريمين وإخوتي

إلى

زهرة بيتي وريحانتيّ؛ زوجتي وابنتيّ

إلى

الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم

فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

إلى

ما بقي في هذه الأمة من أنوفٍ شمّ تعاف الهوان،

ونفوسٍ عزيزةٍ ترى المذلة كفراً.

أهدي ثمرة هذا الجهد.

شكر وثناء

أقدم وافر الشكر وأخلص الامتنان لفضيحة الأستاذ الدكتور عبد الستار حامد الدباغ على قبوله الإشراف على هذه الرسالة أولاً ثم على ما خصّني به من العناية، وما بذل لي من نصح وتوجيهات قيمة. إذ إليه يعود الفضل بعد الله تعالى - في إخراج هذه الأطروحة على ما هي عليه.

كما لا يفوتني أن أعبر عن امتناني الخالص للأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد أحمد على تشجيعه إياي على خوض غمار هذا الموضوع المستجد، وأقدم شكري الجزيل أيضاً إلى كلّ من قدّم لي يد العون وأسهم في ظهور هذا الجهد المتواضع برأي أو نقد أو تنبيه أو توجيه من أساتذتي الأفاضل؛ أخص بالذكر منهم: الدكتور محمد رمضان عبد الله، والدكتور محمد صالح عطية الحمداني، والدكتور داود سلمان الدليمي، والدكتور مظفر الحياي.

كما أشكر بقية مشايخي أهل الفضل والإحسان، ممن حضرنا مجالسهم وأفدنا من علمهم وأدبهم؛ الشيخ صبحي السامرائي، والشيخ عدنان الطائي، والشيخ محسن الطاروطي، والشيخ أحمد زكي القيسي، والشيخ ياسين العزاوي، والشيخ حمدي شهاب الأعظمي، والشيخ عبد الرزاق السعدي، والشيخ عبد القادر العاني، والشيخ رافع العاني.

كما لا يفوتني هنا أن أدوّن شكري الخالص إلى الفاضلين الحاج قيس القدسي، والحاج عايد جبر الذين غمراني بكامل الرعاية والاهتمام طول مدة إقامتي ببغداد، وإلى محمد الرّاوي الذي أفدت من مكتبته القيمة طيلة فترة البحث، وبقية الزملاء والأصدقاء على ما أبدوه من ملاحظات قيمة على بعض ما في هذه الأطروحة وأستسمح كل صديق أو قريب قصّرت في حق ضيافته أو عيادته أو مراسلته طيلة فترة البحث.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة:	13
الباب الأول: - دراسة تمهيدية.	21
الفصل الأول: التعريف بالقرآن ووصفه.	23
المبحث الأول: تعريف القرآن لغة واصطلاحاً.	23
المبحث الثاني: تعريف الله تعالى ورسوله (ﷺ) بالقرآن ووصفهما إياه.	35
المبحث الثالث: مكانة القرآن عند أهل العلم وكلامهم عنه.	41
المبحث الرابع: نبذة عن تاريخ القرآن وبنيته.	49
الفصل الثاني: بيان مفهوم "المقاصد العامة".	61
المبحث الأول: المقاصد لغة واصطلاحاً.	61
المبحث الثاني: الفرق بين مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة الإسلامية.	70
المبحث الثالث: إثبات أن للقرآن مقاصد ذوات أقسام وأنواع ومراتب.	81
الفصل الثالث: تاريخ تطور علم مقاصد القرآن، وأهميته.	89
المبحث الأول: روافد تطور الفكر المقاصدي في القرآن عند القدماء.	89
المبحث الثاني: النظرة المقاصدية للقرآن في العصر الحديث.	117
المبحث الثالث: أهمية معرفة أمهات مقاصد القرآن.	125
الباب الثاني: طرق معرفة مقاصد القرآن الكريم، واستخراجها.	137
الفصل الأول: طرق معرفة مقاصد القرآن الكريم.	139
المبحث الأول: طرق استخراج مقاصد القرآن من ألفاظ الإرادة الإلهية في القرآن.	139

144	المبحث الثاني: طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال تعليقات الكتاب والسنة.
164	المبحث الثالث: طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال الأسماء والأوصاف.
179	المبحث الرابع: طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال خصائصه العامة.
185	المبحث الخامس: طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال مواضعه.
222	المبحث السادس: طرق استخراج مقاصد القرآن من معرفة حوائج الناس إلى الوحي.
243	الفصل الثاني: استخراج كبرى مقاصد القرآن الكريم.
243	تمهيد.
243	المبحث الأول: استخراج ما صرح به القرآن من أمّهات مقاصده.
270	المبحث الثاني: استخراج مقاصد القرآن بالسنة النبوية الشريفة.
340	المبحث الثالث: ذكر أقوال أهل العلم في أقسام القرآن وأمّهات مقاصده.
371	الباب الثالث: تصنيف وترتيب مقاصد القرآن العامة، والتعريف بها.
373	تمهيد
374	الفصل الأول: - تصنيف وترتيب أمّهات مقاصد القرآن الكريم.
374	المبحث الأول: معايير التقسيم، وبيان الأقسام الكلية .
408	المبحث الثاني: معايير الترتيب، ومراتب المقاصد
453	الفصل الثاني: - التعريف بأمّهات مقاصد القرآن الكريم

454	المبحث الأول: المقصد الأقصى. (القصد إلى إخلاص العبودية لله تعالى)
471	المبحث الثاني: المقاصد الأساسية. (العلم - الإيمان - العمل الصالح)
490	المبحث الثالث: المقاصد الخادمة. (الوازع - التذكير - الوعظ - الإحسان - الصبر)
524	المبحث الرابع: منظومة القرآن المقاصدية.
531	الخاتمة والتوصيات.
537	قائمة المصادر والمراجع.
559	ملخص الرسالة بالإنجليزية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله ربّ المشارق والمغارب، خلقنا في أحسن تقويم وهدانا لأعلى المراتب، وخصّنا بخير رسول، وحبانا بخير المذاهب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له منبع كل جودٍ وغاية كل طالب، حبانا بضياء أنار به كل زوايا الحياة، فكفى في كل الجوانب.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وشهابه الثاقب، قذف به الباطل ليدمغه فإذا هو ذاهب، وأورثه المحامد كلّها والذرى وأعلى المراتب، وشرف قلبه بحمل ما لا تطيق الجبال، ويسره بلسانه سائغا لكل راغب، فجاهد به حق جهاده حتى أفحم كل مشاغب، فتركنا على محبة بيضاء أغنت عن كل المذاهب، فصلاة الله وسلامه عليه وآله ورضوانه تعالى على كل صاحب.

اللهم إنا نسألك إبقاءنا ما أبقيت القلب حيّا، ونسألك من فيض علوم القرآن ربّا، ونعوذ بك من فتنة زمان هجر الناس فيه تدبر القرآن واتخذوه ظهرياً، وشكّوا في سنة المصطفى (ﷺ) واتخذوا من اهتدى بها سخرى، فسلاماً على كل طودٍ شامخ، وعلى كل غريبٍ قابضٍ على الجمر، لم تنقص كثرة الباطل من صحوة عقله شيئاً، وبعد...

فقد خصّ الله تعالى هذه الأمة بكتاب بدّل له مفهوم الزمان، فغدت ليلة إنزاله خير الليالي، وبدّل له مفهوم المكان فغدا موضع إنزاله — وهو قلب المصطفى (ﷺ) — أشدّ وأقوى من شمّ الجبال.

ولما كان القرآن بهذه المثابة من الفضل والشرف؛ كان أولى ما يُشكر من الآلاء والنعم، وخير ما تُصرف فيه الأعمار والأفكار والهمم، لأنّ الله تعالى قال: ﴿لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ﴾، ليفهموها ويصدقوها ويقوموا بحقها من الإجلال والطاعة، لأنّه لا يليق بأمة سيد الوجود أن تقع فيما وقع فيه اليهود، الذين حملوا الأسفار، فلم يحملوها إلا كحمل الحمار.

فحقّ على كل من أحب الانتساب إلى نبيّ أمّة المصطفى (ﷺ) ومفارقة اليهود أن يفقه ما حمّله تعالى في هذا القرآن من مقاصد، وإنّه إن تعرّس على أي أحد بعد رسول الله سمهما علا كعبه في درجات العلم- أن يحيط بكلّ مقاصد القرآن الجزئية، فإنّ ذلك لا يُعفي أحدا من الإحاطة بكليّاته المهمّة قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ﴿٤٢﴾ الأنفال: ٤٢.

دواعي اختيار الموضوع:

إن أهمّ ما دعاني إلى خوض غمار هذا الموضوع هو ما طُبعت عليه نفسي من الميل إلى النظرة الاستشرافية إلى الأمور؛ والرغبة الجامحة في تلخيص الكتب أو البحوث المهمّة، وتبسيط المسائل المعقّدة، وجمع شتات ما تفرّق، واستعراضه في صورته الكاملة، وقد حرّك فيّ هذا الطبع ما نبّهنا عليه أساتذتنا الأفاضل من ضرورة الانتقال بالبحوث والدراسات الإسلامية من الدراسات التجزيئية إلى الدراسات الشمولية.

وقد يسّر لي ذلك الاطلاع على عدد وافر مما كُتب في القرآن أو عن القرآن، فلفت انتباهي في ذلك المجهود العظيم والكمّ الهائل من كتب الدراسات القرآنية ذهابها في اتجاه واحد؛ وهو الاتجاه التجزيئي، فدرست كل ناحية من نواحي القرآن على حده، بينما يعتني القليل من تلك الجهود بتركيب ثمرات تلك الدراسات لتكوين نظرة كلية جديدة لهذا الكتاب المتجدد.

وأشدّ ما يُستغرب في تلك الدّراسات قلّة عنايتها بإفراد كليّات القرآن وأمّهات مقاصده بالتأليف!! وهي ظاهرة تعكس مدى تقصير الفكر الإسلامي في العناية بالنّظرة الكلية الشاملة للنّص القرآني.. إن حركة العلم والمعرفة في تاريخ البشرية وأخصّ بالذكر منها الحركة المثمرة- قد سارت في الاتجاهين (التجزيئي والتركيبّي) في تناسق أو بالتناوب، فكانت نظرة مترددة بين الذرة أو ما يقلّ عنها وبين المجرة وما هو أكبر... نظرة مترددة بين الأنفس والآفاق.

ومن دوافع اختيار هذا الموضوع أيضا ما لاحظته من أخذ علم مقاصد الشريعة الإسلامية الذي يمثل الوجهة المقصدية في الفقه الإسلامي، لقسطٍ وافرٍ من العناية، في حين توقفت الجهود في هذه الوجهة في الدراسات القرآنية منذ حقبة طويلة، فعلى الرغم من التأليف المبكر في التأسيس لهذه الوجهة من التفسير فإنه لم تتخذ أية خطوة جادة في إفراد هذا الموضوع بالتأليف تأصيلا وتطبيقا، باستثناء محاولات تطبيقية يسيرة غير مؤصلة في العصر الحديث، إذ لا تزال الكتابة في هذا الموضوع -لحد الساعة- تقتصر على إدراج مباحث أو فقرات منه في كتب علوم القرآن، وفي مقدمات التفاسير، وفي التمهيدات والمداخل التي تكتب للتعريف بالقرآن ومحتوياته. وكذا في كتب مقاصد الشريعة الإسلامية القليلة، حتى صار مُصطلح المقاصد إذا أُطلق انصرف رأسا إلى مقاصد الشريعة الإسلامية، وإلى موافقات الشاطبي تحديدا. فأحببت لمّ شمل ما أمكن من تلك المتفرقات في مختلف الكتب والبحوث، ومحاولة نظمها ودراستها في صفحات هذه الأطروحة، لتكون خطوة أولى نحو تركيز الجهود في هذا الموضوع، ولبنة يرتقي عليها كل من يريد الإسهام في إعلاء صرح هذه الوجهة التفسيرية. وقد فرحت كثيرا حينما علمت أن هذا الموضوع كان أمنيةً للأستاذ محمد رشيد رضا، صرحّ بالعزم على الاشتغال بها، بإفراد مقاصد القرآن بالبحث والتأليف فأعجلته المنية دون نيل الأمنية، فنسأل الله له الأجر على قدر النية⁽¹⁾.

(1) صرح محمد رشيد رضا بذلك في مقدّمة إجماله لذكر مقاصد القرآن في كتابه (الوحي المحمدي) فقال: "لأن التفصيل لا يتم إلا إذا يسر الله لنا إنجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد، وكون القرآن وفّى بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه. وإنما هذا الفصل أنموذج منه". الوحي المحمدي: ص 167.

ولا أستبعد -مع ما ذكرته- أن يكون قد نزعني عرقٌ من اشتغال كثير من المغاربة بالفكر المقصدي بدايةً من الشاطبي، إلى محمد الطاهر بن عاشور فعلاً الفاسي ومحمد الصالح الصديق ثم أحمد الريسوني وإسماعيل الحسني شكر الله لهم سعيهم، فلعلني أسهم أو أثري، أو أنبه على مهم من يأتي على إثري.

أهمية الموضوع:

تستمد هذه الأطروحة أهميته من ناحيتين:

فأما الناحية الأولى فترجع إلى طبيعة موضوعه، فهو بحثٌ عن مراد الله تعالى من إنزاله هذا الكتاب، وتطلّع إلى استخلاص زبدة التعاليم القرآنية، ومحاولة للوقوف على المقاصد الحاكمة على مجموع ما فيه، ومحاولة للوقوف على أهم ما اهتم به القرآن من قضايا الوجود، وأهم ما تتطلّع إليه النفس البشرية من أنواع الهداية، ولكونه أيضاً بحثاً عن كليّات القرآن وأمّهات مواضيعه، وهو محاولة منهجية للوقوف على روعة البنية الهندسية للمنظومة المقصدية في القرآن الكريم... فالخوض في غمار هذا الموضوع هو عينه الخوض في أعلى مراتب التفسير، وهو محاولة تركيب جزئيات خارطة المقاصد القرآنية.

أما الناحية الثانية فهي عظيم فائدته لعموم حاجة الناس إلى ثمرته، لأن حصر مقاصد القرآن الكلية، وترتيبها على درجات الأهمية يمكن المهتم بالقرآن إلى الابتداء بالأولى والأهم، فإذا حقّقه انتقل إلى الذي يليه وهكذا حتى يبلغ حظه من الكمال. والذي لا يعرف الأهم من المهم لعلّه يفني عمره غافلاً عمّا لا يسوغ نسيانه أو لا يجوز إغفاله شاغلاً نفسه بإعلاء صرح على غير أساس قوي فيكون ما بناه عرضةً للهدم في أي وقت.

الدراسات السابقة في هذا الموضوع ومصادره.

أما الدراسات السابقة في هذا الموضوع فلم يُخصص له -فيما وقفت عليه- تأليفٌ أفرد به بيان تاريخ تطوّره، وطرق استخراج كليّات مقاصده، وترتيب تلك

المقاصد مع ذكر معايير تصنيف تلك المقاصد وترتيبها، وغاية ما وقفت عليه بذورٌ في مؤلفات القدماء أجدرها بالذكر كتاب (جواهر القرآن ودرره) لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وكتاب (جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن) لشيخ الإسلام ابن تيمية. وأمّا ما أفرد لهذا الموضوع فوقفت على مؤلفين أحدهما ما كتبه الأستاذ محمد الصالح الصديق بعنوان (مقاصد القرآن)، وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1955م في الجزائر. وهو الكتاب الوحيد الذي وجدته موافقا لموضوع هذه الأطروحة عنواناً وغرضاً، فأما العنوان فصريح، وأمّا غرضاً فلكونه أورد فيه ما رآه مقاصد كلية لمعاني القرآن، واقتصر على ذلك فقط. وهو أشبه بتعريف عام بدين الإسلام من خلال مواضيعه الكبرى؛ التوحيد، والعقائد، والدين، والعبادات، وأصول المثل العليا والأنظمة الاجتماعية، ثم جعل ما رآه مقاصد فرعية عناوين لفروع تلك الأصول.

وقد انتهج في هذا الكتاب طريقة جامعة بين التفسير الموضوعي من حيث التقسيم، والتفسير التحليلي من حيث أسلوب المعالجة، فيورد الآية أو الآيات -متسلسلة- مما يراه أكثر مناسبة مع مقصد عنوان الفصل، ثم يفسرها تفسيراً تحليلياً.

وأمّا الكتاب الثاني فهو الموسوم (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) للشيخ محمد الغزالي، إذ صرح فيه بأن هذه المحاور عليها مدار معاني القرآن على كثرتها، وقد نظم الشيخ كتابه هذا في مقدمة وخمسة محاور هي: ومحور عن الله الواحد، ومحور البعث والجزاء، ومحور عن الكون الدال على خالقه، ومحور القصص القرآني، ومحور عن ميدان التربية والتشريع.

ويتسم أسلوب المعالجة في هذا الكتاب بالطابع الدعوي، واللّهجة النقدية اللاذعة، والروح الحركية والنزعة التجديدية في التعامل مع نصوص الوحي.

هذا وسيأتي بسط الكلام في غير هذا المؤلف مما أسس لهذه الوجهة من الدراسات القرآنية، وبيان مدى تفاوتها في قدر تناولها لهذا الموضوع أو لبعض جوانبه.

أهداف هذه الأطروحة ومنهجي في تناولها.

أما أهداف هذا الموضوع فقد رسمت له خمسة أهداف رئيسة هي:
التعريف بأهمية هذه الوجهة من الدراسات القرآنية ومحاولة التاريخ لمراحل تطورها.

محاولة استقصاء ما أمكن من طرق معرفة مقاصد القرآن الكلية.
محاولة استخلاص أهم مقاصد القرآن.
محاولة بيان معايير تصنيف هذه المقاصد وترتيبها بما يبرز قيمتها، ثم تصنيفها، وترتيبها حسب درجة كليتها وأهميتها.
التعريف بأهم مقاصد القرآن الكريم.
وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، رسمت لهذه الأطروحة خطة مكونة من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

أما **الباب الأول** فجعلت منه دراسة تمهيدية للموضوع، تناولتها في ثلاثة فصول:

خصّصت **الفصل الأول** بالتعريف بالقرآن ووصفه؛ فعرفت به لغة واصطلاحاً، ثم أوردت تعريف الله تعالى ورسوله (ﷺ) بالقرآن، ووصفهما إياه، ثم أوردت بعض وصف أهل العلم للقرآن وتعريفهم به. ثم ذكرت نبذة عن تاريخ القرآن، وبنيته، ومكانة القرآن الكريم عند أمة الإسلام.

أما **الفصل الثاني** فخصّصته ببيان مقصودي من عبارة أمّهات المقاصد، وذلك بالتعريف بلفظ المقاصد لغة واصطلاحاً، ثم بيان الفرق بين مفهوم مقاصد القرآن

ومفهوم مقاصد الشريعة الإسلامية. ثم حاولت بيان القصدية في القرآن، وأن هذه المقاصد ذوات أقسام وأنواع ومراتب.

أما الفصل الثالث، فخصّصته بالكلام عن تاريخ تطوّر علم مقاصد القرآن، وأهمّية هذه الوجهة في التفسير والدراسات القرآنية.

أما الباب الثاني من هذه الأطروحة فقد حاولت فيه ذكر أهمّ ما رأيته طرُقاً لمعرفة مقاصد القرآن الكريم، في الفصل الأول منه، فذكرت طريق تتبّع ألفاظ الإرادة الإلهية في القرآن، ثم حاولت ذلك من خلال تعليقات الكتاب والسنة، ثم من خلال أسماء وأوصاف المرسل والرّسالة (القرآن)، ثم من خلال خصائصه العامّة، ثم من خلال التّصنيفات الموضوعية لمحتواه، ثم من خلال معرفة حوائج الناس إلى الوحي.

أما الفصل الثاني فحاولت فيه استخراج ما أمكن من مقاصد القرآن الكلية بأقوى ما وجدته من طرق. وقد اخترت في ذلك الاعتماد على ما صرّح به القرآن من أمّهات مقاصده أولاً، ثم الاعتماد ما يمكن استخراجه بالسّنّة النبوية، ثم بسطت أقوال أهل العلم في أقسام القرآن وأمّهات مقاصده.

أما الباب الثالث فخصّصته بتصنيف مقاصد القرآن الكلية وترتيبها، ثم التعريف بأمّتها؛

فخصّصت الفصل الأول لتصنيف أمّهات مقاصد القرآن الكريم وترتيبها، وذلك ببيان معايير التقسيم والتصنيف، ثم بيان الأقسام الكلية، ثم بيّنتُ معايير التّرتيب، وبعد ذلك رتّبت ما صفا لي من أمّهات مقاصد القرآن.

وخصّصت الفصل الثاني بالتعريف بهذه الأمّهات، من خلال ثلاثة مباحث، خصّصت أولها بالتّعريف بالمقصد الأقصى وهو مقصد إخلاص العبودية، وثانيها للتّعريف بالمقاصد الثلاثة الأساسية (العلم - الإيمان - العمل الصالح)، وثالثها للتّعريف بباقي كبرى المقاصد الخادمة (الوازع - التذكير - الوعظ - الإحسان -

الصبر)، ثم حاولت الربط بين جميع هذه المقاصد الأمّيات ضمن ما سمّيته منظومة القرآن المقصدية.

ثم ذيلت ذلك كله بخاتمة سردت فيها ما خلّصت إليه من هذه الأطروحة، وما جنيته منه من ثمار، ثم دوّنت ما خطر ببالي -في أثناء معالجة هذا الموضوع- من أُمّيات في توصيات.

ولست أدّعي -بعد ما ذكرت- أنني قد بلغت الغاية في هذه الأطروحة، فإنّ الوقوف على أسرار الهندسة العالية للتركيب المقصدي للقرآن خطبٌ جليل، لا يُدرك في عمر قصير وزاد يسير، وإنّما هو مهمّةٌ تحتاج إلى جهود أجيال، وتراكم خبرات، غير أن الذي شجّعني على المضيّ قدّما في هذه الأطروحة مقالة العلماء أن ما لا يدرك كلّ لا يُترك جُلّه.

هذا ما تيسّر لي تقديمه، وهذا حصاد مدة اشتغالي في رياض القرآن الكريم، على أنّه لا يسعني في هذا المقام إلا إنشاد قول الشاعر:

ما خطّ كف امرئ شيئا وراجعه إلا وعنّ له تبديل ما فيه
وقال ذاك كذا أولى وذاك كذا وإن يكن هكذا تسمو قوافيه
وإن أكن قصّرت فإلى نفسي وإلى الشيطان أنسب الدّم، وإن أكن وفّقت فمما
أسبغ عليّ ربي من نعمه الجمّة، فأستغفر الله تعالى من كلّ تقصير، وأحمده على
كل رحمة.

دراسة تمهيدية

ويشتمل على الفصلين الآتيين:

البُصْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ: التعريف بالقرآن ووصفه.

المبحث الأول:- تعريف القرآن لغة واصطلاحاً..

المبحث الثاني:- تعريف الله تعالى ورسوله (ﷺ) بالقرآن ووصفهما إياه.

المبحث الثالث: مكانة القرآن عند أهل العلم وكلامهم عنه.

المبحث الرابع: نبذة عن تاريخ القرآن وبنيته.

البُصْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ: بيان مفهوم (المقاصد العامة).

المبحث الأول: المقاصد لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: الفرق بين مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة الإسلامية.

المبحث الثالث: إثبات أن للقرآن مقاصد ذوات أقسام وأنواع ومراتب.

البُصْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ: تاريخ تطور علم مقاصد القرآن، وأهميته.

المبحث الأول: روافد تطور الفكر المقاصدي في القرآن عند القدماء.

المبحث الثاني: النظرة المقاصدية للقرآن في العصر الحديث.

المبحث الثالث: أهمية معرفة أمهات مقاصد القرآن.

البُصْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

الفصل الأول

الفصل الأول: التعريف بالقرآن ووصفه.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول- تعريف القرآن⁽¹⁾ لغة واصطلاحاً.

وقد جاء في مطلبين:

المطلب الأول:- تعريف القرآن لغة.

ورد لفظ (القرآن) في لغة العرب، وله في النطق عند القراء⁽²⁾ صورتان؛ الأولى بتحقيق الهمزة (القراءن)، والثانية بإسقاطها (القرآن)، وذلك لتصرف اللسان العربي في همزتها تسهيلاً وتحقيقاً. وقد تطرّق جمع من العلماء إلى التعريف بالأصل اللغوي لهذه الكلمة، ويرجع حاصل كلامهم في ذلك إلى ما يأتي:

(1) أطلق على كتاب الله تعالى الكثير من الأسماء والأوصاف، والذي جعل لفظ القرآن يتميز منها جميعاً أن هذه الألفاظ أطلقت على ما أنزل على محمد (ﷺ) وعلى ما أنزل على غيره، على حين لم يطلق اسم القرآن على غير ما أنزل على محمد (ﷺ) قال محمد الزفزاف: "ومن هنا كان إطلاق القرآن على ما أنزل على محمد أدلّ على المراد. أمّا غيره من الألفاظ فيحتاج في دلالته عليه إلى قرائن وأمارات. ولذا كان إطلاق القرآن على المنزل على محمد أكثر وأشهر". التعريف بالقرآن والحديث، محمد الزفزاف. مكتبة الفلاح/ الكويت. ط3/ 1399هـ-1979م): ص14.

(2) قرأ عبد الله ابن كثير كلمة القرآن، معرفاً ومنكراً، بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها مع حذفها وصلاً ووقفاً. وبه وقف حمزة. ينظر إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، أحمد بن عبد الغني الدميّطي الشافعي الشهير بالبناء، تعليق علي محمد الضبّاع: دار الندوة / بيروت-لبنان، (د.ت): ص154.

أولاً - أنه لفظ مشتق من الفعل (قرأ) الذي يأتي بمعنيين:

- معنى أصلي: وهو (الجمع والضم). لأن العرب تقول: قرأت الشيء قرآناً: جمعته وضممت بعضه إلى بعض⁽¹⁾.

- معنى ثانٍ مبني على المعنى الأصلي: وهو (القراءة والتلاوة) التي هي ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل⁽²⁾، ومعنى قرأت القرآن: لفظت به مجموعاً؛ أي: ألقيته⁽³⁾. ونطقْتُ بالمكتوب.

فمن أرجع أصل اللفظ إلى معنى (الجمع والضم)؛ علَّل التسمية بما وقع في القرآن من الجمع والضم؛ إما جمع الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الكتابة أو في الترتيل، أو جمع السور بعضها إلى بعض في كتاب واحد⁽⁴⁾، أو أن القرآن سُمي كذلك لكونه جمع ثمرة كتب الله المنزلة من قبل، ولجمعه ثمرة جميع العلوم⁽⁵⁾. كما أشار تعالى بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَتْلُو لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨)، أو لجمعه كل ذلك أو بعضه؛ قال

(1) لسان العرب، ابن منظور. دار صادر/ بيروت، ط1: 128/1، مادة (قرأ).

(2) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص414.

(3) لسان العرب، ابن منظور: 128/1، مادة (قرأ).

(4) حكاة الزركشي والسيوطي عن أبي عبيدة. ينظر البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي أبو عبد الله (745-794)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: 277/1، دار المعرفة/ بيروت، 1391هـ: 277/1، والإتيان: 144/1.

(5) نُقِلَ ذلك عن الراغب وغيره؛ ينظر المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ص402، والبرهان في علوم القرآن: 277/1، والإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي: 144/1.

ابن الأثير: "وسُمِّي قرآنا لأنه جمع القصص والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض"⁽¹⁾.

أما من أرجع أصل اللفظ إلى معنى (القراءة والتلاوة) فذهب إلى أن القرآن في الأصل كالقراءة. فيقال: قرأت الرسالة قراءة وقرأاً وقرآنا، بمعنى واحد؛ أي: تَلَفَّظْتَ به أو نطقت بالمكتوب فيه⁽²⁾. كما قد تكون القراءة بمعنى إلقاء النظر فيها ومطالعتها صمتاً⁽³⁾. قال قطرب: "إنما سمي القرآن قرآنا؛ لأن القارئ يُظهره ويبيِّنُهُ، ويلقيه من فيه"⁽⁴⁾. فهو مصدر من قرأ مرادف للقراءة على وزن (فُعلان) بضم الفاء، كالغفران والشكران، ثم نُقِلَ هذا المعنى المصدرِيّ، وجُعِلَ اسماً للكلام المنزل على النبي (ﷺ) من باب إطلاق المصدر على مفعوله⁽⁵⁾، ومنه قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْهُ﴾ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩) ﴿الْقِيَامَةِ﴾: ١٦ - ١٩. وقد نقل البخاري في صحيحه عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنه فسّر (قرآنه) بـ: أن تقرأه⁽⁶⁾.

(1) حكاه ابن منظور عن ابن الأثير لسان العرب: 1/129، مادة (قرأ).

(2) ينظر المصدر نفسه: 1/128 مادة (قرأ)، والمفردات في غريب القرآن، الأصفهاني: ص414.

(3) ينظر مختصر علوم القرآن، محمد علي عبد الكريم الرديني: ص9، دار الشهاب/ باتنة، الجزائر، (د.ت).

(4) شرح القصائد السبع ص280.

(5) ينظر مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني: (1/11) تحقيق: مركز البحوث والدراسات. دار الفكر/ بيروت، ط1/1996م.

(6) ينظر صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، محمد بن إسماعيل البخاري: (4/1876) تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير/ بيروت، ط3/1407هـ - 1987م.

وهو ما ذهب إليه اللحياني⁽¹⁾ من أهل اللغة، وأخذ به الطبري في تفسيره فقال: "فأما القرآن؛ فإن المفسرين اختلفوا في تأويله، والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس من التلاوة والقراءة، وأن يكون مصدرا من قول القائل قرأت القرآن، كقولك الخسران من خسرت، والغفران من غفر الله لك.." (2).

وقيل إنه لفظ مشتق من الفعل (قَرَنَ). قال الواحدي: "وذهب آخرون إلى أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضمّمته إليه، فسُمي بذلك لِقَرَانِ السور والآيات والحروف فيه؛ ومنه قيل للجمع بين الحج والعمرة قِرَان. قال: وإلى هذا المعنى ذهب الأشعري" (3).

وذهب القرطبي إلى أن "القرآن بغير همز مأخوذ من القرائن (جمع قرينة) لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا، ويشابه بعضها بعضا؛ فهي حينئذ قرائن" (4) فالنون فالنون فيها أصلية (5).

وهذان وجهان بعيدان مرجوحان⁽¹⁾ أنكرهما الزجاج⁽²⁾ فقال: "وهذا القول سهو، سهو، والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها" (3).

(1) ينظر التبيان في أسماء القرآن، محمد بليّ الفتوي: مطبعة المنار/ تونس، ط: 1389هـ - 1969م: ص 18، وعلوم القرآن الكريم، د. غانم قنّوري حمد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة بغداد، كلية الشريعة: ص 25. واللحياني هو أبو الحسن علي بن حازم، (ت 215)؛ عالم لغوي مشهور، له كتاب في النّوادر. ينظر البلغة في تراجم أئمة النّحو واللغة، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: جمعية إحياء التّراث الإسلامي/ الكويت، ط 1407/1هـ: ص 150.

(2) جامع البيان: 189/29.

(3) البرهان في علوم القرآن 1/278، وينظر الإِتقان 1/144.

(4) البرهان في علوم القرآن 1/278.

(5) وهو قول منسوب إلى أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت 207هـ). ينظر الإِتقان 1/144.

ثانياً - أنه لفظ غير مشتق من الفعل (قرأ)، وهو مذهب جماعة من أهل العلم؛ فمنهم من يذهب إلى أن القرآن اسمٌ عَلِمَ خُصَّ به كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد (ﷺ) فهو كالتوراة والإنجيل وغيرهما. وهو ما قرأ به عبد الله بن كثير المكي⁽⁴⁾ والإمام الشافعي بعده وحكاه عن أستاذه في القراءة فقال: "قرأت القرآن على إسماعيل بن قسطنطين⁽⁵⁾ وكان يقول: القرآن اسمٌ وليس مهموزاً، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قُرئ قرأنا، ولكنه اسم للقرآن، مثل التوراة والإنجيل... قال البيهقي: كان الشافعي يهمز قرأت ولا يهمز القرآن ويقول

(1) ينظر مباحث في علوم القرآن، مناع القطان: مؤسسة الرسالة/بيروت، ط1418/35هـ-

1998م: ص17. والبرهان في علوم القرآن 278/1.

(2) الزجاج: هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت311هـ)؛ من أشهر تصانيفه معاني القرآن، ينظر طبقات المتسرين، أحمد بن محمد الأذنوي، تحقيق سليمان بن صالح الحزري: مكتبة العلوم والحكم/ المدينة المنورة، ط1/1997: ص52.

(3) البرهان في علوم القرآن 278/1، وينظر الإتيان 144/1.

(4) ينظر تقريب النثر في القراءات العشر، شمس الدين بن الجزري، تحقيق علي عبد القدوس عثمان الوزير: ص229، دار إحياء التراث العربي/ بيروت- لبنان، ط1/1421هـ-2000م، والوافي في شرح الشاطبية، عبد الفتاح القاضي عبد الغني القاضي: ص217، مكتبة الدار/ المدينة المنورة، ط2/1410هـ-1989م.

(5) هو إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، قرأ على عبد الله بن كثير المكي مباشرة وبالواسطة، وقرأ عليه الإمام الشافعي وغيره. وكانت وفاته (سنة 170هـ)، ينظر معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله (673-748)، تحقيق بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي عباس: مؤسسة

الرسالة/ بيروت- ط1/ 1404هـ: 143/1.

هو اسم لكتاب الله غير مهموز. وقال الواحدي: قول الشافعي هو اسم لكتاب الله؛ يعنى أنه اسم علم غير مشتق كما قاله جماعة من الأئمة⁽¹⁾.

الرأي الرابع:

بعد إنعام النظر في هذه الأقوال، يتبين بأن أحراها بالقبول، وأقربها إلى الصواب ما أرجع أصل اللفظ فيه إلى الفعل (قرأ) بمعنى التلاوة والقراءة، لقوّته في اللغة، وكثرة من قال به من أهل العلم، وعلى رأسهم ترجمان القرآن ابن عباس (رضي الله عنهما)، ثم الطبري بعده. ثم لا يُستبعد بعد ذلك أن يستحوذ مصطلح القرآن على جمع من المعاني فيكون ثمرة لها؛ فهو المقروء والمتلو، وهو الجامع للحروف والكلمات والسُّور، والجامع لثمرة الكتب السماوية السالفة، والجامع لثمرة جميع العلوم. ولعل هذا ما أهله لأن يكون لفظاً اصطفاه الله تعالى وجعله اسماً علماً على آخر كتبه، إذ ليس من شرط الاسم العلم أن يكون مقطوع الصلة بالمعاني الأصلية لفعله⁽²⁾.

أما صلته بلفظي القرآن والقرائن؛ فإنه وإن كان القرآن يحتمل معانيهما فإن الاشتقاق اللغوي لا يؤهلها لأن يكونا أصلين لمصطلح القرآن. هذا وللقرآن أسماء وأوصاف أخرى أرجأت الكلام عليها إلى موضعها من هذه الأطروحة.

(1) البرهان في علوم القرآن 1/277-278. وينظر تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي (393-463)، دار الكتب العلمية/ بيروت: 2/62، معرفة القراء الكبار، الذهبي: 143/1، الإتيان 1/144.

(2) ينظر علوم القرآن الكريم، د. غانم قدوري ص26، والنبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص12.

المطلب الثاني: تعريف القرآن اصطلاحاً.

القرآن اسم آخر كتاب أنزله الله ﷻ إلى المكلفين من إنسه وجنّه. وقد عني أهل العلم ببيان حدّ هذا المصطلح وصياغته في تعريف جامع مانع، فتعددت تعريفاتهم له، وتتوّعت عباراتهم نتيجة تعدد أغراض المعرّفين، واختلاف أهداف تلك التعاريف؛ فمنهم من أطنب بناءً على أن الموقف موقف إيضاح وبيان⁽¹⁾. ومنهم من أوجز باعتبار كون القرآن أشهر من أن يعرف، وإنما يحتاج إلى تعريف وجيز يميزه ممّا عداه من الكلام فقط⁽²⁾. وكلّ منهم يضيف عليه فوائد تتصل بفنّه أو غرضه⁽³⁾.

فمنهم من ضمّن تعريفه ما يشير إلى كلام الله النفسي، وعلاقة هذا الكلام بصفات الله (ﷻ) القديمة، وهي وجهة المتكلمين كقولهم بأنّه: "الكلام القائم بذات الله تعالى"⁽⁴⁾. وقالوا: إنه -بمعناه المصدري-: "الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكيمة، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس"⁽⁵⁾. أما باعتبار المعنى الحاصل بالمصدر فهو: "تلك الكلمات الحكيمة الأزلية المترتبة في غير تعاقب،

(1) ينظر تعريف الصابوني في كتابه: التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني. مكتبة رحاب/ الجزائر. ط3/1407هـ - 1986م: ص6، والتعبير الفني في القرآن ص11، وغاية الوصول شرح لبّ الأصول، أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي. ط1/1413هـ: ص59-60، وغيرها.

(2) ينظر مباحث في علوم القرآن ص17.

(3) فغرض المتكلمين مثلاً كان الاهتمام بالتعريف من حيث دلالاته على كلام الله النفسي (الصّفة القديمة)، أمّا غيرهم من الفقهاء والأصوليين وأهل العربية فكان اهتمامهم بالكلام اللفظي لأن غرضهم الاستدلال بالألفاظ على الأحكام.

(4) المستقصى في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد عبد الشافي، ط1/1413هـ، دار الكتب العلمية/ بيروت: ص80.

(5) مناهل العرفان 13/1.

المجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية⁽¹⁾. فكان التفاتهم فيما قالوا أولاً إلى تنزيه القرآن وكلام الله عن الخلق والحدثان، ثم إثباتهم لصدق إطلاق لفظ القرآن على ما هو مكتوب بين دفتي المصحف.

ومنهم من نظر إلى القرآن من حيث ألفاظه لأن غرضهم الاستدلال على الألفاظ. وهذه الوجهة قدر مشترك بين جلّ علماء الإسلام من أصوليين وفقهاء ومتكلمين ولغويين⁽²⁾.

فأدرجوا في التعريف بالقرآن عبارات يتصل بعضها بمصدره كقولهم: هو (الكلام القائم بذات الله تعالى)⁽³⁾، أو قولهم: هو (وحي الله)⁽⁴⁾. وأدرجوا فيه عبارات تتعلق بمن أنزل عليه وصفته كقولهم: المنزل على النبي محمد (ﷺ)، أو قولهم: (المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ))⁽⁵⁾ وأدرجوا فيه عبارات تتعلق بطريقة نزوله على النبي (ﷺ) كقولهم: (بوساطة الأمين جبريل عليه السلام)⁽⁶⁾ وكيفية نقل القرآن إلينا، وصفة سنده كقولهم: (المنقول عنه نقلاً متواتراً)⁽⁷⁾، أو قولهم: (المنقول المنقول إلينا نقلاً متواتراً بالقراءة المشهورة)⁽⁸⁾. وأدرجوا فيه عبارات تتعلق بكتابته

(1) المصدر نفسه: 14/1.

(2) ينظر المصدر نفسه: 13/1.

(3) المستصفي، أبو حامد الغزالي: ص 80.

(4) مختصر علوم القرآن، الرديني ص 12.

(5) التبيان في علوم القرآن، الصابوني ص 6.

(6) المصدر نفسه: ص 6.

(7) من هامش ميزان الأصول في نتائج العقول في أصول الفقه، علاء الدين شمس النظر أبو بكر

بكر السمرقندي، تحقيق: د. عبد عبد الرحمن الملك السعدي: مطبعة الخلود/ بغداد، ط 1/

1413-1998: ص 188.

(8) تقريب الوصول، ابن جزي: ص 110. تحقيق: عبد الله الجبوري. ط: 1410هـ-1990م،

بغداد.

بكتابته وكونه مدوّنًا في مصحفٍ كقولهم: (المكتوب في المصاحف)⁽¹⁾. وأدرجوا فيه عبارات تتعلق ببدايته ونهايته كقولهم: (المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس)⁽²⁾، وقولهم: (من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس)⁽³⁾. ولا تعني هذه القيود أن القرآن لم يكن قرآنًا قبل اكتمال نزوله، أو قبل كتابته في المصاحف، ونقله تواترًا، وإنما قصد من وضع له هذه القيود التعريف به لأهل زمانهم، ولمن يأتي بعدهم ممن لم يكونوا في زمن التنزيل وقبل جمعه في المصاحف⁽⁴⁾.

وأدرجوا فيه عبارات تتعلق بلغته، ونظمه كقولهم: (اللفظ العربي المنزل...)⁽⁵⁾ وأدرجوا فيه عبارات تتعلق بوظيفة القرآن التي أنزل لأجلها كقولهم: (للإعجاز بسورة منه)⁽⁶⁾ وقولهم: (المنزل للتدبر والتذكر)⁽⁷⁾. وأدرجوا فيه عبارات تتعلق بإعجازه كقولهم: المعجز، أو المتحدى بسورة منه، أو (المعجز بأقصر سورة منه)⁽⁸⁾، أو قولهم: (المتحدى بأقصر سورته)⁽¹⁾. وأدرجوا فيه عبارات تتعلق بأهم ما ما يميزه عن غيره من الكلام كقولهم: (المتعبد بتلاوته)⁽²⁾.

(1) التبيان في علوم القرآن، ص6 وغيره.

(2) المصدر نفسه: ص6.

(3) تعريف عام بالعلوم الشرعية، محمد الزحيلي: ص16. دار الكوثر/ الجزائر (د.ت)، والمدخل والمدخل للفقهاء الإسلاميين، د. حسن علي الشاذلي: ص423. دار الطباعة الحديثة. وغيرهما.

(4) ينظر التعريف بالقرآن والحديث، محمد الزفزاف ص16.

(5) تيسير التحرير 3/3.

(6) ينظر حاشية العلامة البناني على شرح الجلال شمس الدين بن أحمد المحلي على متن جمع الجوامع للإمام تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي: دار إحياء الكتب العربية/ مصر، (د.ت): 223/1. والمدخل للفقهاء الإسلاميين، د. حسن علي الشاذلي ص423.

(7) تيسير التحرير 3/3.

(8) الزحيلي

وهذا كله مع إشارة بعضهم إلى أن أكمل تعريف للقرآن هو إما إشارتك إلى المصحف وقولك: هو ما بين هاتين الدفتين⁽³⁾، أو أن تقرأ فتقول: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... -إلى قوله تعالى مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ). ثم تقول: هذا هو القرآن.

ثم إنني نظرت في تلك التعريفات وتأملت أغراض أصحابها؛ فرأيت أن أولف من مجموعها تعريفا جامعا يستوعب ما حوته من الفوائد، ويؤدي ما رمت إليه من الأغراض والمقاصد. فاستبعدت المكرر من الألفاظ، واخترت من العبارات أدقها وأعمها فائدة؛ فكان التعريف الآتي:

(القرآن وحي الله تعالى وكلامه القديم القائم بذاته، المنزل على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ) بوساطة الأمين جبريل عليه السلام، بلفظه العربي: نظما ومعنى وأسلوبا، للتحدي والإعجاز بأي سورة من سورته⁽⁴⁾، ولتدبره والتذكر والتذكير به⁽⁵⁾، المتعبد بتلاوته، المنقول عن النبي عليه الصلاة والسلام إلينا

(1) الإمام بأصول الأحكام، محمد فيض الله: ص18. ط1410/1هـ-1989م، دار التقدم/ الكويت.

(2) هذه العبارة كثيرة الاستعمال مع كونها من الأحكام التي لا تدخل في الحدود- لأنها قيد يُستبعد به كل ما اشتبه في كونه قرآنا. ينظر شرح المحلى على جمع الجوامع 223/1. والمدخل في فقه القرآن، فرج توفيق الوليد: دار الرسالة للطباعة/ بغداد، 1976-1977م: ص17.

(3) ينظر حاشية البناني على جمع الجوامع 225/1، مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص17، والمدخل في فقه القرآن ص14.

(4) عدلت عن استعمال عبارة (بأقصر سورة منه) التي استعملها صاحب (الإمام ص18)؛ لثلاث يتوهم السامع أن إعجاز القرآن مقتصر على الأقصر فقط وهي سورة الكوثر.

(5) انفرد بهذه العبارة ابن عاشور. ينظر تيسير التحرير 3/3.

بالقراءة المشهورة⁽¹⁾ نقلا متواترا بلا شبهة⁽²⁾، المكتوب ما بين دفتي المصحف⁽³⁾ المجمع عليه⁽⁴⁾ وما نسخ موافقا له⁽⁵⁾، بداية من سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس⁽⁶⁾.

(1) ينظر تقريب الوصول ص110. ومعنى (بالقراءة المشهورة) أي القراءات السبع المشهورة، ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي: 211/1. تحقيق: سيد الجميلي، ط1/1404هـ، دار الكتاب العربي، بيروت. والمستصفي ص81، وأصول السرخسي: 279/1.

(2) هي عبارة وردت في تعريف صاحب كشف الأسرار. ومفادها إما التأكيد على طريق التواتر، أو الاحتراز عن المشهور؛ لأنه عند بعضهم قسم من المتواتر، لكن مع شبهة. ينظر شرح نور الأنوار على المنار لملاحيون الصديقي الميهوي. المطبوع مع كشف الأسرار، لحافظ الدين النسفي: 17/1-19. دار الكتب العلمية/ بيروت. ط1/1406هـ-1986م.

(3) اخترت المصحف المجمع عليه بدل المصاحف لكون أكثر مصاحف اليوم فيها كلام زائد قبل نهاية النصوص القرآنية وبعدها؛ كالإرشادات وأحكام التجويد وتوثيق النسخ. والمصحف المجمع عليه خال من جميعها.

(4) أي مصحف الخليفة عثمان رضي الله عنه.

(5) أضفت هذه العبارة لأنني هنا في مقام التعريف، ولكون ذكر لفظ المصاحف محتملا لدخول ما كتب فيها من الزيادات، والإرشادات التي وضعت في بداية المصحف ونهايته في مسمى القرآن.

(6) هذا التعريف مستخلص من أكثر من عشرين تعريفا. ينظر مناهل العرفان 12/1-16، موجز في علوم القرآن، د. داود العطار: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت، ط2/1399هـ-1973م: ص11، التبيان في علوم القرآن ص6. مختصر علوم القرآن، الرديني ص11-12. التعبير الفني في القرآن ص11. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص17-18. تعريف عام بالعلوم الشرعية، الزحيلي ص16. المستصفي ص81. ميزان الأصول، ج1، بهامش ص188، تقريب الوصول ص59، كشف الأسرار 17/1. المدخل للفقه الإسلامي، الشاذلي: ص423. جمع الجوامع 223/1 وما بعدها. والمدخل في فقه القرآن ص14-17.

ويحمل هذا التعريف جملة الفوائد والاحترازاات والقيود الضرورية التي اشترطها أصحاب هذه التعريفات لصحتها.

ثم إنني نظرت في تلك التعريفات أنتقي أجزها لأجمع للقارئ الفائدةين⁽¹⁾ معا؛ فوجدت أجزها وأحكمها تعريف من حدّه بقوله: "القرآن كلام الله المنزل على محمد (ﷺ)، المتعبد بتلاوته"⁽²⁾؛ وهذا التعريف مع وجازته، مستوفٍ أهم الاحترازاات والقيود المشروطة التي أفادتها التعاريف مجتمعة. وهذا بيان ذلك:

فأما قوله (كلام) فهو جنس في التعريف يشمل كل كلام.

وفي قوله (كلام الله) تقييد لمطلق الكلام وحصر له فيما يتصل بالذات الإلهية المقدسة فقط، فيخرج بذلك كلام غير الله (ﷻ) من المخلوقات.

وقوله (المنزل) قيد يخرج به ما استأثر به تعالى من الكلام كما في قوله:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف: ١٠٩، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان: ٢٧.

وقوله (المنزل على محمد (ﷺ)) قيد يخرج به ما أنزل على الأنبياء والرسل السابقين وغيرهم، كالتوراة والإنجيل والزيور وغيرها.

وأما قوله (المتعبد بتلاوته) فهو قيد يخرج به قراءات الأحاد، والآيات المنسوخة لفظاً، والأحاديث القدسية. وهذا القيد يفيد الكثير من المعاني التي تفيدها عبارات متعددة في التعاريف الأخرى؛ إذ من مستلزماته أن يكون نقله متواتراً وبلا شبهة. وكذا أن يكون مكتوباً بين دفتي المصحف الذي حاز صفة الإجماع في عهد

(1) الفائدةان هما الإطناب للبيان، والإيجاز اقتصاراً على ما يحصل به الغرض وهو تمييز القرآن

من جميع ما عداه . ينظر المدخل في فقه القرآن ص15.

(2) مباحث في علوم القرآن، القطان ص17.

عثمان (رضي الله عنه)، وأن يكون مما بين أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وأن يكون معجزاً بأيٍّ من سورِهِ، وأن يكون بلفظه العربي لا ترجمة ولا تفسيراً⁽¹⁾.

المبحث الثاني - تعريف الله تعالى ورسوله (ﷺ) بالقرآن، ووصفهما إياه.
وقد اشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: - تعريف الله تعالى بالقرآن ووصفه إياه.

لا جرم أن مما تواضع عليه ذوو الألباب، أنه ما خطب أحدهم خطبة أو خط للناس من كتاب، إلا وهو أعرف الناس بما قال أو كتب، وأقدرهم على التعريف بكتابه، فمما لا شك فيه إذن، أن لا أحد أعرف بكتاب الله تعالى منه. وهذه نتيجة بيّنة إذا سلّمنا بها وجب علينا أن نلتزم أثق التعاريف بهذا الكتاب في كلام من أنزله.

وإذا عمدنا إلى القرآن الكريم نقرؤه ونتدبره؛ فإننا نجد الله (ﷻ) قد تكلم على كتابه الكريم، وتناوله بالتعريف والوصف في عدد من المواضع. وذلك على طريقة النظم القرآني الذي لا يخضع ولا يراعي القوانين الاصطلاحية الجدلية -التي تشترط مطابقة التعريف للمعرّف به، وكونه جامعاً مانعاً- وإنما يراعي سياق الكلام، وحال المخاطبين، وما يحتاج إليه المقام من الكلام.

سُئِلَ أحد العلماء⁽²⁾ ف قيل له: إن كان لكل كتاب ترجمة وعنوان يُعرف به؛ فأَي آية من كتاب الله تراها تصلح عنواناً للقرآن كله؛ بحيث إذا كتبت على ظهر المصحف كانت له تعريفاً كاملاً به، شاملاً لجميع معانيه الكلية التي يجدها المتصفح فيه كما تعرف الكتب الكبيرة بالجمال القصيرة، فكان جوابه على التوّ بهذه الآية

(1) ينظر المصدر نفسه، في الصفحة نفسها، والمصادر والمراجع السابقة نفسها.

(2) هو أبو الكرم المبارك بن فاخر البغدادي النحوي (431-505هـ)، له تصانيف: ينظر

سير أعلام النبلاء: 302/19-303، والبرهان في علوم القرآن 1/283.

الجامعة لوظائف هذا الكتاب: قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَولُئِلَآءِ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ إبراهيم: ٥٢. والآية الكريمة التي جعلت جوابا للسائل بيان إلهي معجز للحكم التي اقتضت نزول القرآن، والحكم التي نزل لبيانها. والمثل العليا للكمال الإنساني الذي دعا إليه القرآن. متدرجة في وضعها البياني تدرجها الطبيعي من نفس سامعها: بلاغ فإنذار فعلم فتذكر^(١).

وأجاب بعضهم في هذا السياق بآيات أخر، جامعة لوظائف القرآن أو لبعضها؛ منها قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ آل عمران: ١٣٨، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَصَٰئِرٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾ الجاثية: ٢٠، وقوله (عَلَى): قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝١٧﴾ لَمَن شَاءَ مِنكُم أَن يُسَتَقِيمَ ۝٢٨﴾ التکویر: ٢٧ - ٢٨ وقوله أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿ الرَّاكِبِ ۝٢٨﴾ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ إبراهيم: ١.

وفي القرآن -إلى جانب هذه الآيات- آيات أخر، تصف كتاب الله أبلغ الوصف كقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ يونس: ٥٧. وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ المائدة: ١٥ - ١٦، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝١٧٤﴾ النساء: ١٧٤. وهذه الآيات الكريمات وإن

(١) ينظر تصدير الشيخ البشير الإبراهيمي لتفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس المعروف بمجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص ١٧. وزارة الشؤون الدينية، دار البعث للطباعة والنشر/ قسنطينة - الجزائر. الطبعة الأولى - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢.

كان فيهن تنوع، وبينهن تفاوت في الإحاطة والبيان؛ فإن لكل جملة تزيد في آية موقع دلالة، ولكل كلمة تزيد في جملة معنى وحالة⁽¹⁾.

فإذا سأل السائل عن مصدر هذا القرآن أجيب بقوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنكَ لَتَلَقِيَ الْفُرَاتَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٦) النمل: ٦. وقوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) يونس: ٣٧.****

وإذا سأل عن سبب نزوله أجيب بقوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (١٩) الأنعام: ١٩. ومن سأل عن فائدة هذا الكتاب أجيب بقوله **ﷺ: **قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١) الإسراء: ٩، وقوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢) النحل: ١٠٢.********

ومن سئل عن حقيقة قدر هذا الكتاب أجاب بقوله **(ﷺ): **قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُسْفًا مُّثَصِّدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١) الحشر: ٢١. ومن عظمة هذا الكتاب أن الله **ﷻ جعل فيه الحجة والبرهان الكافي على صدق دعوى نبيه (ﷺ) على أنه من عند الله فقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) العنكبوت: ٥١، ومن علامات ذلك التسامي في العظمة عجز الثقلين مجتمعين عن الإتيان بمثله أو بمثل إحدى سورته، قال **(ﷺ): **قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّنَّ أَجْمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ************

(1) ينظر المصدر نفسه: ص 17.

لِبَعْضِ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ الإسراء: ٨٨، وقال لمن قد يرتاب في ذلك: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ البقرة: ٢٣. وقال أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ يونس: ٣٨.

وإذا سئل عن موقع هذا الكتاب من الكتب السماوية السابقة وموقفه منها أجيب بقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣١﴾ فاطر: ٣١، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ﴿٤٨﴾ المائدة: ٤٨. فهو موقف المصدق، وموقع المهيمن.

ومن سأل عما يحتويه هذا الكتاب من العلم؛ أجيب بقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ النحل: ٨٩. ففيه بيان لكل ما للناس به حاجة في سير أمور دنياهم وأخراهم^(١). ووصف علومه بأعلى مراتب اليقين بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿٥١﴾ الحاقة: ٥١.

فإن قيل: بم يفيد الإرسال بكتاب وقد حرقت الكتب التي جاء مصدقا لها؟ يقال: إنما حرقت تلك الكتب لأن الله تعالى بعث بها إلى أقوام مخصوصين وأوكل أمر حفظها إليهم^(٢) كما قال في التوراة: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ

(١) قال ابن مسعود (أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بين لنا في القرآن) ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 162/14.

(٢) ذكر القرطبي هذا القول مع هذا الاستشهاد، ونسبه إلى سفيان بن عيينة. ينظر الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله (ت 671هـ)، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني: دار الشعب/ القاهرة، ط 1372/2هـ: 5-6/10.

وَكَاثُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءٌ ﴿٤٤﴾ المائدة: ٤٤. أمّا القرآن فقد بعث الله به إلى الناس كافة، وتكفل سبحانه وتعالى بجمعه وقرأته وتلاوته وبيانه وحفظه بنفسه؛ كما قال: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْفَعْ قُرْآنَهُ، ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. ﴿١٩﴾ الْقِيَامَةُ: ١٧ - ١٩﴾ وكما في قوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ الْحَجَر: ٩. فهذه - إذن - طريقة القرآن في التعريف بنفسه.

المطلب الثاني: تعريف الرسول (ﷺ) بالقرآن ووصفه إياه.

تسابق أهل الفصاحة والبلاغة والمناطق في التعريف بالقرآن ووصفه، وسرد محاسنه وفضائله، فما بلغوا ما أثيرَ عَنْ جوامع الكلم (ﷺ) من قوله: "كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم^(١)، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم^(٢)، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه^(٣)، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴿٢﴾﴾ الجن: ١ - ٢ من قال به صدق، ومن عمل به

(١) أخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قوله: "من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين." سنن سعيد بن منصور 9/1.

(٢) ومصادق هذه العبارات قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ الطارق: ١٣ - ١٤، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾﴾ آل عمران: ٣ وغير ذلك من الآيات.

(٣) هذه العبارات وردت في الحديث الصحيح الذي سيأتي ذكره. ينظر المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري (321-405)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا: ط1/ 1411-1990، دار الكتب العلمية/ بيروت: 741/1.

أَجِرْ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم." (1)، وقد أخرج مسلم ما يقارب معناه فروى عن النبي (ﷺ) أنه قال: "كتاب الله فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضل" (2). وأخرج الحاكم عن النبي (ﷺ) من طريق ابن مسعود أنه قال: "إن هذا القرآن مآدبة الله فاقبلوا من مآدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه. لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تتقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد. اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف" (3).

فالقرآن إذن هو المخرج من الفتن. ومحتواه يفي بحاجة الناس من معرفة ماضيهم، وأخبار مستقبلهم، وأحكام حاضرهم. وهو قول فصل وكلام جد لا هزل فيه. ومصير كل من أعرض عنه الهلاك والخذلان إذ هو الطريق الوحيد إلى الله.

(1) الحديث أخرجه الترمذي في سننه؛ الجامع الصحيح، باب فضائل الأعمال (5/158-159)، ورقمه: (2906). وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وفي إسناده مجهول. وهو في مسند البزار 72/3، وسنن النسائي 526/2، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد على أنه جواب جبريل عن سؤال النبي (ﷺ) عن المخرج من الفتنة التي ستقع فيها الأمة. ينظر تاريخ بغداد 321/8. وقال الحافظ ابن كثير: "الحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده... وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وقد وهم بعضهم فرفعه، وهو كلام حسن صحيح". فضائل القرآن ص5.

(2) أخرجه مسلم؛ صحيح مسلم (4/1874)، في كتاب فضائل الصحابة ورقمه: (4425).

(3) رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عنه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر. المستدرک على الصحيحين 741/1. وينظر الترغيب والترهيب، المنذري 231/2. ورواه سعيد بن منصور والطبراني موقوفا على ابن مسعود. ينظر سنن سعيد بن منصور 48/1، والمعجم الكبير 130/9.

وهو الذكر الحكيم المحفوظ من التغيير، والميسر للتلاوة والفهم مع فتوته الدائمة، وعجائبه الباهرة التي أخذت بألباب الجان فضلاً عن عقلاء الإنس. وهو منبع الحقائق المطلقة. وفي هذا القرآن تجليات لبعض أوصافه تعالى فهو تعالى الخافض والرافع وقد جعل ذلك من أوصاف كتابه فعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: "أما إن نبيكم (ﷺ) قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين"⁽¹⁾. فهو المرقاة لمن طلب المعالي.

المبحث الثالث - مكانة القرآن عند أهل العلم وكلامهم عنه.

لم يحظَ كتاب في تاريخ البشرية بمثل ما حظي به القرآن، فسُلِّطت عليه أضواء البحث حباً فيه أو كيدا له ولأهله، وأعملت فيه الأقلام والقراطيس مدحا أو قدحا، واحتل الصدارة والأولوية في الاهتمام في الدراسات الإسلامية والاستشرافية على السواء، وبمختلف وجهاتها. وفيما يأتي شيء مما قاله فيه هؤلاء وهؤلاء، ونُبِّذاً عن مكانته عندهم، في المطالب الآتية:

المطلب الأول: مكانة القرآن عند المسلمين وكلامهم عنه.

لا يتسنى لي في هذا المقام أن أحيط بكل ما حظي به القرآن من المدح والوصف والمكانة العالية، عند أهل الإسلام. فلا هو متيسر لأحد تفرغ له، ولا هو من مقاصد هذه الأطروحة، ولكنني أُدرج بعض ما بوأه تلك المكانة، وأكسبه كل ذلك الاهتمام. مورداً شيئاً مما قيل فيه من العبارات البليغة، مختصراً غاية الاختصار.

⁽¹⁾ جامع الأصول، ابن الأثير: 507/8. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط - دار البيان/ دمشق.

إن القرآن كلام الله وخطابه العلوي الذي خاطب به عباده؛ وذلك كاف لأن يشدّ إليه أنظار النظّار، وتُملأ بمصاحفه الأمصار، وتكتب في تعريفه ومدحه الرّسائل والأسفار. وتتداوله الصدور بالحفظ، والألسنة بالذكر آناء الليل وأطراف النهار، فذلك مما حثّ عليه سيد الأنام (ﷺ)، ونبّه أنه من حقّه، وقال إن "فضل القرآن على سائر الكلام، كفضل الله على خلقه" (1). ولا عجب في ذلك فهو معجزة هذا الدين، وحجّة الخالق على العالمين. وفخر سيّد المرسلين إذا حشر الله الأولين والآخرين؛ قال (ﷺ): "ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" (2).

وهو الهداية المهداة، والذكر الموعود لآدم وذريته في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٣٨. فهو -على ذلك- أعظم مصادر المعرفة السمعية عند المسلمين على الإطلاق. وهو الركن الركين الذي تستند إليه جميع المصادر التشريعية الأخرى، قال الشاطبي: "هو أصل الأصول والغاية التي تنتهي إليها أنظار النظّار، ومدارك أهل الاجتهاد. وليس وراءه مرمى؛ لأنه كلام الله القديم قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ النجم: ٤٢، وقد قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل: ٨٩، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ

(1) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، وقال عنه: حسن غريب. الجامع الصحيح، الترمذي: 184/1.

(2) صحيح البخاري: 4/1905، و6/2654.

مِنْ شَيْءٍ ﴿٣٨﴾ الأنعام: ٣٨^(١). ففيه الخير كلّهُ، والحق كلّهُ، والعلم كلّهُ؛ قال ابن مسعود (رضي الله عنه): "إذا أردتم العلم فانثروا القرآن، فإنّ فيه علم الأولين والآخرين"^(٢). وقال ابن عباس (رضي الله عنه): "جمع الله في هذا الكتاب علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وعلم ما يكون، والعلم بالخالق جلّ جلاله، وأمره وخلقه..^(٣)".

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه): "من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنّه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أحدا من خلق الله أعطي أفضل مما أعطي فقد حقّر ما عظم الله، وعظم ما حقّر الله..^(٤)".

وجاء من جاء بعدهم من علماء الأئمة؛ فما خلت لهم فرصة إلا أشادوا به وعظّموه وأغدقوا عليه بالإطراء شعرا ونثرا^(٥)، وقد اكتفيت هنا بإيراد كلمات جامعات في التعريف بالقرآن ووصفه شداً بها أسير أنوار القرآن؛ العلامة بديع الزمان النورسي قال: "إن قلت القرآن .. ما هو؟

قيل لك: هو الترجمة الأزليّة لهذه الكائنات، والترجمان الأبديّ لألسنتها التاليات للآيات الكونية، ومفسّر كتاب العالم.

(١) الموافقات في أصول الفقه، أبو إسحاق الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت790)، تحقيق عبد الله دراز: دار المعرفة/بيروت: 43/3، وينظر المدخل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل، ابن بدران: ص196، وأصول الفقه الإسلامي في نسجه الجديد، الزلمي: ص18.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي: 498/1. دار الفكر/دمشق، ط2/1400هـ-1980م.

(٣) جامع الأصول 464/8-465.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک: 552/1، وهو في كتاب الزهد، عبد الله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي: دار الكتب العلمية/بيروت: 275-276.

(٥) ينظر مقدّمات التفاسير، وكتب فضائل القرآن وعموم الدّراسات القرآنية؛ فقليل ما يخلو أحدها من وصف ومدح للقرآن كثيراً كان أم قليلاً.

وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض.

وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات.

وكذا هو لسان (الغيب) في عالم (الشهادة).

وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية.

وكذا هو أساس العالم المعنوي الإسلامي وهندسته وشمسه. وكذا هو خارطة للعالم الأخرى.

وكذا هو قول شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع، وترجمان ساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.

وكذا هو مربى للعالم الإنساني... وهو أيضا كالماء والضيء للإنسانية الإسلامية الكبرى.

وكذا هو الحكمة الحقيقية للبشرية، وهو المرشد المهدي إلى ما خلق له البشر.

وكذا هو للإنسان كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر. وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة، تشبع جميع حاجات الإنسان المعنوية. وكذلك هو كمنزل مقدس، مشحون بالكتب والرسائل، حتى إنه قد أبرز -لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين- رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره.. حتى كأنه مجموع رسائل..⁽¹⁾.

(1) مختارات من المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي، اختارها وقدم لها أديب إبراهيم الدباغ: مطبعة الزهراء الحديثة/ الموصل - العراق، ط1/ 1404هـ - 1983م: ص87.

المطلب الثاني: مكانة القرآن عند غير المسلمين وكلامهم فيه.

أما من مدحه من غير أهله فقيما هوى الوليد بن المغيرة -وهو أحد صناديد قریش وفُصحائهم- تحت سطوة القرآن، وسحر بلاغته ونظمه، فردّ على من طلب منه -من قومه- الإنكار على النبي (ﷺ)، والطعن في الوحي بقوله: "ماذا أقول فيه فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا قصيده، ولا بأشعار الجنّ مني. والله ما يشبه الذي يقول شيء من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يُعلى"⁽¹⁾. فما وجد بعد ذلك أن يجاملهم به إلا أن رماه بالسحر: قَالَ

عَالِي: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤) المذثر: ٢٤

ومضى الزمان على تلك الصرعات المتوالية لجهاذة الذوق أمام عظمة القرآن ووقعه في النفوس، حتى غدا قبلة للدراسات الاستشرافية على مختلف وجهاتها، واحتلّ الصدارة والألوية في الاهتمام؛ باعتباره كتاب الإسلام الأول، وسوره العازل.

فهاهو ذا المستشرق الألماني (يوحان يعقوب رايس) يتكلم مرّة أخرى -على الذين يستهزئون بالقرآن من بني قومه فيقول: "ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة الفصيحة، والعظيمة المؤثرة، وأحسّوا باللسان المحير للألباب الذي استخدمه الرّسول حين أفهم القرآن أصحابه، لوقعوا في الحضرة الإلهية ساجدين صائحين: يا رسول الله أغثنا، ولا تحرمنا من شرف الدّخول في أمّتك"⁽²⁾.

(1) تفسير القرآن، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (126-211)، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد: ط1/ 1410هـ، مكتبة الرشد/ الرياض: 3/ 328. وينظر جامع البيان 29/ 157، والدر المنثور، السيوطي: 8/ 330، دار الفكر/ بيروت، ط: 1993م.

(2) في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك: ص28. المكتب المصري الحديث/ القاهرة.

وهاهو ذا آخر يشيد باحتفاظه ببهائه وعذوبة أسلوبه -على الرغم من توالي القرون عليه- فيقول: "حسب القرآن جلّالا ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التي مرّت عليه لم تستطع أن تجفّف -ولو بعض الشيء- من أسلوبه الذي لا يزال غضّا وكأنّ عهدها بالوجود أمس"(1).

ولقد ولّد ذلك الإعجاب رعبا وإحساسا بالخطر العظيم في قلوب بعضهم، فعمدوا إلى تشديد الرقابة عليه، والترّصّ بحملته ومتدبّريه؛ قال الدكتور (واطسون) -أحد قادة التّصير في بلاد المسلمين-: "وإنّا نراقب سير القرآن في المدارس الإسلامية، ونجد فيه الخطر الداهم، ذلك أنّ القرآن وتاريخ الإسلام، هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التّبشير"(2). بل يرى فيه بعضهم الحاجز المنيع لانخراط العربي في سلك حضارتهم؛ يقول (وليم جيفورد بالكراف): "متى توارى هذا القرآن ومدينة مكّة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرّج في طريق الحضارة الغربية بعيدا عن محمّد وكتابه"(3).

قال الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مئة سنة على احتلالها: "إنّا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلّمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم"(4). وقد صدّقهم ظنّه؛ فخرجت فرنسا من الجزائر، ووقف بعد ذلك وزير المستعمرات الفرنسي

(1) المصدر نفسه ص28.

(2) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون، أنور الجندي: ص26. دار الاعتصام/ القاهرة، سلسلة في دائرة الضوء.

(3) جذور البلاء، عبد الله التل: ص201. المكتب الإسلامي/ بيروت، ط2/ 1978م.

(4) قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم: ص31. ط2/ 1395هـ... عن مجلّة المنار، عدد 1962/11/9م.

(لاكوست) أمام قومه مُخرجاً من فشل سياسته فيها وقال: "ماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا"⁽¹⁾.

بل يرى فيه (كلادستون) -رئيس وزراء بريطانيا- الخطر المحدق بهم مستقبلاً فيقول: "ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق الإسلامي، ولا أن تكون هي نفسها بأمان"⁽²⁾. ولعلّ هذا ما دعا وزير المستعمرات البريطانية (اللورد كرومر) إلى أن يعلنها حرباً صريحة فيقول: "جئت -إلى مصر- لأمحو ثلاثاً: القرآن، والكعبة، والأزهر"⁽³⁾.

هذا ما بلغته رهبة القرآن، وتلك سطوته على تلك النفوس المريضة. وإذا عرّجنا على أقوال عقلائهم وبعض فلاسفتهم عرفنا سرّ كل تلك الرّهبة، وتبيناً حقيقة ما يشدهم إليه. وفيما يأتي شيءٌ من ذلك:

قال (ستيفنس) في تعريف القرآن: "هو سجلّ جامعٌ لأسس الأخلاق والعقائد، الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية في حياتهم"⁽⁴⁾.

وقال الفيلسوف الفرنسي (ألكس لوازون) في كتابه (حياة محمد): "خلف محمد للعالم كتاباً؛ هو آية البلاغة، وسجلّ الأخلاق، وكتاب مقدّس، وليس بين المسائل العلمية التي كشفت حديثاً، أو المخترعات الحديثة، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية .. فالانسجام تام بين تعاليم القرآن، والقوانين الطّبيعية، مع ما نبذله من المساعي للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطّبيعية"⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه ص 51.

(2) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد: ص 41. ترجمة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين/

بيروت- ط: 1398هـ.

(3) الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون ص 29.

(4) في رحاب التفسير ص 27.

(5) المصدر نفسه ص 27.

وقال المؤرخ الإنكليزي الشهير (ويلز آن): "إن الديانة الحقّة التي وجدتها تسير مع المدنية أنّى سارت هي الديانة الإسلامية، وإذا أراد إنسان أن يعرف شيئا من هذا فليقرأ القرآن وما فيه من نظريّات علمية، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، فهو كتاب علمي ديني اجتماعي، تهذيبي خلقي، تاريخي، وأكثر أنظّمته وقوانينه تستعمل حتّى وقتنا الحالي، وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة"⁽¹⁾.

ويقول (جيمي منتشيز): "لعلّ القرآن هو أكثر الكتب التي تُقرأ في العالم، وهو بكلّ تأكيد- أيسرها حفظا، وأشدّها أثرا في الحياة اليوميّة لمن يؤمن به، فليس طويلا كالعهد القديم... ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه، وتزداد إيماننا وسموّا، ومن الملاحظ أنّ القرآن يتّسم بطابع علمي متعلّق بالمعاملات بين الناس، وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد، وبين التعلّيم العمليّة جعل القرآن كتابا فريدا، أو وحدة متماسكة"⁽²⁾.

ويقول (كارليل) -وهو من أساتذة جامعة كمبردج-: "إنّ علوية القرآن في حقيقته العالية، فهو حافل بالعدل والإخلاص، والدّعوة التي بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة"⁽³⁾.

وقال (هيرشفيلد): "وليس للقرآن مثيل في قوّة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضل في ازدهار العلوم بكافّة نواحيها في العالم الإسلامي"⁽⁴⁾.

وقال (توماس كارليل): "إنّي لا أحفل كثيرا بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد؛ لأنّي أرى لها في الإنجيل شبيها، ولكنني شديد الإعجاب بالنظر

(1) التربية في كتاب الله، محمود عبد الوهاب فايد: ص52-53، دار الاعتصام/ القاهرة - ط5/ 1398هـ.

(2) في رحاب التفسير ص28.

(3) المصدر نفسه: ص27.

(4) التربية في كتاب الله ص52-53.

الذي ينفذ إلى أسرار الأمور، فهذا أعظم ما يلذني ويعجبني، وهو ما أجده في القرآن، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"⁽¹⁾.

إذن فقد وجدوا فيه ما افتقدوه في عهديهم القديم والجديد، وما عجزوا عن الإتيان به من الاطمئنان في تشريعات قوانينهم المتناسخة يوما بعد يوم. فوجدوا فيه الانسجام التام مع الحقائق العلمية الحديثة، والمسايرة المرنة لمقتضيات التطور الحاصل في المدنية المعاصرة، ووجدوه جامعا لحاجات المجتمع، ووجدوا فيه العدل والإخلاص، والأثر الطيب في القلوب، ووجدوا فيه التحليل العميق، والتوفيق العجيب بين تحقيق العبودية لخالق الكون مع التعامل الحسن في دنيا الناس؛ فلا فجور المادية، ولا حرمان الرهبانية. ورأى فيه أكثرهم السر الكبير في ما بلغته الحضارة الإسلامية.

المبحث الرابع- نبذة عن تاريخ القرآن، وبنيته.

درج المؤلفون في تاريخ القرآن الكريم وعلومه على التأريخ لتدوينه وقد استحسنت أن أضع هنا خلاصة أقوالهم عن تاريخ جمع القرآن الكريم وكيف أخذت تلك النصوص مواقعها من هذا الكتاب الكريم بما يخدم هذا الموضوع ومما له علاقة به، في المطالب الآتية:

المطلب الأول: نزوله.

من خصائص هذا الكتاب العظيم أنه لما تعلقت إرادة الله تعالى بأن يرحم عباده ويمنّ عليهم بالهداية أنزل قرآنه إلى بيت عزته في السماء الدنيا جملة واحدة في ليلة مباركة من ليالي شهر رمضان الكريم، قال عز وجل: **قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ**

⁽¹⁾ مقاصد القرآن، محمد الصالح الصديق. ط1/ 1375هـ - 1955م. المطبعة العربية/ الجزائر:

الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾ البقرة: ١٨٥، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٢﴾﴾ الدخان: ٣. وقال ينوء بشأن تلك الليلة: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ القدر: ١ - ٣، ثم أخذ جبريل عليه السلام ينزل به على رسول الله (ﷺ) مفزقا بعضه في إثر بعض^(١) على امتداد ثلاث وعشرين سنة فمناه ما نزل بمكة ومناه ما نزل بالمدينة ومناه ما نزل بغيرهما. ومناه ما نزل ليلا ومناه ما نزل نهارا. وكل ذلك لحكم قررها تعالى بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ الإسراء: ١٠٦. وقد استغرب الكفار هذه الطريقة في نزول كتاب الله واستكروها لكونها على غير ما ألفوه من أخبار نزول الكتب السابقة جملة واحدة. قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَلَحْسَنَ تَفْسِيرٍ ﴿٢٣﴾﴾ الفرقان: ٣٢ - ٣٣.

هذا ولم يكن نزول القرآن على ترتيب التلاوة المثبت في مصاحفنا اليوم وإنما كان ينزل ما ينزل من الآيات فيأمر بها النبي (ﷺ) أن توضع في مكان معين؛ قال عثمان بن عفان (رضي الله عنه) كان رسول الله (ﷺ) "يأتي عليه الزمان تنزل عليه السور

(١) قال الزركشي عن هذا القول بأنه الأشهر والأصح، وأنه مذهب الأكثرين، وأيده بما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين. ينظر مستدرك الحاكم: 222/2، والبرهان في علوم القرآن 228/1.

ذوات عدد فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا"⁽¹⁾.

ومن خصائص نزول القرآن أيضا أن الله تعالى أنزله على سبعة أحرف كما قال (ﷺ): "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه"⁽²⁾. وذلك تيسيرا وتوسعة على الأمة كما في حديث جبريل عليه السلام أنه أمر النبي (ﷺ) فقال: "إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد فقال (ﷺ): أسأل الله المعافاة والرحمة، إن ذلك ليشق على أمتي ولا يستطيعونه. ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين، فقال له مثل ما قال في الأولى حتى انتهى إلى

(1) المستدرک علی الصحیحین، الحاكم: 241/2، وصحيح ابن حبان: 321/1، وانظر البرهان: 234/1-235.

(2) خبر الأحرف السبعة ثابت في السنة الصحيحة، انظر صحيح البخاري: 1177/3، وصحيح مسلم: 562/1، وغيرهما، فلا خلاف في ثبوته، وإنما جرى الاختلاف في المقصود من تلك الحروف، والأسلم في مثل هذه المسائل هو الرجوع إلى الثابت في المسألة وهو أن الخبر ثابت، وأن الغاية والقصد منها هو التيسير والتوسعة على الأمة. قال أبو عمرو الداني: "وأما وجه إنزال القرآن هذه السبعة أحرف وما الذي أراد تبارك اسمه بذلك فإنه إنما أنزل علينا توسعة من الله تعالى على عباده ورحمة لهم وتخفيفا عنهم عند سؤال النبي (ﷺ) إياه لهم ومراجعته له فيه لعلمه (ﷺ) بما هم عليه من اختلاف اللغات واستصعاب مفارقة كل فريق منهم الطبع والعادة في الكلام إلى غيره فخفف تعالى عنهم وسهل عليهم بأن أقرهم على مألوف طبعهم وعادتهم في كلامهم". الأحرف السبعة للقرآن، أبو عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني (371-444)، (مكتبة المنارة/ مكة المكرمة، ط1/ 1408، تحقيق د. عبد المهيمن طحان: ص31.

سبعة أحرف. قال: فمن قرأ بحرف منها فقد أصاب". ويمكن أن تكون هذه السبعة أوجه من اللغات فلذلك أنزل القرآن عليها⁽¹⁾.

المطلب الثاني: كتابته وجمعه.

لقد تكفل الله تعالى بجمع القرآن في صدر نبيِّنا محمد (ﷺ) وحفظه من التبديل فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ^(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. ^(١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْفَعْ قُرْآنَهُ. ^(١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. ^(١٩) ﴿القيامة: ١٦ - ١٩﴾، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(٢٠) الحجر: ٩. وقد اقتضت حكمته تعالى أن يهيئ لهذا الجمع وذلك الحفظ أسبابهما؛ فكان أن اتخذ النبي (ﷺ) من بعض أصحابه كتبةً للوحي يأمرهم بتدوين ما ينزل إليه منه. وأشهر من انتدب لذلك الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبان بن سعيد وثابت بن قيس وحنظلة بن الربيع وخالد بن سعيد ابن العاص؛ فكانوا يكتبون القرآن على ما توافر لديهم من العصب واللخاف والرقاع والأكتاف والأقتاب والكرانيف⁽²⁾ وغيرها من وسائل الكتابة آنئذ. فكان النبي (ﷺ) "إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتبه فقال ضعوا هذه الآيات في

(1) ينظر المصدر نفسه: ص32، وينظر هذا القرآن فأين المسلمون منه؛ محمد زكي الدين محمد قاسم: دار البحوث العلمية/ الكويت، ط1/1408هـ-1987م: ص45-46 و49-52.

(2) العصب: جمع عسيب، وهو جريد النخل بعد تجريده من الخوص، يكتب على الطرف العريض منه. ينظر لسان العرب؛ مادة (ع س ب) 599/1. اللخاف: حجارة بيض عريضة رقاق. ينظر لسان العرب؛ مادة (ل خ ف) 28/8، و315/9. الرقاق: جمع رقعة وتكون من الجلد أو من الورق. ينظر مختار الصحاح؛ مادة (ر ق ع) 106/1. الأقتاب: جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه. ينظر لسان العرب؛ مادة (ق ت ب) 661-660/1. الكرانيف: جمع كرنافة، وهي أصول سعف النخل الغليظ الملتزق بجذوعها. ينظر لسان العرب؛ مادة (ك ر ب) 297/9.

السورة التي يذكر فيها كذا وكذا⁽¹⁾ والتحق النبي (ﷺ) بربه والقرآن على حاله قد استظهرته الصدور، واحتوته السطور، وكان لكل صحابي حظه من الحفظ والكتابة. فلما ولي الصديق (رضي الله عنه) ونشبت حرب الردة أشار عليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يجمع ما كتب من القرآن في مصحف واحد وحبب له ذلك فانتدب لذلك زيد بن ثابت.

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال: "أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ) فقال عمر: والله إن هذا خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك وقد رأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد: وقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا أتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ﷺ) فتتبع القرآن واجمعه قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل على مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ) فقال: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر التوبة: ﴿لقد جاءكم... الآية مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل النبي (ﷺ) شهادته بشهادة رجلين لم أجدها مع أحد غيره، فألحقها في سورتها فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى قبض ثم عند حفصة بنت عمر⁽²⁾. فكان ذلك هو الجمع الأول للقرآن، وبقي الأمر مقتصرًا على ذلك القدر لأن جل اعتماد المسلمين كان على حفظهم.

(1) البرهان في علوم القرآن 1/234-235.

(2) صحيح البخاري في باب جمع القرآن: 4/1907، و4/1720، وينظر البرهان: 1/233-234.

فلما ولي عثمان (رضي الله عنه) واتسعت بلاد الإسلام واعتنقه الأعاجم دب اللحن إلى قراءة القرآن فكان هذا مسوِّغاً كافياً لقيامه رضي الله عنه بجمع المسلمين على مصحف واحد.

روى البخاري في صحيحه عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة وقال حذيفة لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. قال عثمان للرهب القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم؛ ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل في كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق⁽¹⁾.

قال الزركشي: "واعلم أنه قد اشتهر أن عثمان هو أول من جمع المصاحف وليس كذلك لما بيناه بل أول من جمعها في مصحف واحد الصديق ثم أمر عثمان حين خاف الاختلاف في القراءة بتحويله منها إلى المصاحف"⁽²⁾.

قال البيهقي: "وقد روينا عن زيد بن ثابت أن التأليف كان في زمن النبي (ﷺ) وروينا عنه أن الجمع في المصحف كان في زمن أبي بكر والنسخ في المصاحف في زمن عثمان وكان ما يجمعون وينسخون معلوما لهم بما كان مثبتاً في صدور

(1) المصدر نفسه: 236/1.

(2) المصدر نفسه: 235/1.

الرجال وذلك كله بمشورة من حضره من الصحابة وارتضاه علي بن أبي طالب وحمد أثره فيه⁽¹⁾.

وأما عن الفرق بين ما قصد إليه الخليفان في فعل كل واحد منهما فيقول القاضي أبو بكر في الانتصار: "لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروضة على النبي (ﷺ)، وإلغاء ما لم يجر مجرى ذلك، وأخذهم بمصحف عثمان لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه، ومفروض قراءته وحفظه. وتسليم ما في أيدي الناس من ذلك كما لما فيه من التخليط والفساد، خشية دخول الشبهة على من يأتي بعد"⁽²⁾.

وهكذا يكون عثمان (رضي الله عنه) قد درأ مفسدة عظيمة، بجمعه المسلمين على رسم مصحف مجمع عليه.

ثم لما ولي زياد بن أبي سفيان (رضي الله عنه) على العراق كلف أبا الأسود الدؤلي بوضع علامات الإعراب على شكل نقط حسما للخطأ في قراءة القرآن. ثم وضعت النقط بعد ذلك على الحروف لتمييز بعضها من بعض. ثم ذلك في عهد الحجاج ابن يوسف الثقفي الذي كلفه الخليفة عبد الملك بن مروان بذلك فأُسند المهمة إلى نصر بن عاصم⁽³⁾ ويحيى بن يعمر⁽¹⁾. وكانت الخطوة الأخيرة إعادة تشكيل المصحف على الطريقة التي كان قد وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي⁽²⁾.

(1) البرهان في علوم القرآن: 235/1. نقله عنه الزركشي في البرهان ولم يذكر اسم كتابه الذي نقله عنه.

(2) الانتصار للقرآن، الباقلاني، تحقيق د. محمد عصام القضاء: دار ابن حزم/ بيروت، ودار الفتح عمان، ط 1/ 1422-2001: 65/1.

(3) هو نصر بن عاصم الليثي ويقال الدؤلي البصري النحوي قرأ القرآن على أبي الأسود الدؤلي وسمع من مالك بن الحويرث وأبي بكره الثقفي،.. ويقال إنه أول من نقط المصاحف وخمسها

المطلب الثالث: نقله.

لقد خصَّ الله تعالى كتابه الكريم بأقوى طرق نقل الأخبار وأكثرها يقينية فيسر الله له من ينقله إلينا إذ تناقلته الجموع الكبيرة عن أمثالها من عهده (ﷺ) إلى عصرنا الحاضر؛ فتهيأ له بذلك من العناية والحفظ ما لم يُقدَّر لأي كتاب في التاريخ.

يقول ابن حزم الأندلسي في صفة نقل المسلمين لكتابهم ودينهم: "إن نقل المسلمين لكل ما ذكرنا - أمور دينهم - ينقسم أقساماً ستة أولها شيء ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جيلًا لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهد وهو القرآن المكتوب في المصاحف في شرق الأرض وغربها لا يشكون ولا يختلفون في أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به وأخبر أن الله عز وجل أوحى به إليه وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا..."⁽³⁾.

وعشرها، وقال خالد الحذاء هو أول من وضع العربية، وتوفي قديماً قبل سنة مئة. ينظر معرفة القراء الكبار: 71/1.

(1) يحيى بن يعمر (ويعمر بفتح الياء المثناة من تحتها والميم وبينهما عين مهملة) النحوي أبو سليمان وقيل أبو سعيد يحيى بن يعمر العدواني الوشقي النحوي البصري كان تابعياً وهو أحد قراء البصرة وانتقل إلى خراسان وتولى القضاء بمرور وكان عالماً بالقرآن الكريم والنحو ولغات العرب وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، وذكروا أن ابن سيرين كان له مصحف منقوط نقطه يحيى بن يعمر.. وتوفي سنة (129هـ). ينظر وفيات الأعيان وأنباء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق د. إحسان عباس: دار الثقافة/ بيروت، ط: 1960م: 173/6، و175، ومشاهير علماء الأمصار، محمد بن حبان البستي، تحقيق م. فلايشمهر: دار الكتب العلمية/ بيروت، ط: 1959م: 126/1.

(2) ينظر هذا القرآن فأين المسلمون منه ص 60-64.

(3) الفصل في الملل والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم. 67/2.

ولقد أقرَّ كثيرٌ من علماء الغرب بصحة نقل القرآن، وأبدوا عجبهم الشديد مما قُدِّرَ لهذا الكتاب من العناية. من قبيل ذلك ما تحدّثت به د. فاغليري عنه فقالت بأنه: "الكتاب المقدّس الذي لم يصبه تحريف أبداً،... ذلك الكتاب الذي لا يبلى بل يبقى كما أنزله الله على نبيه البدوي البسيط آخر الأنبياء والمرسلين، إنه إلى ذلك النبع النقي سيعود المسلمون"⁽¹⁾.

المطلب الرابع: بنيته.

أول ما ينبغي أن يعلم هو أن القرآن آيات⁽²⁾ وسور⁽³⁾؛ وقد استعمل القرآن هذين الاصطلاحين للدلالة على أجزائه وأبعاضه؛ قال تعالى في إحدى سورته: قَالَ تَعَالَى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النور: ١. وقد

(1) تفسير الإسلام، د. فاغليري ص36. ينظر المستشرقون والقرآن الكريم، محمد بهاء الدين حسين: رسالة ماجستير/ 1993م. كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد، إشراف د. عبد الستار حامد الدباغ: ص153-154. وينظر هذا القرآن فأين المسلمون منه ص53 وما بعدها.

(2) الآية في اللغة: "العلامة الظاهرة ... وقيل لكل جملة من القرآن دالة على حكم سورة كانت أو فصولاً، أو فصلاً من سورة، ويقال لكل كلام منه منفصل بفصل لفظي آية وعليه اعتبار آيات السور التي تعد بها السورة". التوقيف على مهمّات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي: 107/1، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط1/ 1410هـ، دار الفكر المعاصر/ بيروت.

أما اصطلاحاً فيقول صاحب التعريفات: "هي طائفة من القرآن يتصل بعضها ببعض إلى انقطاعها طويلة كانت أو قصيرة". التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني ص58. تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي/ بيروت - ط1/ 1405هـ.

(3) السورة في اللغة المنزلة أو الدرجة أو الرفعة، والسورة من القرآن الرفعة أو القطعة منه. ينظر لسان العرب؛ مادة (س و ر) 386/4-387. وقيل هي: تمام جملة من المسموع يحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة. التوقيف على مهمّات التعاريف 419/1.

أُحصي ما في القرآن من سور وآيات وكلمات وحروف فكان الإجماع على أنه يحتوي على مئة وأربع عشرة سورة (114).

أما آياته فتقدر بنحو⁽¹⁾ ستة آلاف ومائتين وستٍ وثلاثين آية (6236). وقدّر عدد كلماته بنحو سبع وسبعين ألف كلمة وأربعمئة وسبع وثلاثين كلمة (77437). وقدّروا عدد حروفه بنحو ثلاثمئة ألف حرف وواحدٍ وعشرين ألف حرفٍ (321000). وقد قسمه أهل القراءة إلى ستين حزباً و ثلاثين جزءاً⁽²⁾.

أما ترتيبه على ما هو عليه اليوم في المصاحف فقد اتفق علماء السلف والخلف على أن ترتيب آيات القرآن توقيفي واختلفوا في ترتيب السور؛ فمنهم من قال بأنه اجتهد من الصحابة وبه قال مالك والقاضي أبو بكر في أحد قوليه وجزم به ابن فارس، مستدلين باختلاف ترتيب سور مصاحف السلف. ومنهم من قال بأنه توقيفي وهو القول الثاني للقاضي أبي بكر وقول الكرمانى والطيبى وابن الحصار والبيهقى وهو اختيار أبي جعفر النحاس، وبه قال الحافظ ابن جحر ومال ابن عطية إلى أن كثيراً من السور قد رتبها النبي (ﷺ) في حياته كالسبع الطوال والحواميم والمفصل.

(1) استعملت هنا كلمة ((نحو)) لأن العدد غير منضبط بل متعلق بطريقة العد فقد وقع الاختلاف في رؤوس الآي فاختلفوا بذلك في عددها قال الزركشي: "واعلم أن سبب اختلاف العلماء في عد الآي والكلم والحروف أن النبي (ﷺ) كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع أنها ليست فاصلة. وأيضاً البسملة نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة فمن قرأ بحرف نزلت فيه عدها ومن قرأ بغير ذلك لم يعدها". البرهان في علوم القرآن 251/1-252. لذلك فإن منهم من عدها ستة آلاف ومائتين وثمانى عشرة 6218 وعدها عطاء ستة آلاف ومئة وسبع وسبعين 6177 وحמיד ستة آلاف ومائتين واثنى عشرة 6212 وغير ذلك. ينظر البرهان في علوم القرآن 251/1.

(2) اختلفوا في عدد كلماته وحروفه أيضاً لاعتبارات لغوية بحتة. ينظر البرهان في علوم القرآن

وذهب السيوطي إلى أن ترتيب كل السور توقيفي سوى الأنفال وبراءة ووجّه الاعتراض باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة بأن القرآن وقع فيه النسخ حتى لسور كاملة وآيات كثيرة فلا بد أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرصة الأخيرة كالقراءات التي في مصحفه ولم يبلغ ذلك أبيا وابن مسعود وغيرهما كما لم يبلغهم نسخ ما وضعوه في مصاحفهم من القراءات التي تخالف المصحف العثماني ولذلك كتب أبي في مصحفه سورة الحقد والخلع وهما منسوختان⁽¹⁾.

قال السيوطي: "فالحاصل أنني أقول: ترتيب كل المصاحف بتوقيف واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على القراءات العثمانية، ورتب أولئك على ما كان عندهم، ولم يبلغهم ما استقر، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبتة في مصاحفهم بتوقيف، واستقر التوقيف في العرصة الأخيرة على القراءات المنسوخات، ولم يبلغهم النسخ"⁽²⁾ والذي تطمئن إليه النفس؛ هو أن ترتيب سور القرآن توقيفي، لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا شديدي التحري في أمور دينهم، خصوصا فيما يتعلق بكتاب ربهم؛ فلا يعقل أن يعرضه النبي (ﷺ) عليهم بترتيب معين ثم يعزفون عن ذلك إلى اجتهاداتهم، فقد عُرِف عنهم شدة الاتباع فيما هو أقل شأنا من هذا الأمر! يضاف إليه أنه إن لم يثبت ذلك بالنص فإنه ثابت بإجماع الصحابة على مصحف عثمان (رضي الله عنه).

لسور القرآن -إذن- وآياته ترتيبان: ترتيب متعلق بنزوله، وترتيب متعلق بجمعه في المصحف؛ فأما الترتيب الأول فمتعلق بكون القرآن نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم كان ينزل بعضه في إثر بعض بما يناسب حاجة المجتمع الذي

(1) ينظر أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي (و849-ت911)،

تحقيق عبد القادر أحمد عطا: دار الاعتصام/ القاهرة: ص72-73.

(2) المصدر نفسه: ص73.

اختير أنموذجاً لحمل الدعوة فهذا الترتيب يمثل مقتضى الحكمة في تعامل الخطاب الإلهي مع المجتمع المختار أنموذجاً حاملاً لذلك الخطاب في مدة بناء أسس صرح الدعوة الإسلامية لبنة إثر لبنة إلى أن بلغت أوج الكمال.

ولما كان القرآن كتاب دعوة عالمية تتخطى وظيفته حدود الزمان والمكان لم يكن من الحكمة في شيء أن تتخذ آيات القرآن وسوره نفس ترتيب نزولها الذي كان ملتئماً مع سير الدعوة وتطورها بل كانت في حاجة إلى اتخاذ ترتيب جديد يكون أكثر انسجاماً وأشدّ تجانساً وأدق ارتباطاً مع الواقع الآني بعد اكتمال الدعوة وتتمام النعمة⁽¹⁾.

يقول المودودي: "لو جُمع القرآن على الترتيب الذي نزل عليه لما كان هذا الترتيب مجدياً ومفهوماً للعصور التي تلت عهد النبوة، بدون أن يضاف إلى القرآن تاريخ نزوله وتاريخ الظروف التي نزل فيها كل جزء من أجزائه بوصفه ملحقاتاً للقرآن. الأمر الذي كان ينافي الغرض الذي شاء الله لأجله أن يُدَوّن كلامه ويُحفظ في مصحف. والله سبحانه وتعالى كان يريد أن يجمع كلامه خالصاً نقياً ... لا يمازجه كلام غيره، يُرتب على ما هو عليه من الإيجاز والإعجاز معنى وصورة، لتتيسر قراءته لكل فرد من الأفراد .. -مهما اختلفت درجات عقولهم-"⁽²⁾.

إذن فهذا هو الترتيب الذي أراد الله تعالى أن يشاهد به القرآن، وبهذا التسلسل أراد الله تعالى للأمة أن تتلوه وتتدبره.

(1) ينظر المبادئ الأساسية لفهم القرآن. أبو الأعلى المودودي ص38.

(2) المصدر نفسه: ص39-40، وينظر هذا القرآن فأين المسلمون منه ص63.

الفصل الثاني

مفهوم العبارة "أمّهات المقاصد"

خصّصت هذا الفصل بالتعريف أولاً بمصطلح مقاصد القرآن، وبيان الفرق بين هذه الدراسة وما هو شائع مما كتب في مقاصد الشريعة. ثم إثبات أن للقرآن مقاصد جاء لتحقيقها، وأنّ هذه المقاصد أنواع، وأنّ لها مراتب، في المباحث الآتية:-

المبحث الأول - المقاصد لغة واصطلاحاً.

وقد جاء في مطلبين:

المطلب الأول: المقاصد لغة.

المقاصد في اللغة جمع مقصد، وهو لفظ مشتق من القصد؛ الذي هو: طلب الشيء. تقول قصدته، وقصدت له، وقصدت إليه بمعنى⁽¹⁾. ومنهم من جمعه على (قصود)⁽²⁾ والفاعل منه القاصد. ومطلقه التيمم.⁽³⁾ قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِعَاجِزِينَ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ البقرة: ٢٦٧. وأشيع معانيه استعمالاً عند المتأخرين معنى: إرادة النتيجة من الفعل. وهي مطلب هذا الأطروحة.

(1) ينظر لسان العرب 3/353 مادة (قصد).

(2) منسوب إلى بعض الفقهاء. ذكره الفيومي في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: 163/2.

(3) ينظر المصدر نفسه 12/22-23؛ مادة (أمم)، والتعريفات ص 98.

قال ابن جنّي: "أصل <حق ص د> ومواقعها من كلام العرب الاعتزام والتوجه والنهوض والنهوض نحو الشيء، على اعتدال كان ذلك أو جور، هذا أصله في الحقيقة، وإن كان قد تُخصّص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل، ألا ترى أنك تقصد الجور تارة كما تقصد العدل أخرى؟ فالاعتزام والتّوجه شامل لهما جميعاً"⁽¹⁾. وقال ابن منظور: "والقصد الاعتماد والأيّ"⁽²⁾.

وقد أورد أهل اللغة من المتأخرين للفظ المقصد والقصد مرادفات ومعاني كثيرة أقتصر هنا على ذكر ما له صلة منها بموضوع الأطروحة؛ فمنها المقصد بمعنى الغاية وهي: "ما لأجله وجود الشيء"⁽³⁾. ويقال قصدت فلانا: عنيته. ومن تعني بقولك؛ أي: من تقصد⁽⁴⁾. وقد يطلق في مقابل السبب الذي يرد بمعنى الوسيلة⁽⁵⁾. ويرد بمعنى: الحكمة، والغرض، والهدف، والمراد.

وقد يرد بمعنى: المغزى، والمبتغى، والمعنى، والمرمى، والمطلوب، والمأرب أو الأرب، والوطر، أو المرغوب فيه. وهو: العلة - الدافع أو الداعي إلى - الباعث أو الحامل على..الخ.

والقصد: الرغبة في..، أو السعي والتّوجه إلى.. ويأتي بمعنى العزم⁽⁶⁾ أو السريرة والطّوية، وإذا اقترن بالفعل فهو النّية⁽¹⁾. وهو الابتغاء والتّيمّم والتعمّد أو العمد.

(1) لسان العرب 355/3؛ مادة (قصد).

(2) المصدر نفسه 353-354؛ مادة (قصد).

(3) التعريفات ص 207.

(4) لسان العرب 106/15؛ مادة (عني).

(5) قال الجرجاني: "السبب في اللغة: اسم لما يُتوصّل به إلى المقصود". التعريفات ص 154.

(6) ينظر الحدود الأثيقة، زكريا بن محمد الأنصاري، تحقيق: د.مازن المبارك، دار الفكر

المعاصر/ بيروت ط-1411هـ: ص 71.

ولكلّ من هذه المرادفات تميّز بزيادة معنى أو اختصاص استعمال في موضع دون آخر؛ وإن كان يجمع شتاتها استعمالها في التعبير عن مضامين متقاربة أو متداخلة واجتماعها على الإيحاء بالسمة الهدفية في السلوك⁽²⁾. وهي اعتزام فعل الشيء، وتوجّه النية نحو النتيجة المترتبة على ذلك الفعل. أي: إرادة النتيجة من فعل الشيء، وجعله وسيلة لتحقيق الهدف المراد⁽³⁾.

وهذا المعنى هو المعوّل عليه لدى علماء القانون⁽⁴⁾ وعلماء النفس⁽⁵⁾. عند رجوعنا إلى استعمالات القرآن⁽⁶⁾ والسنة والصحابة في كلامهم عن مشتقات هذا اللفظ فإننا نجدها نادرا ما تكون حاملة لهذا المعنى، وإنما حملت معاني أخرى أكثرها شيوعاً ووروداً معنى التوسّط بين الطرفين، أو العدل والاعتدال في

(1) ينظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) ينظر ونظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسني. المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ أمريكا. ط1/ 1416هـ-1995م: ص114.

(3) ينظر لسان العرب (3/353-354) مادة (قصد)، والقصد الجنائي في الشريعة والقانون، عبد الرحمن محمد يحيى الضحيان: ص55؛ (رسالة دكتوراه في كلية العلوم الإسلامية/ جامعة بغداد، 1417هـ-1997م).

(4) القصد أو النية (Intention) في القانون: إرادة الفعل، وإرادة النتيجة. وهي الحالة الذهنية المرافقة لتنفيذ فعل ما، والمتضمنة لهدف مرجو من تنفيذ ذلك الفعل. ينظر القصد الجنائي في الشريعة والقانون ص55. والقصد الجنائي في القانون: "إحساس داخلي يتمثل في انصراف إرادة الجاني إلى ارتكاب فعل مع علمه بأنّ هذا التصرف يشكّل جريمة". المصطلحات القانونية في التشريع الجزائري، ابتسام القرّام: ص160؛ قصر الكتاب/ البليدة- الجزائر - ط: 1998م.

(5) أمّا عند علماء النفس فهو ما يتصوره المرء نتيجة لأفعال يصمّم على القيام بها تحقيقاً لتصوره. ينظر نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور: هامش ص114.

(6) ورد هذا اللفظ في القرآن بصيغ مختلفة في ستة مواضع سأذكرها بعد حين.

الأمر كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى ﴿١٩﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴿٢٠﴾ لقمان: ١٩، أي: توسط بين الإسراع والإبطاء.^(١) وكما في قوله (ﷺ): "الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبَلَّغُوا"^(٢)؛ وهو الأخذ بالأمر الأوسط. أي: الزموا الطريق الوسط المعتدل^(٣)؛ وكذا وصف جابر بن سمرة لصلاة رسول الله (ﷺ) وخطبته بقوله: "فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصْدًا وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا"^(٤). أي: أي: لا طويلة ولا قصيرة^(٥). وفي المسند عنه (ﷺ) قوله: "عليكم هديا قاصدا"^(٦). أي: طريقا معتدلا؛ وهو الوسط بين الطرفين^(٧).

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 71/14، وتفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: ط1، دار الحديث/ القاهرة: 542/1، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت951): دار إحياء التراث العربي/ بيروت: 73/7، وغيرها من التفسير. وينظر كلمات القرآن تفسير وبيان، حسنين محمد مخلوف: دار ابن حزم/ بيروت، ط: 1418هـ-1997م: ص235.

(٢) صحيح البخاري: 2373/5.

(٣) ينظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773-852)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب: دار المعرفة/ بيروت، 1379هـ: 95/1 و298/11.

(٤) صحيح مسلم: 591/2.

(٥) ينظر فتح الباري: 298/11.

(٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني (164-241): مؤسسة قرطبة/ مصر: 422/4، أخرجه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرک على الصحيحين: 457/1، وذكره الحافظ في الفتح وقال إسناده حسن. فتح الباري: 94/1.

(٧) ينظر لسان العرب 3/353؛ مادة (قصد).

والقصد في الشيء: خلاف الإفراط؛ وهو ما بين الإسراف والتقتير. والقصد في المعيشة: أن لا يسرف ولا يقتّر. وفي الحديث "ما عال من اقتصد"⁽¹⁾. أي: ما افتقر من لا يسرف في الإنفاق ولا يقتّر. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾﴾ المائدة: ٦٦، وقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَجَحْتُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾﴾ لقمان: ٣٢؛ أي: موفٍ بعهده من غير زيادة أو نقصان، أو استوت حسناته وسيئاته⁽²⁾. وهي مرتبة بين الظالم لنفسه والمسارع في الخيرات؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾﴾ فاطر: ٣٢. وقد يرد أيضا حاملا لمعنى السهولة والاستقامة والقرب؛ فتقول طريق قاصد: أي: سهل مستقيم. وسفر قاصد: سهل قريب. كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّجَّةُ﴾﴾ التوبة: ٤٢⁽³⁾. وقد يرد بمعنى استقامة الطريق كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾﴾ النحل: ٩؛ أي: تبين الطريق القاصد المستقيم⁽⁴⁾، والدعاء إليه بالحج والبراهين الواضحة⁽⁵⁾.

(1) مسند الإمام أحمد: 447/1.

(2) ينظر كلمات القرآن تفسير وبيان: ص 236 وص 251. وقيل من أدى الواجبات واجتنب المحرمات. ينظر التفسير الميسر، نخبة من العلماء تحت إشراف د. عبد الله بن عبد المحسن التركي: مركز الدراسات القرآنية، وزارة الأوقاف/ المدينة المنورة، 1419هـ-1999م: ص 438.

(3) ينظر لسان العرب 3/353؛ مادة (قصد).

(4) يعني بذلك أن الله تعالى تكفل لكم ببيان الطريق المختصر إلى النجاة. فإن أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم. وعليه فإن معناه متضمن أيضا لمعنى السهولة والقرب.

(5) ينظر لسان العرب 3/353؛ مادة (قصد)، وكلمات القرآن تفسير وبيان: ص 148.

وذكر أهل اللغة لهذا اللفظ معنى آخر؛ وهو الإصابة في القتل سريعاً على المكان؛ تقول أقصدته أي: رميته فقتلته على الفور⁽¹⁾.

وعلى هذا لا يمكن أن تكون مشتقات هذا اللفظ مظنة الظفر بالمعنى الذي أطلبه من القرآن والسنة في هذه الأطروحة، وإنما سأميل في ذلك إلى ما يفيد ذلك من مرادفاتهما، وما يقوم مقام هذا المعنى.

المطلب الثاني: المقاصد في الاصطلاح.

إن استعمال لفظ المقاصد في الاصطلاح لم يرد في مشتقات لفظ المقاصد في القرآن الكريم والسنة صلة بالمعنى الذي شاع استعماله من معاني هذا اللفظ (أي إرادة النتيجة من الفعل)، وإنما استعمل القرآن بعض مرادفاته بدلاً له، وأكثر ما استعمل منها لفظ الإرادة، وهو الأكثر تداولاً في المباحث الكلامية، وقد يعبرون عنه بالعلّة الغائية⁽²⁾ أو الغرض⁽³⁾.

أما الفقهاء فأكثر ما يتداولونه من مرادفاته لفظ النية⁽⁴⁾ وقد يستعملون أحياناً لفظ العمد⁽¹⁾.

(1) ذكره صاحب اللسان وحكاه عن الأصمعي والليث. ينظر لسان العرب 3/356؛ مادة (قصد).

(2) العلة الغائية: ما يوجد الشيء لأجله. التعريفات ص202.

(3) الغرض: "الهدف المقصود بالرمي، ثم جعل اسماً لكل غاية يتحرى إدراكها. وقال الشريف: الغرض هو الفائدة المترتبة على الشيء من حيث هي مطلوبة بالإقدام عليه." التعاريف، المناوي: 536/2.

(4) النية: "قصد الفعل مقترناً به." الحدود الأتيفة 71/2. وقال الغزالي: "إنما النية انبعاث النفس إلى ما فيه غرضها عاجلاً أو آجلاً." شرح النيل 231/17. وقيل إنها: "قصد الإنسان بقلبه ما يريد به فعله." النية في الشريعة الإسلامية ص3. أو هي القصد وعزم القلب. وقيل هي عزم

أما أهل الأصول فالشائع عندهم لفظ المعنى أو الحكمة أو العلة⁽²⁾ التي نيطت بها الأحكام، ثم استعملوا بعد ذلك لفظ المقصد أو المقاصد مع تخصيصه بشيء من الكلية والشمولية فاستعملوه في القواعد الفقهية، والكلّيات الأصولية. ومن ذلك قولهم: (الأمور بمقاصدها)⁽³⁾، و(العبرة في العقود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني)⁽⁴⁾، وغير ذلك. إذ إنما أرادوا بالمقاصد هنا: ما يتغيّاه المكلف ويضمّره في نيّته، ويسير نحوه في عمله⁽⁵⁾. وشاع استعماله بعد ذلك مقرونا بالشرعية الإسلامية، بعد أن حدثت النقلة النوعية في الدراسات الأصولية من تتبّع المقاصد الجزئية للأحكام إلى الكشف عن المقاصد العامّة للتشريع. فصار لفظ المقاصد إذا

القلب على الفعل. وعرفها بعض أهل الفقه فقالوا: هي القصد للشيء. أو توجّه القلب لإيجاد الفعل جزماً. ينظر القصد الجنائي في الشريعة والقانون: ص 58 و 86-87.

(1) العمد: "قصد الشيء والاستناد إليه... والعمد والتعمد في التعارف خلاف السهو وهو المقصود بالنية." التعاريف، المناوي: 189/2 و 526.

(2) تعرّض الأستاذ أحمد الريسوني إلى توضيح شيء من الفروق في استعمال هذه الألفاظ في كتابه نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني: المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ الولايات المتحدة الأمريكية، ط 4/1415هـ-1995م: ص 21 إلى ص 28. وتوسّع في ذلك د. عبد الرحمن الضحاني في رسالته القصد الجنائي في الشريعة والقانون: ص 56 إلى ص 91. والظاهر من تتبّع استعمال لفظ المقاصد في تاريخ العلوم الشرعية أن شيوع استعماله بمعنى الغايات كان محايثاً للانتقال النوعي لهذه الدراسات من النظرات الجزئية إلى الدراسات الشمولية الكلية، أو من العلة في الحكم الجزئي إلى المقاصد العامة للشرعية الإسلامية.

(3) الأشباه والنظائر، السيوطي: ص 8 و 49.

(4) ينظر إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد: دار الجيل/ بيروت، ط: 1973م: 3/115.

(5) ينظر قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي، د. عبد الرحمن إبراهيم الكيلاني. المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر/ دمشق، ط 1/1421هـ-2000م: ص 44-45.

أُطلق انصرف في الغالب إلى مقاصد الشريعة الإسلامية، أو إلى علم المقاصد نفسه.

ولم أظفر فيما وقعت عليه عيناى على تعريف صريح لمقاصد القرآن الكريم، ولعلّي لا أبالغ إن قلت إنّ شدة وضوح معنى هذا المركّب أغنت من ذكره عن التفكير في صياغة تعريف له. هذا إذا أغفلنا مسألة قلة إيراد هذا المركّب موضوعا للدراسة -كلّية كانت أم جزئية-. ولكنّ هذا لا يمنعني من إيراد بعض ما يمكن أن يُعرّف به هذا المركّب، مستعينا في ذلك بالمعنى اللغوي، مستفيدا مما حدّته به بعض تعريفات مقاصد الشريعة الإسلامية من عبارات في حدّ هذا المفهوم. فهي وإن لم تنطبق كلّية على موضوع هذه الأطروحة، فإنّها لا تبعد كثيرا عن إعطاء بعض مفهومه، اعتمادا على ما عرفنا به القرآن، وما أفاده التعريف اللغوي للفظ المقاصد يمكنني صياغة تعريف يسير لهذا المركّب. وذلك أن القرآن كلام الله تعالى، ومقاصده هي الغايات والنتائج المرجوّ حصولها من ذلك الكلام. فعلى ذلك تكون مقاصد القرآن هي الغايات التي أنزل القرآن لأجل تحقيقها⁽¹⁾. أو هي مراد الله تعالى من إنزاله القرآن على المكلفين في الدارين.

وأدقّ من هذا التعريف قولنا هي المعاني الغائية، التي اتّجهت إرادة الله الشرعية إلى تحقيقها من إنزاله القرآن على المكلفين في الدارين. قلت هذا (أدق)؛ لأن فيه حصرًا لما يتعلّق من الموضوع بالمراد الشرعي؛ لأن المراد القدري من شأن الله تعالى وليس من شأن المكلفين.

(1) استفدت هذا التعريف مما عرف به الـريسوني علم مقاصد الشريعة حيث قال: "هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها" نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص 19. وهو أقرب إلى البداهة، وأبعد ما يكون عن التكلّف.

ثم إننا إذا قَدَدنا هذا المركَّب بما يتعلَّق بالعموم⁽¹⁾ أي: (المقاصد العامة للقرآن) قلنا: المقاصد العامة للقرآن الكريم هي المعاني الغائية⁽²⁾ العامة⁽³⁾، التي اتَّجهت إرادة الله الشرعية إلى تحقيقها⁽⁴⁾ من إنزاله القرآن على المكلفين في الدارين.⁽⁵⁾ وتتلخَّص إشكالية هذه الأطروحة في الأسئلة الآتية:

- لماذا أنزل القرآن (أله مقاصد)؟

- ما السبيل إلى معرفة هذه المقاصد (طرق معرفتها)؟

(1) وسأرجئ الكلام عن مراتب مقاصد القرآن المتراوحة ما بين العموم والخصوص، والكلي والجزئي إلى حينه.

(2) ممَّن اختار لفظ الغاية للتعريف بالمقاصد علال الفاسي في كتابه مقاصد الشريعة ومكارمها، علال الفاسي: دار الغرب الإسلامي، ط5/1993م: ص3. والرئيسوني في كتابه نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص19. ومصطفى الزحيلي في كتابه أصول الفقه الإسلامي: ص78. وإسماعيل الحسني في كتابه نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور: ص119.

(3) أو بتعبير الصابوني: الأهداف الكبرى. ينظر مذكرات في مصادر التشريع الإسلامي وطرق استنباط الأحكام، محمد علي الصابوني: مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، دمشق/ ط1-1965م: ص511.

(4) واستفدت هذا التعبير من تعريف د. عبد الرحمن الكيلاني لمقاصد الشريعة بقوله أنها "المعاني الغائية، التي اتَّجهت إرادة الشارع إلى تحقيقها عن طريق أحكامه". قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص47. وقد استحسنته لمطابقته للمعنى اللغوي للفظ القصد.

(5) استخدمها يوسف العالم، واستخدم عبارة (في دنياهم وأخراهم) في موضع التعريف. ينظر المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، د. يوسف حامد العالم. الدار العالمية للكتاب الإسلامي/ السعودية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي/ أمريكا. ط2/ 1415هـ-1994م: ص75 وص79. ومنهم من عبّر عنها بقوله (كل زمان ومكان) "أصول الفقه الإسلامي، مصطفى الزحيلي: ص78.

- أهي متفاوتة في الأهميّة أم لا؟ أليها مراتب أم لا؟ - عرّف أهمّها.
فعملي في هذه الأطروحة إذن هو محاولة معرفة الغايات الكبرى التي من أجلها أنزل الله القرآن الكريم، وذلك بالكشف عن طرق معرفتها، واستخراجها، ثم محاولة معرفة مراتبها، ثم محاولة التعريف بأهمّها.

وقبل الشروع في معالجة هذه المواضيع رأيت أنه يتوجب عليّ في هذا المقام أن أحلّ إشكالا عانيت منه كثيرا؛ إذ ما ذكرت لأحد -ممن لقيته- عبارة مقاصد القرآن أو سألته عن الموضوع إلا انصرف ذهنه رأساً إلى موضوع مقاصد الشريعة الإسلامية ومباحثها، ولم يشذّ عن هذا المنعكس الشرطي أحد منهم لحدّ الآن، فما مدى صلة أحدهما بالآخر؟ وما هو الفرق بين مقاصد القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة الإسلامية؟ وهذا ما سأطرقه في المبحث الآتي:-

المبحث الثاني- الفرق بين مقاصد القرآن ومقاصد الشريعة الإسلامية.

إن الإجابة عن هذا السؤال تضطرنّا إلى النظر في مدى تطابق مفهومي العبارتين: مقاصد القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة الإسلامية. ويمكن التحقيق في المسألة من زاويتين:

إحدهما مقارنة تعريف كل منهما بالآخر. والنظرة الأولى إلى العبارتين السالفتين تقودنا إلى اختصار المقارنة بين القرآن الكريم والشريعة الإسلامية؛ بمعنى هل القرآن هو الشريعة الإسلامية؟

وأما الثانية فمن النظر في مدى تطابق المباحث التي تعامل معها الدارسون لمقاصد الشريعة مع ما أنا بصدد معالجته من مباحث في هذه الأطروحة.

المطلب الأول: - هل القرآن هو الشريعة؟

لقد مرّ بي التعريف بالقرآن في الفصل الأول من هذا الباب، فبقي عليّ النظر في مفهوم الشريعة، ومعرفة مدى مطابقتها لمفهوم القرآن. الشرع في اللغة عبارة عن البيان والإظهار⁽¹⁾. والشريعة الطريق إلى الماء. قيل هي: الطريق الذي يتوصل منه إلى الماء الذي فيه الحياة. ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد⁽²⁾. والشريعة هي الطريق في الدين⁽³⁾. وعلى هذا عرفها القانوني بأنها "الطريقة الظاهرة في الدين"⁽⁴⁾. وعرفها القرطبي بأنها "الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة"⁽⁵⁾. وأنها "المذهب والملة ... والشرائع في الدين: المذاهب التي شرعها الله لخلقه"⁽⁶⁾. وعرفها القنوجي فقال: "والشريعة كل طريقة موضوعة بوضع إلهي ثابت من نبي من الأنبياء"⁽⁷⁾.

(1) التعريفات ص 167.

(2) ينظر أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر (و305-370): تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط: 1405هـ: 97/4، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 211/6 و163/16.

(3) التعريفات ص 167.

(4) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، قاسم بن عبد الله بن أمير علي القانوني (ت978)، تح: د. أحمد بن عبد الرزاق الكبيسي، دار الوفاء/ جدة، ط 1/ 1406هـ: 308/2.

(5) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 211/6.

(6) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 163/16.

(7) أبجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي: 2/338؛ تحقيق: عبد الجبار زكار - دار الكتب العلمية/ العلمية/ بيروت - ط: 1978م.

وقال أيضا: "الشرع"⁽¹⁾ ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها كتابه المنزل، ونبيّه المرسل الموحى إليه منه تعالى، سواء كانت متعلقة بكيفية عمل؛ وتسمى فرعية وعملية، ودوّن لها علم الفقه. أو بكيفية الاعتقاد؛ وتسمى أصلية واعتقادية، ودوّن لها علم الكلام. ويسمى الشرع أيضا الدين والملة"⁽²⁾. وهو ما ذهب إليه الشاطبي من قَبْلُ بقوله: "معنى الشريعة أنها تحدُّ للمكلفين حدودا في أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، وهو جملة ما تضمنته"⁽³⁾. وبهذا العموم عرّفها التهانوي في كشّافه"⁽⁴⁾.

ثم قال: "والشرع كالشريعة كل فعل أو ترك مخصوص من نبي من الأنبياء صريحا أو دلالة"⁽⁵⁾.

أمّا عن صلة المعنى الاصطلاحي بالمعنى اللغوي فيقول أبو السعود في تفسيره: "الشرعة والشريعة الطريقة إلى الماء. شُبّه بها الدين لكونه سبيلا موصلا

(1) الشرع والشريعة عنده مترادفان. ينظر أبجد العلوم 338/2.

(2) أبجد العلوم 337/2. ذكر ذلك ثم علّق بقوله: "فإن تلك الأحكام من حيث أنها تطاع لها دين ومن حيث أنها تملي وتكتب ملة ومن حيث أنها مشروعة شرع فالتفاوت بينها بحسب الاعتبار لا بالذات إلا أن الشريعة والملة تضافان إلى النبي ﷺ وإلى الأمة فقط استعمالا والدين يضاف إلى الله تعالى أيضا." الصفحة نفسها. وله في ذلك أيضا تعريف ثان قال فيه: "هو وضع إلهي يسوق ذوي العقول باختبارهم المحمود إلى الخير بالذات وهو ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم. فإن الوضع الإلهي هو الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء عليهم السلام." أبجد العلوم 337/2.

(3) الموافقات: 88/1.

(4) كشّاف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي: كلكتة سنة 1862، أوفسيت طهران 1948م: 759/1.

(5) أبجد العلوم 338/2-339.

إلى ما هو سبب للحياة الأبدية كما أن الماء سبب للحياة الفانية⁽¹⁾. وقال الجصاص: "فسمي الأمور التي تُعبد الله بها من جهة السمع شريعة وشرعة لإيصالها العاملين بها إلى الحياة الدائمة في النعيم الباقي"⁽²⁾.

وقد ورد لفظ الشريعة الإلهية في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾﴾ الشورى: ١٣، وظاهر منه أن المعنى هو القدر المشترك بين الرسالات، وهو على قول الطبري: توحيد الله، والإقرار بما جاءهم من عنده، والانتهاى إلى أمره ونهيه⁽³⁾. قال ابن العربي: "ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينهما في الفروع حسب ما علمه سبحانه"⁽⁴⁾. وقد نقل الطبري بسنده عن قتادة قوله: "الدين واحد والشريعة مختلفة"⁽⁵⁾. وهو قول أكثر المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ﴾﴾ المائدة: ٤٨⁽⁶⁾.

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود: 45/3.

(2) أحكام القرآن، الجصاص: 97/4.

(3) ينظر جامع البيان، الطبري: 270/6.

(4) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 164/16.

(5) جامع البيان، الطبري: 270/6.

(6) قاله ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (508-597): المكتب الإسلامي/ بيروت، ط 1404/3 هـ: 372-373. وينظر من: أحكام القرآن، الجصاص: 97-98. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود: 45/3. وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري: 270/2. وتفسير

قال مجاهد: "وأراد بقوله شرعة القرآن، لأنه لجميع الناس. وقال قتادة وغيره: شريعة التوراة، وشريعة الإنجيل، وشريعة القرآن"⁽¹⁾. وقول قتادة هذا أدق لما فيه من التوفيق بين هذه الآيات وآية ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾. قال القرطبي: "ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها والإنجيل لأهله والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات والأصل التوحيد لا اختلاف فيه. روي معنى ذلك عن قتادة"⁽²⁾.

وقال ابن كثير: إن الأمم مختلفة في الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، ولكنها متفقة في التوحيد. واستدل بما صح في البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد"⁽³⁾. قال: "يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله كما قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾﴾ الأنبياء: ٢٥ وقال أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النحل: ٣٦ الآية وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما

القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء (ت774): دار الفكر/ بيروت، ط: 1401 هـ: 67/2. والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 164/16، وغيرها.

(1) أحكام القرآن، الجصاص: 97/4.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 211/6. وقال الطبري في تفسيرها: "إن الله أعلمه أنه قد جعل له ولأئمة شريعة غير شرائع الأنبياء والأمم قبله الذين قص عليه قصصهم فهم مختلفو الأحوال فيما شرع لكل واحد منهم ولأئمة فيما أحل لهم وحرم عليهم". ينظر جامع البيان، الطبري: 270/6.

(3) وجدته في صحيح البخاري عن أبي هريرة بهذا اللفظ: "...والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد". صحيح البخاري: 1270/3.

ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس، وخفيفا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة...⁽¹⁾.

وأيّدوا ذلك بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَكُلُوا شَاءَ اللَّهِ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي: لجعل شريعتكم واحدة، ولكنه جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم⁽²⁾.

وبهذا المعنى فُسِّرَ لفظ الشريعة في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **الحجّة: ١٨** (3).

قال يوسف حامد العالم بعد أن أشار إلى المعنيين الواردين في القرآن لهذا اللفظ: "وعلى هذا نستطيع أن نقول إنّ الشريعة قد تطلق على الدين. فهي عبارة عما جاءت به الرّسل من عند الله بقصد هداية البشر إلى الحق في الاعتقاد، وإلى الخير في السلوك والمعاملة. وبهذا المعنى تشمل كلمة شريعة الجانب الاعتقادي والجانب العملي، وكلاهما يطابق مفهوم الدين الكامل، إلا أنّ الشريعة في لسان الفقهاء تطلق على الأحكام العملية"⁽⁴⁾. وهو المعنى الذي ذكره لها العالم في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية أي: أنّها الأحكام التّكليفية العملية⁽⁵⁾. وهذا ما نبّه عليه

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 67/2.

(2) ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 211/6 وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 67/2.

(3) ينظر جامع البيان، الطبري: 147/25، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 163/16.

(4) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، د. يوسف حامد العالم: ص 20.

(5) ينظر المصدر نفسه: ص 19.

القنّوجي في كتابه أبجد العلوم⁽¹⁾. مستشهدا بتعريف صاحب شرح العقائد النسفية لهذا اللفظ⁽²⁾.

قال القنّوجي بعد أن عرّف الشرع: "ويطلق كثيرا على الأحكام الجزئية التي يتهدّب بها المكلف معاشا ومعادا؛ سواء كانت منصوصة من الشارع أو راجعة إليه"⁽³⁾. ثم قال: "فإطلاقه على الأصول الكلية مجاز، وإن كان بخلاف الملة؛ فإن إطلاقها على الفروع مجاز، وتطلق على الأصول حقيقة؛ كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه وغيرها، ولا يتطرق النسخ فيها، ولا تختلف الأنبياء فيها"⁽⁴⁾.

فإطلاقها على الفروع إذن هو المفهوم الشرعي الشائع في كتب العلوم الإسلامية، بل يذهب الشيخ ابن عاشور إلى أكثر من ذلك بحصره مفهوم الشريعة في أقلّ ممّا ذكرته بقوله: "وإني قصدت في هذا الكتاب خصوص البحث عن مقاصد الإسلام من التشريع في قوانين المعاملات والآداب التي أرى أنّها الجديرة بأن تُخصّ باسم الشريعة"⁽⁵⁾.

خلاصة القول أن استعمال لفظ الشريعة بمعنى الدين كله جائز على سبيل المجاز، وأنّ حقيقة إطلاقه تصدق على جانب الأحكام الجزئية أي: الفرعية العملية. وهو الموافق لما فسّر به هذا اللفظ في القرآن الكريم والموافق لما ذكره الطبري

(1) أي: أنّه إذا ذُكر على لسان الفقهاء، انصرف معناه إلى بيان الأحكام الشرعية. ينظر أبجد العلوم 338/2.

(2) عرّف النسفي علم الشرع بأنّه: "العلم المتعلق بالأحكام الفرعية يسمى علم الشرائع والأحكام، وبالأحكام الأصلية يسمى علم التوحيد والصفات". المصدر نفسه 337/2-338.

(3) المصدر نفسه 338/1.

(4) المصدر نفسه 338/1-339.

(5) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي.

دار الفجر/ كوالامفور ودار النفائس/ عمّان، ط1/ 1420هـ - 1999م: ص124.

بسندة عن قتادة أنه قال: "والشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي"⁽¹⁾. وعلى هذا المعنى قال القونوي بعد أن عرّف الشريعة في اللغة: "المشروعات أربعة؛ عبادات ومعاملات وعقوبات وكفارات. وأصولها أربعة أيضا؛ الكتاب والسنة وإجماع الأمة والقياس"⁽²⁾.

وعليه فإنّه يحقُّ لي من الناحية النظرية إذن أن أستعمل لفظ الشريعة أو الشرع بهذا المعنى الجزئي، فتكون مقاصد الشريعة -على هذا الاعتبار- جزءا من مقاصد القرآن. ولكن لقائل أن يعترض ههنا فيقول: ربّما استعمل أهل مقاصد الشريعة هذا اللفظ بالمعنى الأول: أي: بمعنى الدين كله. وهذا يجرّنا إلى التحقق من ذلك بالاطلاع على المواضيع التي عالجها هؤلاء، وعلى المجال الذي كانوا يحومون حوله.

المطلب الثاني: - هل موضوعهما واحد؟ (أي هل يعالجان المباحث أنفسها)

سأكتفي هنا بإيراد بعض عبارات أبرز من كتب في هذا الفن، وبعض ما كتب عنهما من دراسات لإثبات أنّ مباحث هذين العلمين ومنهجهما مختلف. من المسلّم به أن علم المقاصد اشتهر مقترنا باسم صاحب الموافقات أبي إسحق الشاطبي في القديم، ثم خطا خطوته الثانية في العصر الحديث على يد شيخ الزيتونة محمد الطاهر بن عاشور.

فإذا رجعنا إلى الشاطبي نجده وإن عرّف لفظ الشريعة بما يستغرق الدين كلّه فإن ما تعرّض إليه في كتابه المقاصد لا يعدو في كل الأحوال أن يكون محاولة جادة وناجحة للمّ شعث ما تناثر في كتب المتقدمين من أقوال وإشارات في مقاصد

(1) جامع البيان، الطبري: 147/25، وينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 163/16.

(2) أنيس الفقهاء، القونوي: 308/2.

الشريعة -مما يمكن اعتباره إرهاصات لهذا العلم- ثم استخلاص أصول وكتليات يقوم عليها، وينتظم بها غيرها من فروع وجزئيات، وتكون سمتها -على قوله- القطع واليقين لا القطع والتخمين⁽¹⁾. ثم يجعل من ذلك كله مبحثاً أصلياً متميزاً في علم أصول الفقه -وهو مبحث المقاصد-⁽²⁾.

وهو في ذلك كله رغبة في تجاوز حالة التشتت والجزئية في النظر إلى نصوص الشريعة وأحكامها التي آل إليها أمر فقهاء عصره غفلة منهم عن المنطق العام الذي ينتظمها، والصورة الكلية للشريعة، والمقاصد الكلية المنوطة بها⁽³⁾.

أما الشيخ ابن عاشور فقد ألف كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية مقتفياً فيه أثر الشاطبي -كما صرح في مقدمته- فدقق النظر فيما قدمه الشاطبي من عطاء لمبحث المقاصد، ثم عمل على الارتقاء به ليصير في حد ذاته علماً قائماً بنفسه؛ تنتخب مسأله من علم أصول الفقه، وتُصعد بالبحث لتصبح أصولاً قطعية للتفقه. وتلك كانت دعوته ومراده⁽⁴⁾.

ويؤيد هذا قوله في بيان غرضه من تأليف الكتاب: "هذا كتاب قصدت منه إملاء مباحث جلية من مقاصد الشريعة الإسلامية، والتمثيل لها، والاحتجاج

(1) ينظر دراسة المحقق على مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور: ص 99.

(2) ينظر فصول في الفكر الإسلامي في المغرب العربي، عبد عمر المجيد النجار، بيروت/ دار الغرب الإسلامي: ص 425، وينظر نظرية المقاصد عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: ص 425.

(3) ينظر مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور: ص 100. (من دراسة المحقق)

(4) ينظر فصول في الفكر الإسلامي: ص 425، وينظر نظرية المقاصد عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: ص 425.

لإثباتها، لتكون نبراسا للمتفقهين في الدين، ومرجعا بينهم عند اختلاف الأنظار وتبدل الأعصار، وتوسلا إلى إقلال الاختلاف بين فقهاء الأمصار⁽¹⁾.

فهدفه الأخص - إذن - هو تحكيم هذه المقاصد عند الاختلاف الفقهي من أجل رفعه أو على الأقلّ النّقليل من حدّته⁽²⁾.

وهذا هو ما صرّح به ابن عاشور في مقدّمة كتابه إذ قال: "وإنّي قصدت في هذا الكتاب خصوص البحث عن مقاصد الإسلام من التشريع في قوانين المعاملات والآداب التي أرى أنّها الجديرة بأن تُخصّ باسم الشريعة"⁽³⁾. يقول: "فمصطلحي إذا أطلقت لفظ التشريع أنّي أريد به ما هو قانون للأمة، ولا أريد به مطلق الشّيء المشروع... كما أرى أن أحكام العبادات جديرة بأن تُسمّى بالديانة، ولها أسرار أخرى تتعلّق بسياسة النفس، وإصلاح الفرد الذي يلتئم منه المجتمع. لذلك قد اصطّلحنا على تسميتها بنظام المجتمع الإسلامي، وقد خصصتها بتأليف سمّيته أصول نظام المجتمع في الإسلام"⁽⁴⁾.

فبغضّ النظر عن غرض الدّارسين لمقاصد الشريعة مما كتبوا - أتأسيس لعلم المقاصد - أصول الأصول -⁽⁵⁾ أم الاستقلال به عن علم أصول الفقه، أو أنّه رمى إلى أن يجعله علما بديلا له⁽⁶⁾ - فإنّ المهمّ الثّابت أنّ هذه الدّراسات كانت وما تزال

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية: ص117.

(2) نظرية المقاصد عند الشّيخ محمد الطاهر بن عاشور: ص122.

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية: ص124.

(4) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(5) ينظر نظرية المقاصد عند الشّيخ محمد الطاهر بن عاشور: ص101، ومقاصد الشريعة الإسلامية: (دراسة المحقّق) ص70.

(6) وهذا رأي إسماعيل الحسني في غرض ابن عاشور من كتابه المقاصد. ينظر نظرية المقاصد عند الشّيخ محمد الطاهر بن عاشور: ص92.

- من إرهاباتها الأولى على أيدي فحول الأصوليين⁽¹⁾ إلى أن اكتملت على يدي الإمام الشاطبي، بل إلى حدّ اليوم - تدور في فلك الدراسات الأصولية، أي: تحت راية الدراسات الأصولية، وقد استلّ جذوره من بعض المباحث الأصولية كمباحث العلّة والمناسبة والمصالح والاستحسان وسدّ الذرائع، حتّى إنّ تدريسه علماً مستقلاً في الجامعات الإسلامية لم يتمّ إلا مؤخراً⁽²⁾.

وقبل أن أترك هذه المسألة يجدر بي أن أنبّه على أن ابن عاشور نفسه كتب بعض الفقرات عن مقاصد القرآن في مقدّمة تفسيره التحرير والتّوير بما يبيّن أن غرضه بهذا العنوان أشمل مما خصّ به كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية من مباحث⁽³⁾.

وعلى كل حال فإنّ ما خلصت إليه في هذه المسألة أن ما كُتب في مقاصد الشريعة الإسلامية يمكن عدّه قمّة ما وصلت إليه العقلية التفسيرية الإسلامية في تعاملها مع آيات الأحكام.

(1) كالباقلاني والجويني والغزالي وابن عبد السلام وابن تيمية. ينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص 39-71.

(2) يذكر الريسوني أنّ تدريسه ابن عاشور للمقاصد مادّة مُستقلّة ربّما كانت أوّل مرّة في تاريخ العلوم الإسلامية، ثمّ استقلّ تدريسه في بعض الجامعات الإسلامية قبيل نحو عشرين سنة في السعودية والمغرب والجزائر وموريتانيا وماليزيا وباكستان. ينظر تصدير الريسوني لكتاب قواعد المقاصد، الكيلاني: ص 7.

(3) تحدّث ابن عاشور في المقدّمة الرابعة من تقديمه لتفسيره عن مقاصد القرآن، ثمّ ذكر المقاصد الأصولية التي جاء القرآن لتبيانها فحصرها -بحسب ما بلغ إليه استقراره- في ثمانية أمور وقد أرجأت الحديث عنها إلى موضعه من هذه الرسالة. ينظر تفسير التحرير والتّوير، ج 1/ الكتاب الأول: ص 39-41.

أمّا ما أرمي إليه في هذه الدراسة فهو البحث عن ملامح شاملة لتحقيق نظير تلك القفزة أو ما يقرب منها في مجال الدراسات التفسيرية الشاملة للقرآن الكريم كلّهُ. فيمكن إدراج هذا الموضوع ضمن مجال علوم القرآن، وهو في كلّ حال لا يخرج عن مجال الدراسات القرآنية.

وأظن أن ما ذكرته يفى بالغرض في إزالة الإشكال الذي قد يتبادر إلى ذهن من يقرأ عنوان هذه الأطروحة أوّل وهلة.

وقبل أن أختم هذا الباب، أرى أنّ المقام يقتضي منّي أن أبين أمرين آخرين تتوقف عليهما شرعية الشروع في إنجاز باقي الأبواب؛ أولهما إثبات أن للقرآن مقاصد. والثاني إثبات أن لمقاصده أقساماً وأنواعاً ومراتب. وسأبسط الكلام في ذلك في المبحث الآتي بما يناسب هذا المقام.

المبحث الثالث - إثبات أن للقرآن مقاصد ذوات أقسام وأنواع ومراتب.

ونبسط الكلام في ذلك في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: - إثبات أن للقرآن غايات ومقاصد.

إن القرآن كلام الله، وهو صفة من صفات أفعاله تعالى؛ وهي الكلام. وقد خاض المتقدّمون في تحليل أفعاله عز وجل بالأغراض، واختلفوا في ذلك؛ بين مجيز لذلك على الإطلاق كالمعتزلة، ونافٍ له مطلقاً كالظاهرية⁽¹⁾، وقائل به في

(1) نسب ابن حزم لجميع الظاهرية أنهم يقولون بأنّ الله لا يفعل شيئاً من الأحكام وغيرها لعلّه أصلاً بوجه من الوجوه. ثم قال: "وهذا هو ديننا الذي ندين الله تعالى به، وندعو عباد الله إليه، ونقطع على أنّه الحقّ عند الله تعالى. "الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد علي بن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة/ بيروت، ط2/ 1983م: 77/8.

الفروع دون الأصول كالأشاعرة.⁽¹⁾ ولكنني سمع ما وجدته بينهم من مشاحنات كلامية، وتعسف في التأويل - لم أجد لهم خلافاً، في أن الله تعالى، أنزل هذا القرآن للناس من أجل هدايتهم، وصلاح دنياهم وآخرتهم، وأنه حاول ما أراد منهم معرفته وفعله. إذ ذلك جليّ واضح، وهو ممّا علّم من الدين بالضرورة، وصرّحت الكثير من الآيات بما يدلّ عليه دلالة قطعية. فمن ذلك قوله تعالى في سبب إنزاله للقرآن: **قَالَ تَعَالَى: ائْتُوا بِالْبُرْهَانِ إِن كُنْتُمْ بِالرَّكَابِ كَذِبًا** ﴿١٠٠﴾ **أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴿١٠١﴾ إبراهيم: ١، وقوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿١٠٣﴾ النحل: ٦٤، وقوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١٠٤﴾ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴿١٠٥﴾ النحل: ٨٩، وقوله في سبب جعله عربياً: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١٠٦﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿١٠٧﴾ يوسف: ٢، وقوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١٠٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَإِنَّا لَنَعْلَمُ الْغَيْبَ وَءَإِنَّا لَنَنبِئُكَ بِمَا تَعْمَلُ** ﴿١٠٩﴾ فصلت: ٤٤.

وقال في السرّ في تخصيص العرب منزلاً له: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٠﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿١١١﴾ الشورى: ٧، ثم قال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٢﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَنِيًّا** ﴿١١٣﴾ **أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ مَّنَظَرٌ** ﴿١١٤﴾

(1) والسرّ في ذلك الاختلاف أن المعتزلة قالوا به لأن حكمة الله تعالى تقتضي أن لا يفعل إلا لغرض، وفي ذلك تنزيه الله تعالى من العبث. وقال به الأشاعرة في الفروع لما استقرّوه من نصوص الشريعة، ولأنّ القياس قائم عليه، فلا قياس بلا تعليل. وأما في أصول الاعتقاد فمنعوه لأنهم تصوّروا أن القول أن الله يفعل لغرض، يقدح في كمال الله تعالى وغناه عن مخلوقاته، لأنّه يفعل ما يعود عليه بالنفع.

مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴿الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ ﴿الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧﴾ (1).

وأعتقد أن هذا القدر من البيان القرآني، وذاك الحد من الإجماع يكفيني عناء التدقيق في تلك الأقوال، والترجيح بينها، فجلُّ ما أصبو إليه هنا، هو أن أضع لبنة يتوقف عليها التدرج المنهجي في معالجة الموضوع؛ إذ لا يصح بحال الكلام عن طرق معرفة مراتب أشياء لم يقع التسليم بوجودها أصلاً (2).

المطلب الثاني: - الكلام في أنواع المقاصد ومراتبها.

إنَّ المقاصد هي الغايات التي تهفو النفوس إلى تحصيلها، وفي مقابل ذلك نجد أنَّ الوسائل هي ما يتوصَّل به إلى تلك المقاصد. وعلى ذلك لا يُرتاب في كون المقاصد والغايات أرفع شأنًا وأشرف قدرا من الوسائل الموصلة إليها. هذا ما

(1) وسيأتي سرد ما أمكن جمعه من الآيات الصريحة في بيان أسباب نزول القرآن ومقاصد ذلك في موضعه من هذه الأطروحة مُفصَّلاً. ينظر الفصل الثاني من الباب الثاني.

(2) لست أقصد في هذا المقام أن أثبت أمراً يصعب تصوُّره أو قبوله؛ وهو أن الله تعالى أنزل القرآن على هذه الأمة لحكم وغايات ومقاصد أرادها، فتلك واضحة يسلم بها العدو قبل الصديق وأقصد بالعدو من لا يسلم أصلاً بأن القرآن كلام الله، فالعرف جار على أنه لا بد لكل كتاب أو خطاب من غاية يرمي إليها؛ وإنما مقصودي هنا الانتقال المنهجي بين مسائل الموضوع فقط.

يقتضيه منطق العقول السليمة، وهو ما جاءت به النصوص الصحيحة في كل الملل.

ثمّ إنّنا إذا التفتنا إلى تلك الوسائل وتلك المقاصد فإنّنا نجد بينها شيئاً من التداخل في المفهوم؛ فقد تكون الغاية في حدّ ذاتها وسيلة، وقد تنقلب الوسيلة مقصداً وذلك كلّه متوقّف على النية المنبعثة من نفس المتوسّل إلى ذلك المقصد، وسأضرب لذلك مثالا:

مما جرت عليه عادة النّاس أنّ أحدهم إذا أراد تعليم ولده، استدرجه إلى ذلك بالمرغبات كالحلوى مثلاً؛ فتكون الحلوى آنئذ مقصداً عند الغلام، على حين هي مجرد وسيلة عند أبيه. ويكون تحصيل العلم مقصداً عند الوالد على حين هو وسيلة الغلام إلى الحلوى. وهكذا تختلف المفاهيم باختلاف النّوايا؛ فالأمر نسبيّ إذن.

ثمّ إذا رجعنا إلى العلم ذاته وجدنا القرآن والسنة يرغبان فيه وفي طلبه أشدّ التّرغيب، ويوليانه كبير العناية، ممّا يجعل تحصيله أحد أهمّ أهداف القرآن الكريم ومقاصده، ولكنّ مع كل هذه الأهميّة لا يملك هذا المقصد إلا أن يكون وسيلة لتحقيق مقصد أسمى منه مرتبة، وأرفع منه شأنًا؛ وهو طاعة الله تعالى بعد معرفته، أو بالأحرى العمل على مرضاته بقدر المستطاع. هذا هو الذي جاء به القرآن حين

نهى عن المفاصلة بين القول والعمل بقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣) ﴿الصف: ٢ - ٣،

وهذا هو ما فهمه النّبي (ﷺ) من القرآن ولذلك قال: "لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتجتازوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار" (١). وقال: "من تعلّم علما مما يُبتَغى به وجه الله، لا يتعلّمه إلا ليصيب به

(١) المستدرک على الصحيحين: 161/1. سنن ابن ماجه: 93/1.

غرضاً من الدنيا؛ لم يجد عرفَ الجنة يوم القيامة⁽¹⁾. وهذا عين ما فهمه الصحابة وأتباعهم بعده؛ فقد ذكر مالك بن أنس أنه بلغه عن القاسم بن محمد أنه قال: "أدركت الناس وما يعجبهم القول إنما يعجبهم العمل"⁽²⁾.

وروي أن رجلاً كان يسأل أبا الدرداء فقال: "له كل ما تسأل عنه تعمل به؟ قال: لا. قال: فما تصنع بازدياد حجة الله عليك"⁽³⁾. ففهم هذا الصحابي أن الازدياد من العلم بغير أداء حقه إنما هو زيادة عليه في التوبيخ والمؤاخذة يوم الحساب. لأنه ليس مقصوداً في ذاته. فلذلك كان يعجبهم العلم الذي أثمر عملاً، ولا يلتفتون إلى العلم العقيم. وبمثل ذلك قال أهل العلم بعدهم؛ قال سفيان الثوري: "إنما يُطلب الحديث لِيُنْقَى به الله عز وجل، فلذلك فُضِّل على غيره من العلوم، ولولا ذلك كان كسائر الأشياء"⁽⁴⁾. وذكر عن بشر الحافي أنه كان يقول: "يا أهل الحديث أدوا زكاة حديثكم؛ في كلِّ مئة حديث اعملوا بخمسة"⁽⁵⁾. فالعلم إذن لم يثبت فضله مطلقاً بل ثبت له فضلٌ من حيث التوسل به إلى العمل⁽⁶⁾.

قال الشاطبي: "والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو

(1) المستدرک على الصحيحين: 1/160، صحيح ابن حبان: 1/279، سنن أبي داود: 3/323.

(2) الموافقات: 1/65.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) علوم الحديث، ابن الصلاح أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق نور الدين

عتر: دار الفكر المعاصر/ لبنان، دار الفكر/ دمشق، ط3/1418-1998: ص247.

(6) ينظر الموافقات: 1/66.

وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة من هو مكلف بالعمل به⁽¹⁾.

إذن فقد تكون الوسيلة في حد ذاتها مقصدا من مقاصد القرآن، أمر الشارع بإتيانه والحرص عليه، ولذلك قسم العلماء المقاصد إلى مقاصد أصلية مطلوبة في ذاتها. ومقاصد تبعية غير مقصودة لذاتها، إنما شرعت لتحصيل مقاصد أخرى أسمى منها مرتبة على الوجه الأكمل⁽²⁾.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أن نرى تفاوتاً آخر في مراتب مقاصد القرآن أو في غيرها من أمور الدنيا من غير ضرورة كون أحدها وسيلة للآخر؛ وذلك أن التفريق بين الحسن والأحسن، والصالح والأصلح جبلة مركوزة في فطر الناس وطبائعهم؛ يقول العزّ بن عبد السلام: "واعلم أن تقديم الأصلح فالأصلح ودرء الأفسد فالأفسد مركوز في طبائع العباد، نظرا لهم من رب الأرباب... فلو خيّرت الصبي الصغير بين اللذيذ لاختار الأذى.. ولا يقدم الصالح على الأصلح إلا جاهل بفضل الأصلح، أو شقي متجاهل لا ينظر إلى ما بين المرتبتين من التفاوت"⁽³⁾.

وهذا التفاوت أمر معتبر في القرآن، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾﴾^(١٩) التوبة: ١٩.

وذلك الذي جاءت به السنة أيضا؛ فعن أبي هريرة أن النبي (ﷺ) قال: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها

(1) المصدر نفسه: 65/1.

(2) ينظر مقاصد الشريعة الإسلامية ص 307.

(3) قواعد الأحكام في مصالح الأئام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، بيروت: 5/1.

إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان⁽¹⁾. فقد جعل الإيمان مراتب ودرجات، منها العليا ومنها الدنيا، والقرآن قد أمر باتيان الكلّ على قدر الاستطاعة. ولكنه قدّر لكلّ منها منزلته؛ فليس من أخلّ بأعلاها -كإهمال قول لا إله إلا الله- كمن أهمل أدناها -إمطة الأذى عن الطريق- وينسحب ذلك على غير ما في القرآن من المقاصد والمواضيع، وقد تنبّه أهل الفقه لذلك فقعدوا له بقولهم: "يُغْتَفَرُ في الوسائل ما لا يُغْتَفَرُ في المقاصد"⁽²⁾.

وقد ظهر أثر فقه الأولويات جلياً عند أهل علوم القرآن في مسألة التفاضل في كلام الله تعالى؛ أي: التفاضل بين آيات القرآن وسوره، لما صحّ في فضل بعض السور على غيرها؛ كسورة الإخلاص والفاتحة، وفضل بعض الآيات على غيرها؛ كآية الكرسي -وهو مذهب أكثر علماء الإسلام- وقد وجهوا ذلك وأعلّوه بما يحمله كلُّ جزء من تلك الأجزاء من المعاني. ومما يصدّق ذلك من القرآن أن الله تبارك وتعالى قرّر أنّ في الأقوال تفاوتاً في الحُسْن والمرتبة، ومدح المتتبعين لخير تلك المراتب بقصد العمل بأحسنها فقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾﴾ الزمر: ١٨، وهذا هو الباب الذي ولج منه العلماء إلى بداية التصنيف في أمّهات مقاصد القرآن كما أشرت إليه سابقاً، وكما سيأتي مفصلاً في حينه.

إذن ليست مقاصد القرآن سواء، ولا هي في مرتبة واحدة من الأهميّة، وأكتفي هنا بهذا القدر مُرجئاً التفصيل في المسألة إلى موضعه من الفصل الأول في الباب الثالث، من هذه الأطروحة.

(1) صحيح مسلم: 63/1.

(2) ينظر الأشباه والنظائر، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: دار الكتب العلمية/ بيروت،

ط1403/1هـ: ص158.

الفصل الثالث

تاريخ تطور الوجهة المقصدية
في الدراسات القرآنية، وأهميتها.
وقد جاء في ثلاثة مباحث:-

المبحث الأول- روافد تطور الفكر المقصدي في القرآن عند القدماء.

مهيّد:

لقد مرّت الفكرة المقصدية في القرآن بتاريخ هو نفسه تاريخ تطور العلوم الإسلامية، إذ إن القرآن كان وما يزال منشأ لكل تلك العلوم، التي ما هي -في الحقيقة- إلا تحقيقات في مختلف جوانبه، وتجليات لها. فمن الطبيعي إذن أن لا يكون لهذه الفكرة طريق واحد للتطور، ولا طريقة واحدة في التبلور. وعلى ذلك فإنه لا يتأتى لنا أن نتطرق إلى ما آل إليه أمر البحث في مقاصد القرآن في العصر الحديث، قبل أن نعرّج على جذوره وتكوّن أولى لبناته، ونتتبّع تغيير أموره، وبعض أهم الروافد التي صبّت في جنباته، وذلك لأنه ما من علم أعطى ثماره حديثاً، إلا وله جذور أو بذور سالفة، وقد كنت أتوهم قبل خوض غمار هذه الأطروحة خلاف هذا؛ وذلك أنني ما وجدت فيه إلا ما ألفه الأستاذ محمد الصالح الصديق بعنوان مقاصد القرآن (عام 1955م). ولكنني بعد تتبع فكرة المقاصد شيئاً فشيئاً عند سلفنا، ظهر لي من سبقهم إليها الشيء الكثير، وإنما كان سبب خفاء ذلك السبق تشتت ورود تلك الأفكار، وندرة إفرادها بالتأليف. وقد

حاولت -في هذا المقام- استقصاء أخبارها في تأليفهم، ومعاينة طرق تطوّر الفكر المقصدي في القرآن عند القدماء والعناية به باسقاط ذلك في المطالب الآتية:-

المطلب الأول:- طريق علم المناسبة (بين الآي والسور).

أنزل الله تعالى القرآن إلى قوم خُصُّوا جميعهم بالقدرة على فهم مقاصد ألفاظه، ثم فضّل بعضهم على بعض في فهم عباراته، وخصّ بعضهم بالنفوذ إلى لطائف علومه ودقيق إشاراته⁽¹⁾.

ولكنّ هذا التفاوت لم يفوّت على مجموعهم الظفر بمجمل مقاصده، ومراد الله منه، وفهم الغاية من إنزاله؛ فهماً مكنّ الدعاة منهم من تبليغ مقاصده وبسطها للناس في عبارات سهلة ويسيرة⁽²⁾.

فدخل الناس في دين الله أفواجا، وسلخوا في فهم مراد الله من قرآنه سبلا وفجاءا، حتى كثر العجم، وبدأ أهل الفكر يعملون أقلامهم في كلّ شيء؛ فكانت البداية الثانية لرحلة منهجية طويلة، سلكت مرتقى صعبا للظفر بأمّهات مقاصد القرآن الكريم.

(1) ينظر إلى حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أجاب من سأله إن كان النبي ﷺ قد خصّه بشيء فقال: "لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة... الحديث" صحيح البخاري: 53/1، مسند أحمد: 152/1.

(2) ينظر قصّة جعفر بن أبي طالب، ومقالته للنجاشي (رضي الله عنهما) ينظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط4/1405هـ: 114/1-115، وقصّة الربيعي بن عامر مع رستم ومقالته له: تاريخ الطبري: 4000/2-وما بعدها.

بدأت الخطوة المنهجية⁽¹⁾ الأولى مبكرة، وكان انطلاقها من رحاب علم المعاني، والكلام عن وجه القراءات القرآنية. وقد أدى ذلك إلى نشوء علم النحو⁽²⁾. ثم وقعت ثمرة جهود اللغويين، والنحاة، وأهل القراءات بين يدي المهتمين بالإعجاز البياني للقرآن الكريم؛ كالجاحظ⁽³⁾، وابن قتيبة⁽⁴⁾، ثم الواسطي⁽⁵⁾، والرماني⁽⁶⁾، ثم مرورا بالخطابي⁽⁷⁾، فالباقلاني⁽¹⁾، وكان خاتمة تلك الجهود المتظافرة استواء نظرية

(1) أقصد بالمنهجية هنا تلك النتيجة التي تظهر بعد دراسة منظّمة على مراحل، وليس ذلك الفهم الحدسي السلفي المجل . وهو وإن كان طريقا سليما وقاصدا إلا أنه غير مدلل.

(2) مرّ تكون علم النحو بجهود كوكبة من اللغويين ممن بحث في معاني القرآن ومجازه وغريبه ومشكله وأوجه قراءاته وإعرابه كالفرّاء والأخفش وأبي عبيدة والزجاج وابن الأنباري وغيرهم إلى أن استوى.

(3) أبو عمرو الجاحظ (ت255هـ) يذكر له في ذلك كتاب بعنوان (نظم القرآن) وهو مفقود. ينظر الفهرست، محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم (ت375هـ): دار المعرفة/ بيروت، ط: 1398-1978م: 1-57، وتطور تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد. إصدار وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- جامعة بغداد/ بيت الحكمة. 1989م: ص57.

(4) ابن قتيبة الدينوري؛ عبد الله بن مسلم نحوي لغوي صاحب كتاب المعارف وأدب الكاتب وغريب القرآن ومشكل القرآن، سكن بغداد (ت276هـ). ينظر طبقات المفسرين، السيوطي: 44/1، ومعجم مصنفات القرآن الكريم، د. علي شواخ إسحاق: دار الرفاعي/ الرياض، ط1/ 1404هـ-1984م: 202/4.

(5) الواسطي. أبو عبد الله محمد بن يزيد من جلة متكلمي بغداد وكبارهم توفي سنة (306هـ). له كتاب بعنوان: إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، ينظر الفهرست: 245/1.

(6) الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى؛ أحد الأئمة المشاهير، نحوي متكلم معتزلي زاهد، له (تفسير القرآن الكريم)، وله كتاب في الإعجاز بعنوان (النكت في إعجاز القرآن)، ولد في بغداد سنة 290هـ، وكانت وفاته سنة 384هـ. ينظر طبقات المفسرين، السيوطي: 87/1-88.

(7) الخطابي؛ أبو سليمان حمد بن محمد (ت388هـ): محدث فقيه أديب شاعر له في ذلك كتاب بعنوان (بيان إعجاز القرآن)، ينظر كشف الظنون: 120/1.

النّظم على يدي عبد القاهر الجرجاني (400-474هـ) في كتابه (دلائل الإعجاز). ثم أخذت هذه النّظرية أوسع تجلياتها في كشّاف الزمخشري (467-538هـ) ثم في تفسير الرازي (ت 606هـ)، المسمّى مفاتيح الغيب⁽²⁾.

وقد كانت نظرية الجرجاني هذه خطوة منهجيّة محكمة وبالغة الأهميّة في تطوّر الرّبط بين جزئيات القرآن، بداية من أدنى مستوى (أي على مستوى الكلمات)؛ إذ إن مقتضى هذه النّظرية أن إعجاز القرآن كامن في نظمه، وقد عرف الجرجاني هذا النظم فقال: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض"⁽³⁾. وقال في موضع آخر: "واعلم أن ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها"⁽⁴⁾. لأنّ علم النّحو هو مجموعة من العلاقات المتشابهة بين مجموعة من الألفاظ؛ توجد شبكة من التّركيب⁽⁵⁾.

والذي أسهمت به هذه الخطوة في تطوّر النّظرة المقصدية للقرآن؛ محاولتها الناجحة في ربط ألفاظ الكلام بالمعنى الذي ينتظمها. وتحقّقت بذلك أول خطوة تكامل في النظر إلى النصّ القرآني؛ وهي الشمولية في النظر إلى الآية أو مجموعة

(1) الباقلاني: هو أبو بكر محمد بن الطيب القاضي، المعروف بالباقلاني؛ متكلم أصولي بلاغي، انتهت إليه رئاسة المالكية والأشاعرة في العراق، له مصنفات كثيرة منها: إعجاز القرآن، والانتصار، توفي سنة 474هـ. ينظر: وفيات الأعيان: 269/4-270.

(2) ينظر تفصيل هذه المراحل في كتاب أستاذنا د. محسن عبد الحميد: تطوّر تفسير القرآن: ص70-77.

(3) دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): تحقيق د. محمد التّجّي، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط1/1995م: ص13.

(4) دلائل الإعجاز: ص77.

(5) ينظر تطوّر تفسير القرآن: ص67.

من الآيات. ولست أنفي بما ذكرت أن يكون هنالك من أشار إلى مثل هذا الترابط بين المعاني الكثيرة في السورة الواحدة، وإنما نطت تلك الوظيفة بعلم قام آنذاك من أجلها؛ وهو علم المناسبة أو علم أسرار ترتيب القرآن. وفائدة هذا العلم: "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"⁽¹⁾. إذ من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً⁽²⁾.

وقد ذكر مؤرخو هذا الفن أن أول من تصدر له، وأعمله في دروس تفسيره؛ أبو بكر عبد الله بن المنذر بن محمد النيسابوري (ت318هـ)⁽³⁾. الذي ذكر عنه الزركشي أنه قال: "أول من أظهر ببغداد علم المناسبة - ولم تكن سمعناه من غيره - هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري. وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة. وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة"⁽⁴⁾. ولكن ذلك التوجيه لم يحرك ساكناً في تطوير تلك الوجهة في التفسير آنذاك، ولا أية لها من جاء بعده، واستمر ذلك الإعراض إلى زمن فقيه المالكية أبي بكر بن العربي (ت543هـ) الذي تفتن له أيضاً فقال: "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون الكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني،

(1) البرهان في علوم القرآن: 36/1، والإتقان: 290/2.

(2) ذكر الزركشي ذلك عن بعض الأئمة. ينظر البرهان في علوم القرآن: 36/1.

(3) هو محمد بن إبراهيم بن المنذر أبو بكر النيسابوري (ت318هـ)؛ إمام فقيه مفسر صنف كتباً منها المبسوط والإشراف في اختلاف العلماء وكتاب الإجماع، وله تفسير من أحسن التفاسير. يُنظر طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي: تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة/ القاهرة، ط1/1396هـ: 54-55.

(4) البرهان في علوم القرآن: 36/1، وينظر الإتقان في علوم القرآن: 288/2-289.

علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه⁽¹⁾. ولكنه سخط على أهل عصره أيضا لعدم التفاتهم إليه، بل لم ير فيهم من هو أهل لحمله فقال: "قلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة؛ ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"⁽²⁾. وبقي هذا العلم راكداً لا يلتفت إليه إلا قليلا، إلى أن تلقّفه فخر الدين الرازي (ت 606هـ) كما تلقّف نظرية النظم الجرجانية، واتخذ من تفسيره مفاتيح الغيب مجالا خصباً لهندسة معاني الآيات، بثمار هذين العلمين. فإضافة إلى إعماله لنظرية النظم في كثير من الوقفات البيانية؛ فإنه أبدى اهتماما واضحا "بترتيب الآيات وتحليلها، وبيان أسباب مجيئها على صورتها، والاستدلال على إعجازها"⁽³⁾. حتى قال: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"⁽⁴⁾.

إن الإشارة إلى سبب مجيء الآية بعد ما قبلها ليس بالأمر الجديد، فقد سبق أن أشار إليه القاضي عبد الجبار والزمخشري كما أشار ابن العربي إلى أكثر من ذلك، ولكن الجديد عند الرازي أنه جعل ذلك الترتيب مظهرا من مظاهر إعجاز القرآن. يقول في تفسير سورة البقرة: "ومن تأمل لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع

(1) ذكره عنه الزركشي في البرهان: 36/1. والسيوطي في الإتيان: 288/2 نقلا عن سراج الميردين، وينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ/1480م). ط 1398/1هـ - 1978م. وزارة المعارف والشئون الثقافية/ الهند: 7/1.

(2) البرهان في علوم القرآن: 36/1. والسيوطي في الإتيان: 288/2 نقلا عن سراج الميردين، وينظر نظم الدرر: 7/1.

(3) تطور تفسير القرآن، محسن عبد الحميد: ص 78. وينظر البرهان في علوم القرآن: 36/1. والإتيان: 288/2.

(4) البرهان في علوم القرآن: 36/1، والإتيان: 288/2.

ترتيبها؛ علم أن القرآن كما هو معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بحسب ترتيب آياته، ولعلّ الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار. وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصِيرُ الْأَبْصَارُ صُورَتَهُ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغَرِ⁽¹⁾.
ولعلّ هذا هو ما عناه البقاعي بعد ذلك بقوله: "وذلك أنه -أي علم المناسبة- يكشف أن للإعجاز طريقين؛ أحدهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"⁽²⁾. وذكر أن الأول أقرب تتاولا وأسهل ذوقا، وأما الثاني فيتطلب جهدا وتوفيقا إلهيا. لأن الناظر فيه ابتداءً يرى الجمل متباعدة الأغراض، متنائية المقاصد، ولا يقف على وجه المناسبة في ذلك الترتيب إلا إذا أطال الوقوف، وألح في الطلب؛ فإذا خلص إليه؛ وجد أنه في الذروة القصوى من إحكام الربط، كما هو في الأوج من حسن المعنى⁽³⁾. ولهذا أرجع أهل هذا العلم سبب إهمال أكثر المفسرين له إلى دقته⁽⁴⁾. والظاهر أن سبب قلة اكتشاف المفسرين والمهتمين بعلم القرآن بهذا العلم -إضافة إلى ما سبق ذكره- راجعة إلى عدم التسليم بإطراد وجود المناسبة بين الآيات، أو لشدة تكلف بعض من تعرّض

(1) مفاتيح الغيب، الرازي: 105/7، والإتقان: 289/2. ولست أدري لم أشار كل منهم إلى إعراض الناس عن هذا العلم دون أن يفردوه هم بالبحث والتأليف، أم أنهم ورثوا ذلك اللوم مع تلك الإرهاصات الأولى لذلك العلم؟!

(2) نظم الدرر: 11/1.

(3) ينظر المصدر نفسه: 11-12.

(4) ينظر البرهان في علوم القرآن: 36/1، والإتقان: 288/2.

لذلك، حتى خرج به عن الوضوح إلى الركافة في الربط⁽¹⁾. هذا بالنسبة للمناسبة بين آيات السورة الواحدة، أما التناسب بين السور فالتردد الحاصل فيه أكثر، وهو راجع أصلاً إلى كون القول بذلك التناسب مبنياً على التسليم بكون ترتيبها في المصحف العثماني توقيفياً غير اجتهادي، وهو وإن كان راجحاً⁽²⁾ فليس بمحل إجماع على أنه توقيف نبويّ.

فما كتّب في هذا العلم -إذن- إلّا من سلّم بأن ترتيب الآيات والسور توقيفي، وأنّ ذلك الترتيب مقصود. وأوّل من أفردّه بالتصنيف أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي⁽³⁾ (ت708هـ) في كتاب سمّاه مفقود (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)⁽⁴⁾. والظاهر من عنوان هذا الكتاب أنّه اعتنى بالربط بين السور خاصّة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن محاولة الربط بين السور بعد ربط الآيات كانت تستلزم الاطلاع على مضمون السورتين ومقصودهما لمعرفة وجه المناسبة في تتابع ترتيبهما⁽⁵⁾. وهذا الذي خدم تطور النظرة المقصدية للقرآن ونقلها إلى أفق أوسع؛ فجرّد الفيروز آبادي (729-817هـ) قلمه لاستخلاص مقاصد السور

(1) ينظر التعليق الذي أورده السيوطي للعزّ بن عبد السلام على المشتغلين بهذا العلم في الإِتقان: 289/2.

(2) ينظر البرهان في علوم القرآن: 38/1.

(3) هو أحمد بن إبراهيم الشهير بابن الزبير الغرناطي (أبو جعفر) (ت708هـ)؛ وهو شيخ أبي حيان، له البرهان في تفسير القرآن، وملاك التأويل. ينظر طبقات المفسّرين، الأندروي: ص397، وطبقات المفسّرين، الداودي: 26/1-27، وغاية النهاية في طبقات القراء: 32/1-33.

(4) ينظر البرهان في علوم القرآن: 35/1، والإِتقان: 288/2. وأبجد العلوم: 510/2.

(5) ينظر مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم: دار القلم/دمشق، ط3/ 1421هـ - 2000م: ص84.

وتدوينها في كتابه النفيس (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، وقد كان لهذه الوجهة أثرها الواسع في تفاسير العصر الحديث.

ولنا هاهنا وقفة مع بعض ما يمكن تسميته بالإرهاصات الأولى للقول بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية إذ كان الأساس الأول لابن القيم (691-751هـ) في تفسيره؛ محاولة إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية. تلك الوحدة التي تربط بين أجزائها، وتجعل كل جزء منها خادماً للآخر ومخدوماً منه، في سبيل تحقيق الرسالة العظمى التي قصد من السورة أن تؤديها⁽¹⁾. وممن ذهب إلى مثل ذلك آنئذ إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي (720-790هـ) إذ قال: "إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهي تكون قضية واحدة تهدف إلى غرض واحد، أو تسعى لإتمامه وإن اشتملت على العديد من المعاني"⁽²⁾. وقد كان لكلام هؤلاء ما بعده؛ فقد حمل لواء هذه الفكرة بعدهما الشيخ أبو الفضل محمد المشدالي المغربي (821-865هـ)⁽³⁾ الذي زرعها في فكر تلميذه برهان الدين إبراهيم بن عمر

(1) ينظر دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زاهر بن عواض الألمعي: مطابع الفرزدق التجارية/ الرياض، ط 1405/1هـ: ص 112-113. ومنهج ابن القيم في التفسير، محمد أحمد السنباطي: ص 84-115.

(2) الموافقات، الشاطبي: 249/3. وينظر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص 16.

(3) هو الشيخ المحقق أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي المغربي البجائي المالكي، أحد أذكى العالم، ونادرة الزمان في الحفظ والإتقان، أخذ عن والده وابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وابن زاغو وجماعة، رحل إلى مصر وأخذ عنه جلة وانتفعوا به، له تأليف منها شرح جمل الخونجي، توفي بحلب 865هـ... ينظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف: ص 263، المطبعة السلفية/ بيروت، بالأوفست عن طبعة 1346هـ.

البقاعي (ت885هـ)⁽¹⁾ فأتت أكلها أضعافا كثيرة في سفره الجليل نظم الدرر في تناسب الآيات والصور⁽²⁾. إذ يذكر البقاعي في مقدّمته لهذا الشيخ كلاماً يمكن اعتباره قولاً صريحاً فيما يعرف اليوم بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية؛ حيث قال: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن؛ هو أنك تنتظر الغرض الذي سيقف له السورة، وتنتظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنتظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنتظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن. وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية، في كل سورة سورة، والله الهادي"⁽³⁾. وفي هذا الكلام خطوة جديدة في مشوار الربط بين أجزاء القرآن، إذ جعل للسورة غرضاً أو مقصداً أساسياً، ويجعل باقي المقاصد الجزئية مقدمات خدمية مكملّة للغرض الأساسي.

وقد وجدت هذه الفكرة صدى واسعاً فيما دونه البقاعي في كتابه مصاعد النظر في الكشف عن مقاصد الصور⁽⁴⁾، وبسط الكلام فيه مع علم المناسبة على أوسع نطاق في مؤلفه الجليل نظم الدرر وهو تفسير أعمل فيه فكرة شيخه وطبقها بإحكام، إذ حدّد لكل سورة غرضاً أساسياً أودعه في مطلع تفسير كل سورة مبتدئاً

(1) البقاعي؛ هو إبراهيم بن عمر أبو الحسن برهان الدين الخرباوي البقاعي (809-885هـ)، له تأليف أجلّها؛ تفسيره نظم الدرر، الذي ألفه في أربعة عشر عاماً، وهو على قول السيوطي مؤلف لم يسبق إليه. ينظر طبقات المفسرين، أحمد الأندروني: ص347-348.

(2) نظم الدرر، البقاعي؛ مصدر سابق.

(3) نظم الدرر: 18/1، والإتقان: 293/2.

(4) مصوّر عن مخطوط موجود لدى الشيخ صبحي السامرائي.

بقوله "مقصودها..." أو بما ينوب عن ذلك في المعنى، ثم يجعل بقية أغراض السورة مقدّمات وأغراضا تبعية سيقّت لخدمة الغرض الأساس. وكذلك فعل مع القرآن كلّهُ؛ فإنه يذهب إلى أن مقصوده الأعظم أجمل في الفاتحة، ثم فصلّ فيما بقي من السور، كلّ سورة فصّلت ما أجملته التي قبلها⁽¹⁾. ومما تنبّه له البقاعي ونبّه عليه في هذا الكتاب؛ الصلة الوثيقة بين اسم كلّ سورة ومحتواها، فذكر أن اسم كلّ سورة مترجم عن مقصودها، وحاول إثبات ذلك في كلّ السور. وقد كان رائدا في هذه الوجهة، وهذا التقديم⁽²⁾.

بقي أن نشير هنا إلى كلام بدر الدين الزركشي (745-794هـ) عن المناسبة في كتابه البرهان في علوم القرآن⁽³⁾ الذي أورده فيه نوعا من أنواع علوم القرآن؛ وهو معرفة المناسبات بين الآيات؛ تحدّث فيه عن أهميّة هذا العلم، ومثّل له ببعض ما وقع منه بين بعض السور وبعض الآيات في السورة الواحدة⁽⁴⁾.

قال الزركشي بعد إيراد بعض المناسبات التي ذكرها بعض العلماء لبعض السور: "وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور فما ظنك بالآيات وتعلّق بعضها ببعض بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة"⁽⁵⁾.

(1) ينظر نظم الدرر: 19/1-22، وبه قال السيوطي ينظر تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1406/1هـ-1986م: ص61-63.

(2) ينظر نظم الدرر: 17/1-19، وينظر البقاعي ومنهجه في التفسير: رسالة ماجستير في كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد: ص232.

(3) ينظر البرهان في علوم القرآن: 1/35.

(4) ينظر المصدر السابق: 1/40 وما بعدها. وينظر مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم: ص67.

(5) البرهان في علوم القرآن، الزركشي: 1/39.

وحاول بعدهما جلال الدين السيوطي (849-911هـ) أن يقتفي آثارهما؛ فتكلم على علم المناسبة في كتابه الإتقان بكلام أتى فيه بأغلب ما ذكره الزركشي في البرهان، وزاد عليه في الأمثلة⁽¹⁾. ثم أدلى بدلوه في تطبيقه على القرآن كله في كتابين جليلين، استخلص أحدهما من الثاني. فحاول في الكتاب الأول أسرار التنزيل - وهو مفقود - محاكاة نظم الدرر للباقعي. وأما الكتاب الثاني فهو كتابه المشهور تناسق الدرر في تناسب السور، وقد أشار فيه إلى أنه استخلصه من الكتاب الأول⁽²⁾. وذكر في مقدمته أيضا مجمل ما تناوله من مباحث (أنواع) في كتابه المفقود. ويظهر من تفحص تلك الأنواع أنه اهتم تقريبا بكل ما اهتم به الباقعي؛ كمنااسبة مطلع كل سورة للمقصد الذي سيقف له، وتقصيل كل سورة لما أجمل فيما قبلها، ومنااسبة اسم كل سورة لما فيها... الخ⁽³⁾.

وبقي أحسن ما يعتمد عليه ويُعتد به في هذا العلم كتاب الباقعي المذكور. وفضل الباقعي على تطور النظرة المقصدية بين، إذ إنه استفاد من علم المناسبة في الربط بين الآيات، ثم عمد إلى السور فاستخلص مقاصدها مستفيدا ممن أشار إلى القول بوحدتها الموضوعية، أو استخرج مقاصد السور، وربط بينها وبين أسمائها. ثم بينها وبين مقاصد ما قبلها وما بعدها، ثم حدّد موقعها من المقصد العام للقرآن الكريم. وقد قدّر لكتابه هذا أن يكون أوسع تطبيق لما توصل إليه علم المناسبة في حقل التفسير.

(1) ينظر مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم: ص 67.

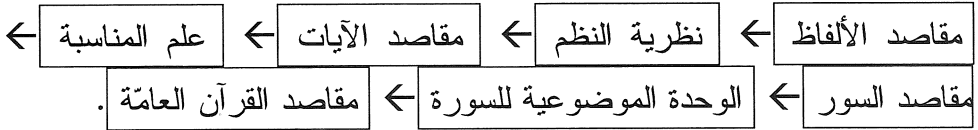
(2) أشار في مقدمة هذا الكتاب إلى ما حواه كتابه المفقود (أسرار التنزيل) من مباحث (أنواع)؛ وهي 13 نوعا استخلص من أحدها مادة كتابه تناسق الدرر وجعله - على قوله - عجالة لمريده. ينظر مقدمة تناسق الدرر: ص 53-54.

(3) ينظر مقدمة تناسق الدرر: ص 54.

وبذلك انتهت هذه الوجهة من محاولة الربط المحكم بين ألفاظ الجملة الواحدة، إلى الربط بين الجُمْل والآيات المعدودات، ثم إلى الربط بين السُّور؛ فظهرت من ذلك الحاجة إلى بيان مقاصد السُّور، ونتج عن ذلك بعض ما يمكن اعتباره إشارات أو عبارات مجملة للمقاصد العامة للقرآن الكريم.

وفيما يأتي خلاصة هذا المسلك في التطوُّر نحو المقاصد العامة للقرآن الكريم

في هذا المخطَّط:



المطلب الثاني:- طريق التفسير الموضوعي.

أنزل الله تعالى القرآن على نبيّه (ﷺ) وأمره أن يبيّنه للناس فقال: قَالَ تَعَالَى:

﴿ يَا بَيِّنَاتٍ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ ۝٤٤﴾ النحل: ٤٤، وما كان للنبيّ (ﷺ) أن يقصّر في ذلك، فبيّن لهم معانيه بالقول أو الفعل أو التقرير، وجسّد بذلك المثل الأعلى كأعظم مفسّر للقرآن. فالتفسير إذن بدأ في عصر التنزيل وكان أقرب ما يكون إلى ما سمّي فيما بعد بالتفسير الإجمالي، إذ ما كان بالصّحابة حاجة إلى أكثر من ذلك، هذا مع بعض الإشارات التي يمكن عدها بذورا نبويّة، أنتجت ما عُرف فيما بعد بالتفسير الموضوعي⁽¹⁾، كتفسيره (ﷺ) لبعض أي: القرآن بأخرى منه.

(1) وهو استقصاء آيات القرآن الكريم التي تتناول موضوعا واحدا وإفرادها بالدرس والبحث في تفسيرها؛ فإن كان في سورة واحدة سُمّي التفسير الموضوعي المقيد، وإن كان في آيات القرآن كلّهُ سُمّي بالتفسير الموضوعي المطلق أو الكلّي. ينظر مباحث في علم التفسير، د.عبد الستار حامد الدباغ: ص 197 وما بعدها.

أما التفسير الإجمالي فقد أدى تطوّر البحث فيه إلى نشوء التفسير التحليلي، ثم انتهى التحقيق فيه إلى ما يعرف اليوم بالتفسير المقارن. وهو غاية ما وصل إليه التحقيق في تفسير القرآن آية آية.

ولكن تفسير القرآن آية آية أوقع بعض المسلمين في مأزق جرّاء ما توهّموا من تضارب ظواهره منذ أيام نزوله؛ فقد صحّ عن الصحابة (رضي الله عنهم) أنّه أشكل عليهم معنى الظلم الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ هُمْ مُهْتَدُونَ﴾﴾ (٨٢) الأنعام: ٨٢ وشقّ ذلك عليهم، فقالوا للنبي (ﷺ): وأينا لا يظلم نفسه؟ فقال لهم (ﷺ): "إنّه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾﴾ لقمان: ١٣، إنّما هو الشّرْك" (١). وصحّ عنه (ﷺ) أيضا أنّه فسر مفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾﴾ (٥٩) الأنعام: ٥٩ بقوله: "مفاتيح الغيب خمس: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾﴾ (٣٤) لقمان: ٣٤ وكأني به (ﷺ) ينبّهم ويشير إليهم بالفرع إلى القرآن حينما يشكّل عليهم بعضه، وذلك لا يتأتّى لهم طبعاً- إلا بضمّ ما تشابه موضوعه من أي القرآن جنباً إلى جنب، وتفسير بعضها ببعض، فليس يبالغ إذن من يقول بأن ذلك المنهج النبوي في التفسير، كان أوّل لبنة فيما عُرِف بعد ذلك بالتفسير الموضوعي، وعلى آثار ذلك المنهج سار ابن عباس (رضي الله عنه) (٣) ومن جاء بعده.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: 1694/4، 1793/4. بتحقيق مصطفى ديب البغا.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) ينظر ما أجاب به ابن عباس على من قرأ عليه بعض آيات من القرآن رأى بعضها يناقض

بعضاً في صحيح البخاري، كتاب التفسير: 1815/4-1816. (بتحقيق د. مصطفى البغا).

وكما كان السبق لعلم الفقه في الشيوع على باقي العلوم -لعموم حاجة الناس إليه- كان أهله أيضا سباقين⁽¹⁾ إلى جمع ما يزيلون به مشكل أحكامه، فجمع بعض أئمة الفقه آيات الأحكام وفسروها كأبي بكر بن الجصاص الحنفي (ت370هـ)، وأبي بكر بن العربي المالكي (ت543هـ)، وغيرهما. ثم ألف قوم آخرون بعدهم في غير ذلك من مواضيع القرآن كأمثاله، ومجازه، وأقسامه كالماوردي (ت450هـ) والعز بن عبد السلام (ت660هـ) وابن قيم الجوزية (ت751هـ). وقد نتج من المسير في هذه الوجهة من التفسير عدة طرق في المعالجة الموضوعية أهمها؛ طريقة اهتمت بإعطاء أي موضوع من مواضيع القرآن صورته الشاملة المنثورة في كل زواياه بقدر المستطاع. ويلي ذلك طريقة اعتنت بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وقد تنبأها من بحث في علم المناسبة بين سور القرآن، وعملوا بها على ما سبق ذكره. وهما أهم طرق التفسير الموضوعي⁽²⁾.

وفي كلتا الطريقتين فائدة عظيمة في توجيه البحوث نحو المقاصد العامة للقرآن الكريم، على مستوى المواضيع أو على مستوى السور. وفيما يأتي خلاصة هذا المسلك في التطور نحو المقاصد العامة للقرآن الكريم في هذا المخطط:



(1) بل إنه المجال الوحيد الذي قطعت فيه النظرة المقصدية شوطا كبيرا؛ ودليل ذلك إفرادها بالتأليف في عدة مصنّفات سيأتي ذكرها بعد حين.

(2) ينظر دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زاهر الألمعي: ص21-22، ومباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم: ص23-29.

المطلب الثالث: - طريق الدراسات الفقهية.

سبق أن ذكرت أنّ أول موضوع جُمعت آياته في القرآن هو موضوع أحكام الفقه الإسلامي، ثمّ أُضيف إليها ما يفسّرها من السُّنة النبوية أو ما يزيد على ما فيها من أحكام، ولكن تلك النصوص متناهية على حين أنّ وقائع الناس لا نهاية لها، فما يملأ كلّ ذلك الفراغ التشريعي ولا سيما إذا علمنا أنّ تحصيل ذلك بالإجماع أمر غير متيسّر في كلّ حين؟ من هنا برزت الحاجة إلى القياس: الذي عرّفوه بأنّه إلحاق فرع بأصل في الحكم لعلّة تجمع بينهما. وذلك عملاً بدوران الحكم مع علّته وجوداً وعدمًا⁽¹⁾. فمفتاح كلّ ذلك إذن كامن في معرفة علل الأحكام. وكانت تلك أول خطوة لتبكُّور نظرة مقصدية شاملة بداية من أدنى مستوى. ولكنّ ذلك المستوى من الوعي المقصدي لم يكن كافياً ليدراً عن المجتمع الإسلامي ريح الفرقة، فقد غدا تفسير تلك الآيات حقلاً لعرض مذاهب الرجال من خلالها، بعد أن كانت أدلّة تمحص أقوالهم. وهي وإن جاز تفسير بعضها بما فهمه أحد الأئمة الأعلام؛ فليس يُعقل أن تُفسّر كلّها بما ذهب إليه إمام من أئمة الفقه لينفرد بالحق كله! هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ يظهر أنّ صلاحية القياس في استنباط الأحكام متوقّفة على وجود أصل ثبت له حكم بنصٍّ أو إجماع، فما حكم ما لم يجدوا له أصلاً يقاس عليه؟

من خلال استقصاء الأصوليين لمسالك العلّة قرّروا اعتبار المناسبة طريقاً دالّاً على العلّة. وممّا سمّي به هذا المسلك: الإخالة والملاءمة، والمصلحة، والاستدلال

(1) وهذه قاعدة أدركها فقهاء الصحابة وأعملوها في اجتهاداتهم. ينظر أصول الفقه الإسلامي في نسيجه الجديد، أ.د. مصطفى إبراهيم الزلمي: شركة الخنساء/ بغداد، ط5/1999م: ص101-102.

ورعاية المقاصد، وتخريج المناط⁽¹⁾. إذ من أحسن ما عرفوا به المناسب قولهم: "وصف ظاهر منضبط، يحصل عقلا من ترتب الحكم عليه ما يصلح أن يكون مقصودا من حصول مصلحة أو دفع مفسدة"⁽²⁾. ومن هنا تظهر العلاقة الوطيدة التي تربط بين المناسبة والمصلحة والمقاصد.

وأقرب ما يوضح ذلك أنهم عرفوا المقاصد بالمصالح فجعلوا العبارة الجامعة لمقاصد الشارع كلها قولهم: جلبُ المصالح ودرءُ المفسد⁽³⁾. قال العزّ بن عبد السلام: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفسد وأسبابها"⁽⁴⁾.

وأما عن صلة المناسبة بالمقاصد والمصالح؛ فذلك أن المناسبة طريق يسلكه المجتهد ليتحقّق من مدى صلاحية الوصف ليكون علّة يرتبط الحكم بها؛ وتتوقّف صلاحية ذلك الوصف على مدى تحقيقه لمقاصد الشريعة؛ وذلك متوقّف بدوره على مدى تحقيقه للمصالح أو تكميلها، أو دفع المفسد أو تقليلها⁽⁵⁾.

فمن خلال تعامل الأصوليين مع مسائل المناسبة والمصالح المرسلة -إذن- طفت على السطح أولى أساسيات ما عرف فيما بعد بمقاصد الشريعة الإسلامية.

(1) يُنظر مباحث العلّة في القياس عند الأصوليين، د. عبد الحكيم عبد الرحمن السّدي: دار البشائر الإسلامية/ بيروت، ط1/1406هـ-1986م: ص390، البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي/ تحرير: عبد الستار أبو غدة، ومراجعة: عبد القادر العاني، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية/ الكويت، ط1/ 1409هـ-1988م: 206/5.

(2) ذكره د. عبد الحكيم السّدي عن ابن الحاجب والآمدي وغيرهما واختاره؛ مباحث العلّة في القياس عند الأصوليين: ص392. وينظر البحر المحيط: 207/5.

(3) يُنظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الريسوني ص66.

(4) قواعد الأحكام في مصالح الأئام، العز بن عبد السلام: 8/1.

(5) ينظر قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي، د الكيلاني: ص52-53.

لقد ظهرت عدّة إرهابيات للكلام على المقاصد وأسرار الشرائع في العصور الأولى لتاريخ التشريع، كمحاولات بعضهم تعقّل بعض الأحكام التعبدية، والاطّلاع على شيء من حكمها وأسرارها؛ وقد فتح الله تعالى على بعضهم لصدقه ومجاهدته؛ فطفق يكتب في أسرار الشريعة، ومحاسن الإسلام، وموافقتها لما تقتضيه صريح العقول، نذكر من هؤلاء الحكيم الترمذي (ت320هـ) وكتابه الصلاة ومقاصدها، وكتابه الحج وأسراره، وذكروا له كتباً أخرى منها علل الشريعة⁽¹⁾، وما كتبه محمد بن عبد الرحمن البخاري (ت546هـ) في كتابه محاسن الإسلام وشرائع الإسلام. ولا يخفى أن غاية هذه الوجهة الوقوف على المقاصد الجزئية للقرآن، ثمّ محاولة تركيبها وتصنيفها للوقوف على أمّهات مقاصد القرآن.

ولكن الكلام على المقاصد من هذا الوجه كان أقرب أسلوباً إلى أسلوب ذكر فضائل القرآن وديانة الإسلام، وأقرب كلام في ذلك إلى الوضوح والمنهجية نجده عند الأصوليين وبداية من حديث إمام الحرمين الجويني (419-478هـ) عن تقاسيم العلل والأصول في كتابه البرهان، الذي أشار فيه إلى خمسة أقسام لمراتب مقاصد الشارع، مع إشارته إلى الضروريات الكبرى في الشريعة الإسلامية⁽²⁾ بما أصبح فيما بعد من أسس الكلام في المقاصد⁽³⁾. ثمّ جاء بعده تلميذه ووارث علمه الحجة أبو حامد الغزالي (450-505هـ) الذي تناول الكلام على المقاصد في

(1) والكتابان مطبوعان بتحقيق الأستاذ حسني نصر زيدان؛ الأول طبعته دار الكتاب العربي/ القاهرة 1965، والثاني طبع بمطبعة السعادة بالقاهرة 1969. وأمّا الثالث فهو مفقود حسب علمي.

(2) ينظر البرهان، الجويني: 602/2 وما بعدها.

(3) ينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الريسوني: ص51.

حديثه عن المصالح المرسله، إذ يقول: "وإذا فسرنا المصلحة بالمحافظة على مقصود الشرع؛ فلا وجه للخلاف في اتباعها. بل يجب القطع بكونها حجة"(1). وكانت حصيلة خوضه في مباحث المصلحة تقسيمه للمصالح الشرعية -حسب قوتها في ذاتها- إلى ثلاث مراتب ثابتة هي: الضروريات، والحاجات، والتحسينات أو التزيينات. وجعل لكل قسم منها مكمّلات وتنمّات(2). ثمّ أجمل ذكر أمهات المقاصد الشرعية بقوله: "ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالههم"(3). وجزم بأن حفظ هذه الأصول الخمسة من جانبي الوجود والعدم "يستحيل أن لا تشتمل عليه ملّة من الملل، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق"(4). ثمّ جاء بعده الآمدي (551-631هـ) فتكلّم في كيفية ترتيب تلك الضروريات، ثمّ أدخل العمل بهذه المقاصد في باب التّرجيحات، وبالذات في الترجيح بين الأقيسة المتعارضة(5). وصرّح بانحصار الضروريات في هذه الخمسة(6).

وبقي الأمر بعد الآمدي مقتصرًا على الترجيح بين هذه المقاصد، ومحاولة الزيادة عليها. كالعز ابن عبد السلام، وتلميذه القرافي، وغيرهما، ثمّ جاء بعد هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية (661-728هـ) فأثرى مباحث المقاصد بالمناقشات الكثيرة، واستدرك على الأصوليين بعض الأمور كحصرهم لمقاصد الشريعة في

(1) المستصفي: 179.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص174.

(3) المصدر نفسه: ص174.

(4) المصدر نفسه: ص174.

(5) ينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص57-58.

(6) ينظر الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، تحقيق سيد الجميلي: دار الكتاب العربي، بيروت،

ط1/1404هـ: 300/3، وينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص59.

المقاصد الخمسة المعروفة، إذ يرى أنها تشتمل على أكثر مما ذكره بكثير؛ ومما رأى أنهم أهملوه "العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وأحوال القلوب وأعمالها؛ كمحبة الله، وخشيته وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة. وكذلك فيما شرعه من الوفاء بالعهود، وصلة الأرحام، وحقوق المماليك والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه: حفظاً للأحوال السنية، وتهذيب الأخلاق..."⁽¹⁾ وكان لتلك الوجهة أثرها البالغ في فكر تلميذه ابن القيم (691-751هـ) خصوصاً في كتابه إعلام الموقعين الذي نفخ روح المقاصد في كل جنباته، وجعلها الركن الركين في حملته على الحيل.

ثم خطا الفكر المقصدي -في جانب القرآن التشريعي- خطوته الكبرى على يدي إمامه وفارسه أبي إسحق الشاطبي (720-790هـ)، الذي خلد ذكر كتابه الموافقات بمحاولته جعل علم المقاصد مبحثاً أصلياً متميزاً في علم أصول الفقه⁽²⁾ وكان له ذلك.

وقد ظهر لي أن اكتمال تبلور علم مقاصد الشريعة على يدي هذا العلم الشامخ، وفي الأندلس بالتحديد، لم يكن اعتباطاً، وإنما كانت له مسوغات: منها ما يرجع إلى طبيعة مذهبه الفقهي؛ إذ يحتلّ العمل بالمصلحة موقعاً عظيماً بين أصول المذهب المالكي، هذا إلى جانب العمل بالاستحسان الذي عدّه الإمام مالك تسعة أعشار العلم، وكثرة أعمالهم للمصالح المرسلة، وسد الذرائع في تشريع الأحكام. ولا يخفى ما لهذه الأصول من الصلة الوثيقة بمبحث المقاصد.

(1) الفتاوى: 234/32.

(2) نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور: ص 425.

ومن تلك المسوّغات ما يرجع إلى البيئة الفكرية لهذا العلم؛ وذلك أن الأندلس كانت أوسع حلبة صراع فكري بين الفكر الظاهري الذي مثّله ابن حزم، والفكر المقصدي الذي مثّله المالكية وبقية المذاهب الأخرى؛ فكان طبيعياً أن تخرج ردّة الفعل من مكان أعظم تحدٍ.. ردّة فعلٍ معاكسةٍ في الاتجاه ولكنها فاقتته في القوة. إذن يمكن أن نعتبر مسلك المناسبة في التعليل، أو المصالح المرسلّة طريقاً قاصداً، ومضيفاً منهجياً خرج من خلاله الفكر المقصدي من زخم التعليل بالعلل الجزئية، إلى سعة أفق التعليل بالمصالح والمقاصد العامّة للشرعية الإسلامية. ويجدر بي أن أشير هنا إلى أنني سلكت الطريق المباشر لتطوّر الفكر المقصدي في مجال الدراسات الفقهية، وإلاّ فلسعي هذه الدراسات نحو التّكامل والكليّة طرق أخرى، أسهمت بنسب متفاوتة في تهيئة الجوّ العام لتبلور ذلك العلم، والتمهيد له.

فإلى جانب طريق التعليل في القياس والمصالح المرسلّة، يمكننا أن ندرج في ذلك بعض ما أسهمت به أصول أخرى كالاستحسان، وسدّ الذرائع، وما أسهم به التطوّر الحاصل في بعض الاتجاهات الفقهية الأخرى:

فأما الاستحسان فلكونه ترجيحاً لإعمال الحكم الاستثنائي على الحكم الأصلي، في واقعة معيّنة، لمسوّغ شرعي قوي⁽¹⁾. ويرجع هذا المسوّغ عادة إلى الحرص على عدم تفويت مصلحة مشروعة أو مقصود شرعي مهم. قال الزلمي: "والعمل بالاستحسان يرجع إلى العمل بالمصلحة من جلب منفعة أو دفع مضرّة، إلا أن العمل بها في صورة الاستحسان يكون من باب الاستثناء من القواعد الكليّة،

(1) قال الزلمي: "والحاصل أن الاستحسان عبارة عن العدول عن العمل بالعزيمة إلى العمل بالرخصة لما يدعو إلى ذلك، وأن العمل بالاستحسان هو العمل بالنصوص التي تدعو إلى اليسر ورفع الحرج". ينظر أصول الفقه الإسلامي في نسيجه الجديد، الزلمي: ص 139 و 145.

والنصوص العامة. فكل واقعة يُطبَّق فيها الاستحسان، تُطبَّق فيها المصلحة دون العكس⁽¹⁾.

وأما سدّ الذرائع فعرفوه بأنّه: "إعطاء الوسيلة حكم غايتها"⁽²⁾. وهو "وجه آخر من وجوه رعاية مقصود الشارع، في حفظ المصالح، ودرء المفسدات"⁽³⁾. وفيه النظر إلى مآلات الأفعال ومقاصد المكلفين، ومدى موافقتها لمقصود الشارع، ثمّ قطع الطريق على ما يؤدّي إلى خلافه. وقد انبنى على هذا الأصل كلام طويل في تحريم الحيل.

وأما الوجهة الأخرى في الدّراسات الفقهية؛ فأقصد به التّعديد للفقه والأصول، ثمّ التّعديد للمقاصد نفسها. فقد حاولت هذه الوجهة السّعي بالدّراسات الفقهية إلى تحقيق مستوى آخر من مستويات الكلية؛ فقد أدّى تدقيق النظر في أحكام الفقه وجمع الأشباه والنظائر فيه إلى نشوء ما سمّوه بالقاعدة الفقهية؛ التي عرفوها بأنّها: "حكّم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته"⁽⁴⁾. كقولهم: "الأمر بمقاصدها"⁽⁵⁾. وقولهم: "اليقين لا يزول بالشك"⁽⁶⁾. فالقواعد الفقهية إذن أحكام فقهية أغلبية، تتضمّن أحكاماً تشريعية عامّة تدرج تحتها جزئيات متعدّدة⁽⁷⁾. وهذه الأحكام وإن لم تحقّق تمام

(1) المصدر نفسه: ص145.

(2) المصدر نفسه: ص149.

(3) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص90.

(4) شرح القواعد الفقهية، أحمد بن محمّد الزرقا. اعتنى بها د. عبد الستار أبو غدة ومصطفى أحمد الزرقا. ط4/1418هـ-1996م، دار القلم/دمشق. ص33.

(5) الأشباه والنظائر، السيوطي: ص8 و49.

(6) قواعد الفقه، محمّد عيم الإحسان المجددي البركتي: الصدف ببشر/كراتشي، ط1/1407-1976: ص11 و143.

(7) ينظر قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي، د. عبد الرحمن الكيلاني. ط1/1421هـ-2000م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي/عمّان، ودار الفكر/دمشق. ص31-32.

الكلية في أبوابها؛ فإنها حققت مفهوم الأغلبية. وهذه خطوة معتبرة في السعي نحو الكلية. نشأ هذا الفن الفقهي في رحاب الفقه الحنفي، ثم تواصلت الجهود في تطويره بداية بأبي طاهر الدباس (عاش ما بين في القرن 3 و4 للهجرة)، وأبي الحسن الكرخ (260-340هـ) ثم أبي زيد الدبوسي الحنفي (367-430هـ) بكتابه تأسيس النظر، فالعز بن عبد السلام الشافعي (576-660هـ) بكتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام الذي مع كونه كتاب قواعد فقهية- يكاد يكون خاصاً في مقاصد الشريعة وأسرار أحكامها، باعتبار أن الكلام عن المصالح ملازم للكلام عن مقاصد الشريعة⁽¹⁾. ثم تلميذه القرافي المالكي (626-684هـ) من خلال ما دونه في كتابه الفروق، ثم ابن رجب الحنبلي (ت795هـ) من خلال كتابه القواعد⁽²⁾. ولست أود متابعة الحديث عن تطور التأليف في هذا الفن إلى ما بعد ذلك الوقت؛ لأنه وقت خروج الشاطبي بكتابه الموافقات.

إذن فقد كان القرن الثامن الهجري أحفل القرون بالتأليف في موضوع القوانين الفقهية، وهذه بيئة لا شك في أنها هيأت الأرض الخصبة لتلك النقلة النوعية التي قام بها الشاطبي.

وبالموازاة مع تلك الحركة النشطة على مستوى القواعد الفقهية، دبّت حركة أخرى في الاتجاه نفسه على مستوى علم أصول الفقه، أنتجت لنا قواعد أصولية؛ هي القضايا الكلية، التي يتوصل بها الفقيه إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية⁽³⁾. كقولهم: "الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة". وقولهم: "العبرة بعموم اللفظ

(1) ينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص65، وشرح القواعد الفقهية: ص42.

(2) ينظر تفصيل هذا التطور وتماحه في اللوحة التاريخية التي مهّد بها ابن الزرقا لكتابه شرح القواعد الفقهية: ص36-44.

(3) ينظر قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص33 و36.

لا بخصوص السبب⁽¹⁾. وتختلف هذه عن التي قبلها بكون هذه القواعد استدلالية وليست أحكاماً فقهية، وأنها وسيلة للكشف عن الحكم، وليست ذات الحكم⁽²⁾. ولا يخفى تميز هذه القواعد من سابقتها بقوة حجيتها، وزيادة في الاطراد والعموم. وإذا عرفنا أن علم أصول الفقه وجد أصلاً لضبط العملية الاجتهادية في جزئيات الفقه الإسلامي، فمن الطبيعي -إذن- أن تكون قواعد الأصول أكثر كلفة وشمولاً مما جعل قواعد للفروع.

ويبدو أنه قد نتج عن البحث في علم مقاصد الشريعة ما يواكب تلك النزعة ألا وهو الإشارة والتأليف في قواعد المقاصد⁽³⁾. ومن المؤكد أن لهذه الوجهة ما بعدها في تطور الفكر المقصدي في الدراسات الإسلامية، أو في الأقل في مجال التشريع الإسلامي.

وفي ما يأتي خلاصة أهم مسلكين فقهيين للارتقاء نحو المقاصد العامة للقرآن الكريم في هذا المخطّط:

(1) إرشاد الفحول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق محمد سعيد البدري: دار الفكر/بيروت، ط1/ 1412-1992: ص230، وينظر الإبهاج، علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق جماعة من العلماء: دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1/ 1404هـ: ص185.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص36.

(3) استخلص الأستاذ الريسوني 54 قاعدة مما أشار إليه الشاطبي من ذلك؛ ينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص344-349. واستخلص الأستاذ الحسني 34 قاعدة مما أشار إليه ابن عاشور من ذلك؛ ينظر نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور: ص426-429. وقد أفردها حديثاً الدكتور عبد الرحمن الكيلاني بالتأليف في كتابه قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي.

1- أحكام القرآن ← تحليل الأحكام ← القواعد الفقهية ← أصول الفقه ←
القواعد الأصولية ← مقاصد الشريعة ← قواعد المقاصد ← المقاصد
العامة للقرآن.

2- الكتاب والسنة والإجماع ← القياس ← التعليل ← الوصف المناسب (كأحد
مسالك العلة) ← المصالح المرسله ← مقاصد الشريعة ← المقاصد العامة
للقرآن.

المطلب الرابع:- طرق أخرى.

لتطور الفكرة المقصدية طرق أخرى، أحببت أن أجملها هنا تجنباً للتطويل،
مركزاً على الإشارة إلى أهم ما أسهمت به في هذا التطوير، في النقاط الآتية:

1- من الطرق الواضحة والمباشرة في التمهيد لتطور الفكرة المقصدية في فهم
القرآن؛ تعرض العلماء لأحاديث فضائل بعض سور القرآن؛ كالذي ورد
في كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، وأن سورة (الكافرون) تعدل
ربع القرآن، وأن سورة (الزلزلة) تعدل نصف القرآن⁽¹⁾. كل هذا أدى بمن
تعرض له إلى محاولة استخلاص ما تمثله من أجزاء، ثم محاولة معرفة
مواضيع الأجزاء المتبقية. وأكثر مظان خوضهم في ذلك كلامهم في تأويل
حديث النبي (ﷺ) عن معادلة سورة الإخلاص لثلث القرآن، وأن الله تعالى
جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، في شروح الحديث، أو في تفسير سورتي
الإخلاص والفاتحة، وقد قادهم ذلك إلى محاولة بيان أهم أقسام القرآن،
وكبرى مقاصده.

(1) سيأتي بيان حال هذه الروايات والكلام عن معانيها في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذه
الأطروحة.

وخير من تتبّه -ممن سبق- إلى استثمار معاني هذه الأحاديث في بيان أمّهات مقاصد القرآن الشيخ أبو حامد الغزالي (ت505هـ) الذي استأثر فعلا بالريادة في الفكر المقصدي من شتى وجهاته؛ فبعد أن أسّس لعلم مقاصد الشريعة، كتب عن مقاصد القرآن ما إخاله الأول في بابهِ؛ وهو كتابه جواهر القرآن ودرره. فالكتاب -على الرغم من صبغته الصوفية- عرضَ لأهمّ مقاصد القرآن، وسرد عددا لا بأس به من الآيات مما عدّه جواهرَ أو دررا للقرآن. وهو بذلك يحوز الريادة من جهين؛ أحدهما سبقه إلى إفراد علم مقاصد القرآن بالتأليف. والثاني أن تصنيفه لعدد معتبر من آي القرآن إلى جواهر ودرر يمكن أن يُحسب له ريادة في مجال التّصنيف والفهرسة الموضوعية لآي القرآن، خصوصا إذا علمنا أنه شغل به أكثر من نصف الكتاب⁽¹⁾.

وأوسع كلام وجدته في ذلك بعد الغزالي ما أودعه ابن تيمية (ت728هـ) في كتابه جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به الرّحمن من أن قل هو الله تعدل ثلث القرآن، ومحتواه بيّن من عنوانه الذي يجزّ -لا محالة- إلى الحديث عن أمّهات مقاصد القرآن مع تحقيقات رائعة ومناقشات مطوّلة لما قيل في تأويل الحديث، وقد فصلّت الحديث عن كلّ ذلك في الباب الثاني من هذه الأطروحة.

(1) وقد عمد في آخره إلى ما رآه من آي لُبَابِ القرآن فنظم جواهرها في سلك بلغ ما ذكره سبعمئة وثلاثا وستين آية (763). ونظم دررها في سلك آخر بلغ عدد آياته سبعمئة وإحدى وأربعين آية (741). ينظر جواهر القرآن ودرره، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1/ 1409هـ-1988م: من ص 70 إلى ص175. ويقع في 175 صفحة من الحجم المتوسط. والظاهر أنّه من آخر كتبه تأليفا لأنه أحال فيه على أشهر كتبه، ولما فيه من النّبرة الصوفية الخالصة، فهو على ذلك حصيلة حياته العلمية وتجربته الروحية.

2 - ومما يُذكر في هذا السِّياق أيضا؛ تفسير بعضهم لمعنى (الآيات

المحكمات) الواردة في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ٧ آل عمران: ٧ بعبارة (أم الكتاب) الواردة في الآية نفسها، بمعنى أنها: أصل القرآن، والمرجع لما يدور في فلكها من معاني المتشابهات. وهذا قول أميل إليه لكونه فسّر إحكام الآية بما فسّرها به الله في الآية نفسها. وعلى كلّ حال فإنّ في ذلك إحياء بفكرة أن من آيات القرآن ما يمكن اعتباره بمثابة محاور ترجع إليها بقية المعاني الدائرة في فلكها، وتكون لها الحاكمية والهيمنة عليها، لشدة وضوحها، وعموم معناها. وهي فكرة وجود أمّهات مقاصد في القرآن نفسها، أو مقاصد عامّة تضبط ما يقع تحتها من المعاني والمقاصد الجزئية. بل طابق بعضهم بين المعنيين فقال: إنّ المحكمات في القرآن هي أصوله في الاعتقاد والتّشريع والآداب والمواعظ، وإنّها كانت كذلك لشدة وضوح دلالتها على معناها⁽¹⁾.

وقد يصحّ منّا في هذا السِّياق أن نُلحق بهذه الفكرة فكرة مفهوم القطعي والظني في دلالة آي القرآن، وتحكيم معاني قطعيات الدلالة فيما كان ظنيا وله مباحث مطوّلة كفاناها علم الأصول.

3 - ومما يجدر عدّه هنا إرهاصات أولى لتبلور أمّهات مقاصد القرآن؛ اهتمام بعض المتقدّمين بالكشف عن خصائص المكي والمدني، ممّا يجرّ بالضرورة إلى الحديث عن التّمايز الحاصل في مواضيعهما. وسيأتي الحديث عن ذلك بالتّفصيل في حينه.

(1) ينظر التحرير والتنوير: 1/155، ونظرات في تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد: ص 44-45.

4 - ومن ذلك أيضا ما نتج عن خوض بعض المتكلمين في الكلام على عدم كفاية العقل أو الغريزة البشرية لهدايته إلى ما يفعل، وتقيده شر نفسه وشرّ ما حوله، ومدى حاجة الإنسان إلى النبوة والوحي والرسالة. وقد قادهم هذا إلى استعراض المقاصد الربّانية، وبيان أصناف الهدايات القرآنيّة، وحاولوا التّدليل على أن ما تسعى إليه العقول مجتمعة من أسباب الهداية، مبسوط مُبَيَّن في القرآن بما لا مزيد عليه، بل عدّ بعضهم ذلك من وجوه إعجازه.

5 - وقريب من ذلك ما فعله بعض من تطعّم فكره بالفلسفة اليونانية والحكمة الإشرافية من المسلمين في بيان الصّلة بينها وبين الشريعة الإسلامية، ومحاولتهم التّوفيق بينهما، وقد قادهم ذلك إلى الاجتهاد للظّفر بمقاصد كلّ منهما، وبيان مدى مطابقة ما هدفت إليه الشريعة مع ما رامه الحكماء، وأنّ غايتهما واحدة⁽¹⁾ على الرغم من تميّز كلّ منهما بمصدره المعرفي، ومنهجها في البحث، وأسلوبها في العرض. ويمكن أن نمثّل لذلك بما كتبه ابن رشد (ت595هـ) في كتابه **فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتّصال**، الذي قال فيه: "وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق، والعمل الحق..."⁽²⁾ وكذلك ما حاوله ابن الطّفيل في قصّته **حي بن يقظان** من إثبات أنّ ما تأمر به الشريعة، وما يدركه

(1) وعلى ذلك بنى ابن رشد حكمه بوجوب النّظر في كتب القدماء شرعا لمن هو أهل لذلك، قال: "إذ مغزاهم في كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذي حثّا عليه". **فصل المقال**، ابن رشد. تحقيق د. محمد عابد الجابري: ص 61 و 93.

(2) **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتّصال**، ابن رشد : ص 54-55.

العقل السليم يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف⁽¹⁾. وحاول ذلك غيرهما من الفلاسفة الذين تعلّقت نفوسهم بشرائع الإسلام والفلسفة معا. وإلى نظير ذلك ذهب أهل التصوّف من قولهم بعدم مناقضة الشريعة الظاهرة، للحقائق الباطنة، لأن غايتها واحدة وهي الوصول إلى الحق، وإن اختلفت طرق الوصول إليه.

وعلى كلّ حال فإن ولّة النفس البشريّة وتشوّقها إلى اكتناه المجهول، وتتوّع أمزجة الناس، واختلاف ثقافتهم وموروثاتهم، وتباين همهم عملت عملها في تعاملهم مع مكنونات القرآن، فجاءت طرقهم إلى الكشف عن أمهات مقاصده على قدر ذلك الاختلاف، وعلى قدر ذلك التباين في الهمم. ولعلّيّ من خلال تتبّعي لهذه الطرق في تاريخ تطوّر العلوم الإسلامية- لو طُلب منّي أن أختار شخصيّة لريادة الفكر المقصدي بين القدماء (أقصد من عصر التدوين إلى أيام انحطاط المسلمين) لقلت دون تردّد: هو أبو حامد الغزالي؛ وذلك لتعدّد الطرق التي أسهم فيها (أصول الفقه، دراسات قرآنية، تصوف)، ولثقل الكلام الذي أودعه في كل مسلك.

المبحث الثاني- النظرة المقصدية للقرآن في العصر الحديث.

كان لتلك الجهود همودّ مع خمود العالم الإسلامي وانحطاطه، ثمّ إرهابات ثم انبعاث قويّ مع نهضتها الحديثة. وخير من اهتمّ بذلك في مدّة خمود الفكر الإسلامي حجة الله الدهلوي (1114-1176هـ) إذ يبيّن عرضه لما دعاه بالعلوم الخمسة مدى عنايته بمقاصد القرآن، ودرجة أهميّتها في التفسير لأن معاني القرآن المنطوقة لا تخرج -حسب قوله- عن هذه العلوم الخمسة⁽²⁾.

(1) قصّة الإيمان، نديم الجسر: ص72.

(2) ينظر الفوز الكبير، شاه ولي الله الدهلوي: دار قتيبة/ بيروت، 1409هـ-1989م: ص11.

وإذا تخطّينا هذه المدّة وجدنا لكل تلك الجهود عموماً، والنظرة المقصدية خصوصاً صدى واسعاً لدى المعاصرين، وبدرجة كبيرة لدى رواد المدرسة الإصلاحية في الدراسات القرآنية الحديثة.

وخير من تلقّف هذه الفكرة وروّج لها -بحكم المقام الذي أنعم الله به عليه- الشيخ **محمد عبده** (1905م). فيبدو أنّه بعد اطلاعه على كتاب الموافقات للشاطبي حينما زار تونس⁽¹⁾؛ أعجبه الكتاب وأخذ يوصي تلامذته ومحبيه بالاعتناء به⁽²⁾، بل تترجم أثر ذلك واضحاً في تفسيره للقرآن، فكان الكتاب بذرة، وكان الشيخ نعم الزّارع، إذ سرعان ما بدأت تثمر بين رواد الإصلاح في العصر الحديث؛ فقام تلميذه الشيخ عبد الله درّاز أولاً بعبء تحقيق ذلك الكتاب ودراسته والتعليق عليه ونشره. وكانت تلك أول ثمرة للفكر المقصدي في جانبه التشريعي، ثمّ تلاه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بثاني كتاب في مقاصد الشريعة أسماه مقاصد الشريعة الإسلامية (1940م) الذي حاول فيه الاستقلال التام لهذا العلم عن أصول الفقه⁽³⁾. ثمّ تلاه علّال الفاسي (ت1974م) بكتابه مقاصد الشريعة ومكارمها (1963م).

(1) زار الشيخ محمد عبده تونس في أواخر سنة 1884م - 1302هـ ووافق ذلك صدور أول طبعة للموافقات. ينظر نظرية المقاصد عند الإمام ابن عاشور، إسماعيل الحسني: ص70.

(2) قال عبد الله درّاز: "كثيراً ما سمعنا وصيّة المرحوم الشيخ محمد عبده لطلاب العلم بتناول الكتاب وكنت إذ ذاك من الحريصين على تنفيذ هذه الوصيّة". الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ضبط وتعليق عبد الله درّاز: دار المعرفة/ بيروت، (د.ت): 12/1، وينظر نظرية المقاصد عند الإمام ابن عاشور: ص71). وقال محمد الخضري: "...لكنّه أشار عليّ أن أطلع كتاب الموافقات للشاطبي، وأمّزج ما أُملي بشيء منه ليكون في ذلك نفثاً لطلاب هذا العلم إلى معرفة أسرار التشريع الإسلامي..." أصول الفقه، محمد الخضري ص11، وينظر نظرية المقاصد عند الإمام ابن عاشور ص71.

(3) ينظر كلام عبد المجيد النّجار في كتابه فصول في الفكر الإسلامي: ص425، ونظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور: ص425.

وكتب بعده أنيس عبادة (ت1984م) كتابه مقاصد الشريعة (1968م)، ثم كتب يوسف حامد العالم كتابه المقاصد العامة للشريعة الإسلامية (1971م) وقد مالت هذه الدراسات مؤخراً إلى محاولة عرض نظرية المقاصد عند كلٍّ من الشاطبي وابن عاشور ثم محاولة عرض قواعدها⁽¹⁾.

هذا من ناحية الدراسات الفقهية، وأمّا من ناحية الدراسات القرآنية فكان واضحاً تبني الشيخ عبد الله دراز للوحدة الموضوعية لسور القرآن، وتناسب الآيات بعضها مع بعض، وقد قام فعلاً بمحاولة استجلاء أوجه التناسب بين آيات سورة البقرة في كتابه النبأ العظيم. وممنّ هذا حذوه بعده؛ الشيخ محمد الصديق الغماري في كتابه جواهر البيان في تناسب سور القرآن، الذي ذكر فيه أوجه المناسبة بين سور القرآن سورة سورة⁽²⁾. ليكون ذلك إحياءً أو انعكاساً لآثار الجهود السابقة لعلم المناسبة بين الآيات والسور.

ويُذكر لدراز أيضاً أنه كان ينبّه تلاميذه على أهميّة الاهتمام بمقاصد السور في القرآن ووحدتها الموضوعية؛ كما استفاد مما قاله الشاطبي وغيره في ذلك؛ ومن ذلك قوله: "وقديماً قال الأئمة: إن السورة مهما تعددت قضاياها، فهي كلام واحد يتعلّق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويتراعى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلّق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وأنه لا غنى لتفهّم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية."⁽³⁾ وذكر عنه

(1) ككتاب نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي للريسوني، وكتاب نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور للحسني، وكتاب قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي للكيلاني.

(2) ينظر جواهر البيان في تناسب سور القرآن، محمد صديق الغماري: ط2/ 1406هـ-1986م، عالم الكتب/ بيروت. (160 صفحة) ومباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم: ص67.

(3) النبأ العظيم، عبد الله دراز. 153-154. ويُنظر التفسير الحديث (دراسة وتحليل): عبد الحكيم الأنيس.

ذلك تلميذه د. عبد الله شحاتة فقال: "كان يفتح عيوننا -في أثناء الدراسة الجامعية- على موضوع السورة وفكرتها العامة قبل تفسيرها. ويرى أن هذه النقطة غفل عنها جمع من المستشرقين فضلا عن علماء المسلمين"⁽¹⁾. وقد أثمرت تلك التنبيهات فيما قام به هذا الأخير في كتابه أهداف كل سورة ومقاصدها؛ فقد اعتني فيه ببيان مقاصد السور إجمالا مفردا لذلك مؤلفه هذا وإن كان فيه شيء من التفسير الإجمالي - مع تتبعه لمقاطع السورة وأسمائها بشيء من التعليق والبيان⁽²⁾. ثم فيما قام به الشيخ سعيد حوى في الأساس في التفسير من محاولة إبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم. وهذا التوجّه انعكاس جليّ وامتداد بيّن لفكرة البقاعي في نظم الدرر، وفكرة الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز. وقد تضافرت الجهود في السنوات الأخيرة مركزة على دراسة سور القرآن سورة سورة، على وفق منهج المدرسة الحديثة في التفسير، ويُنتظر منها خير كثير في مجال إعادة عرض البنية المقصدية لسور القرآن وأهم مقاصدها؛ ولا سيما أنه قد أُفردت سور كثيرة بالدراسة والتحليل في بحوث ورسائل أكاديمية⁽³⁾. وهي إن كانت دراسات مبعثرة ومتعددة المناهج؛ فإنها عظيمة الفائدة في الإحاطة بالسور من مختلف جوانبها. وأما تأثير التوجيه المقصدي للشيخ محمد عبده (849-1905م) في الدراسات القرآنية المعاصرة بشكله الأوسع فقد تجلّى أكثر في اهتمامات تلميذه محمد رشيد رضا (1865-1935م) من خلال سلوكه وجهتين مهمتين:

(1) أهداف كل سورة ومقاصدها، عبد الله شحاتة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ط: 1986م: 5/1.

(2) المصدر نفسه: 80/3.

(3) درس منها في كليتنا السور الآتية: الأحزاب، الإسراء، التوبة، الفتح، النور، طه، الملك، الفرقان، محمد ﷺ، المجادلة، والبعض الآخر منها قيد الدراسة.

- إحداهما؛ أنه قام بتطعيم تفسيره المنار بكثير من مقاصد السور، فمن أسس منهج صاحب المنار في تفسيره تذييل تفسير كل سورة بملحق لأهم موضوعاتها وقضاياها⁽¹⁾. هذا مع التسليم بالوحدة الموضوعية للسورة. فزواج بذلك بين فكرة الفيروز آبادي المتمثلة في استخلاص أهم مقاصد السور وأغراضها، وطريقة البقاعي في افتتاح الكلام في تفسير أي سورة بإيراد مقصدها أو محورها، ثم وظّف ذلك في تفسيره.

وقد ظهر أثر ذلك جليا فيما تلاه من تفاسير العصر الحديث، وغدا سمة بارزة في الكثير منها؛ كتفسير الشيخ أحمد مصطفى المراغي (1298-1364هـ/ 1881-1945م) الذي ذيل تفسيره للسور بخلاصة عما حوته من موضوعات، وما تضمنته من أحكام، وما رمت إليه من مقاصد وأغراض، ولم يترك الكلام عن ذلك إلا في القليل من السور.

وممن اعتنى بذلك أيضا الأستاذ محمد عزة دروزة (1305-1404هـ/ 1888-1984م) في تفسيره الموسوم بالتفسير الحديث⁽²⁾. فقد التزم فيه أن يضع مقدّمة أو تعريفا موجزا للسور قبل البدء بتفسيرها، يتضمن: وصفها ومحتوياتها وأهم ما امتازت به. وبذلك أعطى للقارئ فكرة ملخصة عن السورة؛ أجوائها وموضوعاتها، وهذا يعين على فهمها واستيعابها بشكل أفضل. ويمكن من النظر فيها واستخلاص مقاصد القرآن في قسميه المكي والمدني، ويزاد إلى ذلك اجتهاده في ترتيب السور وتفسيرها حسب ترتيب نزولها، وذلك وإن كان مما انتقده

(1) ينظر تفسير القرآن الحكيم: 6/112-114. فيقول مثلا خلاصة السورة بعد إتمام تفسيرها.

(2) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة. ط: 1381هـ-1962م. دار إحياء الكتب العربية.

العلماء- فإنه يفيد في استخراج ترتيب نزول الموضوعات وقد يفيد في بيان درجة الأولويات بين مقاصد القرآن العامة⁽¹⁾.

وممن عني بذلك أيضا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (1871-1973م) في تفسيره التحرير والتنوير؛ إذ صدر تفسير كل سورة بنبذة عن أغراضها معنونة غالبا بعبارة "أغراضها". وللشيخ ابن عاشور لفظة لطيفة في هذه الوجهة إذ إنه بعدما قدّم لكل سورة بعرض أغراضها مجملّة؛ عمد إلى ما قدّم به لتفسيره، فعرض مجمل مقاصد القرآن في المقدمة الرابعة من مقدّمات تفسيره⁽²⁾ وهي خطوة رائدة تحسب له في السعي إلى إجمال أمّهات مقاصد القرآن الكريم، بالأسلوب الحديث. وممن أشار إلى ذلك إشارة خفيفة أيضا الشيخ محمود شلتوت (1893-1963م) في تفسيره المعنون بـإلى القرآن الكريم تحت عنوان (مقاصد القرآن)⁽³⁾.

وممن قدّم لتفسير السور بمقاصدها مؤخرا؛ محمد علي الصّابوني في صفوة التفاسير والدكتور وهبة الزحيلي في (التفسير المنير في العقيدة والشريعة

(1) التفسير الحديث (دراسة وتحليل): عبد الحكيم الأنيس. (رسالة ماجستير في كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد). ص278، والإنسان والقرآن وجهها لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة: قراءة في المنهج)، احميدة النيفر: دار الفكر/ دمشق، ط1/1421هـ-2000م: ص67-69.

(2) تفسير التحرير والتنوير: ج1/ الكتاب الأول: ص38-39.

(3) ينظر إلى القرآن الكريم (تفسير)، محمود شلتوت: شركة الشهاب/ الجزائر، (د.ت): ص5-6.

والمنهج⁽¹⁾ الذي ذكر أن من منهجه فيه بيان ما اشتملت عليه كل سورة إجمالاً، مع الحرص على التفسير الموضوعي قدر الإمكان⁽²⁾.

- وأما الوجهة الثانية فهي قيام محمد رشيد رضا بأول محاولة عصرية⁽³⁾ للتأليف في مقاصد القرآن تأليفاً شمولياً في كتابه الوحي المحمدي (1932م)⁽⁴⁾؛ الذي أورد فيه فصلاً عن مقاصد القرآن شغل به أكثر من نصف حجم الكتاب⁽⁵⁾ وذكر أنه أنموذج لمشروع كتاب مستقل في مقاصد القرآن⁽⁶⁾.

(1) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ.د. وهبة الزحيلي: دار الفكر المعاصر/ بيروت، دار الفكر/ دمشق، ط1/ 1411-1991.

(2) ينظر المصدر نفسه: 9/1.

(3) ذكر بعضهم أن التأليف في مجال مقاصد القرآن منعدم فقال: "وأما الكلام على استخلاص مضمون القرآن الكريم في نظرة موضوعية شاملة لاستجلاء ما يتضمنه من أنواع الهداية الإلهية فإن ذلك لم يحظ بالعناية عند الأقدمين والمحدثين على السواء" (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، حكمت عبيد حسين الخفاجي: ص17)، وقد كنت أعتقد ذلك أول الأمر ولكن كثرة بحثي فيما يصلح أن يكون دراسات سابقة لهذا الموضوع قادتني إلى عدد من الكتب في الموضوع، وهي وإن كانت متفاوتة في درجة إفراء الموضوع بالبحث فإن منها ما يمكن اعتباره دراسة شبه متكاملة للموضوع؛ أذكر منها جواهر القرآن ودرره للغزالي قديماً ومقاصد القرآن لمحمد الصالح الصديق حديثاً. وكان يجدر بالباحث أن يشير -في الأقل- إلى الجهد الذي بذله محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي في ذلك.

(4) ينظر الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا: المكتب الإسلامي/ بيروت، ط9/ 1399هـ- 1979م.

(5) يشغل هذا الفصل 176 صفحة مقابل 123 صفحة لباقي الفصول - هذا بعد استبعاد مقدمات الطباعات المختلفة والتقرّيزات-.

(6) ينظر الوحي المحمدي: ص167. والظاهر أنه كتاب لم يتيسر للكاتب إنجازه.

ثمّ كتب بعده العقاد كتابه الفلسفة القرآنية (1947م)⁽¹⁾. ثم جاء بعدهما محمد الصالح الصديق ليؤلف كتابه مقاصد القرآن (1955م)⁽²⁾. وبعده بمدة كتب الشيخ محمد الغزالي بعنوان المحاور الخمسة للقرآن (1989م). وممن كتب في ذلك مؤخرًا الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه كيف نتعامل مع القرآن العظيم (1997م)⁽³⁾. ويمكن أن نضيف إلى هذه المؤلفات، بعض الأبحاث المميّزة التي أقيمت في بعض المؤتمرات منها بحث للأستاذ محمد صالح الصديق ألقاه في الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي بالجزائر⁽⁴⁾ بعنوان (مقاصد القرآن). وبحث آخر ألقاه د. معروف الدواليبي بعنوان: القرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسان -في المبدأ، والمعاد، والمعاش-⁽⁵⁾.

وأما النّبذ اليسيرة عن الموضوع فكثيرة مبعثرة في الكثير من المؤلفات القديمة والحديثة، وسيأتي الحديث عمّا في هذه المؤلفات والأبحاث والنّبذ اليسيرة مما يفيد موضوع البحث مفصّلًا في مقامه من هذه الأطروحة.

(1) الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد. ط: 1947م. لجنة البيان العربي/ القاهرة.

(2) مقاصد القرآن، محمد الصالح الصديق. ط1/ 1375هـ - 1955م. المطبعة العربية/ الجزائر.

(3) كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟، يوسف القرضاوي. ط: 1997م. مركز بحوث السنة والسيرة/ جامعة قطر.

(4) أقيمت المحاضرة في ملتقى القرآن، أثناء انعقاد الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي بالجزائر العاصمة، في فترة: 2-8 ذو القعدة 1407هـ - 1-7/ 1981م. ونشرت محاضراته في المجلد الثاني من كتاب الأصالة.

(5) الأصالة (ملتقى القرآن)، وزارة الشؤون الدينية / الجزائر: 221/2. (من محاضرة ألقاها د. معروف الدواليبي في ملتقى القرآن)

المبحث الثالث - أهمية معرفة أمّهات مقاصد القرآن.

أنزل الله تعالى قرآنه الكريم وأكثر فيه من الحثّ على ترتيله وتدبره وتعقله ثم العمل به. وذمّ من ارتضى لنفسه من القرآن وظيفة الحمار؛ يحمله ولا يعقل منه شيئاً. وفي ضوء ذلك، عكف سلف هذه الأمة عليه بالقراءة والتدبر، وأخذ كلّ منهم بحظه منه علماً وعملاً، يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويردّون ما تشابه منه إلى محكمه، وينظرون إلى جزئياته من خلال ما شاع واشتهر لديهم من مقاصد رسالة القرآن⁽¹⁾.

ثمّ أظّل الأمة الإسلامية زمان عصفت فيه بهم رياح الفتن تشتتتهم، وفزع كلّ فريق منهم يستجير بما يوافق مذهبه من آي القرآن يبتغي بها الغلبة، فضرب القرآن بعضه ببعض حتى ضاق بهم ذرعاً.

لقد أدى الاستغراق في جزئيات القرآن إلى تجميد كثير من نصوصه، وحال ذلك دون الرقيّ إلى فقه مقاصده الكبرى ورسالته العامة. فاختلّت الموازين، واختلط على الناس مراتب الأولويات في مسائل هذا الدين؛ فمُنيت الأمة الإسلامية بنكسات تلتها نكسات على شتى الأصعدة.

عمد قوم إلى آيات العقائد فسبكوا منها مادّة أولية لمعاولهم، ثم أكثروا بها الجدل والخصومة، فلمّا ضاق بهم ما وسع سلفهم من تلك النصوص، استوردوا لهم موازين أجنبية حلّوا بها تلك النصوص، ونظروا إليها من خلالها حتى أذهبوا عن عقيدة الأمة رونقها وأصالتها، وغدا غاية مقصود كلامهم فيها؛ إنّما هو حراسته عن التّشويش على أهل البدعة لا غير⁽²⁾.

(1) ينظر إلى موقف الفاروق رضي الله عنه من مسألة توزيع أراضي العراق.

(2) ينظر المنقذ من الضلال، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: مكتبة النشر العربي/ دمشق،

وعمد قوم إلى آيات الأحكام فخاضوا في تفسيرها، حتى دبَّ إليهم ريح التعصّب المذهبي، فأصبح كلّ واحد فيه يقولها ما قال به صاحب مذهبه. وكلُّ ينتقي منها ما يوافق مذهب صاحبه، يخاصم في ذلك ويقسم على صحّة مذهبه ورجحانه، وأسهب هؤلاء في التفريع حتى شغلوا بالفقه الإسلامي أكثر من نصف كتب التّراث، على الرغم من أنّ آيات الأحكام لا تتعدّى -على قول بعضهم- نيفاً وخمسمئة آية فقط. وصدق من قال: "ما رأيت سرفاً قطّ إلا وإلى جانبه حقّ مضيع"⁽¹⁾. ربّما قد نعذر هذا الإسهاب في التّأليف بكون مدار الفقه على الاجتهاد، وأنّه الجانب المرن المتجدّد من هذا الدّين؛ يتغيّر بتغيّر الزمان والمكان، ولكن ما ابتلي به من حمى التعصّب والخصومة قعد به عن درك غايته من وجهين:

أحدهما فقدانه الروح التي تمّده بالحياة، وجفائه إثر فصله عن أخلاق القرآن وعقائده، ففقد بذلك الدّوافع والضّوابط، ونرى ردّة الفعل على ذلك جليّة في محاولة أبي حامد الغزالي⁽²⁾ إعادة صياغة الفقه في كتابه إحياء علوم الدّين.

وأما الوجه الثّاني فلأنّ ذلك التّشتت وتلك الخصومة قعدت بتطوّر البحث في مقاصد الأحكام على مستوى العلل الجزئية، ولم يرتق إلى المستوى الكلّي الشّمولي

(1) ذكر هذه المقالة الجاحظ ونسبها إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق المحامي فوزي عطوي: دار صعب/ بيروت، ط1/1968م: 513/1.

(2) لقد كانت بصيرة هذا الرّجل وعقليّته المقصدية نافذة ومتقدّمة على عصره إلى حدّ بعيد وذلك . أنّه إن لم يُفرد مقاصد الشّريعة بالتّأليف فإنه أشار إلى زبدة ما انتهى إليه هذا العلم بعده وهو تحديده لمقصود الشّرع من الخلق في حفظ الكلّيات الخمسة: الدّين، النفس، العقل، النّسل، المال. وأكّد استحالة عدم اشتغال أي ملّة من الملل على هذه الكلّيات. ثم ترتبته للمصالح الشرعية حسب درجة قوّتها: الضرورات، الحاجات، التّحسينات. ينظر المستصفى: ص174، وشفاء الغليل في بيان الشّبه والمخيل ومسالك التّعليل، أبو حامد الغزالي، حمد الكبيسي: مطبعة الإرشاد/ بغداد، ط: 1971م: ص162.

إلا في أيام انحطاط الأمة الإسلامية على يد أبي إسحاق الشاطبي. ففقدت ذلك النمط من الفقه وهي أحوج ما تكون إليه. وبقي ذلك الجهد المبارك مهملاً لم يُتدارك النظر إليه -نظرة جادة- إلا في العصر الحديث.

يقول محمد الطاهر بن عاشور: "كان إهمال المقاصد سبباً في جمود كبير للفقهاء، ومِعولاً لنقض أحكام نافعة. وأشأم ما نشأ عنه مسألة الحيل التي ولع بها الفقهاء بين أكثر ومقل"⁽¹⁾.

فما كان سعي الشاطبي وابن عاشور بعده وغيرهما -إذن- إلا محاولة لتجاوز التشتت الذي آل إليه أمر الفقهاء، والمنحى التجزيئي الذي اقتصرُوا عليه في فهم أحكام الشريعة بمراتبها المختلفة، وما انتهى إليه نظرهم الجزئي في نصوص الشريعة وأحكامها، غفلة منهم عن المنطق العام الذي ينتظمها، والمقاصد الكلية المنوطة بها. وقد أدّى ذلك إلى تغييب الصورة الكلية للشريعة الإسلامية⁽²⁾.

أمّا في مجال الأخلاق والسلوك فقد اتخذ وجهة كان الأصل فيها البحث عن حقائق مراد الله تعالى مما شرع، والسلوك إليه على وفق ما يريد، وشمّر أهل الزهد والتّصوّف عن ساعد الجد والمجاهدة إلى أن دبّ إلى طرقهم داء الأمم وآفة العلوم، آفة فصلت أهل هذه الطّريق عن عالم الشّهادة الذي جعلهم الله مستخلفين فيه، وفصلت بعضهم عن عقائد القرآن فشطحوا أمام العامّة بما لا خلاف في كونه كفراً بواحاً. وفصلت بعضهم عن شرائع الإسلام فنزعوا عنهم ربة التزام بأحكامه لأنها -في تصوّرهم- وسائل أو وسائل أوصلتهم إلى مقصد المقاصد، فلا حاجة لهم فيها! وحتى الحقائق التي طالما اعتذروا بها عن إهمال غيرها تقزّمت لديهم حتى غدت مجرد رسوم. وقد لخص أحد أكابر القوم مشوار التّصوّف بقوله إن التّصوّف

(1) أليس الصّبح بقریب، محمد الطاهر بن عاشور. الشركة التونسية لفنون الرّسم/ تونس.

ط: 1985: ص200.

(2) ينظر دراسة المحقق لكتاب ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية ص71 وص99-100.

ابتدأ خُرقة وانتهى خُرقة؛ خُرقة أَلقت بنقلها على فكر الأمة ووعيتها فألقتته صريع الخمول والجهل والفقر، فغدت لقمة سائغة لمن يودّ الظفر بها، واستعبادها. وأخيرا إذا نظرت في التراث التفسيري لقرآن هذه الأمة فلن تجد فيه إلا انعكاسا لما ذكرناه في المجالات السالفة الذكر، بل إن الحال أسوأ. فربما أدى جمع الآيات في مجال من المجالات المذكورة، ومعالجة بعضها ببعض إلى تكوين نوع من التفسير الموضوعي، أقول ربما أدى ذلك إلى تحقيق درجة معتبرة من الكلية، ومستوى من التكامل في الرؤية الشمولية، لا تتحقق قطعا فيما درج عليه المتأولون للتفسير الإجمالي (آية آية)، والموغلون في التفسير التحليلي.

أجل لا ينكر لهم أنهم تركوا لنا تراثا تفسيريًا ضخما -ما بين مطوّلات ومختصرات- حرص الكثير منهم فيه على إيداع حصيلة ما يحمله من ثقافات، وما يتقنه من علوم في تفسيره. وأخشى أن أقول أن حرص بعضهم على ذلك، كان أكثر من حرصهم على الربط بين معاني القرآن من أجل الوقوف على الصورة الكلية الواضحة لمصّب روافد كلّ تلك المعاني الجزئية. ويمكن أن نستثني من ذلك كلّ انتباه بعضهم إلى هذا الخلل في تلك الوجهة من التفسير، خلل ابتدأ البعض بتداركه بالتنبيه على أهميّة الربط بين معاني الآيات القرآنية؛ كالذي يروى عن أبي بكر النيسابوري (ت318هـ) من أنّه كان يعيب على علماء بغداد جهلهم المناسبة بين الآيات⁽¹⁾. ونبّه على ذلك بعده أبو بكر بن العربي (543هـ) والفخر الرازي (606هـ) ولكن ذلك التنبيه لم يؤت أكله إلا في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر بكتابين أحدهما للباقعي (885هـ) أسماه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، والثاني للسيوطي (911هـ) أسماه تناسق الدرر في تناسب السور⁽²⁾. وبقيت

(1) ينظر مقدمة محقق تناسق الدرر للسيوطي، ص21. ومباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم: ص66.

(2) ينظر مقدمة محقق تناسق الدرر، ص21-22. ومباحث في التفسير الموضوعي: ص66-67.

المسألة مقتصرة على هذا الحدّ، وغاية ما أضافه المحدثون هو أنهم صدّروا أو ذيلوا تفسير كلّ سورة بنبذة مما اتضح لهم أنه مقاصدها أو أغراضها.

وأود التّنبية هنا على أنني لست أنتقد الوجهة التجزيئية التحليلية في التعامل مع نصوص القرآن، إذ لا ينكر أحد سبقهم، وعظيم فضلهم علينا، وعظمة قدر الميراث الذي خلفه لنا هذا المنحى، وشدة حاجة الأمة إلى ثمرات هذه الوجهة، وإنّما استغربت كثيرا أن يشغل الجميع بأداء فرض كفائي يتنافسون ويتفنّون في القيام به وبيت الأمة كلّ عورات؟! إنّ عينية الكفائي تسقط عن الجميع بمجرد أن يقوم به من هو كفء له.. ولكن الفروض الكفائية كثيرة. إنك ترى أن لا أحد من النّاس يعيب على الصّانع إتقانه لصنعتة، صائغا كان أو حدّاداً أو نجارا أو بناءً.. ولكن ما لا يمكن تصوّره، هو أن يكون كلّ الصّانع المهرة صاغاً أو بنّائين أو غير ذلك. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ما قول الرّجل العاقل في قوم أحكموا صنع اللّين والأبواب والأقفال والنوافذ والأرائك والموائد وأنواع الفرش، ثمّ انشغلوا بالتّنافس في إتقان تلك الصّناعات، وغفلوا عن الغرض من إيجاد كلّ تلك المصنوعات! إن الغرض هو بناء البيت لا محالة، والغرض الأخير هو نيل السّعادة والهناء فيه. إذا لا بد للمجتمع الذي ينشد التّكامل من تنوّع في الكيف، وموازنة بين الكم والكيف.

فقصدي من هذا العرض إذن هو التّنبية على الخلل الذي وقع من جرّاء مضيّ جميعهم في هذه الوجهة، وتفريطهم في سلوك الاتّجاه الكلي، والمنحى الشّمولي في تعاملهم مع مختلف العلوم الإسلامية. أو تأخّرهم في الانتباه إلى خطرها جدّيا إلى أن خرّ عليهم سقف الخلافة.

على كلّ حال -إذا استثنينا بعض الشّخصيّات الفطنة- فإنّه يمكننا أن نقول إن الاتّجاه التّشعّبي كان ظاهرة عامّة، شوّش الإسهاب فيها على الأمّة وضوح الصورة

الكلية لمقاصد رسالة القرآن. وأخلّت بموازنين نظرتها إلى كليّاته، ومقاييس ترتيب الأولويّات. وذلك من أكبر ما أخذ عليهم.

يقول د. يوسف القرضاوي: "فإن من أكبر ما أخذ على المسلمين في عصر التخلّف والانحطاط: أنّهم كبّروا الأمور الصّغيرة، وصغّروا الأمور الكبيرة، وعظّموا الشّيء الهين، وهوّنوا الشّيء العظيم. ولا ريب أن هذا خلل منكر، يترتّب عليه تضييع أمور ذات بال في حياة الأمة، على حين تأخذ أمور أخرى تافهة أكثر من حجمها"⁽¹⁾.

لقد أدى إهمال النظرة الشاملة في التعامل مع نصوص القرآن إلى اختلال كبير في الموازين، وخطّ فاضح لمراتب مقاصد رسالة القرآن، وجهل بأولويّاته فوق فيها على مرّ العصور تقديم وتأخير، وتضخيم وتقرّيم، على خلاف وضعها الحق. ولا يزال أثر ذلك الخلل الكبير يستفحل في حاضر حياة الأمة حتى أصبحت -على حدّ قول الشيخ القرضاوي- "تصغرّ الكبير، وتكبّر الصغير، وتعظمّ الهين، وتهوّن الخطير. وتؤخّر الأوّل، وتقدّم الأخير. وتهمل الفرض، وتحرص على النفل. وتكثرث للصّغائر، وتستهيّن بالكبائر. وتعترك من أجل المختلف فيه، وتصمت عن تضييع المتفق عليه"⁽²⁾.

إنّ تجد أناسا يديرون معارك دائمة في مسائل جزئية أو خلافية مهملين التحدّيات الكبرى التي تواجه أمّتهم من قبل الحاقدين عليها، أو الكارهين للإسلام، والطّامعين فيه، والخائفين منه، والمتربّصين به. إنّ القليل من هذا النقد الذاتي ظاهرة صحيّة ولكنّ تفشيّه على هذا النحو قد حوّلته إلى ورمٍ سرطاني ينخر في وحدة هذه الأمة وروابط ألفتها.

(1) السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، يوسف القرضاوي: ص 306.

(2) في فقه الأولويات: ص 25-26.

وتجد آخرين يتحرّجون من فعل الصغائر أو المكروهات، ولا يستعظم أحدهم أن يترك الصلاة بغير عذر. وتجده يهتمّ بفروع الفروع، ولا يأبه بأصول الأصول التي يقوم عليها بيت الإسلام كالعقيدة والتّوحيد وإخلاص الدين لله⁽¹⁾. ومن آثار هذا الجهل أن كثيرا من الناس يفضلّ كثيرا ممن حسنت أخلاقهم من أهل الكفر على بعض عصاة الموحّدين؟! ظاهرة قديمة قال بها قوم فردّ عليهم الله تعالى بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) التوبة: ١٩ - ٢٠ ففي قولهم إذا تجاهل لعظيم جرم من ينكر خالقه، وجهل بعظمة الشهادة لله تعالى بالالوهية والربوبية والوحدانية.

وما ذلك إلا لما وقع من مبالغة في ضبط الرسوم والألفاظ، وتضييع المعاني والأحكام، ومراعاة المظاهر والأشكال، وإهمال المقاصد والجواهر، وطغيان الجزئيات وتناسي الكليات⁽²⁾.

فما أحوج أمّتنا اليوم إذن إلى تحديد محاور تدبير عليها جهودها، وتجمع به فرقته، وتلمّ به شعّتها، وتوحّد به وجهتها. بل الواجب على الأمة اليوم إعادة ترتيب الأولويات وإعادة بناء منظومة الموازين والقيم ووضع كلّ في نصابه. وعليها أن تحافظ على النسب والمراتب التي جعلها الشرع لما شرع من الاعتقادات والأعمال،

(1) ينظر في فقه الأولويات: ص 21-25.

(2) ينظر تصدير د. طه جابر العلواني لكتاب نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الريسوني:

وتنزل كلّ أمر منزلته، حتى يبقى كلّ عمل في مرتبته الشرعية، لا ينزل عنها، ولا يعلو عليها⁽¹⁾.

وفي هذا ينصح د. طه جابر العلواني أنه لكي تأخذ الوجهة المقصدية مداها المنهجي، وتصبح جزءاً من المحدّدات المنهجية المعرفية، وتؤدي دورها في معالجة الأزمة الفكرية لا بدّ من التركيز على المقاصد الكلية للرسالة الخاتمة، والشرعية التي جاءت بها. فإذا حصل الوعي بهذه الكليات وأمكن التعامل معها باعتبارها محدّدات منهجية، أمكن تحويلها إلى جزء معتبر من نظام منطقي إسلامي يضبط حركة الفكر الإسلامي كله، ويعصمها من الوقوع في الخطأ أو الانحراف. وهذه خطوة ضرورية لإعادة تشكيل العقل المسلم ولإعادة ترتيب موازينه وألوياته⁽²⁾.

وقد ظهر لبعض العلماء التفاتة طيبة إلى أهميّة المعرفة بالمقاصد في التعامل مع القرآن تفسيراً ودراسة. منها أن ذلك سيحدّد وظيفة القرآن في المجتمع؛ يقول الشيخ محمود شلتوت في مستهل تفسيره: "وسنبدأ إن شاء الله من أول القرآن بحديث نجل فيه مقاصد القرآن جملة، ونشير إلى أساليبه التي اتخذها سبيلاً للدعوة إليها. ونرجو أن يكون هذا بمثابة منار يهدي إلى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه، وما ليس من مهمته فلا ننظره منه، ولا نكره آياته عليه"⁽³⁾.

(1) ينظر تصدير د. طه جابر العلواني للمصدر نفسه: ص11. والسياسة الشرعية في ضوء

نصوص الشريعة ومقاصدها، يوسف القرضاوي: ص306.

(2) ينظر تصدير د. طه جابر العلواني لكتاب نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور: ص6.

(3) إلى القرآن الكريم، محمود شلتوت: ص5.

وإن ذلك سيساعد -لا محالة- في تدريب السائح في رياض القرآن عامّة، والمفسر له خاصّة، على التعامل مع كليات القرآن ومقاصده، والنظر إلى جزئياته من خلالها.

كما أنّه سيتدرّج بذوي الثقافات الإسلامية اليسرة إلى أبواب القرآن وعلومه المختلفة من أيسر الطرق عبر أوسع الأبواب، فيدخل وهو مطمئن أنّه إن كان ستفوته معرفة كثيرٍ من كنوز القرآن، فإنّه لم يفته مجمل ما فيه، وأهم ما حمله من مقاصد. وأنّه إن لم يستطع نيل كلّ ما في تلك الرياض من أسباب الخيرات فإنّه بمأمن من الوقوع فيما يسبّب هلاكه. يقول د. معروف الدوالي: "إن خير طريقة لوصل طلاب المعرفة بالقرآن الكريم؛ هو أن نجرّد لهم القرآن أولاً من جزئياته وتفصيلاته، وأن نردهم إلى كلياته العامة، ومقاصده المحدودة في ثلاث⁽¹⁾، وهي تلك التي حملتها رسالة القرآن منذ أيامها الأولى، ثم ما لبثت هذه الرسالة أن أخذت بتأكيدا في صور مختلفة، وبالإيجاز تارة، وبالتفصيل تارة أخرى، وذلك حسب ظروف المخاطب، ومقتضيات الأحوال، وأساليب التربية العلمية الناجحة، وفي خلال ثلاث وعشرين سنة"⁽²⁾.

وقد نبّه علماء الإسلام في بعض مؤلفاتهم على أهميّة بسط المقاصد العامّة لأي علمٍ أو كتابٍ للمتعلّمين قبل التوغّل في مسائله المعقّدة؛ يقول أبو حامد الغزالي في مستهل كتابه المستصفى: "فصنفته وأتيت فيه بترتيب لطيف عجيب، يطلّع الناظر في أول وهلة على جميع مقاصد هذا العلم، ويفيده الاحتواء على جميع مسarach

(1) حدّدها الأستاذ في ثلاث مقاصد، سيأتي ذكرها ومناقشتها في موضعها من الباب الثاني من هذه الأطروحة.

(2) كتاب الأصالة (ملتنقى القرآن)، وزارة الشؤون الدينية / الجزائر: 221/2. (من محاضرة ألقاها د. معروف الدواليبي في ملتقى القرآن بعنوان: القرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسان - في المبدأ، والمعاد، والمعاش -)

النظر فيه؛ فكل علم لا يستولي الطالب في ابتداء نظره على مجامعه ولا مبانيه، فلا مطمع له في الظفر بأسرارهِ ومباغيهِ⁽¹⁾.

وللزركشي قريب من هذا المعنى في تقديمه لكتابه المنشور في القواعد إذ يقول: "أما بعد فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة؛ هو أوعى لحفظها، وأدعى لضبطها. وهي إحدى حِكَمِ العدد التي وضع لأجلها"⁽²⁾.

وقد رأيت أن المتقدمين ثم المعاصرين قد خاضوا كثيرا في جزئيات القرآن، ثم في مقاصده الجزئية ومقاصد سوره، ولمحوا إلى كليّات مقاصده، ومنهم من حاول أفراد التّأليف في ذلك، وأظن أنه قد آن الأوان للقيام بأولى الخطوات -مهما كان مقدارها- في مشروع استخلاص منهجيّ شامل لكليّات القرآن ومقاصده العامة وضبطها، ضبطا محكما، أو على الأقل رسم منهجيّة محكمة لتحقيق ذلك.

ولا أبرح هذا المقام -بعد كل ما ذكرت- من غير أن أشير إلى الفائدة المرجوة من ذلك كله؛ أي: معرفة مقاصد القرآن، واستخلاص أهمّها، وترتيبها في منازلها التي قدّرت لها. فأقول أن فائدة ذلك كله راجعة إلى أن مقاصد القرآن هي في الحقيقة مقاصد الله تعالى من إنزاله كتابه.

ثم إنّ للناس مقاصد قد يتفّقون على بعضها، ويختلفون في بعضها الآخر، ولكنهم متّفقون جميعا على مقصد واحد، وغاية قصوى واحدة؛ ألا وهي السّعادة أطول وقت ممكن، وهذا عينه ما يقصده الله تعالى لهم من كتابه، على اختلاف بينه تعالى وبينهم في الوسائل الموصلة إلى ذلك، وهنا يفترق الناس، فمن عرف تلك الوسائل التي هي المقاصد التّبعية للقرآن ووافق مقصوده مقصود الله تعالى، وعمل

(1) المستصفى: ص4.

(2) المنشور في القواعد، الزركشي. تحقيق تيسير فائق أحمد محمود: وزارة الأوقاف/ الكويت،

ط2/ 1405هـ: 1/65.

وفق ذلك فاز بمقصوده، ومن خالفت مقاصده مقاصد الباري تعالى ضلّ وخسر الدنيا والآخرة.

فحاصل المطلب إذا أن أهميّة معرفة أمّهات مقاصد القرآن الكريم ترجع إلى أن يبدأ المكلف بما بدأ الله به، ثمّ أن يوافق مقصوده مقصود خالقه.

الباب الثاني

طرق معرفة مقاصد القرآن الكريم، واستخراجها.

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: طرق معرفة مقاصد القرآن الكريم.

المبحث الأول:- طرق استخراج مقاصد القرآن من ألفاظ الإرادة الإلهية في القرآن.

المبحث الثاني:- طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال تعليقات الكتاب والسنة..

المبحث الثالث:- طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال الأسماء والأوصاف.

المبحث الرابع:- طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال خصائصه العامة.

المبحث الخامس:- طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال مواضيعه.

المبحث السادس- طرق استخراج مقاصد القرآن من معرفة حوائج الناس إلى الوحي.

الفصل الثاني: استخراج كبرى مقاصد القرآن الكريم.

المبحث الأول:- استخراج ما صرّح به القرآن من أمّهات مقاصده.

المبحث الثاني:- استخراج مقاصد القرآن بالسنة النبوية الشريفة.

المبحث الثالث:- ذكر أقوال أهل العلم في أقسام القرآن وأمّهات مقاصده.

الفصل الأول

طرق معرفة مقاصد القرآن الكريم

المبحث الأول- طرق استخراج مقاصد القرآن من ألفاظ الإرادة الإلهية في القرآن.

سلف أن ذكرت في الباب التمهيدي أن لفظ القصد قد ورد في ستة مواضع من القرآن الكريم، وأن ليس فيها ما يفيد مفهوم المقاصد الإلهية من إنزال القرآن، ولذا فإنني جنحت إلى التماس مبتغاي باتباع أكثر مرادفات لفظ المقاصد ذكراً واستعمالاً في القرآن وأشدّها قرباً في الدلالة على معناه، وهي ما اشتق من لفظ الإرادة⁽¹⁾.

(1) الإرادة لغة: المشيئة، والفرق بينهما في الاستعمال القرآني؛ قال الجرجاني: "مشيئة الله عبارة عن تجلي الذات والعناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود وإرادته عبارة عن تجليه لإيجاد المعدوم فالمشيئة أعم من وجه من الإرادة ومن تتبع مواضع استعمالات المشيئة والإرادة في القرآن يعلم ذلك وإن كان بحسب اللغة يستعمل كل منهما مقام الآخر".
التعريفات، الجرجاني: (277/2). وقال أبو السعود: "والإرادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها إليه أو القوة التي هي مبدوءة والأول مع الفعل والثاني قبله وكلاهما مما لا يتصور في حقه تعالى ولذلك اختلفوا في إرادته عز وجل فقيل إرادته تعالى لأفعاله كونه غير ساه فيه ولا مكره ولأفعال غيره أمره بها فلا تكون المعاصي بإرادته تعالى وقيل هي علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل والوجه الأصلح فإنه يدعو القادر إلى تحصيله والحق أنها عبارة عن ترجيح أحد طرفي المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى بوجبه وهي أعم من الاختيار فإنه ترجيح مع تفضيل". إرشاد العقل السليم، أبو السعود: 74/1.

ورد لفظ الإرادة في القرآن الكريم مئة وتسعا وثلاثين مرة (139) بصيغ مختلفة، تعلق في تسع وأربعين منها بالذات الإلهية. وهاهنا مسألة يقتضي المقام أن أعرج عليها لشدة تعلقها بالموضوع.

وذلك أن ألفاظ الإرادة الإلهية الواردة في القرآن وغيره لا تفيد المعنى نفسه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين:

أحدهما الإرادة الكونية ... وأما النوع الثاني فهو الإرادة الدينية الشرعية⁽¹⁾. ثم بسط الكلام في المسألة⁽²⁾ فذكر أن الإرادة الكونية هي إرادة الخلق وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهي بمعنى (المشيئة) في هذا الوجه، وذكر أنها متعلقة بكل حادث.

قال: "وهذه الإرادة متضمنة لما وقع دون ما لم يقع، وقد يكون الشيء مراداً له غير محبوب، بل أراده لإفضائه إلى وجود ما هو محبوب له، أو لكونه شرطاً في وجود ما هو محبوب له"⁽³⁾.

واستشهد لهذا النوع ببعض آي القرآن كقوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُغْلِقْ صَدْرَهُ، صَاقًا حَرَجًا﴾﴾

(1) دقائق التفسير (الجامع لتفسير ابن تيمية)، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (661-728)، تحقيق د. محمد السيد الجليند: مؤسسة علوم القرآن/ دمشق، ط 2/1404 هـ: 528/3.

(2) لشيخ الإسلام ابن تيمية إشارات كثيرة إلى هذه المسألة في كثير مما كتب اعتمدت فيما حررته هنا على كتبه الآتية: منهاج السنة النبوية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (661-728)، تحقيق د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط 1/1406 هـ: 413/5. ودقائق التفسير: 3/ 528، وقاعدة في الزهد والورع: 10/581-582.

(3) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية: 5/412-413.

الأنعام: ١٢٥، وقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ﴿٣٤﴾ هود: ٣٤، وقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ ﴿١٣﴾ السجدة: ١٣ وغير ذلك من الآيات.

وأما النوع الثاني فهي الإرادة الدينية الشرعية؛ أي: إرادته لما أمر به، وهي محبة المراد ورضاه، ومحبة أهله والرضا عنهم ومجازاتهم بالحسنى عليه. فهذه الإرادة متضمنة لمحبة المأمور به والرضا عن فعله. وذكر أن هذه الإرادة لا تتعلق إلا بالطاعات، فهي أقرب إلى معنى (يود). قال: "وهذا معنى قولنا يريد من عبده فهو يريد له كما يريد الأمر الناصح للمأمور المنصوح يقول هذا خير لك وأنفع لك وهو إذا فعله أحبه الله ورضيه"^(١). واستدل لهذا النوع ببعض الآيات كقوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ ﴿١٨٥﴾ البقرة: ١٨٥ وفي قوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿٢٨﴾ النساء: ٢٧ - ٢٨ وفي قوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٦﴾ المائدة: ٦ وأمثال ذلك^(٢). ثم قال: "فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة:

- أحدها ما تعلقت به الإرادتان؛ وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع، فأمر به وأحبه ورضيه وأراده إرادة كون فوقه، ولولا ذلك لما كان.

(١) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(٢) ينظر منهاج السنة النبوية: 413/5. وقاعدة في الزهد والورع، ابن تيمية: 581/10-582،

ودقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية: 529/3.

- والثاني ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط؛ وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

- والثالث ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط؛ وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقها لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

- والرابع ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه؛ فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي⁽¹⁾.

وعليه فإن ما يتعلق من تلك الألفاظ بالمعنى التكويني القدرى ليست من موضوع هذه الأطروحة، وإنما يخصني منها ما يمكن أن يدل على ما يريد الله تعالى من المكلفين في ما أنزل إليهم من القرآن.

وإذا تقرر هذا فإنه لا يبقى لنا من ألفاظ الإرادة في القرآن إلا ثلاثة عشر لفظاً (13) وردت في الآيات الآتية: (البقرة 26 و185) - ثلاث مرّات في (النساء 26-28) - (المائدة 1)، ومرّتين في (المائدة 6) - وفي (الأنفال 67) - وفي (الأحزاب 33) - ومرّتين في (الذاريات 56-57) - (الجن 10)

فقد ورد هذا اللفظ إذن ثلاث عشرة مرّة (13) في القرآن يحمل معنى المقصد الإلهي، وهذا مجموع ما أفادته من المعاني:

تقرّر عز وجل في قوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) الذاريات: ٥٦ - ٥٧ أنه ما أراد بخلق عالمي

(1) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية: 529/3.

الجن الإنس إلا ليقوموا بعبادته طوعية، ما أراد منهم غير ذلك مما يرجع عليه بالفائدة.

وذكر في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ﴿١٨٥﴾ وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿٢٨﴾ النساء: ٢٨ وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿٦﴾ المائدة: ٦ أنه لم يقصد مما فرض على الناس من مظاهر تلك العبادة إلحاق الضرر بهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، وإنما يسرها، ورفع منها الحرج، وجعلها شريعة خاتمة.

ثم إنه تعالى لم يقصد للناس ما في تلك التشريعات من مشقة يسيرة وإنما أراد لهم ما يحصل لهم منها من هداية وتوبة. قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ الأحزاب: ٣٣، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ المائدة: ٦ وما جاء في معناها من آيات.

ومن قبيل ذلك قوله تعالى لنساء النبي (ﷺ) بعد أن أمرهن ونهاهن: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ الأحزاب: ٣٣، فليس المقصود حصول المشقة لهن وإنما أحب لهن الطهارة والتزكية.

كما أنه تعالى أيضا ذكر أن مقصوده وحكمته من ضرب الأمثال للناس وحكاية ما يستغرب من أمور الغيب، هو أن تكون امتحانا لهم، فيهتدي بها من صدق في طلبه للهداية، ويزداد بها إيمان المؤمنين، وأما من أصر على الغواية ففيها فتنة له، وهي عليه حجة يوم القيامة، قال تعالى في الحكمة من ضرب الأمثال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ البقرة: ٦٦. وقال في الحكمة من ذكر عدد أصحاب النار: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا

عَذَابُهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَوِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَبَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ
وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٢١﴾ المدثر: ٣١.

فمراده تعالى من عباده إذن هو أن يطيعوه ويعبدوه ليحصل لهم ما أحبه لهم من الطهارة والتركية، وهذه المرادات بدورها تقود إلى مراد أعظم كثيرا ما يغفل عنه الناس بما في دنياهم؛ إنه الفوز الكبير في الدار الآخرة كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾ الأنفال: ٦٧.

أما قوله تعالى على لسان الجن قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ مِنِّي فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾ الجن: ١٠، ففيه استفهام عن طبيعة ما أراد الله تعالى من هذا الأمر العظيم أراد الله تعالى أن ينزل شرا بأهل الأرض أم أراد لهم الهداية، والظاهر من الإرادة الأولى أنهم عنوا إرادة الله إهلاكهم أو عذابهم، وأما الثانية فهي إرادته الشرعية المنطوية ضمنا تحت إرادته الكونية. وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ في أول المائدة ففيه بيان لحاكمية الله تعالى وأحقيته في التشريع لمخلوقاته بما يشاء على وفق حكمته وعدله.

المبحث الثاني- طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال تعليقات الكتاب والسنة.

قبل التطرق إلى بيان الطريقة القرآنية، والطريقة النبوية في بيان مقاصد القرآن الكلية، أجد نفسي ملزما ببسط طرائق أهل الاستنباط ومسالكهم في استخراج هذه الكليات، ورأيت الموضوع يتسم بأهمية كافية لأفرده بمبحث في هذا الباب، وذلك لكون العلة والتعليل أساس القول بالمقاصد، وأقوى طرق الظفر بها.

يستقي أهل الإسلام أحكام دينهم وتعاليمه من كتاب الله تعالى، فإن لم يجدوا الحكم التمسوه في سنة نبيهم (ﷺ) إذ هو المبين عن الله تعالى مراده، فإن خفي عنهم الأمر نظروا فيما وقع عليه إجماع مجتهدي الأمة، فإذا لم يجدوا في كل تلك النصوص شيئاً أعملوا فيما جدّ لديهم القياس القائم أساساً على النظر في علل الأحكام التي جاءت بها تلك النصوص، وملاحظة معانيها وحكمها ومقاصدها.

وكما انقسمت الأحكام إلى أحكام جزئية وأحكام كلية، تنقسم المعاني أيضاً إلى معانٍ كلية ومعانٍ جزئية، وحتى ما ورد من المعاني في كثير من الأحكام الخاصة فإن أهل الأصول وسّعوا عملها من منطوق نصوصها إلى مفهوم تلك النصوص فقالوا:

"العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"⁽¹⁾. و"الأمر بمقاصدها"⁽²⁾. وأن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني"⁽³⁾. وفكرة العموم والخصوص والكلي والجزئي هذه أعطت نصوص الشريعة الإسلامية مرونة كبيرة، وكشفت عن وجه صلاحيتها لما تبقى من عمر البشرية، وأظهرت سرّ اتصافها بالرسالة الخاتمة.

ومن خلال النظر إلى معاني الأحكام المنصوص عليها ومراعاتها فيما لا نصّ فيه اشتغلت آلة الاجتهاد وهي القياس المتمثّل في "إرجاع الجزئيات من مستحدثات الحياة إلى كليّات القرآن والسنة النبوية على أساس رعاية الأسرة البشرية التي هي

(1) إرشاد الفحول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق محمد سعيد البدري: دار الفكر/ بيروت، ط1/ 1412-1992: ص230، وينظر الإبهاج، علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق جماعة من العلماء: دار الكتب العلميّة/ بيروت، ط1/ 1404هـ: ص185.

(2) الأشباه والنظائر، السيوطي: ص8 و49. وينظر الوجيز في شرح القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: مؤسسة الرسالة/ بيروت، (د.ت.): ص8، مع شرحه لها في الصفحات: 8-11.

(3) ينظر إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد: دار الجيل/ بيروت، ط: 1973م: 115/3.

مقاصد الشريعة الإسلامية⁽¹⁾. إذ هو: "استدلال بعلة الحكم على ثبوت هذا الحكم لكل قضية تتوافر فيها تلك العلة"⁽²⁾. وذلك أن نصوص الشريعة "متناهية، والحوادث والوقائع غير متناهية، ومن المستحيل أن يحيط المتناهي باللامتناهي فالقياس وسيلة من وسائل تفسير النصوص وتوسيعها بحيث تشمل القضايا المسكوت عنها شمولها للقضايا المنطوق بها"⁽³⁾. وهنا تكمن أهمية القياس حتى قال الشافعي: إنّ الاجتهاد هو القياس⁽⁴⁾؛ لأن ما نصّ عليه ليس على أهل العلم إلا معرفته فحسب وأما ما لا نصّ فيه فعليه مدار القياس والاجتهاد.

ويتوقف القياس بدوره على مسألة العلة التي لها صلة مباشرة بمسألة المقاصد، إذ قسموا العلل إلى أربعة أنواع هي: العلة الفاعلية، والعلة المادية، والعلة الصورية، والعلة الغائية.

يقول د. مصطفى الزلمي: "ففي صنع الكرسي؛ النجار علة فاعلة، والخشب علة مادية، والهيئة المكوّنة من العملية علة صورية، والجلوس عليه علة غائية. وفي تشريع القانون في كلّ بلد العلة الفاعلة هي السلطة التشريعية، والعلة المادية هي المواد والنصوص القانونية، وعملية تطبيقها وتنفيذها علة صورية، والفائدة التي يحققها هذا القانون لمجتمع من حيث النظام والأمن والاستقرار والعيش الكريم علة غائية. وكذلك في أحكام الله تعالى العلة الفاعلة هي السلطة التشريعية الإلهية بمقتضى الحصر الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَلْأَكْمَرُ إِلَahًا ۝٧﴾﴾

(1) أصول الفقه في نسجه الجديد، د. مصطفى الزلمي: ص 116.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4) حكاه عنه البزدوي في أصوله؛ ينظر أصول الفقه، فخر الإسلام البزدوي (طبعة الشركة العثمانية): 268/3، وينظر المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، د. يوسف حامد العالم:

ص 71.

الأنعام: ٥٧ ونصوص القرآن والسنة النبوية علّة ماديّة، والهيئة الحاصلة من تطبيقها وتنفيذها علّة صوريّة، والفائدة التي يجنيها منفذها هي العلّة الغائيّة⁽¹⁾. ثمّ قال: "وبناءً على ذلك أينما ورد ذكر العلّة في باب القياس يكون المراد بها العلّة الغائية فهي متأخّرة عن الحكم في تحقيقها، ومتقدّمة عليه في تصوّرها، وكونها الباعث الدافع إلى تنفيذ الحكم"⁽²⁾.

"وهي بهذا الاعتبار؛ إذا نظر إليها بالنسبة إلى المكلف المنفّذ للأحكام تسمّى مصلحة وغاية وفائدة ونتيجة ... وإذا نُظِرَ إليها من حيث الحكم المنوط بها تسمّى علّة، وهذا المعنى هو المراد في القياس. وإذا نُظِرَ إليها بالنسبة إلى شارع الحكم تسمّى مقصداً، وهذا المعنى الأخير هو المقصود من تعريف مقاصد الشريعة لأنّها هي المصالح الضّرورية والحاجيّة والكمالية .."⁽³⁾.

وقد نفّذ أهل الأصول إلى استنباط مقاصد الشارع من عدّة طرق كاشفة لها أهمّها؛ مباحث التعليل في القياس، والاستصلاح، والاستحسان، وسد الذرائع. فأما مباحث العلّة⁽⁴⁾ في القياس؛ فلأن المجتهدين يلجؤون -عند افتقار النصّ على حكم ما- إلى النظر في أسباب وعلل اختصاص تلك الوقائع المنصوص على

(1) أصول الفقه في نسيجه الجديد: ص 117.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) القول بتعليل أحكام الله تعالى أساس القول بالمقاصد، فقد وقع خلاف كلامي كبير في هذه المقالة، فذهب فريق من العلماء إلى نفي الغرض عن أفعاله تعالى وأوامره ونواهيه، فقالوا: "لا نعرف من يفعل لحكمة إلا من يفعل لغرض مقصود يعود عليه، وهذا لا يكون إلا فيما يجوز عليه اللذة والألم والانتفاع والضرر، والله تعالى منزّه عن ذلك". وهذا هو مذهب الأشاعرة ومن نحا نحوهم. وذهب فريق آخر إلى أنّه تعالى ما سمّي حكيمًا إلّا لإحكامه عمله، فإن كان يفعل لا لحكمة فذلك هو السّفه الذي يتنزّه عنه تعالى. وبه قال المعتزلة ومن نحا نحوهم. وكلّ ينزّه الباري عن الحاجة إلى غيره. فخلافتهم قائم على محاولة بعضهم

حكمها بتلك الأحكام، فحاولوا استجلاء الحكم الباعثة على تشريعها، ونشأ عن ذلك البحث عن العلة ومسائلها.

والصلة بين العلة والمقاصد بيّنة، إذ من معانيها؛ الحكمة والمصلحة التي ناسبت تعلّق الحكم بواقعة ما. فمما عُرِّفت به العلة عند الأصوليين أنّها: "الحكم والمصالح التي تعلّقت بها الأوامر أو الإباحة، والمفاسد التي تعلّقت بها النواهي"⁽¹⁾. وعُرِّفت بأنّها: "الباعث على التشريع"⁽²⁾. فالباعث على التشريع هو ما اقتضته حكمة الباري -الذي تنتزه أفعاله عن صفة العيب- وتحصيل المصلحة هو المقصود من تشريع الأحكام.

وعلى الرغم من أن الأصوليين قد رجّحوا العمل بالوصف المناسب المنضبط على العمل بالحكمة في التعليل؛ فإن الحكمة راجحة عليه من حيث كونها هي المصلحة نفسها، والوصف المناسب مفضّل إليها، فالمفهوم الحقيقي للتعليل يكمن فيها؛ كما هو ظاهر في تعريفهم لها بأنّها غاية الحكم المطلوبة بشرعه وما ترجيح العلماء للعمل بالوصف المنضبط عليها إلا لكونه أكثر انضباطاً وظهوراً منها، فيسهل بذلك الاطلاع عليه بخلافها⁽³⁾.

تنزيه ذات الباري عن الحاجة إلى الغير، ومحاولة الآخرين تنزيهها عن السّقه. والأمر لا يحتاج إلى كلّ تلك الاحترازاات، فالنّظرة الشّاملة إلى مقتضى الصّقات والأسماء الحسنی تقتضي أنّه تعالى يفعل لعلّة وحكمة اقتضتها حكمته وعلمه وإرادته، فمنها ما يعود على عباده، ومنها ما يعود عليه مما ليس من جنس ما يعود على العباد؛ أي: مع استحضار دائم للفرق بين الخالق والمخلوق. والذي نخلص إليه هنا أنّهم عملوا بالتعليل في الفروع لأنّه آلة القياس، وعليه يقوم الاجتهاد، وما شدّ عن القول بهذا إلا الظاهرية.

(1) الموافقات: 265/1.

(2) إرشاد الفحول: 352/1.

(3) ينظر مباحث العلة في القياس، السعدي: ص 102.

ثم إن أهل الأصول من خلال تعقبهم لمسالك التعليل ظهر لهم صحة عدّ (المناسبة) مسلکا دالاً على العليّة، فعرفوها بقولهم: "وصف ظاهر منضبط، يحصل عقلا من ترتّب الحكم عليه ما يصلح أن يكون مقصودا من حصول مصلحة أو دفع مفسدة"⁽¹⁾.

قال الزركشي: "ويعبر عنها (أي المناسبة) بالإخالة وبالمصلحة وبالاستدلال وبرعاية المقاصد. ويُسمّى استخراجها تخريج المناط"⁽²⁾. ومن هنا تظهر العلاقة الوطيدة التي تربط بين المناسبة والمصلحة والمقاصد.

وأما عن صلة مباحث المصلحة بالمقاصد فإنّ أقرب ما يوضّح ذلك أنّهم عرفوا المقاصد بالمصالح فجعلوا العبارة الجامعة لمقاصد الشارع كلها قولهم: جلب المصالح ودرء المفساد. وهذا أمر مطّرد في جميع أحكام الشريعة⁽³⁾. بل إن العز بن عبد السلام يرجع معظم مقاصد القرآن إلى ذلك فيقول: "معظم مقاصد القرآن؛ الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفساد وأسبابها"⁽⁴⁾.

وقد تناول الغزالي الكلام عن تلك الصلة في معرض حديثه عن المصالح المرسلّة؛ فقسّم المصالح ثلاثة أقسام: "قسم شهد الشرع لاعتبارها، وقسم شهد لبطانها، وقسم لم يشهد الشرع لا لبطانها ولا لاعتبارها"⁽⁵⁾. وعلى الرغم من أن الغزالي عدّ الاستصلاح من الأصول الموهومة، فإنّه يحتجّ بقسميه الأوّل والثالث،

(1) ذكره الشوكاني في إرشاد الفحول: 365/1، من قول عن ابن الحاجب، واختاره د. عبد الحكيم السعدي؛ مباحث العلة في القياس: ص392، وينظر البحر المحيط، الزركشي: 207/5.

(2) البحر المحيط، الزركشي: 206/5. وينظر مباحث العلة في القياس: ص390.

(3) ينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الريسوني: ص80.

(4) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: 7/1.

(5) المستصفى: 173.

لكون الأول يرجع حاصله إلى القياس، وأما الثالث فلكونه مسلماً معتبراً من مسالك العلة في القياس⁽¹⁾. قال: "لكنه لا يُسمَّى قياساً بل مصلحة مرسلّة؛ إذ القياس أصل معين، وكون هذه المعاني مقصودة عرفت لا بدليل واحد، بل بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة، وقرائن الأحوال، وتفاريق الأمارات؛ تُسمى لذلك مصلحة مرسلّة. وإذا فسرنا المصلحة بالمحافظة على مقصود الشرع؛ فلا وجه للخلاف في اتباعها. بل يجب القطع بكونها حجة"⁽²⁾.

فصلة المناسبة بالمقاصد والمصالح -إذن-؛ أن المناسبة طريق يسلكه المجتهد ليتحقّق من مدى صلاحية الوصف ليكون علة يرتبط الحكم بها؛ وتتوقّف صلاحية ذلك الوصف على مدى تحقيقه لمقاصد الشريعة؛ وذلك متوقّف بدوره على مدى تحقيقه للمصالح أو تكميلها، أو دفع المفسد أو تقليلها⁽³⁾. فالمناسبة إذن مبحث مشترك بين القياس والمصلحة المرسلّة ورابط بينهما.

وأما مباحث الاستحسان فلكونه ترجيحاً لإعمال الحكم الاستثنائي على الحكم الأصلي في واقعة معيّنة، لمسوّغ شرعي قوي⁽⁴⁾. ويرجع هذا المسوّغ عادة إلى الحرص على عدم تفويت مصلحة مشروعة أو مقصود شرعي مهمل. قال الزلمي: "والعمل بالاستحسان يرجع إلى العمل بالمصلحة من جلب منفعة أو دفع مضرة، إلا

(1) ينظر المصدر نفسه: 173-174.

(2) المصدر نفسه: 179.

(3) ينظر قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص 52-53.

(4) قال الزلمي: "والحاصل أن الاستحسان عبارة عن العدول عن العمل بالعزيمة إلى العمل بالرخصة لما يدعو إلى ذلك، وأن العمل بالاستحسان هو العمل بالنصوص التي تدعو إلى اليسر ورفع الحرج". ينظر أصول الفقه الإسلامي في نسجه الجديد، الزلمي: ص 139 و 145.

أنّ العمل بها في صورة الاستحسان يكون من باب الاستثناء من القواعد الكلية، والنصوص العامة..⁽¹⁾.

وأما سدّ الذرائع فلكون الحكم فيه مبنياً على النظر في مآلات الأفعال، ومقاصد المكلفين، ومدى موافقتها لمقصود الشارع، ثم قطع الطريق على ما يؤدي إلى خلافه. يوضّح ذلك تعريفهم لهذا الأصل بقولهم: "إعطاء الوسيلة حكم غايتها"⁽²⁾. فهو وجه آخر من وجوه رعاية مقصود الشارع، في حفظ المصالح، ودرء المفاسد. وقد انبنى على هذا الأصل كلام طويل في تحريم الحيل.

ومع أن هذه الأصول كلّها مبنية على اعتبار مدى تحقق المصالح والمقاصد من الأحكام، التي هي حكم الشرائع وعللها. فإنّ تعامل الأصوليين مع مسائل المناسبة في التعليل والمصالح المرسلّة كان المنفذ المباشر لتطفو على السطح أولى أساسيات ما عرف فيما بعد بمقاصد الشريعة الإسلامية.

في ضوء ما سبق تبين أن العلة الغائية هي المصلحة المعتبرة عينها، وهي المعنوية بمقصد الشارع، وكما أن هذه المصالح أو المقاصد متفاوتة من حيث الأهمية؛ فهي متفاوتة من حيث عموم المعاني وخصوصها، أو من حيث الكلية.

ثم إن هذه العلل -على تفاوتها في مراتب الكلية- تُعرف:

إما عن طريق مسالك العلة؛ وهي الكليات النصية.

وإما بطريق الاستقراء؛ أي: لا بدليل واحد، وهي الكليات الاستقرائية؛ وسأبسط الكلام في كلّ منهما في مطلب خاص.

المطلب الأول: طرق استخراج الكليات النصية من الكتاب والسنة.

فأما الكليات النصية فهي الكليات المنصوص عليها في الكتاب والسنة.

(1) المصدر نفسه: ص 145.

(2) أصول الفقه الإسلامي، الزلمي: ص 149.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ
ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ يس: ٥ - ٦؛ فإنذار الناس مقصد عام من مقاصد نزول
القرآن، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾ الأنعام: ١٦٤،
فالأصل أو القاعدة الكلية أن لا يحاسب أحد بذنوب غيره.

وأما من السنة فكما في قوله ﷺ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ) (1) وكذا
قوله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَفِّاً وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبَسِّرًا) (2) وقوله (ﷺ):
(لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) (3)؛ ففي هذه الأحاديث تصريح بثلاثة مقاصد كلية أحدهما:
قصد الشارع إلى إقامة الأخلاق في هذه الأمة. والثاني: قصده إلى التيسير ورفع
الإصر والمشقة عن الأمة، الثالث: رفع الضرر عن أفرادها.
وتُستخرج مثل هذه الكليات بما قرّر في علم الأصول في مباحث دلالة الألفاظ
ومسالك التعليل.

فأول ما يجدر ذكره منها هنا أن مجرد الأمر والنهي مؤذن بقصد الشارع إلى
وقوع المأمور والانتهاء عن المحذور. ثم إن العلة إذا تَلَقَّيَتْ من الألفاظ قسماً:

(1) مسند الإمام أحمد: 381/2، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. المستدرك
على الصحيحين: 670/2، قال الهيثمي: رواه الإمام أحمد ورجاله رجال الصحيح. مجمع
الزوائد: 188/8.

(2) صحيح مسلم: 1104/2، مسند أحمد: 328/3 واللفظ لأحمد.

(3) المستدرك على الصحيحين: 66/2 قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم. سنن ابن
ماجه: 784/2، سنن الدارقطني: 227/3.

أولاً - ما يفهم من صريح الألفاظ. وهي نوعان:-

1- النص الصريح في العلية: وهو "ما صرّح فيه بكون الوصف علّة أو سببا للحكم الفلاني؛ وذلك كما لو قال: العلة كذا، والسبب كذا"⁽¹⁾. أي: أنّها صيغة موضوعة للتعليل ولا تحتل غيره⁽²⁾.

وذكروا لهذا القسم جملة من الألفاظ منها قولهم العلة كذا، والسبب كذا.
- ومنها التعليل بـ **كَيْ**؛ كما في قوله تعالى في المقصد من تشريع الإنفاق في سبيل الله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾** ﴿٧﴾ **الحشر: ٧**، وقوله أيضا في بيان أحد مقاصد إرسال الرسل وإنزال الكتب: **قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** ﴿١١٥﴾ **النساء: ١٦٥**.

- وكذلك ذكر المفعول له كقوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾** ﴿٨٩﴾ **النحل: ٨٩**.
- ومنها التصريح بأنّ الحكمة من كذا هي كذا⁽³⁾.
- ومنها قولهم (إنما جعل كذا لأجل كذا) كقوله (ﷺ): (إنما جعل الاستئذان لأجل البصر)⁽⁴⁾.

2- النص الظاهر في العلية: وهي الألفاظ التي تحتل التعليل وغيره. وأكثر هذه الألفاظ شيوعا في القرآن الكريم لام **التعليل**؛ فتد مُقدّرة نحو قوله

(1) الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي: 278/3.

(2) ينظر مباحث العلة في القياس، السعدي: ص348.

(3) ذكره أهل الأصول ولم أقف له على مثال من كتاب أو سنة.

(4) شرح النووي على مسلم: 137/17.

تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ (١) المتحفة: ١؛
وتقديره (لأن تؤمنوا، أي: أخرجوكم لإيمانكم).

وترد ظاهرة كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١) النحل: ٤٤، وفيه أن العلة أو القصد من إنزاله
على محمد (ﷺ) هو تولّيه بيان مراد الله تعالى من كلامه.

وقد أفادت هذه الصيغة كثيرا من مقاصد القرآن الكلية فمن ذلك:

قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) أم
يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ
(٣) السجدة: ١ - ٣، وفيه القصد إلى إنذار قوم ما أتاهم من نذير ابتغاء هدايتهم.
قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الفرقان: ١، وفيه القصد إلى النذارة لجميع المكلفين.

قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ ۝١ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١) إبراهيم: ١، كالقصد إلى إخراج
الناس من ظلمات الجهل والضلال والعصيان إلى نور الهداية والإيمان.

قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ (١٧) القمر: ١٧،
وفيه القصد إلى تذكير الناس لرفع الجهل والغفلة والنسيان.

ب- ومن ذلك التعليل بلعلّ نحو قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهٗ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (١١) طه: ٤٤. وقد دلّت هذه الصيغة أيضا على كثير من
كليات مقاصد القرآن الكريم منها:

القصد إلى تعلّقه من جعله عربيا كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢) الزخرف: ٣.

القصد إلى الاهتداء باتباعه كقوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ١٠٣﴾ آل عمران: ١٠٣، وقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ١٥٨﴾ الأعراف: ١٥٨.

القصد إلى الرشاد بالاستجابة لله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ١٨٦﴾ البقرة: ١٨٦.

القصد إلى التذكير كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥١﴾ القصص: ٥١.

القصد إلى حصول العلم اليقيني باليوم الآخر كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ٢﴾ الرعد: ٢.

ج- ومما يدل على التعليل دلالة ظاهرة أيضا (إن) الشرطية كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٧٠﴾ الأنفال: ٧٠.

د- ومن ذلك التعليل بالباء نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٨٢﴾ التوبة: ٨٢. وكذا تعليله لحد القطع في السرقة بقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ ٣٨﴾ المائدة: ٣٨، وفي سبب إدخاله أناس الجنة: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتِبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٨٥﴾ المائدة: ٨٥.

هـ- ومن ذلك تعليلهم بحتى التي بمعنى (لأجل أن) كما في تعليله عز وجل لشرع القتال في قوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدُونَنَا إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ١٩٣﴾ البقرة: ١٩٣، وفي قوله: ﴿قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَفَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ ﴾ (٣٩)

الأنفال: ٣٩، وكذا في تعليل تحريم قرب الصلاة للسكران: قَالَ تَعَالَى:

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا ﴾ (٤٣)

النساء: ٤٣. وكذلك قوله تعالى في تأمين المشرك الجاهل بتعاليم الإسلام:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) التوبة: ٦، وكذلك تعليله تعالى لسبب

الابتلاء: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّيِّقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ

﴿ (٣١) محمد: ٣١.

ومن الآيات ما جمع بين أكثر من نوع من هذه الأدوات كما في قوله تعالى: قَالَ

تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَنْزِلِ إِلَيْكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) السجدة: ١ - ٣؛ وفيها

التصريح بمقصدي الإنذار بلام التعليل، والهداية بلعل.

وغير ذلك كثير وستأتي محاولة استقصاء واستخراج ما ورد من مقاصد كَلِّية

بهذه الصيغ في هذه الآيات ومثيلاتها بإذن -الله تعالى- في الفصل الثاني من هذا الباب.

ثانيا - ما يثبت بالإيماء والتنبيه:

وعرفوا الإيماء بأنه "اقتران وصف بحكم لو لم يكن الوصف أو نظيره للتعلل

لكان ذلك بعيدا عن فصاحة الشارع" (١). فهو إشارة النص. والإيماء أنواع منها:

(١) وعرفوه بأنه دلالة النص على التعليل بالقرينة، لا بصراحة اللفظ. انظر وحاشية البناني

على جمع الجوامع: 266/2، والموسوعة الفقهية: 242/7.

ترتب حكم عقب فاء قبلها وصف، فالفاء للتعقيب ظاهرة، ويلزم منه السببية
 كقوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾﴾ النور: ١ - ٢،
 وقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾﴾ المائدة: ٣٨.

ترتب حكم على وصف في صيغة الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ
 يَأْتِ مِنْكُنْ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾﴾ الأحزاب: ٣٠.
 ذكر حكم جوابا لسؤال، لو لم يكن عليه لكان اقترانه بعيدا شرعا ولغة؛ نحو
 قول الأعرابي للنبي (ﷺ): "واقعت أهلي في رمضان. فقال له: أعتق رقبة" (١).
 تقدير الشارع وصفا لو لم يكن للتعليل لكان بعيدا. ويكون هذا التقدير إما في
 السؤال نحو قوله (ﷺ) عن بيع الرطب بالتمر: "أينقص الرطب إذا ييس؟ قالوا:
 نعم؛ فنهى عنه" (٢). فذكر النقصان سيق للتعليل. أو يكون التقدير في نظير جواب
 السؤال، كقوله (ﷺ) للمرأة التي سألت عن الحج عن أمها المتوفاة: "حجّي عنها".
 وقال: "أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته؟ قالت نعم؛ فقال: اقضوا الله
 فهو أحق بالوفاء" (٣).

تفريقه (ﷺ) بين حكيمين بصفة مع ذكرهما كقوله: "للراجل سهم ولل فارس
 سهمان" (٤). أو بذكر أحد الحكمين كقوله (ﷺ): "القاتل لا يرث" (١).

(١) صحيح مسلم (كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان): 781/2، مسند
 أحمد: 281/2.

(٢) سنن أبي داود (باب التمر بالتمر): 251/3، سنن ابن ماجه (باب بيع الرطب بالتمر):
 761/2، سنن النسائي (باب اشتراء التمر بالرطب): 268/7.

(٣) صحيح البخاري، باب (الحج والنذور عن الميت): 656/2، والمرأة من جهينة ماتت أمها
 قبل الوفاء بما نذرت من الحج، كما في حديث ابن عباس ؓ.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: 83/12، الموطأ: 456/2، سنن ابن ماجه: 952/2.

النهي عما يمنع الإتيان بالمطلوب كقوله تعالى: **﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾** الجمعة: ٩؛ فالبيع يمنع حصول المطلوب.

اقتران الحكم بوصف مناسب كقولنا: أكرم العالم، وأهن الغادر؛ لصفة مناسبة. وذكر أهل الأصول مسالك وصيغاً أخرى استغثت عن ذكرها هنا لما وقع فيها من الخلاف.

المطلب الثاني: طرق استخراج الكليات الاستقرائية من الكتاب والسنة.

أما الكليات الاستقرائية فهي ما يتوصل إليه منها عن طريق عدد من النصوص الجزئية؛ كحفظ الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، وسائر المقاصد العامة للشريعة، والقواعد الفقهية الجامعة⁽²⁾. وذلك أنهم قد أجمعوا على أن "الأمر بمقاصدها"⁽³⁾. وأن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"⁽⁴⁾. فعمدوا إلى استخلاص المعاني الكلية التي أفادتها تلك الأدلة، أو أدت إليها وسبكوها في عبارات كلية تعبر عن أحد مقاصد الشارع الكلية. ويتوصل إلى ذلك عن طريق استقراء عدد كاف من العلل الجزئية التي تثبت بمسالك العلة وطرقها؛ يقول محمد الطاهر بن عاشور: "فإن استقراء ربما يورث العلة حصول العلم بمقاصد الشريعة بسهولة، لأننا إذا استقرينا عللا كثيرة متماثلة في كونها ضابطا لحكمة متحدة، أمكن أن

(1) سنن ابن ماجه: 913/2، سنن الدارمي: 277/2.

(2) ينظر نظرية المقاصد عند الشاطبي، الريسوني: ص370.

(3) الأشباه والنظائر، السيوطي: ص8 مشروحة فيما بعدها من الصفحات. وينظر الوجيز في شرح القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: ص8 وص، مع شرحه لها في الصقحات: 8-11.

(4) إرشاد الفحول: 230/1.

تُستخلص منها حكمة واحدة، فنجزم بأنها مقصد شرعي، كما يُستنتج من استقراء الجزئيات تحصيل مفهوم كليّ حسب قواعد المنطق⁽¹⁾.

فهذه العلل تعرف لا بدليل واحد، بل أفادتها معاني أدلة عديدة. ونظرا إلى خطورة الخطأ في تعيين المقصد الكليّ أو الجزئي -لأنه أمر يتفرّع عنه أدلة كثيرة بالاستنباط- فقد حدّدوا لمعرفة تلك المقاصد وإثباتها ضوابط وقواعد وطرقاً تُستخرج بها.

أولاً- القواعد والضوابط

قرّروا أن تحديد مقاصد الشارع يجب أن لا يبنى على ظنون وتخمينات غير مطّردة⁽²⁾.

بل يُشترط فيها القطع أو ما يقرب منه قرباً شديداً⁽³⁾. قال ابن عاشور: "على الباحث في مقاصد الشريعة أن يطيل التأمّل، ويُجيد التنبُّت في إثبات مقصد شرعيّ، وإيّاہ والتساهل والتسرّع في ذلك، لأن تعيين مقصد شرعيّ -كليّ أو جزئيّ- أمر تتفرّع عنه أدلة وأحكام كثيرة في الاستنباط، ففي الخطأ فيه خطر عظيم.

فعليه أن لا يعيّن مقصداً شرعيّاً إلا بعد استقراء تصرفات الشريعة في النوع الذي يريد انتزاع المقصد التشريعيّ منه، وبعد اقتفاء آثار أئمة الفقه ليستضيء

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية: ص 137.

(2) ينظر الموافقات: 80/1.

(3) قال ابن عاشور بأن المصلحة القطعية هي المنصوصة أو المُستقرأة أو المعقولة في ذاتها، أمّا الوهميّة فهي ما يُتخيل فيها الصلاح وهي عند التأمّل ضرر. ينظر مقاصد الشريعة الإسلامية: ص 90 - 91.

بأفهامهم، وما حصل لهم من ممارسة قواعد الشرع. فإن هو فعل ذلك اكتسب قوّة استنباط يفهم بها مقصود الشارع⁽¹⁾.

ولتحقيق ذلك اشترط ابن عاشور في المقاصد الشرعية أن تتحقّق فيها أربع صفات هي:

الثبوت:- والمراد به "أن تكون تلك المعاني مجزوما بتحققها أو مظنونا ظناً قريباً من الجزم"⁽²⁾.

الظهور:- والمراد به "الاتّصاح بحيث لا يختلف الفقهاء في تشخيص المعنى، ولا يلتبس على معظمهم بمشابهة"⁽³⁾.

الانضباط:- والمراد به "أن يكون للمعنى حدّ مُعتبر لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه؛ بحيث يكون القدر الصّالح منه لأنّ يُعتبر مقصداً شرعياً؛ قدراً غير مُشكّك"⁽⁴⁾.
الاطراد:- والمراد به "أن لا يكون المعنى مُختلفاً باختلاف أحوال الأقطار والقبائل والأعصار"⁽⁵⁾.

2- إن العربية هي مفتاح الولوج إلى تلك المقاصد والاطّلاع عليها، وهذا أمر بيّن؛ فقد اختارها الله تعالى لتحمل المعاني والمقاصد التي أراد الله إيلاغها إلى الأمة الخاتمة؛ وذلك أنّه اختصّ كلّ قوم بصناعة برعوا فيها، وخصّت أمة العرب بصناعة اللسان، والمقدرة الفائقة على البيان، قال الشاطبي: "لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشارع"⁽⁶⁾، فيجب أن يُنظر إلى

(1) المصدر نفسه (المحقق) : ص168.

(2) المصدر نفسه: ص184.

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية: الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه: ص184.

(6) الموافقات: 2/324.

مقاصد الشريعة في ضوء لغتها العربية، وفي ضوء المعهود من أساليب العرب؛ إذ بلغتهم نزل، وعلى تعابيرهم واصطلاحاتهم يُنزل⁽¹⁾.

3- "إذا فهمنا من الحُكم الشرعي حكمة مستقلة لشرعه، فلا يلزم أن لا يكون ثمّ حكمة أخرى، ومصلحة ثانية، وثالثة، أو أكثر من ذلك"⁽²⁾.

4- "وإذا علمنا أن مقصد الشارع هو المصلحة فغير لازم أن يكون قاصدا لكل مصلحة"⁽³⁾.

5- "المصالح الضرورية هي التي تكون الأمة بمجموعها وآحادها في ضرورة إلى تحصيلها. وأمّا المصالح الحاجية فهي ما تحتاج الأمة إليه لاقتناء مصالحها وانتظام أمورها على وجه حسن، والمصالح التحسينية هي ما كان بها كمال الأمة في نظامها حتى تعيش آمنة ولها بهجة منظر المجتمع"⁽⁴⁾.

6- المصلحة الكلية هي ما كان عائدا على عموم الأمة عودا متماثلا، وما كان عائدا على جماعة عظيمة منها"⁽⁵⁾. أمّا المصلحة الجزئية فهي ما مصلحة الفرد، أو الأفراد القليلة"⁽⁶⁾.

7- تأصّلت الضروريات في القرآن وتفصّلت في السنة"⁽⁷⁾.

8- المصالح الضرورية في الشريعة أصل للحاجيات والتحسينية"⁽⁸⁾.

(1) ينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الريسوني: ص296.

(2) المصدر نفسه: 311/2.

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية: ص79.

(4) مقاصد الشريعة الإسلامية: ص85.

(5) المصدر نفسه: ص89.

(6) المصدر نفسه: ص90.

(7) ينظر الموافقات: 27/4.

(8) ينظر الموافقات: 16/2.

9- لكل مرتبة من المراتب الثلاث مكمّلات، بحيث لو فُقدت لم يُخلَّ ذلك بحكمتها الأصلية⁽¹⁾.

10- كل تكملة فلها من حيث هي تكملة- شرط؛ وهو ألا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال⁽²⁾.

ثانيا- طرق معرفة الكليات الاستقرائية

استقراء علل الأحكام: إنّ استقراء عدد من علل الأحكام الجزئية الثابتة عليها بأحد مسالك العلة سبيل قاصد إلى معرفة المقاصد الكلية؛ قال الشاطبي: "لأنّ كليات الشريعة لا تستند إلى دليل واحد، بل إلى مجموع أدلة تواردت على معنى واحد، فأعطته صفة القطع... وتخلّف بعض الجزئيات عن مقتضى الكلّي لا يُخرجه عن كونه كلياً. وأيضاً فإنّ الغالب الأكثرى معتبر في الشريعة اعتبار العام القطعي.." ⁽³⁾ وقال ابن عاشور: "لأننا إذا استقرينا عللا كثيرة متماثلة في كونها ضابطا لحكمة متّحدة، أمكن أن نستخلص منها حكمة واحدة فنجزم بأنّها مقصد شرعي، كما يُستنتج من استقراء الجزئيات تحصيل مفهوم كليّ حسب قواعد المنطق" ⁽⁴⁾. وكذلك استقراء أدلة أحكام مُشتركة في علّة واحدة فإنّ هذا الاشتراك دليل على قصديّتها التشريعية⁽⁵⁾.

(1) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(2) ينظر المصدر نفسه: 13/2. ونظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص 345.

(3) المصدر نفسه، الريسوني: ص 308.

(4) مقاصد الشريعة الإسلامية ص 137.

(5) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

المكمل للمقصود مقصود: ومما تُعرف به هذه الكليات أيضا العلم بأن كل ما كان مُكمّلا لمقصود شرعي، فهو مقصود تبعا⁽¹⁾؛ فالمقاصد إذن منها الأصلية، ومنها التبعية، وهذا ما يعبر عنه أهل الأصول بأن "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"⁽²⁾، وما لا يتوصل إلى المطلوب إلا به فهو مطلوب⁽³⁾. فالأمر بالصلاة أمر بلوازمها، والأمر بالحج أمر بلوازمه. وكذلك كل ما أدى إلى إبطال مقصد شرعي ثابت فمقصود تلافيه، إذ الرّاجح عند أهل الأصول أن "الأمر بالشيء نهى عن ضده"⁽⁴⁾. فإنّ الأمر بالصلاة نهى عن إضاعتها. وكذلك "النهي عن الشيء أمر بضده"⁽⁵⁾.

السكوت في محلّ الحاجة: فسكوت الشارع عن أمر مع وجود دواعي الكلام فيه يدلّ على قصده إلى الوقوف عند ما حدّ الشرع. يقول الشاطبي: "فهذا الضرب السكوت فيه كالتنص على أن قصد الشارع ألاّ يزداد فيه ولا يُنقص، لأنّه لما كان هذا المعنى الموجب لشرع الحكم العملي موجودا، ثمّ لم يُشرع الحكم دلالة عليه، كان ذلك صريحا في أنّ الزائد على ما كان هنالك بدعة زائدة، ومخالفة لما قصده الشارع، إذ فهم من قصده الوقوف على ما حدّ هنالك، لا الزيادة عليه ولا النقصان منه"⁽⁶⁾. وواضح تعلّق هذا المسلك بجانب العبادات، وسدّ الباب أمام التّمادي في

(1) ينظر الموافقات: 397/2.

(2) الإحكام، الأمدي: 152-153، وينظر الأشباه والنظائر، السيوطي: ص125.

(3) ينظر الموافقات: 198/2.

(4) الورقات، عبد الملك بن عبد الله الجويني، تحقيق د. عبد اللطيف محمد العبد: ص14.

(5) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(6) الموافقات: 410/2.

تقصيدها والابتداع فيها. قال الشاطبي: "وبذلك كله يُعلم من قصد الشارع أنّه لم يكل شيئاً من التّعبدات إلى آراء العباد. فلم يبق إلا الوقوف عند ما حدّه"⁽¹⁾.
ومن ذلك أيضاً أنّ وضع الشارع للأسباب تستلزم قصده إلى المسبّبات⁽²⁾.
ومن القرائن الدالة على مقصد الشارع أيضاً مدحه الفعل أو ذمّه؛ ففي مدحه له دليل على قصد الشارع إلى إيقاعه، وفي ذمّه له دليل على القصد إلى إيقاعه⁽³⁾.
ومن ذلك أيضاً امتنان الخالق بالنعم؛ فإنّ ذلك يشعر بالقصد إلى تناولها والتمتّع بها مع الشكر عليها⁽⁴⁾.

المبحث الثالث - طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال الأسماء والأوصاف.
إنّ للوصف أو للإسم -إن كان مُشتقاً من معنى، ووقع الوصف أو التسمية بهما من لدن حكيم خبير- دلالة كبيرة على ما يحمله المُسمّى من معانٍ ومقاصد؛ لذلك رأيت محاولة النّظر في الأسماء والأوصاف المتعلّقة بالقرآن لعلّه يهديني إلى بعض ما فيه من مقاصده الكلّية مما نزل لأجله، فرأيت أن أقصّ أثر ذلك في أسماء صاحب هذا الكلام وأوصافه، ثم في أسماء هذا الكتاب وأوصافه، في المطلبين الآتيين:-

المطلب الأول: أسماء المرسل -الله تعالى- وأوصافه.

إنّ القرآن كلام الله تعالى، والكلام صفة من أوصافه؛ فما القرآن -إذن- إلا تجلّيات لصفاته عزّ وجلّ. ثمّ إنّ القرآن خطابه تعالى إلى المكلفين من عباده، فلا بدّ

(1) الموافقات: 131/2-135.

(2) ينظر المصدر نفسه: 194/1.

(3) ينظر المصدر نفسه: 242/2.

(4) ينظر المصدر نفسه: 1-117 و126.

لهذا الخطاب -إذن- أن تتجلى فيه إرادته ومشيئته، ويظهر فيه ما يحبه وما يمجته. وقد حملت نصوص الوحي من أسماء الله وصفاته ما تتجلى فيه تلك الإرادة وتلك المشيئة، وما يظهر منه المحبة أو الرضا، أو المقت والكرهية. وذلك مؤشراً جيد لبيان ما هو مقصود لهذا القرآن مما هو غير مقصود له.

لقد خصّ الله تعالى ذاته العلية بأسماء ووصفها بأوصاف هي الغاية في التنزيه له من النقص، والغاية في الإقرار له بكل كمال وجلال، وكان الاستعمال الشائع في القرآن والسنة للدلالة على هذه الذات وما اتّصفت به من الصّفات هو لفظ الأسماء كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾﴾ (الأعراف: ١٨٠)، وقوله (ﷻ): "إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةُ"⁽¹⁾. ثمّ درج علماء الأمة بعد ذلك على استعمال لفظ الصّفات مع الأسماء وتداولوها معاً؛ مع اختلاف بينهم في وجود الفرق بين الإطلاقين؛ فمنهم من بادل بين الإطلاقين بحرية، وعدّ أسماء الله هي أوصافه، وصفاته هي أسماءه. ومنهم من فرق بين اللفظين؛ فقال بأنّ الاسم هو اللفظ الموضوع للدلالة على عين المسمّى، أمّا الصّفة فهي لفظ موضوع للدلالة على معنى موجود في المسمّى. وأورد أهل العلم في هذه المسألة كلاماً طويلاً لا يتسع المقام لبسطه، غير أن حاصل ذلك الكلام أنّ الاسم قد يحمل وصفاً ويراعيه في المسمّى، وقد لا يحمله أو يحمله ولا يراعيه في المسمّى، والصّفة قد تكون اسماً، وقد لا تكونه؛ فممّا قدّروا أن يكون اسماً لا يحمل وصفاً لفظ الجلالة (الله)⁽²⁾. وممّا عدّ اسماً وصفة معاً: العليم، الحكيم، والخبير، وغيرها فهذه أسماء مشتقة من أوصاف. فهي صفات بالنظر إلى ما تحمله من دلالات خاصّة، مختلفة في معانيها، وإنّ دلّت على ذات واحدة. وقد عدّ العلماء ما اشتهر من هذه الأسماء

(1) صحيح البخاري 981/2 و 2691/6 ، صحيح مسلم 2063/4.

(2) ينظر أسماء الله الحسنى (دراسة في البنية والدلالة)، د. أحمد مختار عمر: عالم الكتب/

القاهرة، ط1/ 1417هـ - 1997: ص6، وص42.

والصفات مما ورد في القرآن وصحيح السنة هو المقصود بالأسماء الحسنى المذكورة في القرآن وهي المحصورة في تسع وتسعين في الحديث الشريف الذي سبق ذكره، وإن اختلفوا في تعيين بعضها.

وعلى ذلك يبقى ما زاد على ذلك أوصافاً لله تعالى قد تحرّج كثيرون من اعتبارها أسماءً، لأنها غير منضبطة العدد⁽¹⁾.

والذي يعينني من كلّ هذه المقدّمة مدى دلالة ما حملته تلك الأسماء والصفات من معانٍ على ما في القرآن من مقاصد، وكيفية استخراجها منها. إنّ اتّصاف الله تعالى بهذه الأوصاف وتسمّيه بها مدحٌ لها وإعلاءٌ من شأنها، ولما كانت وظيفة آدم عليه السلام وبنيه هي الخلافة في الأرض وعمارتها، وجب على هذا الخليفة أن يحاول الاتّصاف بما يحقّ له من صفات من استخلفه، ممّا يؤهّله للقيام بمهامّه ووظيفته.

ولعلّ هذا ما اعتمد عليه بعضهم في تفسير قوله (ﷺ) في الأسماء الحسنى: "من أحصاها دخل الجنة". فقالوا بأنّ المعنى هو الإحاطة بها، وفهمها، والقيام بحقّها، والعمل بمقتضاها⁽²⁾.

وقد أوجز العلماء المقصد من معرفة هذه الأسماء والأوصاف، وكيفية الانتفاع بها فقالوا ما خلاصته:

دعاء الله تعالى بها كما أمر في القرآن، والثّناء عليه وتمجيده بها. الاقتداء والاتّصاف بما يسوغ الاتّصاف به منها كالرحمة من الرحيم، والرّأفة من الرّؤوف، والكرم من الكريم، والحلم من الحليم، والقوّة من القويّ، فتلك صفات يمرّن العبد نفسه على التّحلّي بها بقدر ما يطيق؛ قال (ﷺ): "الرّاحمون يرحمهم

(1) ينظر أسماء الله الحسنى (دراسة في البنية والدلالة)، د. أحمد مختار عمر: ص 6.

(2) ينظر العقيدة في الله، عمر سليمان الأشقر. دار النفائس للنشر والتوزيع/ عمان - الأردن.

ط (10) / 1415 هـ - 1995: ص 213-214.

الرحمن" (1)، وقال تعالى في ابتغاء القوة: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾﴾** الأنفال: ٦٠، ومدح تعالى نبيه بصفتي الرأفة والرحمة فقال: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾﴾** التوبة: ١٢٨، ومدح نبيه إبراهيم عليه السلام بصفة الحلم فقال: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾﴾** التوبة: ١١٤. ومدح بها ابنه إسماعيل فقال: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِيمٍ حَلِيمٍ﴾﴾** الصافات: ١٠١. الإقرار والخنوع والخضوع لما اختص به الله تعالى من الأسماء والصفات دون سائر مخلوقاته؛ كأوصاف العلو والكبرياء والعظمة والجبروت، ومجانبة الاتصاف بها، قال تعالى في معرض ذم من انتحل صفتي الجبروت والكبرياء: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾﴾** غافر: ٣٥، وقال: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾﴾** هود: ٥٩، وقال: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾﴾** إبراهيم: ١٥، وقال تعالى في الحديث القدسي: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منها ألقيته في النار" (2)، وقال تعالى في أقوام انتحلوها، من ذلك جرأة فرعون وقارون وهامان على صفة الكبرياء؛ قال تعالى: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَرُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَمْنُتُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً﴾﴾** العنكبوت: ٣٩، وكجرأة فرعون على صفة العلو في قوله تعالى: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَن فِرْعَوْنُ لَكَالِ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾﴾** يونس: ٨٣، ومن ذلك جرأة النمرود

(1) مسند أحمد: 2/160، سنن أبي داود: 4/285، الجامع الصحيح، الترمذي: 4/323.

(2) مسند أحمد: 2/442، وأخرجه الحاكم بغير هذا اللفظ وقال صحيح على شرط مسلم؛

المستدرك على الصحيحين: 1/129.

على ادعاء الإحياء والإماتة في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ البقرة: ٢٥٨، وجُرأة قوم على صفة الاستكبار والجبروت بما أوتوا من قوة كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فصلت: ١٥، إلى غير ذلك من صفات الألوهية: المهيمن، الجبار، الباريء، المصور، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، القدوس، الخالق الخلاق، المبدى، المعيد، المحيي، المميت، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، بديع السموات والأرض، نور السموات والأرض، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، ذو القوة المتين.. الخ.

الاتعاظ والحذر مما فيه وعيد، والخشية والرَّهبة منه، كاتِّصافه تعالى بالشدة في العقاب، وأنه المنتقم، والرقيب والحسيب، وذو الطول، وأنه سريع الحساب.

الوقوف موقف الطمع والرجاء والرَّغبة أمام ما فيه وعد بالخيرات، والجدُّ في سلوك أسباب نيله، كاتِّصافه تعالى بأنه: غافر الذنب، وقابل التَّوب، وأنه الكريم، والمغني والنافع والهادي والودود والمجيب والرافع والمعز والغفار.

وعلى هذا المنوال يمكن استخراج ما قُصد من ذكره الحثُّ على الاتِّصاف به أو الاعتبار به رغبة ورهبة، أو الخضوع والإذعان له.

المطلب الثاني: أسماء الرسالة - القرآن الكريم - وأوصافها.

سبق أن ذكرنا أن الاسم يوضع للدلالة على المسمَّى إمَّا بمراعاة وصف قائم بالمُسمَّى - وهو الغالب فيما ذكرنا من أسماء الله تعالى - أو أن يُهمل اعتبار تضمُّنه لمعنى يُطابق أحد أحوال المُسمَّى أو صفاته؛ وهو الاسم العلم.

والغالب فيما عُلِّمت صفاته ومعانيه أن تكون أسماؤه مُشتقة من صفاته أو أحواله، خصوصا إذا كان المُسمَّى هو الله تعالى المنزه عن أيّ نسب إلى العبث.. أما بعد فإنّ من شأن الأمر المهم أو النبا العظيم أو الخطب الجليل أن تكثر أسماؤه وتتعدد أوصافه، لجلالة قدره وثقل ما يورثه في النفوس من أحاسيس، هذا ما جرى به العرف لدى الناس أجمعين، فتراهم يجعلون للسيف أو للأسد من الأسماء والأوصاف أضعاف أضعاف ما يجعلون للنعام أو الهر. وإذا كان ذلك في المخلوقات فما بالك بكلام قال فيه تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾﴾ الحشر: ٢١.

أولا:- من القرآن.

اختلف العلماء في تحديد عدد ما للنظم الكريم من أسماء⁽¹⁾ بين مقل ومكثر تبعا لاختلافهم في التفريق بين ما هو اسم للقرآن وما هو صفة له. والذي يهمنا في هذا المقام هو صلة المعنى المتضمن في هذه الألفاظ -أسماء كانت أم صفات- بمضمون المسمى أو الموصوف. ولما كان هذا هو مقصدي حشرت ما أمكن من تلك الألفاظ -عازفا عن تصنيفها إلى أسماء وأوصاف. ثم أقصيت ما كان منها اسما علما لا علاقة له بالمحتوى؛ إذ ليس يهمني من هذه الألفاظ هنا إلا ما لمعناه دلالة على محتوى ومضمون مسمّاه، وذلك للوقوف على تلك المعاني.

(1) نقل السيوطي في الإتقان أن منهم من أوصلها إلى خمسة وخمسين اسما. ينظر الإتقان في علوم القرآن: 51/1-52، وينظر المعجم الصوفي، سعاد الحكيم ص907. ومنهم من جمع ما عدده ثمانية وثمانون اسما ووصفا قرآنيا. ينظر التبيان في أسماء القرآن، محمد بليّ الفوتي: مطبعة المنار/ تونس، ط: 1389هـ-1969م: ص19.

سمي القرآن بأربعة أسماء هي: (القرآن ، الفرقان ، الكتاب، الذكر)⁽¹⁾. ومنهم من زاد عليها فذكر (التنزيل). ومنهم من عدّها فبلغ بها أكثر من ذلك بكثير⁽²⁾.

فأما تسميته بالقرآن فمن مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ۝٩﴾ الإسراء: ٩ وفي كثير من الآيات. وقد سبق بيان معانيه في التعريف بالقرآن لغة واصطلاحاً في بداية الباب الأول⁽³⁾، وفيه القصد إلى قراءته وتلاوته التي تعدّ أعظم سبب لكل الخيرات، وهي السبب المباشر الفائد إلى الوقوف على أمّهات مقاصده، ولذلك كثرت فضائل قراءة القرآن، ووقع الأمر بقراءته أي: تلاوته وترتيله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤﴾ المزمّل: ٤، وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَن لَّنْ نَّخْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْهِ فَأَقْرَءُوا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى ۖ وَأَخْرُجُونَ فِي الْآرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَأَخْرُجُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَءُوا مَا يَنْسَرُ مِنْهُ ۝٢٠﴾ المزمّل: ٢٠، والقراءة أول التكاليف وأشرفها على الإطلاق إذ إنّ الأمر بها أول ما تلفّظ به جبريل (عليه السلام) لنبيّنا (ﷺ) فقال له اقرأ⁽⁴⁾ وهذا فضلاً عما ورد في مجرد قراءته من الأجر العظيم⁽⁵⁾.

- (1) ينظر تفسير النكت والعيون: 34/1. وجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي: 17/1-18.
- (2) ينظر التبيان في أسماء القرآن، محمد بليّ الفتوي: ص18-28. ويسألونك في الدين والحياة، أحمد الشرباصي: 221/3-222. وأسماء القرآن في البيان القرآني، د. محمود سعد: ص193-195. والتبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني: ص9-10.
- (3) ينظر ص من هذه الأطروحة.
- (4) ينظر أسماء القرآن في القرآن ، د. محمد محروس الأعظمي ص6.
- (5) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها؛ لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف". أخرجه الترمذي في سننه؛ الجامع الصحيح: 175/5.

وأما تسميته بالفرقان كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿٢﴾﴾ الفرقان: ١** ففيه القصد إلى تيسير حفظه والعمل به على مذهب من قال إنه سمّي كذلك لأنه نزل مُفرّقًا تفريقًا زمنيًا ومكانيًا، والذي عليه أكثر المفسّرين أنه إنما سمّي كذلك لأن الله فرّق فيه بين الحق والباطل، لأن الفرقان هو الفرق بين الشئئين⁽¹⁾. وفيه القصد إلى بيان الفرق بين الحق والباطل والبتّ فيما اختلف فيه من مهمّات المسائل.

قال صاحب التبيان في أسماء القرآن: "وهذان الاسمان هما أشهر أسماء النظم الكريم، بل جعلهما بعض المفسّرين مرجع جميع أسمائه، كما ترجع صفات الله على كثرتها إلى معنى الجلال والجمال. ويلي هذين الاسمين في الشهرة؛ هذه الأسماء الثلاثة: الكتاب والذكر والتنزيل"⁽²⁾.

أما تسميته بالكتاب فمصدر من كتب الشيء إذا جمعه ومنه قولهم كتيبة لاجتماعها، ولم أجد فيه ما يوحى بمحتواه.

وأما تسميته بالذكر فذكروا له معنيين؛ أولهما أنه ذكر من الله ذكر به الناس بخالقهم وآخرتهم، وما كانوا في غفلة عنه مما وقع للأمم الماضية مع أنبيائها، وعرفهم فيه فرائضه وحدوده⁽³⁾. والثاني أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدّق بما جاء فيه⁽⁴⁾ كما قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٢﴾﴾ الزخرف: ٤٤**. والمعنى الأول أولى لكثرة ما ورد في قوله تعالى من أنه أنزله لمن أراد أن يذكر ويسره لذلك صراحة. وهذا لا يمنع من حصول نعمة المعنى الثاني

(1) ينظر لسان العرب: 302/10.

(2) التبيان في أسماء القرآن، محمد بليّ الفتوي: ص 18.

(3) ينظر تفسير النكت والعيون: 35/1، وجواهر الحسان في تفسير القرآن: 18/1.

(4) ينظر مفاتيح التعامل مع القرآن، د.صلاح عبد الفتاح الخالدي: ص 26.

على من نزل عليهم أو من آمن به اتبع هديه وعمل به. ودلالة معنييه واضحة على شيء من مقاصد مسمّاه، ألا وهي مهمة التوعية والتذكير ورفع شأن أهل هذا الكتاب.

وهذه الأسماء الأربعة هي القدر المشترك بين أهل علوم القرآن، ومنهم من أضاف إليها اسم التنزيل ثم جعلوا غيرها صفات لها وذلك ظاهر؛ إذ يصح القول: قال تعالى في القرآن أو في الذكر أو في الكتاب أو في الفرقان، أو في التنزيل، في حين لا يصح قولك: قال تعالى في الكريم، أو في الحكيم، أو في العزيز أو غير ذلك من الصفات، فهذه صفات لتلك الأسماء: القرآن الكريم، الذكر الحكيم، الكتاب العزيز.

وأما تسميته بالتنزيل فبين الاشتقاق من طريقة وصوله إلى نبينا(ﷺ) قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾** الواقعة: ٨٠، وليس فيه ما يشير إلى محتوى مسمّاه.

هذه أشهر أسماء القرآن، وسأورد ما أمكن مما عدّه العلماء أوصافاً مع التعليق عليها.

أما صفات هذا النظم الكريم فهي كثيرة يعسر إحصاء جميعها، غير أنه يمكن تصنيفها -باعتبار وظيفتها- على ثلاثة أقسام:-

القسم الأول:- قسم يدلّ دلالة واضحة على وظيفة القرآن ومقاصد نزوله؛ ومن ذلك ما يأتي:

أنه **برهان**؛ من قوله تعالى: **﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَّ جَاءَكُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾** النساء: ١٧٤، والمقصد منه أن يكون برهانا على صحة نبوته(ﷺ)، وصحة كل ما فيه من أخبار وأوامر.

أنه **نور**؛ من قوله تعالى: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾** والمقصد منه أن يكون جلاءً لظلمة العقول والقلوب كما كان النور جلاءً للظلام،

فكما كان النور يهدي السالك المستنير به إلى موقع وضع رجله في الظلمة، فإن القرآن ينير للبشرية التائهة في ظلمات الجهل الطريق إلى الصراط المستقيم الموصل لها إلى برِّ الأمان. وإلى قريب من هذا القصد يشير اسما البصائر والتبصرة.

وأنه هدى وبيان، قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾** (١٣٨) آل عمران: ١٣٨، والمقصود منهما قريب من معنى النور السابق، وهو أن يكون دليلاً مؤدياً النجاة، وأن يكون بياناً لما يجب أن يُعرف، وما يجب أن يُعمل.

أنه حق؛ كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَكَفُرُوكَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾** (١١) البقرة: ٩١، ووصف بالحق لما فيه من الثبات والوضوح، والاستغناء بنفسه عن غيره^(١). والمقصود منه أن يكون مسلمة لا يُنازع في شيء من أحكامه، فهو الحق المطلق.

أنه نبأ، كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾** (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) ص: ٦٥ - ٦٧، النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة، وغالبا ما يقترن معنى النبأ في وصف القرآن بالتحذير من يوم القيامة^(٢)، كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾** (١) عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ (٢) النبا: ١ - ٢ وقوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾** (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمَنَّ بَأْهٖ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ص: ٨٦ - ٨٨، وعلى ذلك يكون المقصد تعظيم ما فيه، والتحذير مما هو آتٍ.

(١) أسماء القرآن في القرآن، د. محمد محروس: ص 43.

(٢) ينظر سياق الآيات (ص 65-67)، وص 87-88، (عم 2 وما بعدها)

وأنه **بلاغ**؛ كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ ﴾** إبراهيم: ٥٢، والمقصود من أيّ بلاغ هو الاطلاع على ما فيه، والتصديق بما فيه، وإنفاذ ما حواه من أوامر أو نواه.

وأنه **شفاء** في مثل قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَنَاسُوا النَّاسَ فَدَجَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾** يونس: ٥٧، والمقصود منه بين؛ وهو اتخاذه دواءً للاستشفاء مما يُلَمُّ بالمؤمن من أمراض، ليحصل له البرء.

وأنه **بشرى**؛ كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾** البقرة: ٩٧، والبشرى أو البشارة: هي الإخبار بما يسرّ، والمقصد من ذلك الحث على فعل ما تحصل به تلك البشارة، وطمأننة من وفّى شروط تلك البشارة بحسن العاقبة.

وأنه **نذير**، كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴾** النجم: ٥٦، والإنذار التخويف من العاقبة، والمقصد من ذلك الحث على الاستقامة. فهذه الأوصاف تحمل دلالة واضحة على وظائف القرآن ومقاصد نزوله.

القسم الثاني:- قسم يضم مجموعة من الصفات ينصرف ظاهر معناها إلى بيان عظمة قدر القرآن، ورفعة شأنه، ولكنه عند الإنعام فيها يُستشف منها بعض المقاصد أو الوظائف.

فمن ذلك وصفه بأنه **مصدق** لما سبقه من الكتب ومهيمن عليها؛ كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾** المائدة: ٤٨ وترجع معاني هاتين الصفتين إلى معنيين، أولهما أن هذا الكتاب امتداد لتلك الرسالات، فليس

يعارضها ولا يناقضها، والثاني أن هذا الكتاب ناسخ لما قبله ومسيطر عليها، فقد آل إليه أمر السماء، والمقصد منها أن يكون القرآن مهيمنا على كل حركات المؤمن وسكناته، فلا يُرجع في أيّ منها إلى كتاب غيره مما سبق، لأنّه سيطر عليها، وانتهى أمر التّحاكم إليه.

ومن ذلك وصفه بالجامع أو الخاتم، ففيها إحياء بأنّه أنزل ليحقّق الكفاية التّشريعية.

ومن ذلك نعتة بالحكيم أو حقّ اليقين، ففيه توجيه لطلّاب الحقائق المطلقة إلى علومه، وما ورد فيه مما يطلبون.

ومن ذلك نعتة بالعربي والميسّر ففيه إشارة إلى جعل الناس يتوجّهون إليه لسهولة ووضوحه، لما في العربية من القدرة الفائقة على وظيفة البيان.

وفي كثير من هذه الصفات بيان لخصائص القرآن الكريم، لذلك سأرجى الحديث عن استخراج المقاصد من الخصائص إلى مبحثه من هذا الفصل.

القسم الثالث:- وفيه صفات لم أجد فيها أو لم أفف فيها على أيّ معنى يدلّ دلالة واضحة على وظيفة من وظائف القرآن أو مقاصد نزوله، ومن ذلك وصفه بالمبارك، والعظيم، والمجيد، والمنزل، والمكنون، والكريم، والكتاب، والتنزيل، والوحي، والمثنائي، والصحف، وأحسن الحديث.

فلا يتيسّر الحصول على ما يدل على مقاصد القرآن منها إلا بتأويلات بعيدة جدّاً، واعتبارات عسيرة.

ثانياً:- من الوصف النبوي للقرآن الكريم.

من أشهر ما ورد في وصف القرآن الكريم في السّنة النبوية ما رُوي عن عليّ (عليه السلام) أنّه سمع النبي (صلى الله عليه وآله) يقول إنّها ستكون فتنة، فقال عليّ: وما المخرج منها يا رسول الله؟ فقال: "كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم، هو

الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾ الجن: ١ - ٢ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم^(١). وقد أخرج مسلم ما يقارب معناه فروى عن النبي (ﷺ) أنه قال: "كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضل"^(٢).

وأخرج الحاكم في مستدركه عن النبي (ﷺ) من طريق ابن مسعود أنه قال: "إن هذا القرآن مآدبة الله فاقبلوا من مآدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه. لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد. اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف"^(٣).

(1) جامع الترمذي باب فضائل الأعمال (5/158-159)، ورقمه: (2906). وقد سبق تخريجه والكلام عنه عند الكلام عن الوصف النبوي للقرآن في الفصل الأول من الباب الأول.

(2) صحيح مسلم (4/1874)، في كتاب فضائل الصحابة ورقمه: (4425).

(3) رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عنه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر. المستدرک على الصحيحين: 1/741. وينظر الترغيب والترهيب، المنذري: 2/231. ورواه سعيد بن منصور والطبراني موقفاً على ابن مسعود. ينظر سنن سعيد بن منصور: 1/48، والمعجم الكبير: 9/130.

استخلاص الأوصاف:

القرآن مخرج من الفتنة : فالتمسك به سبب يتوصل به إلى الخروج من الفتنة.

وصف القرآن بمحتواه : ففيه نبأ أحوال الأمم الماضية. وخبر الأمور الآتية

من أشراط الساعة وأحوال القيامة. وهو حاكم على ما وقع أو يقع بين المكلفين من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والحلال والحرام وسائر شرائع الإسلام.

القرآن هو القول الفصل: وهو الفاصل بين الحق والباطل أو المفصول

والمميز فيه الخطأ والصواب وما يترتب عليه الثواب والعذاب.

القرآن كلام جد لا هزل فيه: هو جد كله وحق جميعه لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه كما قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ (١٤)**

الطارق: ١٣ - ١٤.

مصير المعرضين عن القرآن: من ترك الإيمان به والعمل بمقتضاه تجبر^(١)

أهلكه الله. ومن نشد الهداية من الضلال في غيره من الكتب والعلوم التي لم تؤخذ منه ولا توافقه معرضا عنه؛ أضله الله عن مبتغاه وخذله.

القرآن هو الطريق الوحيد إلى الله: والوسيلة القوية الموصلة إلى معرفة

الإنسان بربه وسعادة قربه.

القرآن ذكر حكيم: وهو موعظة غاية في الحكمة يتذكر بها الخلق خالفهم وما

خلقوا لأجله.

(1) "قال الطيبي: "من ترك العمل بآية أو بكلمة من القرآن مما يجب العمل به أو ترك قراءتها

من التكبر كفر ومن ترك عجزا أو كسلا أو ضعفا مع اعتقاد تعظيمه فلا إثم عليه أي: بترك

القراءة ولكنه محروم كذا في المرقاة" تحفة الأحوذى: 176/8.

القرآن محفوظ من التغيير: وهو الذي لا تميله الأهواء المضلة عن نهج الاستقامة إلى الاعوجاج وعدم الإقامة⁽¹⁾ لأنه تعالى تكفل بحفظه بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١) الحجر: ٩.

القرآن ميسر للتلاوة والفهم: فلا تتعسر ألفاظه على الألسنة، ولا يستغلق ما يحتاج من معانيه عن الأفهام مصداقا لقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧) القمر: ١٧.

القرآن فتي متجدد: فلا هو بالذي يسأم منه العلماء بكثرة تكراره، ولا هو بالذي يزول سحر جماله ولذة قراءته وطراوة تلاوته من طول إنعام النظر فيه. ولا الذي تنفد عجائب علومه، ولطائف معانيه، من إيمان تدبره. ولا الذي تمل الآذان من سماع أذكاره وأخباره.

الأثر الكبير للقرآن في الجنة: وهو الذي بهر أسماع الجنة وأخذ بالبابهم فبادروا بمدحه ووصفوه بالهداية إلى الطريق الحق، وأسلموا له قيادهم على الفور.

القرآن منبع الحقائق المطلقة: من استشهد بما فيه أو تكلم على وفق قواعده وقوانينه وضوابطه فقد قال الصدق والعلم المطلق. ومن عمل بما فيه فقد فعل الحق والصواب، وحصل -دون شك- على الثواب. وسمة أحكامه العدل والقسط. ومن أرشد إلى هدايته فقد وفق -لا محالة- للإرشاد إلى الحق⁽²⁾.

(1) قال الطيبي: "أي: لا يقدر أهل الأهواء على تبديله وتغييره وإمالاته". تحفة الأحوزي: 177/8.

(2) مستخلص وملخص من شرح هذا الحديث للمباركفوري بتصرف. ينظر تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي: 176/8-178.

المبحث الرابع- طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال خصائصه (1) العامة.
من المسلّم به لدى العقلاء أن لخصائص الشيء صلة وثيقة بالمقصود من وجوده، فمن حكمته تعالى أنه ما اختصّ شيئاً بخاصة إلا كانت له فيها حكمة ومقصد، وكذلك القرآن الكريم؛ فقد خصّه الباري عزّ وجلّ بخصائص تؤهّله لبلوغ مقصده من نزوله، ولتوضيح ذلك أورد هنا بعض أبرز ما عدّه العلماء من خصائصه العامة (2)، مبيناً ما يتصل بها من مقاصده الكلية:-

خاصية مصدره الإلهي:

فقد تجلّت في كلماته وآياته صفاتٌ من تكلم به؛ من عظمة وجمال وجلال وكمال وخبرة وحكمة وعلم مطلق؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّكُوبُ أَهَكَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ هود: ١، وقال أيضاً: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ النمل: ٦؛ والمقصد من ذلك هو حصول الثقة المطلقة بما فيه

(1) الخصائص جمع خاصّة، وهي في اللغة خلاف العامة. وخاصّة الشيء ما يختصّ به دون غيره. والتخصيص والاختصاص والخصوصيّة تفرّد بعض الشيء بما لا تشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم والتعميم. ينظر المعجم الوسيط: 297/1، ط/ مجمع اللغة العربية، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن: ط: دار الفكر - بيروت: ص150.

(2) جمعت هذه الخصائص من بعض المراجع في الموضوع منها؛ خصائص القرآن الكريم، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرّومي، وقد أصلها إلى ثلاث وأربعين (43) خصيصة، وكيف نفهم القرآن لمحمد جميل زينو الذي بلغ بها ستا وعشرين خصيصة، ص46-54. وكيف نتعامل مع القرآن العظيم، والخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي، وغير هذه الكتب مما سيأتي ذكره.

لأنه تعالى أعلم بما يصلح خلقه: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) الملك: ١٤، ثم مهابة ما فيه من الوعيد والتسليم بما ورد فيه تصديقا وامتنالا (1).

والمقصد الآخر هو ما تقتضيه جهة صدور هذا الكتاب وما فيه من الأخبار والأحكام؛ فالخطاب إذا صدر من الأعلى إلى الأدنى، ومن السيد إلى عبده استوجب من المخاطب التصديق بأخباره، والإذعان لأوامره ونواهيه، والاحتكام إليه؛ ذلك هو الموقف المطلوب، قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ الأحزاب: ٣٦.

ففي اختصاصه بالهية المصدر بت في مسألتين مهمتين هما: مسألة الحقيقة المطلقة، ومسألة الحاكمية.

خاصية الحفظ:

فهو مصون من أيّ تبديل أو زيادة أو تحريف، قد عصمه الحافظ من تلاعب أي يد عابثة؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١) الحجر: ٩، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيْزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) فصلت: ٤١ - ٤٢، فالمقصد من اختصاصه هو ضمان الله تعالى استمرار وجوده ووجود ما فيه من العلم، واستمرار

(1) يُنظر المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: ص 35-38، وكيف نتعامل مع القرآن العظيم: ص 18-21، ومدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، القرضاوي: ص 83-84.

وجود الحجة على من بقي من أهل الدنيا، وفي ذلك صرفٌ لجهود الناس إلى التركيز على تدبره وفهمه⁽¹⁾.

خاصية الإعجاز:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) الإسراء: ٨٨. وقد وقع التحدي بأقل من ذلك فقال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) البقرة: ٢٣، وكل ذلك لإثبات كونه من عند الله تعالى، وأن الرسول صادق، وأن ما فيه حق. ففيه إذن القصد إلى جعله حجة للمؤمنين على من خالفهم من الكافرين⁽²⁾.

خاصية التيسير والبيان:

قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ﴾ (٧) القمر: ١٧، فالمقصد من تيسيره وبيانه أن يكون هداية مُشاعة بين جميع المُكَلِّفِينَ على تفاوت مداركهم العقلية وقواهم الجسدية، فالقرآن وإن تفاوتت علومه في الدقة، وتكاليفه في الثقل، فقد ضمن الله تعالى لعامة الناس حظهم من تلك الهداية بما يكفيهم وبما يطبقون لحيوا حياة طيبة في الدنيا والنَّجاة يوم القيامة. قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ

(1) يُنظر كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ د.يوسف القرضاوي: ص22-31، والمقاصد العامة

للشريعة الإسلامية، د.يوسف حامد العالم: ص48-50.

(2) يُنظر كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ د.يوسف القرضاوي: ص32-36.

اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ البقرة: ١٨٥ (١).

خاصية الكمال والتمام والشمول:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ العنكبوت: ٥١، وقال أيضا: قَالَ تَعَالَىٰ ﴿الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا نَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٢﴾﴾ المائدة: ٣، فهو شامل لجميع شؤون الحياة، من حاجات الإنسان الفردية إلى حاجاته الاجتماعية، ومن حاجياته الجسدية والعقلية إلى الروحية، وفي ذلك إشارة وحث على ابتغاء الهداية فيه وحده، وعدم الحاجة إلى غيره (٢).

خاصية كونه عاما للبشرية:

فلا يخصّ جنسا دون جنس، ولا عربا دون عجم، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ التکویر: ٢٧ - ٢٨، وقال ﴿بُعِثْتَ﴾

(1) يُنظر الوحي المحمدي: ص268، وكيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ د.يوسف القرضاوي: ص37-42،

(2) يُنظر المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، زيدان: ص49-53، مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، القرضاوي: ص131-134، وخصائص القرآن الكريم، د.فهد الرومي: ص72-75، وكيف نفهم القرآن، محمد جميل زينو: ص50-51.

إلى الأحمر والأسود⁽¹⁾ وفيه القصد إلى كون هدايته صالحة لكل المجتمعات، على اختلاف عاداتها وطبائعها وثقافتها، وذلك لئلا يتصل من الإيمان به والعمل بما فيه أحد، وفيه القصد -أيضا- إلى جمع البشرية فيما بقي من الزمان على كلمة واحدة وشرع واحد. وفي ذلك إيماء إلى أن فيها القواعد والقوانين التي يحتاجها الناس أجمعين إلى يوم الدين⁽²⁾.

خاصية كونه خاتما لكتب السماء:

فهو كتاب الزمان الباقي للبشرية، وفي هذه الخاصية إشارة إلى اليأس من انتظار هداية غيره، أو رسالة غير رسالته، فليس للناس إلا الإقبال عليه بالتدبر والسمع والطاعة. وفي ذلك -أيضا- إثبات لصلاحية تعاليمه لكل ما يجد في حياة البشرية فيما بقي من الزمان⁽³⁾.

خاصية الوسطية والتوازن في أحكامه:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة: ١٤٣، وتتمثل هذه الوسطية في موازنته بين حقوق الروح والجسد والعقل، وسط بين روحانية ورهبانية النصارى ومن مائلهم، وبين مادية اليهود وقسوة قلوبهم⁽⁴⁾. وموازنته بين

(1) مسند أحمد: 304/3، و416/4، قال الهيثمي: رواه الإمام أحمد متصلا ومرسلا، ورجاله رجال الصحيح؛ مجمع الزوائد: 258/8.

(2) يُنظر المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: ص39-49، وكيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ القرضاوي: ص59-62.

(3) يُنظر كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ القرضاوي: ص56-58، وخصائص القرآن الكريم، د. فهد الرومي: ص190-193.

(4) يُنظر الوحي المحمدي: ص267، وخصائص القرآن الكريم، د. فهد الرومي: ص82-84.

مُصَالِحِ الدُّنْيَا وَمُصَالِحِ الْآخِرَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ﴾ (٧٧) القصص: ٧٧، ويوضح ذلك قوله (ﷺ) للنفر الذين أعرضوا عن هذه الوسطية فالتزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم الثاني أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن لا يتزوج النساء، فقال لهم النبي (ﷺ): "أما إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" (1).

خاصية جمع أحكامه بين الثبات والمرونة:

فمن الثوابت ما كان بينا من الحلال والحرام، وأما مرونتها ففي مثل تخيير المكلف بين الرخصة والعزيمة، وأنواع رعاية الضرورات والظروف الاستثنائية؛ كجواز بعض المحرمات جوازا للضرورة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) النساء: ٨٢، وكذلك تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف (2).

خاصية حصول الأجر الكبير على مجرد تلاوته:

قال (ﷺ): "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ" (3).

(1) صحيح البخاري: 1949/5، صحيح مسلم: 1020/2، واللفظ للبخاري.

(2) ينظر الخصائص العامة للإسلام، القرضاوي: ص210-213، ومدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، القرضاوي: ص181، والمقاصد العامة للشريعة الإسلامية، د.يوسف حامد العالم: ص44-46.

(3) سبق تخريجه.

والمقصد من ذلك بَيِّن، إذ إن قراءة القرآن سببٌ لتحصيل كل ما فيه من خيرات ومقاصد.

خاصية التناسق والسلامة من التناقض:

وذلك راجع لإلهية مصدره؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾﴾ النساء: ٨٢، فكل تعاليمه تعمل على بلوغ هدف الهداية دون تضارب، وفي ذلك عدم التّحرج من إعمال أي حكم من أحكامه. والحث على النظر في القرآن نظرة كلية شمولية، وأما ما لم يوقف على معناه من مُشكل آياته فعلى المؤمن أن يقول كما قال الراسخون في العلم: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾﴾ آل عمران: (١)٧.

المبحث الخامس- طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال مواضيعه.

دأب أكثر من تكلم في موضوع مهم أو كتب فيه أن يقدم لكلامه بأهم ما فيه، وهي سنة إلهية ألهمها الله تعالى عباده، وزين بها كتابه؛ فقدم له بفاتحة أودع فيها أسرارهِ ومجمل معانيهِ، ودبج كثيراً من سورهِ بكثير من أمّهات مقاصده، وذيل كثيراً من آياته بمثل ذلك، على غير معهود أهل البلاغة واللسان.

ثم سلك القرآن كل سبيل، ليوصل تلك المعاني إلى النفوس الجامحة: "فتارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة. وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة، وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارّة الودود؛ التي تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب، وتارة يواجهها بالهول

(1) يُنظر مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، القرضاوي: 127-130، وكيف نفهم القرآن، محمد

المرعب، والصرخة المفزعة؛ التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب، وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة، وتارة يتخيل مسارها ودروبها ومنحنياتها، فيلقي عليها الأضواء الكاشفة... ومئات اللمسات والمؤثرات، يطلع عليها القارئ للقرآن الكريم⁽¹⁾. هذا هو أسلوب القرآن، ولكن لما تاهت العقول في رياض هذا الكتاب، عكفت بعض العقول على تصنيف ما فيه من درر وجواهر، بقصد الإحاطة بأمماته مواضيعه، واستخلاص فكرة عامة عما فيه من علوم، وقد بسطت الكلام عن ذلك في المطالب الآتية:-

المطلب الأول: التصنيف الموضوعي للقرآن الكريم على مستوى الآيات.

بدأت بواكير التصنيف الموضوعي لآيات القرآن الكريم وإرهاصاته الأولى -كما رأينا في الباب الأول- في العهد النبوي؛ لحاجة المعلم أو المفتي أو الخطيب إلى انتقاء ما تستحضره الحافظة من الآيات المتعلقة بموضوع حديثه، وسردها للسامعين. وبقي كذلك محافظا على تلك الهيئة البسيطة؛ ملكة لدى الحفاظ والعلماء دونما تدوين. وعمدتهم في ذلك سعة الحفظ، ودقة الفهم، وسرعة البديهة في استحضار ما يتعلّق بالموضوع المطروق من آيات. وكان سرد أحدهم لتلك الآيات غالبا ما يكون متبوعا بما ورد في الموضوع من أحاديث نبوية، وما فتح الله تعالى عليه من فهم في ذلك. وبقي كذلك مزيجا هو أشبه بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم إلى أن أخذ كل علم من علوم ذلك المزيج بحظه من الأفراد في التأليف.

فاهتم علماء الإسلام بعدهم بالتبويب لعلوم القرآن المختلفة، لتسهيل الرجوع إلى موضوعاته عند الحاجة. والترتيب الغالب عندهم الابتداء بالعقائد ثم الأحكام العملية، ثم السلوك -على خلاف في بعض الأبواب وبعض المسائل-. وغالبا ما

(1) يُنظر في ظلال القرآن: 96/29، وأهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، عبد الله شحاتة (63/3).

يقدمون ذكر الآيات القرآنية، ثم يدرجون معها الأحاديث النبوية، وأخبار السلف، وآراء العلماء، وغير ذلك في هذا التصنيف. وعلى هذا درجت المؤلفات الجامعة لأمر الدين كله. وسأمثل لذلك بطريقة أهل الحديث في التبويب لتصانيفهم الجامعة -كأنموذج أول-، لكون التبويب والتصنيف الموضوعي للحديث النبوي سابق لنظيره المتعلق بآيات القرآن بأمد طويل لأسباب عديدة؛ أهمها الإجماع على توقيفية ترتيب آيات القرآن في المصحف، في حين لم يشترط أحد ترتيباً معيناً لأحاديثه (ﷺ).

"اصطلاح المحدثون على أن الكتاب لا يدعى جامعاً إلا إذا ضم بين دفتيه أحاديث جميع موضوعات الدين وأبوابه الثمانية وهي:

أحاديث العقائد، وتسمى بعلم التوحيد.

أحاديث الأحكام بكل أبواب الفقه، وتسمى بعلم السنن.

أحاديث الرقاق؛ وتسمى بعلم السلوك والزهد.

أحاديث الأكل والشرب؛ ويقال لها علم الأدب.

أحاديث السفر والقيام والقعود؛ وتسمى بعلم الشرائع.

الأحاديث المتعلقة بالتفسير والتاريخ والسير؛ وتسمى علم التفسير وعلم بدء

الخلق؛ فأما التفسير فمعروف، وأما التاريخ فمتعلق بما وقع من خلق السماء

والأرض وخلق الخلق. وهو علم بدء الخلق. وأما السير فهي خاصة بما يتعلق

بوجود النبي (ﷺ) من ولادته إلى وفاته.

أحاديث الفتن؛ وتسمى بعلم الفتن.

أحاديث المناقب والمثالب، وتسمى علم المناقب.

وقد صنف علماء الحديث وغيرهم في كل من هذه الفنون الثمانية تصانيف مفردة⁽¹⁾.

والظاهر أن علماء المسلمين اكتفوا بهذا القدر من التبويب الموضوعي لقلة حاجتهم إلى أكثر من ذلك، وكأني بهم -من كثرة اعتمادهم على ما هو رائج عندهم من سعة حفظهم للقرآن- زهدوا في القيام بمثل هذا العمل المفيد لغير الحفاظ. إذ تجد عالمهم إذا تكلم في العقائد يستحضر كل آيات القرآن المتعلقة بالمسألة التي يعالجها. هكذا.. وبدون عنت! فكان يكفي من كان لا يحفظ منهم، الرجوع إلى أي مؤلف في المسألة، ليقف على مجموع ما ورد فيها من الآيات. واستمر الأمر على هذا المنوال.

ومما قد يكون سببا قويا في تأخرهم عن فهرسة القرآن موضوعيا؛ ورعهم، وشدة تمسكهم برسم المصحف العثماني وترتيبه. فإنهم إن تورعوا في القول بجواز ترتيب سور القرآن على غير الترتيب العثماني -على الرغم من اختلافهم في توقيفية ترتيب السور- فكيف يكون الأمر إذا تعلّق الأمر بإعادة ترتيب الآيات على غير ما هي عليه في المصحف العثماني وأمر توقيفية ترتيبها مجمع عليه، بل منصوص عليه؟! إن ذلك بلا ريب -في غاية الحرج.

ولعلّ أول محاولة وقفت عليها -مما يمكن اعتباره تصنيفا موضوعيا لآيات القرآن الكريم لدى علماء الإسلام- التصنيف الذي بسطه أبو حامد الغزالي في كتابه جواهر القرآن ودرره، فعلى الرغم من صبغة الكتاب الصوفيّة؛ فقد عرض فيه لبيان أهمّ مقاصد القرآن، وسرد عددا معتبرا من الآيات مصنفا إياها إلى درر وجواهر، وقد شغل بهذا التصنيف أكثر من نصف الكتاب. فقد عمد في الشطر الثاني من هذا الكتاب إلى آي لباب القرآن فنظم جواهرها في سلك بلغ عدد آياته

(1) عن بحث مخطوط للدكتور مظفر شاکر الحیانی معنون بـ(مناهج المحدثین فی التصنيف)

-وهو مقرّر لصف الدكتوراه بكلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد- بتصرّف.

أربعمئة وثلاثاً وستين آية (463)، ونظم دررها في سلك آخر بلغ عدد آياته سبعمئة وإحدى وأربعين آية (741)⁽¹⁾. واستمر الأمر على تلك الحالة إلى عصر الاستشراق؛ إذ لما عرف الغربيون سرّ قوة الأمة الإسلامية ووحدها، غدت حاجتهم إلى الاطلاع على المحتوى القرآني ماسة وضرورية؛ فعكفوا على فهرسة مواضيعه لتيسير التطرّق إليه بالدراسة والنقد. نرى ذلك جلياً في تسويغ أولى محاولاتهم حيال ذلك. يقول المستشرق الفرنسي (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب): "وإنني أنقل من القرآن بضع آيات في كل موضوع مهم، وأرتب ما نقلته من آياته بحسب الموضوعات نظراً إلى أن ما ورد فيه من الآيات في الموضوع الواحد مبعثرة في سوره في الغالب"⁽²⁾. وقد عقد هذا المستشرق في كتابه هذا فصلاً للقرآن الكريم حاول فيه الاستشهاد لكل موضوع من مواضيع الفصل الثمانية ببضع آيات من القرآن.

وقد بلغ عدد الآيات في تلك المواضيع -مجموعة- خمسين آية⁽³⁾. وعلى الرغم من بدائية هذه المحاولة وبساطتها فإن أهميتها كامنة في أساس الفكرة، وتقديم نموذج عملي مبسّط لها في الواقع، وهذا ما مهّد الطريق لمن جاء بعده؛ فاضطلع بالخطوة التالية مواطنه المستشرق الفرنسي (جول لايوم) الذي ألف كتاباً أسماه

(1) ينظر جواهر القرآن ودرره: من ص 75 إلى ص 175. مع العلم بأن هذا الكتاب يقع في 175 صفحة من الحجم المتوسط، والظاهر أنه من آخر كتبه تأليفاً لأنه أحال فيه على أشهر كتبه، ولأما فيه من النبرة الصوفيّة الخالصة، فهو على ذلك حصيلة حياته العلمية، وتجربته السلوكية.

(2) حضارة العرب، غوستاف لوبون: ص 150.

(3) ينظر المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(تفصيل آيات القرآن الحكيم)⁽¹⁾، الذي عمل على تحقيق جانب الاستيعاب التطبيقي لفكرة لوبون على كل آيات القرآن، مع الاجتهاد في التبويب. وقد وُفِّق في ذلك إلى حد كبير .. توفيقا يناسب ما يمكن أن يقدمه أي جاد لم يمكنه التعامل المباشر مع معاني الآيات القرآنية المفعمة بروح البيان العربي.

وقد قسّم "لابوم" كتابه هذا إلى (18) بابا سمّاها بما رآه مواضيع رئيسة في القرآن، وفرّع لكل باب بما رآه مناسبا من المواضيع الفرعية التي بلغ عددها مجتمعة (350) فرعا. وجمع تحت كل فرع ما يتّصل بموضوعه من آي القرآن، فكان رائدا في تحقيق هذه الفكرة في الواقع، بعد أن راجت -بين الكثير من المستشرقين- فكرة إعادة ترتيب القرآن على مواضيعه، أو على الأقل إعادة ترتيب سورته. وقد عني بترجمته إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي في عام 1924م، ثم ذيلّه بالمستدرك الذي وضعه المستشرق الفرنسي الآخر (إدوار مونتييه)⁽²⁾ بعد أن ترجمه أيضا. وقد كان هذا المؤلّف -وإن لم يستوعب مواد القرآن ومواضيعه كلية، ولا آياته عامة⁽³⁾- عملا خالدا، عظيم الفائدة في مكتبة الدراسات القرآنية، خاصة

(1) تفصيل آيات القرآن الحكيم والمستدرك: جول لابوم وإدوارد مونتييه، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي: دار الكتاب العربي/ بيروت، لبنان. كتاب وضع عليه إدوارد مونتييه مستدركه، ويقع في (671) صفحة وقد بلغت مواده (404 مادة) .

(2) إدوارد مونتييه: (1856-1927) مستشرق فرنسي، ولد بليون من أصل سويسري، حائز على دكتوراه في اللاهوت البروتستانتية من جامعة باريس 1883، انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي السوري منذ نشأته، انظر المستشرقون، نجيب العقيقي: دار المعارف/ مصر، ط3/ 1964: 229/1.

(3) ينظر المستشرقون والدراسات القرآنية، د. محمد حسين علي الصغير: دار المؤرّخ العربي/ بيروت، لبنان، ط1/ 1420هـ-1999م: ص62-64. وينظر مقدمة الأستاذ محمد كمال الدين الخطيب على كتاب الجامع لمواضيع القرآن الكريم، محمد فارس بركات، طبعة

لدى المستشرقين، والمشتغلين بالتفسير الموضوعي؛ لشديد حاجتهم إلى فهرسة تدلهم على مواضع الآيات التي تكلمت عن أيّ من مواضيع القرآن الكريم، وعلى ما رأينا فإن فهرسة القرآن موضوعيًا كانت تطلُّعا فرنسيا بحتا.

ثم سار على آثار هؤلاء جماعة من علماء المسلمين، لما وجدوا في ذلك من الفائدة العظيمة، والخدمة الجليلة لكافة العلوم الشرعية. فنشطت ثلثة من علماء المسلمين في التآليف على منوالهم، وحاولوا استيعاب الآيات والمعاني القرآنية بقدر الإمكان مما لم يكن ليتيسر إلا لمن شبَّ على لغة القرآن، وتذوَّق بيانه. وحاولوا -أيضا- إعادة ترتيب ما يتطلب ذلك وتبويبه. وقد وقفت على جملة من هذه المؤلفات منها كتاب (الترتيب والبيان عن تفصيل آي القرآن) للأستاذ (محمد زكي صالح)، الذي سلكه في (60) بابا اشتملت على (390) فرعا مقسّمة على تلك الأبواب، طبع أول مرّة سنة 1957م.

ومنها (الجامع لمواضيع القرآن الكريم) ⁽¹⁾ الذي ألفه (محمد فارس بركات). فقسّمه على (24) مادة حوت ما مجموعه (377) فرعا. وهو مرتّب على طريقة مخصوصة ارتآها المؤلف مبتدئا بالتوحيد ثم العبادات ثم الإيمان، ثم الجهاد والهجرة... الخ ⁽²⁾ وطبع أول مرة سنة 1959م. وألف الأستاذ (محمد كامل عبد الرحيم) في ذلك كتابا أسماه (الترتيب الموضوعي لآيات القرآن الكريم). وقسّمه على (28) موضوعا -على عدد أحرف

المكتبة الهاشمية بدمشق / 1959م: ص(ي). وينظر مقدمة مؤلف الفهرس الموضوعي

للقرآن الكريم: محمد مصطفى محمد. ط 4 / (د.ت). دار الجيل / بيروت: ص9.

(1) الجامع لمواضيع القرآن الكريم: محمد فارس بركات؛ مؤلف يقع في (660 صفحة) من الحجم الكبير.

(2) ينظر المصدر نفسه: ص (و)، ص 647-660.

المعجم - ورتّب فيه آيات كل موضوع ترتيباً معجمياً، وقد بلغ عدد فروع المواضيع مجتمعة (375) فرعاً. ظهر سنة 1962م

ومما كتب في ذلك أيضاً (الفهرس الموضوعي للقرآن الكريم)⁽¹⁾ الذي عني بجمعه وترتيبه (محمد مصطفى محمد). فقسّمه إلى (31 مادة) حوت ما مجموعه (355) فرعاً. وقد رتب مواضيعه على وفق تسلسلها في مناهج تدريس الكتب الإسلامية: عقائد - العبادات - الأحكام - الاجتماعيات - المعاملات - الأمثال القصص والتاريخ... الخ⁽²⁾، ثم رتب الآيات تحت كل موضوع وفق ترتيبها في المصحف. وطبع أول مرة سنة 1971م.

ومما وقفت عليه أيضاً (المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم)، لمؤلفه (صبحي عبد الرؤوف عصر) الذي رتب فيه آيات القرآن تحت ثلاثة عناوين أساسية هي:

1- أركان الإيمان والإسلام.

2- التقوى.

3- الكفر والفسوق والعصيان⁽³⁾.

وللأستاذ (سلامة محمد أفندي) كتاب في ذلك أسماه (ترتيب آي الذكر الحكيم من أبواب الدين القويم). هذا بالإضافة إلى بعض الكتب المخطوطة التي حوتها بعض المكتبات⁽¹⁾.

(1) الفهرس الموضوعي للقرآن الكريم: محمد مصطفى محمد؛ مؤلف يقع في (555 صفحة) من الحجم المتوسط.

(2) ينظر المصدر نفسه (مقدمة المؤلف): ص 9. ص 531-555.

(3) ينظر المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم (831 صفحة)، صبحي عبد الرؤوف عصر. دار الفضيلة/ مصر 1990.

وآخر ما جدّ في هذا المجال، ما تقوم به بعض شركات البرمجة الإلكترونية من فهرسة آيات القرآن الكريم، في برامج ذات كفاءة بحثية عالية، وسرعة أداء فائقة. وذلك في سلسلة إصدارات وقفت على آخرها، وهو برنامج (القرآن الكريم) المعدّ على قرص الليزر، لشركة البرامج الإسلامية الدولية (الإصدار السابع/ 91-1997م).

وقد وضعت آيات القرآن في فهرسته تحت (14) موضوعا رئيسا يتفرع كل منها إلى موضوعات عامة، ثم فرعية من خلال (6) مستويات؛ يضم المستوى الأخير منها -وهو التفريع النهائي- الآية أو زمرة الآيات الخاصة بهذا الفرع. وقد بلغ عدد الفروع النهائية ما مجموعه (2090) فرعا. وهذا أوسع تفريع وقفت عليه. وقد أعطت هذه الجهود القيمة نفسا كبيرا، وسهولة نسبية للعمل في حقل التفسير الموضوعي خاصة في الدراسات الجامعية؛ آيات موضوع كذا في القرآن الكريم، أو الآيات المتعلقة بكذا في القرآن الكريم، أو موضوع كذا في القرآن، على مختلف الصيغ، التي تعتمد أساسا، على جمع أكبر قدر من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد وما يتصل به من قريب أو بعيد، لدراسته دراسة موضوعية شاملة.⁽²⁾

(1) ينظر معجم الدراسات القرآنية، د. ابتسام مرهون الصفار: مطابع جامعة الموصل/ العراق،

ط: 1984/83م: ص 615-617.

(2) من ذلك في كليتنا : آيات (التقوى، الأمن، والغيب، التوحيد، الجهاد، الوعد والوعيد، الجن،

الذكر والذاكرين، الخوف والرجاء، المعية الإلهية، الملائكة، الصدقة والإنفاق، الهوى،

العمل، الإخلاص، العهود والمواثيق، الفتح، النصيح والإرشاد) في القرآن الكريم. والآيات

القرآنية المتعلقة (بشخصية الرسول ﷺ، بالصراع بين الشيطان والإنسان، بالأماء). و(خلق

الإنسان، الحوار، الكون، إعداد الإنسان للأخرة، العلم والعلماء، الشرك والمشركون، القسم)

في القرآن الكريم. ينظر دليل الدراسات العليا في كلية العلوم الإسلامية (1)، إعداد د. محمد

صالح عطية الحمداني 1999م.

سبل الاستفادة من هذه المظان:

ولغرض الاستفادة من هذا المسلك، قرّرت الاعتماد على الفهارس الموضوعية المتوافرة لتصنيف مواضيع القرآن، ثم إجراء دراسة إحصائية اعتماداً على عدد الموضوعات وعدد الصفحات، وعدد الآيات، التي تكلمت في كل موضوع من جهة، وفي المواضيع الكلية من جهة أخرى. ومن ثم الخروج بنتيجة إحصائية دقيقة. وذلك أن تكرار الحديث عن الشيء من دلائل أهميته.

وسيكون أكثر اعتمادي في هذه الطريقة على المؤلفات الآتية:

- تفصيل آيات القرآن الحكيم والمستدرك: جول لابوم.
- الجامع لمواضيع القرآن الكريم: محمد فارس بركات.
- الفهرس الموضوعي للقرآن الكريم: محمد مصطفى محمد.
- (برنامج القرآن الكريم): شركة البرامج الإسلامية الدولية (إصدار 7).
- وذلك لما سبق ذكره من صفاتها.

المطلب الثاني: التصنيف الموضوعي للقرآن على مستوى سورة.

لقد اعتنى بعض أهل العلم ببيان ما في سور القرآن من مواضيع ومقاصد وأغراض، وقد تعرّضوا للحديث عن ذلك إمّا في الكتب التي تكلمت على علم المناسبة بين الآيات والسور، وإمّا في مؤلفات مخصّصة للمناسبة بين السور فقط، وإمّا في فقرات يسيرة وضعها أصحاب التفاسير لكلّ سورة مقدّمت أو تذييلات لها، ومنهم من أفرد هذه الفقرات والنّبذ اليسيرة بالتصنيف مجردة من التفسير - وإمّا في تفسيرهم لسورة أو سورٍ مخصوصة، وسأبيّن تفصيل ذلك فيما يأتي:

أولاً- كتب علم المناسبة بين الآي والسور:

فأمّا النوع الأول من تلك المؤلفات فهي التّفسيرات المُحلّات بعلم المناسبة بين السور فإنّها وإن كان أسلوبها ومقصودها بيان المناسبات التي وقعت في ترتيب سور القرآن، فإنّ تحصيل تلك المناسبات يستدعي ضرورة معرفة مواضع السورتين أو السور المتتالية لمعرفة أوجه المناسبة بينها.

يقول الشيخ أبو الفضل محمد المشدالي المغربي فيما نقله عنه تلميذه البقاعي: "الأمر الكلّي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن؛ هو أنّك تتنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدّمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدّمات في القرب والبعد عن المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدّمات إلى ما يستتبعه من استشراف في نفس السّامع إلى الأحكام واللوازم التّابعة له، ... وهذا هو الأمر الكلّي المهيمن على حكم الرّبط بين جميع أجزاء القرآن ..."(1) فالأمر متعلّق هنا بموضوع السورة ومضمونها.

ثمّ أضاف البقاعي إلى أوجه الرّبط تلك، ملاحظة ارتباط الاسم بالمسمّى، فحاول بيان الصّلة الوثيقة بين اسم كل سورها ومحتواها، وانتهى إلى أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها.

فمدار الأمر -في كلّ الأحوال- على معرفة غرض السورة أو أغراضها. وأوّل من ذكّرت له عناية بذكر المناسبة في ترتيب السور أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (708هـ) في كتابه الموسوم بـ (البرهان في مناسبة

(1) نظم الدرر : 18/1، والإتقان في علوم القرآن: 293/2.

ترتيب سور القرآن) وقد ذكره ثلّة من العلماء وأثنوا عليه⁽¹⁾، ويظهر أنّه مفقود، غير أنّ عنوانه يدل على أنّه اعتنى بالربط بين سور القرآن.

ثمّ تلاه فارس هذا العلم برهان الدين البقاعي (ت885هـ) بكتابه نظم الدرر في تناسب الآي والسور الذي نسج فيه شبكة محكمة من العلاقات على مستوى الآيات، وعلى مستوى السور على السواء. إذ نجده بعد إحكامه الربط بين آيات كل سورة يحاول جهده ربط مواضيعها بمعنى اسمها أو أسمائها من جهة، ويبين صلتها بما قبلها أو ما بعدها من السور من جهة ثانية.

فمن منهج البقاعي في تفسيره هذا أنّه يبتدئ الكلام أوّل جلّ سور القرآن بقوله: "مقصودها..." أو بما ينوب عنها في المعنى. فيسوق للسورة هدفا أساسيا؛ ويجعل باقي ما في السورة مقدّمات وأغراضا تتبعية سيقّت لخدمة الغرض الأساس. ومن منهجه أيضا ربطه بين اسم كل سورة ومقصودها فيقول: "وقد ظهر لي ... أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمّاه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه ... فأذكر المقصود من كل سورة وأطبّق بينه وبين اسمها، .."⁽²⁾.

وقد أخضع البقاعي كل تفسيره لهذا المنهج، وكان رائدا في هذه الوجهة، وهذا التقديم⁽³⁾. وهذا أنموذج لمنهجه المذكور آنفا:

يقول في مستهل تفسيره لسور البقرة: "مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان

(1) ينظر البرهان في علوم القرآن: 35/1، والإتقان في علوم القرآن: 288/2، وأبجد العلوم: 510/2.

(2) نظم الدرر: 17/1-18.

(3) ينظر البقاعي ومنهجه في التفسير: (رسالة ماجستير في كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد). ص232.

بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب فلذلك سميت بها السورة...⁽¹⁾.

ويبدو أنه جردّ كلامه عن الروابط بين السور وأسمائها، والمناسبات التي روعيت في ترتيب السور، وأودعه في كتاب مستقلّ أسماه **مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور**⁽²⁾ وقال فيه: "ويصلح أن يسمى المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى"⁽³⁾.

يقول في سورة البلد مثلاً: "ومقصودها نفي القدرة عن الإنسان، وإثباتها لخالقه الديان، وذلك هو معنى اسمها؛ من تأمل أمان أهل الحرم، وما هم فيه من الرزق والخير، على قلة الرزق ببلدهم مع ما فيه غيرهم -ممن هم أكثر منهم وأقوى- من الخوف والجوع علم ذلك"⁽⁴⁾.

ثمّ جاء بعدهما **جلال الدين السيوطي** فنسج على منواليهما كتابه **تناسق الدرر في تناسب السور** الذي بسط فيه أوجه المناسبة في ترتيب سور القرآن على ما هي عليه في مصحف عثمان، وعرض فيه مختلف الروابط، وأهمّها الرابط الموضوعي؛ يقول في سورة المنافقون مثلاً: "وجه اتّصالها بما قبلها، أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون، وهذه ذكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون. ولهذا أخرج

(1) نظم الدرر: 55/1.

(2) ذكره صاحب كشف الظنون فقال: "أوله الحمد لله الذي اعلم سور الكتاب الخ جمع فيه ما لم يحوه كتاب كالبجر العباب وهو في مجلد صغير" ينظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي (1017-1067هـ): دار الكتب العلمية/ بيروت، 1413هـ - 1992م: 1704/2. وقد حصلت على نسخة مصوّرة عن مخطوطه من مكتبة شيخنا صبحي السامرائي، وقد ذكر لي الشيخ أنها قد حُقِّقت وطُبعت في الرياض.

(3) ينظر كشف الظنون: 1704/2.

(4) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: الصحيفة رقم 154 من المخطوط.

الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين، وبسورة المنافقين يفرّج بها المنافقين⁽¹⁾. وتام المناسبة أن السورة التي بعدها فيها ذكر المشركين، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والتي قبلها وهي الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين، والتي قبلها وهي الحشر فيها المعاهدون من أهل الكتاب، فإنّها نزلت في بني النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا. وبذلك اتّضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الستّ ..⁽²⁾.

وممن جدّد التّأليف في هذا الموضوع من المتأخّرين الشيخ محمد الصديق الغماري في كتابه جواهر البيان في تناسب سور القرآن الذي حدا فيه حذو السيوطي فذكر صلة كل سورة بما قبلها وما بعدها موضوعياً، من ذلك قوله فيه سورة نوح: "مناسبتها لما قبلها أنّ الله تعالى ذكر في السّورة السابقة حال الكفّار مع النّبي عليه الصّلاة والسّلام، واستهزاءهم بالمؤمنين. وأمر نبيّه بأن يتركهم في خوضهم ولعبهم حتّى يلاقوا يومهم الذي يوعدون فيه العذاب. فذكر في هذه السورة ما لاقى قوم نوح من الهلاك والعذاب بعده، حين كذبوا رسولهم (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً. فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) فما حلّ بهؤلاء من العذاب، سيحلّ بأولئك. وهذه مناسبة ظاهرة، والله تعالى أعلم"⁽³⁾.

فهذا النّوع من التّفسير وهذه الكتب المجرّدة في بيان المناسبات بين السور وإن كان أسلوبها وغرضها بيان المناسبات التي وقعت في ترتيب سور القرآن، فإن

(1) مسند أحمد: 260/1، سنن أبي داود: 293/1، ورواه صاحب مجمع الزوائد: 191/2 وقال: إسناده حسن.

(2) تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي: ص124-125.

(3) جواهر البيان في تناسب سور القرآن، محمد الصديق الغماري: ص124.

معرفة تلك المناسبات استدعى معرفة مواضيع السور ومقاصدها، والأغراض التي سبقت لها.

وممن اهتم بذلك أيضا الشيخ شلتوت في تفسيره للأجزاء العشرة الأولى من القرآن حيث أوضح الوحدة الموضوعية في السور، وربط بين السور بالمقصد العام الذي سبقت له السور⁽¹⁾.

ثانيا- كتب أفردت الكلام على مقاصد السور ومواضيعها:

أما النوع الثاني من المؤلفات التي اعتنت بذكر مواضيع سور القرآن ومقاصدها؛ فهي إما تفاسير أوردت ذكر هذه المقاصد في مقدماتها؛ وإما في التقديم لتفاسير السور، أو في خواتيمها؛ وإما أفردت هذه المواضيع أو المقاصد في كتب مستقلة.

1- ما أودع في مقدمة تفسير:

ولست أعرف له مثالا إلا ما فعله الفيروز آبادي (ت817هـ)⁽²⁾ في كتابه بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز⁽³⁾، فقد صدره بمقدمة عن فضل القرآن وبعض المباحث العامة المتعلقة به، ثم تتبّع سور القرآن متطرقا إلى الحديث عما تضمنته كل سورة من مقاصد سبقت لها، تحت عنوان "وجملة مقاصد السورة المشتملة عليها:.."، أو "مقصود السورة على سبيل الإجمال: .." إلى غيرها من العبارات المتقاربة⁽⁴⁾.

(1) ينظر إلى القرآن الكريم، شلتوت: ص 6 وغيرها.

(2) هو مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت871هـ) صاحب القاموس المحيط...

(3) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

تحقيق: أ. محمد علي النجار. ج1، صادر عن لجنة إحياء التراث الإسلامي/ القاهرة، ط: 1384هـ/ 1964م.

(4) انظر المصدر نفسه: 28/1.

يقول في سورة الجمعة مثلاً: "معظم مقصود السورة: بيان بعث المصطفى، وتعيير اليهود، والشكاية منهم، وإلزام الحجة عليهم، والترغيب في حضور الجمعة، وتقوية القلوب بضمان الرزق، لكل حي في قوله: (والله خير الرازقين)"⁽¹⁾.
ويُعتبر هذا الكتاب -على حد علمي- أقدم من جرد التصنيف في مواضيع السور وأغراضها دون محاولة الربط بينها.

2- ما أُودِع في مقدّمات أو خواتيم تفاسير السور:

وهي إمّا تفاسير شاملة (أي فسّرت القرآن كلّهُ أو معظمه)، وإمّا تفاسير جزئية فسّرت سورة من القرآن أو بعض السور فقط.

أ- فأما التفاسير الشاملة؛ فقد كانت هذه الطريقة ظاهرة وميزة في تفاسير المتأخّرين، فمن عُنِي بذلك في العصر الحديث مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير، ومن تأثر بها. فمن أُسُسٍ منهج صاحب المنار في تفسيره -مثلاً- التسليم بالوحدة الموضوعية للسورة، وقد قدّم محمد رشيد رضا أو أتبع تفسير كل سورة بملحق وخلاصة لأهم موضوعاتها وقضاياها⁽²⁾.

وظهر أثر ذلك جلياً فيما تلاه من التفاسير؛ فنجد الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره يذيل تفسير كلّ السور بخلاصة ما حوته من موضوعات، وما تضمّنته من أحكام وما رمت إليه من مقاصد وأغراض، وهو وأن لم يلتزم صيغة موحّدة في العنونة إلا أن المحتوى بقي ذاته؛ وهو الكلام عن محتويات السور وأغراضها ولم يترك الكلام عن ذلك إلا في القليل من السور. وميزة كلامه عن

(1) المصدر نفسه: 464/1.

(2) ينظر مثلاً لذلك ما ما سطره في نهاية سورة النساء تحت عنوان (خلاصة السورة) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا: 112/6-114.

مقاصد السور ومواضعها أنه وضعه في عبارات قصيرة مرتبة ومرقمة. قال في نهاية سورة (المنافقون): "تضمنت هذه السورة شيئين:

1. وصف المنافقين وبيان شيء من خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبين.

2. حث المؤمنين على الطاعة وإنفاق المال قبل انقضاء الأجل"⁽¹⁾.

وطريقته هذه مفيدة جداً للدراسات الإحصائية لمواضيع القرآن الكريم. وممن اعتنى بمقاصد السور أيضاً الأستاذ محمد عزة دروزة في تفسيره الموسوم بالتفسير الحديث⁽²⁾. فقد التزم المفسر أن يضع مقدمة أو تعريفا موجزا للسور قبل البدء بتفسيرها، يتضمن وصفها ومحتوياتها وأهم ما امتازت به. وما في السور المدنية من آيات مكية حسب الروايات، والتعليق على ذلك حسب المقتضى. وبذلك أعطى للقارئ فكرة ملخصة عن السورة فيها أجواءها وموضوعاتها، وهذا يعين على فهمها واستيعابها بشكل أفضل. ويمكن من النظر فيها استخلاص مقاصد القرآن في قسميه المكي والمدني..⁽³⁾

وميزة هذا التفسير أنه مفيد في معرفة تدرُّج مقاصد القرآن، وترتيبها في النزول. لأن المؤلف رتب السور على ترتيب النزول. فيعرف أول ما بدأ به القرآن من الأغراض مما أخر ذكره.

وممن عني بذلك أيضاً الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، إذ صدر تفسير كل سورة بنبذة عن أغراضها معنونة غالباً بـ "أغراضها". فيقول مثلاً في صدر سورة الهمزة: "فغرض هذه السورة وعيد جماعة من المشركين

(1) تفسير المراغي: مج 10، 117/28.

(2) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة: دار إحياء الكتب العربية، ط: 1381هـ - 1962م.

(3) التفسير الحديث (دراسة وتحليل): عبد الحكيم الأنيس. (رسالة ماجستير في كلية العلوم

الإسلامية بجامعة بغداد). ص 278.

جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضربا من ضروب أذاهم طمعا في أن يلجئهم الممل من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك⁽¹⁾.

وممن سلك هذا النهج من المعاصرين محمد علي الصّابوني في تفسيره (صفوة التّفاسير) حيث قدّم بين يدي كل سورة نبذة يسيرة عن السورة وعرضا موجزا عن مضمونها ومواضيعها، وعنونها بعبارة (بين يدي السورة).

يقول مثلا في مقدّمة تفسير سورة (قريش): "تحدّثت هذه السّورة عن نعم الله الجليّة على أهل مكّة، حيث كانت لهم رحلتان؛ رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشّام من أجل التّجارة، وقد أكرم الله تعالى قريشا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)"⁽²⁾.

وآخر ما وقفت عليه من هذه التّفاسير كتاب الدكتور وهبة الزحيلي الموسوم بـ (التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج)⁽³⁾ الذي ذكر من منهجه فيه بيان ما اشتملت عليه كل سورة إجمالا، مع الحرص على التفسير الموضوعي قدر الإمكان⁽⁴⁾.

ب- وأما التّفاسير الجزئية؛ فهي تفاسير مركّزة لسورٍ مخصوصة. ويمكن إرجاع أصل هذه الوجهة في التفسير إلى تلك السمات والصفات التي كان النبي (ﷺ) يصف بها بعض سور القرآن الكريم ترغيبا فيها⁽⁵⁾، وكان ذلك

(1) التحرير والتنوير: 535/30-536.

(2) صفوة التّفاسير: 606/3.

(3) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ.د. وهبة الزحيلي.

(4) انظر المصدر نفسه: 9/1.

(5) صحّ في الفاتحة أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلى: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم "صحيح البخاري:

كافيا للإقبال الكبير عليها بالبحث العميق قصد معرفة أسرارها التي أشار إليها رسول الله ﷺ). من ذلك إقبال الكثيرين على تفسير سورة الفاتحة⁽¹⁾ التي قال عنها (ﷺ) بأنها أم القرآن وأنها مما اختصه الله به فلا يماثلها شيء مما في الكتب السابقة. وكذا الإقبال على تفسير سورة الإخلاص⁽²⁾، التي قال (ﷺ) بأنها تعدل ثلث القرآن، وغير ذلك من السور⁽³⁾. واستمر

1623/4. وفي السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأبي بن كعب ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها... قال: فقرأت عليه أم القرآن فقال والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته. "المستدرک علی الصحیحین: 1/ 745، وصح في سورة الإخلاص أن النبي ﷺ قال: "أعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن." صحيح مسلم: 1/ 556، وصحيح البخاري: 4/ 1916. وصح في المعوذتين قول النبي ﷺ فيهما "آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس" صحيح مسلم: 1/ 552. وروى الترمذي في سورتي الكافرون والزلزلة عن النبي ﷺ قوله: "من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له ربع القرآن وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إذا زلزلت تعدل نصف القرآن و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن: أخرجهما الترمذي في سننه وقال عن كل منهما غريب، الجامع الصحيح، الترمذي: 166/5، والأحاديث كثيرة في فضل سور مخصوصة.

(1) أحصيت ما ألف في تفسيرها مفردة (29) عنوانا، ناهيك عما ألف في تفسيرها مع بعض السور أو بعض الآيات. انظر معجم مصنفات القرآن الكريم، د. علي إسحاق شواخ: 169-16 /3.

(2) أحصيت لها (11) تفسيراً مفرداً. انظر المصدر السابق: 169-16 /3.

(3) كسورة البقرة لكثرة ما فيها من أغراض القرآن، وسورة يوسف كأنموذج كامل للقصة القرآنية. والملك المعوذتين وغيرها. وقد أدرج د. علي إسحاق شواخ قائمة ما وقف عليه من

الأمر على هذا النحو إلى أن جُعِلَت السُّور -مؤخراً- مواضيع ذوات قيمة عالية لرسائل جامعية، وبحوث أكاديمية مركّزة. وهذا سيسهم -لا محالة- في تصفية التراث التفسيري القديم والحديث. وقد أفادت هذه الوجهة مجال دراسات مقاصد السور ومواضيعها، وأثرتها بتعدد وجهات النظر والآراء، وأضفت عليها سمة العمق والدقّة ولا سيما أنه قد أفردت سور كثيرة بالدراسة والتحليل في بحوث ورسائل أكاديمية⁽¹⁾. وهي وإن كانت دراسات مبعثرة ومتعددة المناهج؛ إلا أنها عظيمة الفائدة في الإحاطة بالسورة من مختلف جوانبها.

3- ما أُفرد في كتب مستقلة:

كالذي فعله د. عبد الله شحاتة في كتابه أهداف كل سورة ومقاصدها؛ متأثراً بوصايا شيخه عبد الله دراز، إذ يقول عنه: "كان يفتح عيوننا أثناء الدراسة الجامعية على موضوع السورة وفكرتها العامة قبل تفسيرها، ويرى أن هذه النقطة غفل عنها جمع من المستشرقين فضلاً عن علماء المسلمين"⁽²⁾ فاعتني في كتابه هذا ببيان مقاصد السور إجمالاً -وإن كان فيه شيء من التفسير الإجمالي- مع تتبعه لمقاطع السورة بشيء من التعليق والبيان.

يقول في آخر كلامه عن سورة نوح مثلاً: "الهدف الرئيس للسورة بيان دعوة نوح، وحرصه على إيمان قومه، وقد حوت هذه الدعوة ما يأتي:
(أ) طلب تركهم للذنوب، وأنهم إذا فعلوا ذلك أكثر الله لهم المال والبنين.

تفسيرات للسور المفردة أو الخاصة ببعض السور فقط في معجمه فقاربت (113) عنواناً. انظر المصدر السابق: 3 / 16-169.

(1) دُرِس منها في كليتنا السور الآتية: الأحزاب، الإسراء، التوبة، الفتح، النور، طه، الملك، الفرقان، محمد ﷺ، المجادلة، وغيرها.

(2) أهداف كل سورة ومقاصدها، عبد الله شحاتة: 5/1.

(ب) النظر في خلق السماوات والأرض والبحار.

(ت) النظر في خلق الإنسان، أنه يخلق في الأرض كما يخلق النبات، وأن الأرض مسخرة له يتصرف فيها كما يشاء.

وبيّنت السورة كفر قوم نوح وعنادهم، وعقابهم في الدنيا والآخرة⁽¹⁾.

سبل الاستفادة من هذه المظان:

إن وجود مواضيع السور أو أغراضها أو مقاصدها مستخرجة في هذه الكتب ييسر جمعها ومقارنة بعضها ببعض، ومن ثم يمكن تصحيح بعضها ببعض، ثم يجمع ذلك المحصول ويدقق، وتحذف المكررات بعد إحصاء مرات تكرار كل موضوع، ثم تدمج الفروع في أصولها لأجل الحصول على كبرى المواضيع ومهمات المقاصد.

هذا إضافة إلى إمكان الاطلاع على الترتيب الزمني لتلك المواضيع بتتبع ترتيب نزول سورها، أو ترتيبها المصحفي، أو معرفة ترتيبها الكمّي بترتيبها حسب عدد تكرارها في السور كلها.

وسأورد هاهنا قائمة بأهم ما يمكن الاعتماد عليه لتحصيل هذه الفائدة:

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز أبادي.

نظم الدرر في التناسب بين الآيات والسور: برهان الدين البقاعي.

تناسق الدرر في تناسب السور: جلال الدين السيوطي

التحريــــــــــــــــر والتتويــــــــــــــــر: محمد الطاهر بن عاشور.

تفسيرـــــــــــــــــ المــــــــــــــــراغي: أحمد مصطفى المراغي.

التفسيرـــــــــــــــــ الحديث: محمد عزت دروزة.

أهداف كل سورة ومقاصدها: عبد الله محمود شحاتة.

(1) المصدر نفسه: 80/3.

المطلب الثالث: التصنيف الموضوعي للقرآن كله.

لعل أقدم ما يمكن اعتباره محاولات أولى في هذا المجال؛ تلك الإشارات أو النبذ اليسيرة، التي تناولت الكلام عن خصائص القرآن المكي، وخصائص القرآن المدني، في كتب التفسير عموماً، ثم تخصيص الكلام على ذلك في كتب مفردة⁽¹⁾ أو في كتب علوم القرآن⁽²⁾. يضاف إلى ذلك بعض النبذ العرضية اليسيرة عن أقسام المحتوى القرآني؛ من قبيل ما ذكروا من قول ابن سريج في تفسيره لقوله (ﷺ): "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن" حيث قال: "أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منه أحكام وثلث منه وعد ووعد وثلث منه الأسماء والصفات"⁽³⁾ واستمر الأمر على ذلك القدر.

ولا تزال الكتابة في موضوع مقاصد القرآن وأهدافه كتابية شمولية مفردة -بغض النظر عن حجمها- إلى اليوم نادرة؛ فهي مقتصرة على إدراج مباحث منه في كتب الدراسات القرآنية، ومقدمات التفاسير، والتمهيدات والمداخل، التي وضعها علماء الإسلام والمستشرقون، للتعريف بالإسلام عامة، وبالقرآن ومحتوياته على الخصوص.

(1) ذكر السيوطي بعضها فقال: "أفرده بالتصنيف جماعة منهم مكي والعزّ الديريني". الإتيقان في علوم القرآن: 24/1.

(2) جعله الزركشي تاسع أنواع علوم القرآن، وجعله السيوطي أول الأنواع؛ ينظر البرهان: 187/1، والإتيقان: 24/1.

(3) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان)، ابن تيمية: 13-5/17.

أولاً - من خلال ما ورد عن النبي (ﷺ) في الموضوع:

مما رأيته مظنة للظفر بأمهات مقاصد القرآن الكريم؛ تسليط الضوء على بعض الإشارات النبوية في خضم حديثه (ﷺ) على فضائل سور أو آيات مخصوصة من القرآن الكريم.

فقد صح عنه في مسلم أن الله تعالى جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، وجعل سورة الإخلاص تعدل ثلثه. وصح عنه (ﷺ) في الفاتحة أنها أم القرآن، وورد عنه في سورة الكافرون أنها تعدل ربع القرآن، وفي سورة الزلزلة أنها تعدل نصف القرآن، وفي آية الكرسي أنها سيدة أي القرآن. ولعلني لا أبالغ إن عدت تلك الإشارات أقدم كلام في تقسيم القرآن موضوعياً؛ وهي أولى الكلمات في هذا المجال، فهذه الكلمات تحمل في طياتها إشارات يمكن أن يستنبط منها عدة تقسيمات موضوعية للمحتوى القرآني، على عدة اعتبارات، وهو ما فعله شراح هذه الأحاديث، ومفسرو هذه السور.

وقد كان أكثر تعرضهم للمقاصد العامة للقرآن الكريم في خضم كلامهم عن سورتي الإخلاص والفاتحة؛ لقوة الأحاديث الواردة فيهما، مستأنسين بما قيل في غيرهما. فتكلموا عن تجزئة القرآن تبعاً لمسائله الكلية، معتمدين على أصح ما ورد عن النبي (ﷺ) في ذلك.

وقد تتبعت الكثير من تلك الشروح والتفاسير، فوجدتها مادة واسعة ودسمة تصلح لتكون محورا من محاور البحث في هذا الموضوع.

وذلك أنني جمعت الكثير مما قاله العلماء في هذه الأحاديث؛ فوجدت جلّ اعتمادهم في اجتهاداتهم وما ذهبوا إليه - على ما ورد في سورة الإخلاص من أحاديث، وما ورد معها من تجزئة للقرآن. فأصلوا بها للتجزئة الثلاثية للقرآن، والتقسيم الثلاثي لمواضيعه الكلية ومقاصده العامة. واجتهدوا بعد ذلك في بيان تلك الأقسام.

ولعلّ أوسع كلام وجدته في ذلك، ما دونه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الذي ذكرناه، والذي أسماه: (جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أنّ قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)؛ فقد أفردّه خصيصاً للكلام عن بيان معنى حديث النبي (ﷺ) في كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن.

وقد جمع العلماء بين ما ورد في سورة الإخلاص، وما ورد في فضائل الفاتحة، بأن عمدوا إلى ما ورد في سورة الفاتحة من أحاديث صحيحة تكلمت عن عظيم شأنها، وعلو قدرها، وجامعيتها؛ فتكوّن لهم بذلك شبه إجماع على أنها جامعة لما في القرآن كله، فطبّقوا عليها نتائج الاجتهادات المتعلقة بالإخلاص وفسّروها وفقاً لذلك. وبسطوا الكلام عن ذلك في فقرات متفرقة من كتب التفسير، وشروح الحديث⁽¹⁾.

ثانياً - من خلال ما قيل في خصائص المكي والمدني:

ذكر أهل الاصطلاح في المكي والمدني عدّة أقوال، أشهرها التفريق بينهما زمنياً؛ فالمكي ما نزل قبل الهجرة وإن نزل في غير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن نزل في غير المدينة⁽²⁾.

فالمعتبر عندهم مرحلة النزول، وليس القصد بسط الكلام في هذه الاعتبارات في هذا المقام وإنما الهدف استخلاص الجانب المتعلّق منه بهذه الدراسة وهو بيان الخصائص الموضوعية لكلٍّ من المرحلتين.

(1) ينظر مثلاً: الجامع لأحكام القرآن: 1/112، وفيض القدير: 4/419 و4/420، فتح الباري: 61/9، وشرح النووي على صحيح مسلم: 6/94-95، تحفة الأحوذى: 8/167، الديباج، السيوطي: 2/404. شرح سنن ابن ماجه/ السيوطي وآخرون: 268، وفي غير هذه المواضع مما سنأتي على ذكره في الدراسة.

(2) انظر البرهان: 1-187-188، والإتقان: 1/35، ومناهل العرفان: 1/160-161.

وذلك أن القرآن قد أنزل في أعلى مراتب البلاغة التي تقوم أساسا على رعاية مقتضيات الأحوال، فمراعاة مقتضى الحال من أخصّ معاني البلاغة، ولذلك خاطب القرآن الناس بما يلائم نفسيّاتهم وحاجيّاتهم في المرحلتين، إذ لكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليبها⁽¹⁾.

وقد تطرّق كثير من العلماء إلى الكلام عن الخصائص الأسلوبية والموضوعيّة لكل من مكّي القرآن ومدنيّه؛ وهذا ما يمكننا من استخراج ما عدّوه من أهمّ مواضيع القرآن ممّا اقتضته المرحلتان.

ثالثا - من خلال ما أُلّف أو قيل في الموضوع⁽²⁾:

لقد قادني البحث الأوّل عن جذور التّأليف في هذا الموضوع باستعمال عنوانه (أي اقتران لفظي المقاصد والقرآن) إلى الوقوف على العناوين الآتية:
أحدها مؤلف ذكره صاحب كشف الظنون بعنوان الدرّ النظيم المرشد إلى مقاصد القرآن العظيم⁽³⁾. وهو كتاب في التفسير للشيخ مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي (ت817هـ).

والثاني ما عنون به الشيخ صديق حسن خان الفتوّجي (1248-1307هـ) تفسيره، المسمى فتح البيان في مقاصد القرآن⁽⁴⁾. وهو تفسير كامل للقرآن الكريم على طريقة باقي التفاسير. وقد اطلّعت عليه فلم أجد فيه تخصيصا للكلام عن

(1) انظر كيف نفهم القرآن، محمد بن جميل زينو: ص36.

(2) أي: كتب، أو بحوث، أو مباحث بالعنوان نفسه أو ما يقاربه، أو فقرات في الموضوع.

(3) انظر كشف الظنون: 736/1.

(4) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: دار إحياء التراث الإسلامي/ قطر،

1410-1979، وأبجد العلوم: 134/1 و 187.

المقاصد العامة القرآن، بل سار على نهج أكثر من سبقه من المفسرين من العناية بالمقاصد القرآنية الجزئية -أي على مستوى الآيات فقط-.

والثالث كتاب للأستاذ حسن البنا بعنوان: **مقاصد القرآن الكريم**⁽¹⁾. وهو عبارة عن مقدمة في أصول التفسير فسّر فيها سورة الفاتحة وأوائل سورة البقرة مع استعراض عام لمقاصدها الكلية. وليس في محتواه من عنوانه إلا خمس صفحات في مقاصد سورة البقرة.

وهذه الكتب الثلاثة وإن كانت متفقة أو مقاربة لموضوعي عنواننا؛ فإنها لا توافقه في المحتوى.

والرابع كتاب للأستاذ محمد الصالح الصديق بعنوان **مقاصد القرآن** وسيأتي الكلام عليه بعد قليل مراعاة للتسلسل الزمني. فالمؤلفات التي استعملت عبارة مقاصد القرآن أو أهدافه إذن نادرة جداً⁽²⁾.

وعليه فإنه لا خيار لدي أن أتتبع موضوعي في بطون الكتب القديمة وهي ورطة لم أهتد إلى الخروج منها إلا بعد وقوفي على بعض النّبذ اليسيرة في تفسير

(1) **مقاصد القرآن الكريم**، حسن البنا: دار بوسلامة للطباعة/ تونس، ط 1981/3م. والظاهر أنه كتاب في أصول التفسير ولم يقصد مؤلفه أن يخصصه لما يقتضيه عنوان الموضوع عليه، وإنما جعل عليه العنوان من قبل دار الطباعة لأغراض تجارية لأنه لم يعرف للمؤلف كتاب بهذا العنوان والله أعلم.

(2) هو من الندرة بحيث قرر صاحب رسالة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم أنه منعدم فقال: "وأما الكلام على استخلاص مضمون القرآن الكريم في نظرة موضوعية شاملة لاستجلاء ما يتضمنه من أنواع الهداية الإلهية فإن ذلك لم يحظ بالعناية عند الأقدمين والمحدثين على السواء" **التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، حكمت عبيد حسين الخفاجي: ص17، والباحث معذور في ذلك لأن الكتاب الذي ذكرته في حكم العدم. وإن كان يجدر به الإشارة إلى الجهد الذي بذله محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي في ذلك على الأقل.

معنى كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن. وقد قادني الولوج من هذا الباب إلى بعض الكتب، سأسرد ما فيها من مفيد، مقتصرًا على الوصف هنا.

جواهر القرآن ودرره: أبو حامد الغزالي (450-505هـ).

وقد خطَّ الغزالي لكتابه أن يتضمَّن ثلاثة أقسام هي: قسم السَّوابق، وقسم المقاصد، وقسم اللواحق. ولكنَّه اكتفى فيه بتفصيل الكلام عن القسمين الأولين، وترك الثالث لمن أراد أن يفرد بالتأليف. وقد اشتمل كتابه هذا على ما يأتي:

التَّنبية على ما في بحر القرآن من أصناف الجواهر والنِّفائس.

حصْرُ مقاصد القرآن ونفائسه في ستَّة أقسامٍ أساسيةٍ، وتفرعها إلى عشرة.

بيان كيفية انشعاب العلوم الدِّينية كُلِّها عن الأقسام العشرة المذكورة، وقد قسَّمها

إلى علوم الصِّدْف، وعلوم اللباب.

وقد ولج الغزالي إلى الكلام عن مباحث تلك المقاصد بالحديث أوَّلاً عن مسألة

تفاضل القرآن بعضه على بعض، ثم بسط الكلام في أسرار الفاتحة مقرِّراً أنَّها

-على إيجازها- مشتملة على ثمانية أقسام من الأقسام العشرة، وتكلَّم أيضاً على

سبب كون آية الكرسي سيِّدة آي القرآن، منتقلاً بعدها إلى تعليل كون سورة

الإخلاص تعدل ثلث القرآن⁽¹⁾.

جواب أهل العلم والإيمان⁽²⁾: تقي الدين أحمد بن تيمية (661-726هـ).

وعنوانه الكامل هو (جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول

الرحمن من أنَّ قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن). وقد تطرَّق شيخ الإسلام فيه إلى

الكلام عن هذا الموضوع من خلال معالجته وتحليله لقوله (ﷻ) (قل هو الله أحد

تعدل ثلث القرآن). وقد رأى ابن تيمية أن يبتدئ كتابه هذا بإيراد بعض ما أثر عن

(1) انظر جواهر القرآن ودرره، أبو حامد الغزالي: ص 47-61.

(2) ينظر جواب أهل العلم والإيمان، تقي الدين أحمد بن تيمية، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي وخالد

السَّبع العلمي، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط1/ 1408هـ-1988م.

النبي (ﷺ) من القول في تفضيل بعض السور في القرآن، وعن مظانها في كتب الحديث، ثم قرّر التطرّق إلى لكلام عن موضوع الكتاب من خلال الجواب عن سؤالين؛ أولهما الكلام عن مسألة المفاضلة في كلام الله تعالى ورأي علماء الأمة فيها، وقد جرّه ذلك إلى الحديث عن المفاضلة بين صفات الله تعالى وأسمائه. وكان غرضه من ذلك كله إثبات القول بالمفاضلة في القرآن -بعضه على بعض- يتّخذ من ذلك مقدّمة للكلام عن جواب السؤال الثاني -جوهر الموضوع- وهو وجه معادلة سورة الإخلاص لثلث القرآن.

وميزة حديثه أنّه أورد في هذا الفصل الكثير من أقوال المتقدّمين في معنى كون (قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)، وناقشها، وبسط ما ورد فيها من تقسيمات للمحتوى القرآني، فرجّح ما رآه راجحاً واستدل له، وأقصى ما رآه ضعيفاً مع بيان وجه الضعف فيه، مستعيناً في ذلك بالكثير من الأحاديث الواردة في فضل غير هذه السورة، كالفاتحة وآية الكرسي. وسيأتي الكلام عن مضمونه مفصّلاً في الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء الله.

الفوز الكبير في أصول التفسير⁽¹⁾: ولي الله الدهلوي (1114-1176هـ) هذا الكتاب رسالة مختصرة في أصول التفسير أحبّ الشيخ أن يجمع فيها لطلبة العلم من القواعد ما يمكنهم من فهم القرآن بما قد لا يتيسّر لهم إلا من المطالعات المطوّلة لكتاب الله تعالى.

وقد خصّص الحديث عن مقاصد القرآن أو ما دعاها (علوم القرآن الخمسة) في الباب الأول من أبواب الرسالة الخمسة، وذكر أن معاني القرآن المنطوقة لا تخرج عن هذه العلوم الخمسة⁽²⁾ وهي:

(1) ينظر الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي: دار ابن قتيبة/ بيروت، 1409هـ-1989.

طبع أول مرة بالعربية في مصر سنة 1296هـ.

(2) الفوز الكبير ص11.

علم الأحكام : تحدث فيه عن الفقه.

علم المخاصمة: وهو الجدل أو علم الكلام.

علم التذكير بآلاء الله: وفيه الحديث عن خلق العالم، وعن خالقه.

علم التذكير بأيام الله: وفي ذكر القصص القرآني الحادث في الدنيا.

علم التذكير بالموت وأمور الآخرة.

الوحي المحمدي⁽¹⁾: محمد رشيد رضا.

غرض المؤلف من هذا الكتاب هو إجماع أفواه المستشرقين والمبشرين ومن نحا نحوهم عن التّمادي في الافتراء والطّعن في مصدر الوحي الذي جاء به النّبي ﷺ، وذلك من خلال "إثبات نبوة محمد ﷺ ورسالته إلى البشر كافة، وأنّ الذي جاء به هو من عند الله وليس من عنده، وأنه الدّين الذي نسخ به جميع الأديان"⁽²⁾.

نظم المؤلف كتابه هذا في مقدّمة وخمسة فصول وخاتمة. وقد جرّته محاولة إثبات دعواه والتدليل على غنى القرآن بأصناف الهداية للبشر كافة وكفايته عن غيره من الفلسفات والشرائع إلى عرض مجمل لمقاصد القرآن في الفصل الخامس من الكتاب بما لم يسبقه إليه أحد. وعنوانه بقوله: "الفصل الخامس في مقاصد القرآن في تربية نوع الإنسان وحكمة ما فيه من التّكرار في الهداية وإعجازه بالبيان"⁽³⁾.

وقد صرّح المؤلف بأنّه قصد الإجمال في ذكر المقاصد في هذا الكتاب قال: "لأنّ التّفصيل لا يتمّ إلا إذا يسّر الله لنا إنجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبيّن في كلّ باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد، وكون

(1) ينظر الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، صدر هذا الكتاب أوّل مرّة يوم المولد النبوي من سنة 1352هـ. وقد اعتمدت هنا على الطبعة التاسعة الصادرة سنة 1399هـ-1979م. المكتب الإسلامي/ بيروت.

(2) من تقرّض العلامة أحمد الراوي على الكتاب، المصدر نفسه: ص379.

(3) الوحي المحمدي: ص166.

القرآن وفي بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه. وإنما هذا الفصل أنموذج منه⁽¹⁾.

فواضح إذن أن هذا الفصل أنموذج لمشروع كتاب كان محمد رشيد رضا ينوي أن يفرد فيه الكلام عن مقاصد القرآن⁽²⁾. ولولا الغرض المذكور للكتاب، لأمكن اعتباره أول مؤلف مفرد في موضوع مقاصد القرآن في العصر الحديث، خاصة وأنه شغل بفصل المقاصد أكثر من نصف حجم الكتاب⁽³⁾.

هذا فيما يخص الكتاب وموقع مقاصد القرآن فيه، أما المقاصد ذاتها فقد جعلها عشرة وهي:

- 1- في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة التي دعا إليها الرسل، وضل فيها أتباعهم.
- 2- بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل.
- 3- إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام.
- 4- الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثماني⁽⁴⁾.
- 5- تقري مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات.
- 6- بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة.

(1) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(2) ولم أقف له لحد الآن على كتابه الذي عزم على تأليفه ولعلّ الأمنية عاجلته دون نيل الأمنية!
(3) يشغل هذا الفصل 176 صفحة مقابل 123 صفحة لباقي الفصول - هذا بعد استبعاد مقدمات الطبّعات المختلفة والتّقرّيزات-.

(4) يقصد بالوحدات الثمان: وحدة الأمة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع بالمساواة في العدل - وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة. (ينظر الوحي المحمدي: ص 257).

- 7- الإرشاد إلى الإصلاح المالي.
 - 8- إصلاح نظام الحرب، ودفع مفسادها وقصرها على ما فيه الخير للبشر.
 - 9- إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية، والدينية، والمدنية.
 - 10- تحرير الرقبة.
- هذا مع التفريع لكل من هذه المقاصد بما يقع تحتها، ويرجع إليها من المقاصد الفرعية⁽¹⁾.

الفلسفة القرآنية⁽²⁾: عباس محمود العقاد.

موضوع هذا الكتاب -كما ذكر مؤلفه- هو الكلام عن صلاح العقيدة الإسلامية أو الفلسفة القرآنية لحياة البشرية⁽³⁾.

يقول العقاد في بيان غرض الكتاب: "وإنما المقصود منه أن القرآن الكريم يشتمل على مباحث فلسفية في جملة المسائل التي عالجها الفلاسفة من قديم الزمان، وأن هذه الفلسفة القرآنية تغني الجماعات الإسلامية في باب الاعتقاد، ولا تصدّها عن سبيل المعرفة والتّقدّم. وهي لذلك تحقّق ضرورة الاعتقاد، وتمنع الضّرر الذي يُبتلى به من تصدّهم عقائدهم عن حرّية الفكر، وحرّية الضمير"⁽⁴⁾.

(1) ينظر المصدر نفسه: ص 166-342.

(2) ينظر الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد: صادر عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة. طبعة 1947م. أنهاء وقدّم له في خريف 1947م. وهو 120 صفحة من الحجم المتوسط.

(3) المصدر نفسه: ص 5.

(4) المصدر نفسه: ص 6.

ابتدأ العقاد كتابه هذا بتحديد مجال كل من الدين والعلم. ثم عكف على معالجة بعض المباحث التي عدّت مشكلات كبرى في تاريخ الفلسفة البشرية، فعالجها على ضوء ما ورد في القرآن في شأنها. أمّا عن طبيعة تلك المباحث:

فبعضها غيبي متعلّق بالإلهيات؛ كالإله، والأسباب والخلق، والروح، والقدر، والحياة الأخرى.

وبعضها متعلّق بالشرائع والسياسة؛ كالحكم، والعلاقات الدولية، والأسر والرق، والعقوبات، والطبقات، والمرأة، والزواج، والميراث.

وبعضها متعلّق بالسلوك؛ كالعبادات والفرائض، والأخلاق والتّصوف. ويتميّز أسلوبه بالتّحليل الفلسفي معتمداً على مذاهب أساطين الفكر الغربي، وما بلغته معارف الإنسان في تحليل الفكرة، ثم يبسط هداية القرآن في الموضوع، ويبين ميزتها.

مقاصد القرآن⁽¹⁾: محمد الصالح الصديق.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1955م بالجزائر. وهو الكتاب الوحيد -لحد الساعة- الذي وجدته موافقاً لموضوع هذه الأطروحة عنواناً وغرضاً، فأما العنوان فصريح، وأما غرضاً فلكونه أورد فيه ما رآه مقاصد كلية لمعاني القرآن، واقتصر على ذلك فقط. وإني لأجد في هذا الكتاب ريح أمنية السيد محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمّدي.

تكلم المؤلّف عن محتويات القرآن في مقدّمة الكتاب فقال: "احتوى القرآن الكريم على كل ما يضمن للإنسان سعادة الدنيا والآخرة وفي الإمكان أن نحصر ذلك فيما يأتي:

(1) ينظر مقاصد القرآن، محمد الصالح الصديق: المطبعة العربية/ الجزائر، ط1/ 1375هـ - 1955م، (381 صفحة).

1- العقائد. 2- الفرائض الدينية. 3- الأوامر والنواهي. 4- الإنذار والتبشير. 5- الجدل والتّحدي. 6- القصص. 7- الحربي الاجتماعي. 8- التشريع السياسي. 9- التشريع الجنائي. 10- التشريع المدني. 11- التشريع الحربي. 12- المواعظ والإرشاد. وكل ذلك مفصل مبين في سور تتفاوت طولاً وقصراً، ونزولاً وهو ما يكشف عنه هذا الكتاب بجزأيه وإن اختلفت العناوين⁽¹⁾.

خُطِّط لهذا الكتاب إذن أن يكون في جزئين حصلت على جزئه الأول من طبعته الأولى وقد ضمّ هذا الجزء خمسة أبواب عُنون لكل منها بمقصد كلي وهي كالآتي:

1- التوحيد. 2- العقائد. 3- الدين. 4- العبادات. 5- أصول المثل العليا والأنظمة الاجتماعية. ثم جعل ما رآه مقاصد فرعية عناوين لفصول تلك الأبواب.

أمّا جزؤه الثاني فهو مفقود وقد بلغني عن المؤلّف أن أصل هذا الجزء احترق في بداية الستينيات. وعلى كلّ حال فقد خلت الطباعات الأخرى لهذا الكتاب مما يشير إلى كونه جزءاً.

وأمّا منهج المؤلّف في كتابته، فهو إيراد الآية أو الآيات -متسلسلة- مما يراه أكثر مناسبة مع مقصد عنوان الفصل، ثم يفسّرها تفسيراً تحليلياً، مع الكثير من اللفقات الأدبية الرائعة، واهتمام بالغ باستعمال علوم العصر في تحليل الآيات. وطريقته هذه جامعة بين التفسير الموضوعي من حيث التقسيم، والتفسير التحليلي من حيث أسلوب المعالجة.

وقد أعاد المؤلّف الحديث عن مقاصد القرآن بنفس العنوان في بحث ألقاه في أحد الملتقيات الإسلامية⁽¹⁾.

(1) مقاصد القرآن: ص16.

وقد ذكر فيه أن "مقاصد القرآن تستهدف الإنسان في هذا الكون؛ تستهدفه في علاقته بخالقه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بنفسه -إن صحّ التعبير- كما تستهدف مصيره في الحياة الباقية بعد هذه الحياة القصيرة المحدودة"⁽²⁾.

ثم أوجز هذه المقاصد في سبعة مقاصد هي:

1- العقائد. 2- الشرائع (العبادات والمعاملات).

3- التشريع (الاجتماعي والمدني والسياسي والجنائي والحربي).

4- القصص. 5- الأخلاق والآداب.

6- الإنذار والتبشير. 7- المواعظ والإرشاد⁽³⁾.

المحاور الخمسة للقرآن الكريم⁽⁴⁾: محمد الغزالي.

يمكننا عدّ هذا الكتاب -إن كان يعني بالمحاور المقاصد- أحدث من أفرد التأليف في مقاصد القرآن، خاصة وأن الشيخ صرّح بأن هذه المحاور عليها مدار معاني القرآن على كثرتها وقال: "والقرآن الكريم مع استفاضة معانيه، وكثرة سوره يمكن القول بأنّه يدور على محاور خمسة..."⁽⁵⁾.

وقد نظم الشيخ كتابه هذا في مقدّمة وخمسة محاور هي:

1- محور عن الله الواحد.

2- محور عن الكون الدّال على خالقه.

(1) أُلقيت المحاضرة في ملتقى القرآن، أثناء انعقاد الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي بالجزائر العاصمة، في فترة: 2-8 ذو القعدة 1407هـ -1-7/9/1981م. ونشرت

محاضراته في المجلد الثاني من كتاب الأصاله.

(2) الأصاله (ملتقى القرآن): ص242.

(3) ينظر الأصاله: 239/2-247.

(4) ينظر المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي: دار المعرفة/الجزائر، طبعة 1999م.

(240 صفحة من الحجم المتوسط) وقد وُقِّعت مقدّمته سنة 1409هـ -1989م.

(5) المصدر نفسه: ص16.

3- محور القصص القرآني.

4- محور البعث والجزاء.

5- محور عن ميدان التربية والتشريع.

ويتسم أسلوب المعالجة في هذا الكتاب بالطابع الدّعوي، واللّهُجَة النّقديّة اللّاذعة، والروح الحركيّة والنّزعة التجديديّة في التّعامل مع نصوص الوحي.

كيف نتعامل مع القرآن العظيم⁽¹⁾: يوسف القرضاوي.

وهو كتاب قصد منه مؤلفه أن يكون موجها ومؤدبا لمن رام تدبّر القرآن أو تصدر لتفسيره، فنّبّه فيه إلى طرق التّعامل السليم معه حفظا وتلاوة واستماعا، ثمّ فهما وتفسيرا، ثمّ اتّباعا وعملا وحكما ودعوة. فصلّ كل هذا في ثلاثة أبواب مهّد لها بباب أورد فيه الكلام عن خصائص القرآن وبعض مقاصده مما رأى أن القرآن أكّده وكرّره وعُنّى به أشدّ العناية، وهي هذه السبعة:

1- تصحيح العقائد والتصورات. 2- تقرير كرامة الإنسان وحقوقه.

3- عبادة الله وتقواه. 4- تزكية النفس البشرية.

5- تكوين الأسرة وإنصاف المرأة. 6- بناء الأمة الشهيّدة على

البشريّة.

7- الدعوة إلى عالم إنساني متعاون.

هذا مع تفرّيعه لكلّ منها بما رآه مناسبا⁽²⁾.

ويلي هذه المؤلّفات في الأهميّة بعض البحوث الملقاة في المؤتمرات، أو المنشورة؛ ومثال ذلك البحث السالف ذكره للأستاذ محمد الصالح الصّدّيق.

(1) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، أ. د. يوسف القرضاوي. ط: 1997م. مركز بحوث السنة

والسيرة/ جامعة قطر. أتمّ كتابته في بداية سنة 1996م.

(2) انظر كيف نتعامل مع القرآن العظيم، القرضاوي: ص 63-112.

ومن المهمّ أيضا جمع ما أورده بعض أهل العلم في كتبهم من الحديث عن مقاصد القرآن، فتناولوا الموضوع؛ إمّا في فقرات يسيرة، أو كجزئية في كتاب. وهذه الفقرات أو الجزئيات، وإن كان من الصّعب اقتفاء أثرها، وتعبّ كل ما قيل عن المقاصد العامة للقرآن فيها -لكون معظمها كلام عرضي غير مقصود في ذاته- فإن فائدتها عظيمة؛ لشموليّتها، ووضوحها.

ومثال ذلك ما كتبه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في المقدمة الرابعة من تقديمه لتفسيره إذ قال: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصالح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)﴾ النحل: ٨٩. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية... فمراد الله من كتابه هو بيان تصارييف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بيّنا وتعبّنا بمراده والاطلاع عليه فقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدُبْرُؤٍ ءَاتِيهِ وَلَسْتَ نَكْرَؤُا الْآلُفَبِ﴾ (٢٩)﴾ ص: ٢٩ (١).

ثم تحدث عن المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فقال: "فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور:

الأول- إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق.

الثاني- تهذيب الأخلاق.

الثالث- التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة.

الرابع- سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها.

(١) التحرير والتنوير: ج ١/ الكتاب الأول: ص 38-39.

الخامس- القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي أو الحذر.

السادس- التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي

الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع والأخبار.

السابع- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير.

الثامن - الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول⁽¹⁾.

ومن ذلك ما كتبه د. زاهر بن عوّاض الألمعي في كتابه دراسات في التفسير

الموضوعي تحت عنوان (مقاصد القرآن الرئيسية) فقال: "للقرآن ثلاثة مقاصد رئيسية وهي كما يأتي:

المقصد الأول: أن يكون هداية للتقلين الجن والإنس، في تنظيم علاقتهم بخالقهم

إيماناً وتوحيداً وتسليماً بداية ومعاداً من جانب، وتنظيم علاقتهم فيما بينهم من تعامل وتصوّر للكون والحياة من جانب آخر...

المقصد الثاني: أن يقوم هذا القرآن آية لتأييد النبي (ﷺ) حيث جاء آية شاهدة

برسالة محمد (ﷺ)، وبقي على جبهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدى، ودين الحق ظاهراً على الدين كله، فهو المعجزة الكبرى لخاتم النبيين والمرسلين إلى قيام الساعة ...

المقصد الثالث: أن يتعبد الله بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدّس،

ويقرّبهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه، فإذا ضموا إلى التلاوة فهما زادوا أجراً على أجر،..."⁽²⁾.

إلى غير ذلك من المباحث والفقرات المبعثرة في مختلف الكتب والصّحف و

المجلّات.⁽¹⁾

(1) ينظر المصدر نفسه: ص 39-41.

(2) دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي: ص 49-52 ملخصاً.

سبل الإفادة من هذه المظان:

وأما وجه الإفادة مما أوردناه في عناصر هذا المطلب؛ فإن الإشارات النبوية تفيدنا في التأسيس لتقسيم القرآن بالنص، وفيه بيان لأهم مواضيع القرآن. وأما كلامهم في خصائص المكي والمدني فيفيدنا في معرفة أهم مواضيع المرحلتين، وفيه إشارة إلى بعض آراء الصحابة في الموضوع وفقه الأولويات عندهم؛ فيفيدنا في معرفة الأولى فالأولى، وترتيب مهمات المواضيع حسب درجة أهميتها. وأما بقية المظان -أي المؤلفات في مقاصد القرآن ومواضيعه- ففيها الكلام على أنواع المقاصد وتقسيمات العلماء لمواضيع القرآن، ثم نقد بعضها ببعض، ومناقشتها، لنخرج في الأخير بما هو أقرب للقبول، وأولى بالصواب.

المبحث السادس - طرق استخراج مقاصد القرآن من خلال معرفة حوائج الناس إلى الوحي المعصوم.

إذا سمعت يوما أن حكيما أرسل بمجموعة نصائح إلى أحد أولاده ولم تقف على شيء مما في تلك الرسالة من توجيهات فإنك لا شك تنتظر إلى حال الولد وتحاول أن تستنبط من أمارات أحواله ما هو بحاجة إليه من توجيهات أو تحذيرات أو غير ذلك مما يناسب حاله، والله المثل الأعلى، فإنه تعالى أنزل كتابا جعله مهيمنا وجامعا لما سلف من الكتب وخاتما لها، فلا ريب في أننا إذا نظرنا في حال البشرية المنكوبة، ونقصنا تطلعاتها المعرفية، ظفرنا بالشيء الكثير مما أنزل القرآن الكريم من أجل بيانه، ولا بد من أنه عني بأهم وأخطر ما عرض للعقل البشري من

(1) انظر مثلا الفتاوى (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر): 121/28، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد: ص 54-55، وإلى القرآن، شلتوت: ص 5-6، وبحوث في أصول التفسير، محمد بن لطفي الصبّاغ: ص 134-136، قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس: ص 102. وسيأتي الكلام عما فيها، ومناقشته بقدر حاجة بحثي إليها في الفصل الثاني -إن شاء الله-.

مشاكل ومُعضلات⁽¹⁾، تتوقّف على معرفتها حياته أو هلاكه، أو يتوقّف عليها يسر حياته أو عسرها، ولنطرق الموضوع بالتفصيل في المطالب الآتية:-

المطلب الأول:- إمكانيات الإنسان المعرفية.

إن الإنسان اجتماعي بطبعه، لأنّ خلقته ضعيفة، لا تؤهله لمواجهة صخب الحياة وصعوباتها بمفرده، لذا دفعته حاجته الأمنية للاجتماع والتعارف. لأنّ ذلك الاجتماع ييسّر له عدم تشتيت قوّته ووقته في اكتساب كل المهارات ليعيش، وعدم تشتيت فكره وإشغاله بما هو معروف مُبرهن عند غيره، وفي ذلك منّة إلهية عظيمة لبني الإنسان، إذ لا يتأتّى لأحد الناس -مهما عظمت قواه الإدراكية- أن ينفرد بعقله ومشكلات البشرية كلها في هذه الحياة، فيحلّ عقدها، ويفكّ ألغازها، ويستقصي حقائقها، ويكشف عن أسرارها وحده. إنّ هذا ممتنع قطعاً.. إذ لا خلقه الإنسان تقوى على بلوغ غايته، ولا مدّة وجوده تتسع لذلك. فاستوجب ذلك تضافر جهود العقلاء على حلّ ألغاز هذا الوجود، وتظهر عظمة هذه النعمة في كونها تسهم في حيك شبكة معلوماتية واسعة، تتكون عقدها من عقول بشرية متفاوتة المدارك، ومتنوعة المعارف، وقد أثمرت تلك الشبكات في نتاج فكري وثروة معرفية هائلة، هذا في العصر الواحد، وقد زاد الإنسان تلك الشبكة اتساعاً بأن أعطاهها بعداً زمنياً، بعدما كانت شبكة مكانية بما منّ الله عليه من الاهتمام إلى الكتابة. فحقق ما كان بحاجة إليه من تواصل معرفي متين بين الأجيال والأمم، بغية الاقتصاد في التفكير، وتفاذي تكرار بذل الجهود وإهدار الوقت فيما قد تمّ تمحيصه، ولأنّ من ظواهر هذا الكون وأسراره ما يحتاج إلى تجربة وإمعان نظر يستغرقان أكثر من عمر جيل أو تاريخ أمة.

(1) ينظر قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام، د.يوسف القرضاوي: دار الوفاء/ مصر

ودار الصحوة/ القاهرة، ط 1416/2 هـ - 1995م: ص 5-6.

وبذلك يكون الإنسان قد استنفد جميع قدراته البشرية، وحصلَ كامل استعداداته باكتساب أعظم وسائل التحصيل المعرفي والعلمي، فهذه هي طاقته وتلك هي عُدته فيما يعرض له من معضلات ومُشكلات.

ولكن.. ما الذي يدفع الإنسان نحو التساؤل أو التفلسف؟ وما الذي يؤرِّق فكره على مرّ السنين، وعبر مُختلف حقب التاريخ؟

المطلب الثاني:- مشكلات الإنسان.

وقع الخلاف بين الباحثين في السبب الباعث للإنسان على التساؤل؛ فأرجعه أرسطو إلى عامل الدهشة⁽¹⁾. على حين يرى غيره أنها غير كافية⁽²⁾ وشخصوا الدافع في عنف الطبيعة وآثاره في النفوس؛ أي: مشاعر الخوف والرَّهبة والرُّعب؛ يقول طبارة "فالتبيعة بقسوتها وجبروتها كانت تلجئ الإنسان للبحث عن الخلاص والنجاة"⁽³⁾.

(1) يرى ماكس مولر في "كتابه علم الأساطير المقارنة" أن الدين نشأ كأول نتيجة لتعامل الفكر الإنساني مع الواقع بتأثير الدهشة والعجب عند النظر في الطبيعة المستقرة أي: الظواهر العادية ينظر كتاب: نشأة الدين بين التصور الإنساني والتصور الإسلامي، حسن علي مصطفى حمدان: مؤسسة الإسرائاء/ الجزائر، ط1/1991م: ص37-38، وينظر الفلسفة والإنسان، د. حسام الألوسي. وزارة التعليم العالي والبحث العلمي(منشورات دار الحكمة)/ بغداد.: ص21.

(2) قال به العالم الإنجليزي جيفونس؛ ينظر نشأة الدين: ص 39. ويقول ابن سينا: (إننا نعجب للشيء غير المألوف ... في حين كل شيء هو مثار للدهشة و السؤال، لولا تعودنا عليه) الفلسفة والإنسان ص21.

(3) روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طبارة. دار العلم للملايين/ بيروت - لبنان. ط (13)/ 1976م: ص103. ويطلق عليها اسم الطبيعة الشاذة أي: الظواهر غير المألوفة في الطبيعة -جيفونس- ينظر في كتاب نشأة الدين ص39.

ومنهم من قال هو الفضول وحبُّ الاستطلاع⁽¹⁾، ومنهم من قال: هو سعي النفس نحو الكمال. ومنهم من قال: إنها الآلام النفسية التي تسببها له الشكوك⁽²⁾، وكذا قلقه على مصيره ومستقبله، وحيرته فيما هو فيه، وتقلُّبات الحياة حوله، ثم شعوره بالعجز والضعف⁽³⁾، فيسعى ليتعلم ما يؤمِّن به مستقبله. وخلاصة أقوالهم أن الدهشة والتعجب، والشك والحيرة والقلق، والخوف والرعب والرغبة، والفضول وحب المعرفة كل هذه المشاعر والطباع تسهم بنسب مختلفة في طرح تساؤلات الإنسان وتحريكه للبحث عن أجوبة لها⁽⁴⁾. وفي كل الأحوال يبقى التساؤل طبعا إنسانيا خالدا⁽⁵⁾.

(1) ينظر دعائم الفلسفة، إدريس خضير. المؤسسة الوطنية للكتاب/ الجزائر. (ط4) // 1992م: ص20.

(2) مذهب الشك هو ما جعل سقراط يرسى أسس مدرسته الأخلاقية، وهو عند الغزالي شرط للنظر، أما ديكارت فقد رد التفلسف بجملته إلى الشك. ينظر الفلسفة والإنسان ص23.

(3) أبيكيت الرواقي والوجودي هيدغر. ينظر المرجع نفسه : ص22-23.

(4) يقول د. حسام الآلوسي: (وعلى كل حال مهما اختلفت الفلاسفة في أي شيء أكثر من غيره دعانا إلى التعجب، أو شككنا فيما حولنا، أو شعرنا بالضعف و العدم، يبقى أن حب المعرفة والتأكد من المعرفة، ومواجهة الشرور والآلام والموت والإحباط والأمل وما أشبهه، هي منابع التفلسف بكل مستوياته) الفلسفة والإنسان ص23.

(5) وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تأمر بالسؤال وتجب عنه دونما حرج أو إنكار، كقوله تعالى قَالَ تَحَالَّىٰ ۖ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ النحل: ٤٣، وقوله ﷺ لمن سألته: (..سل ما بدا لك) أخرجه البخاري في صحيحه: (22/1). وقوله لبعض أصحابه معاتباً لهم: (ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال..) أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الطهارة وسننها (189/1)... فالسؤال المعرفي في حد ذاته فضيلة، وإنما يُذَمُّ في الشرع إذا أُريد به غير الاعتبار والعمل: (فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم..) صحيح مسلم (كتاب الحج): 975/2. وسنن ابن ماجه (المقدمة): 3/1. أو لم تكن له فائدة فعن ابن عباس (قال ما رأيت خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما

وقد خُصّ الفلاسفة إلى عدد من العضلات التي تلاحق البشرية عبر تاريخها الطويل متعجّلة الجواب؛ منها: "من أين جنّا؟ مَنْ أوجدنا؟ ما غاية وجودنا؟ ما مصيرنا؟ كيف وُجد العالم؟ وممّ وُجد؟ ما أصله ومآله؟ ما طبيعته؟ ثمّ ما الخير؟ ما الشرّ؟ ما الواجب؟ ما المسؤولية؟ ما الحق؟ ما الجمال؟"⁽¹⁾.

وقد كانت هذه العضلات وما تزال عقبات كأداء -كما يقول المودودي- في سبيل تمكّن الإنسان واستطاعته أن يختار منهاجا لحياته، إذ لا سبيل له إلى ذلك "ما لم يصل إلى رأي حاسم عن ذاته، وما لم يعرف هويّته وماهيته حق المعرفة، وما لم يعلم عن نفسه: هل هو مسئول عن شيء؟ وهل هو مستقلّ بأمره أو منقاد لأحد؟ وإن كان منقادا فمن ذا الذي ينقاد له ويذعن لأمره؟ وإن كان مسئولا عن شيء في هذه الحياة فمن الذي يطالبه بذلك؟ وهل من غاية لحياته الدنيوية هذه أم لا؟ وإن كانت فما هي تلك الغاية التي يؤول إليها أمر هذه الحياة؟ وكذلك هل في وسعه أن يُعيّن مجرى القوى المتخّرة في ذاته ويحدّد لها منفذا ومخرجا ما لم يقطع بشيء في أن هذا الجسد وهذه القوى الجسدية ملك ذاتي له، أم هي موهوبة من الواهب أنعم بها من لدن ذات أخرى؟ وهل من أحد يحاسبه أم لا؟ وهل بيده تعيين حدود لاستخدام هذه القوى، أم أنّ الأمر في ذلك يرجع إلى أحد آخر؟ وأيضا هل في مكنة أحد أن يحدّد واجباته ومنهاج عمله تجاه الأشياء التي يجدها مبنوثة من

سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ... قال ما كانوا يسألون إلا عمّا ينفعهم). أخرجّه الحافظ الهيثمي عن ابن عباس؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بتحريّر الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر. دار الكتاب العربي، بيروت/ لبنان. ط2/ 1967م: (158/1). ينظر جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر: (173/1). ومن قبيل هذه الأسئلة الكبرى ما أثر في وفد اليمن أنّ أول ما سألوا عنه هو عن بدء هذا الأمر، ومن ذلك أيضا سؤال بعضهم عن الساعة، وسؤال الكثير من الصّحابة عما يُنجي من الأعمال الصالحة، أو ما يهلك من الأعمال.

(1) معالم في الفلسفة الإسلامية، عبد الحميد خطّاب: ص12.

حوله، ما لم يتحقّق من أنّه مالك الأشياء، أو أنّها ملك لأحد آخر غيره وأنّه هل من حدّ لحقوق تصرّفه فيها أم لا؟ وإن كان لها حدّ فمن ذا الذي يُرجع إليه ويُعوّل عليه في تعيين الحدود؟ وكذلك هل تراه يستطيع أن يحدّد صورة ويضع منهاجا مُعيّنا يتعامل به النّاس فيما بينهم ما لم يصل -هو ذاته- إلى رأي في باب (البشرية) ما حقيقتها وماهيتها؟ وما هي القواعد التي يقوم عليها الفرق بين الإنسان والإنسان، والتفاوت بين مختلف أفرادهم؟ وما هي الأمور التي ينهض على أساسها بنيان الصّدّاقة والعداوة والوئام والشّقاق والتّعاون والتّقاطع؟ وعلى غرار ذلك، هل يقدر الإنسان أن يحدّد له طريقا مُستبيناً ومنهاجا مُعيّناً نحو هذه الدّنيا بأجمعها، ما لم يبتّ بشيء في باب هذا الكون وحقيقته، وما لم يصل إلى نتيجة في شأن منزلته في هذا الكون والفراغ الذي يملؤه فيه؟⁽¹⁾.

وقد ولّد هذا الكمّ من الأسئلة حيرة شديدة أبدع بعضهم⁽²⁾ في التعبير عنها

فقال:

"جنّت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدّامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جنّت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري
أجديّ أم قديم أنا في هذا الوجود؟
هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟

(1) البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي (ضمن المجموعة الصّغرى للفوائد الكبرى، تحقيق صفوت السقا: مكتبة ربيع، حلب، 1962م: من مقدّمة تحقيق هذا الكتاب: ص5، وينظر معالم في الفلسفة الإسلامية، عبد الحميد خطّاب: ص13-14.

(2) هو الشاعر اللبناني المغترب إيليا أبو ماضي.

أَتَمَنَّى أَنَّنِي أُدْرِي وَلَكِنْ
لست أدري

وطريقي ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغـور ؟
أأنا السائر في الدرب أم الدرب تسير ؟
أم كلانا واقف والذهر يجري؟! لست أدري

ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتراني كنت أدري أَنَّنِي فيه دفين
وبأَنِّي سوف أبـدو وبأَنِّي سأكون
أم تراني كنت لا أدرك شيئاً؟ لست أدري

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً
كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيئاً
ألهذا اللغز حلٌّ؟ أم سيبقى أبدياً
لست أدري ... ولماذا لست أدري؟ لست أدري

إن يكُ الموت قصاصاً! أي ذنب للطَّهارة؟
وإن كان ثواباً ، أي فضل للدَّعارة؟
وإذا كان وما فيه جزاء وخسارة
فلم الأسماء إثمٌ وصلاح؟ لست أدري

إن يكُ الموت رُقّاداً بعده صحوٌّ طویل

فلماذا ليس يبقى صحوّنا هذا الجميل؟
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرّحيل؟
ومتى ينكشف السّتر فيدري؟ لست أدري

إن يكُ الموت هجوعاً يملأ النّفس سلاماً
وانعتاقاً لا اعتقلاً وابتناء لا ختاماً
فلماذا لا أعشق النّوم ولا أهوى الحماماً؟
ولماذا تجزع الأرواح منه؟ لست أدري⁽¹⁾

وهذا أبلغ وصف لما بلغته البشرية من حالات الغرق وآهات الأرق... لا تدري، ولا تعلم لماذا لا تدري، ولا إمكانية أن تدري، ولا تدري إن كان بعض الناس يدري، فهي المعضلة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ... أسئلة عن: البداية وكيفيتها، عن طبيعة الحياة السّالفة وعالم الأرواح، وطبيعة المعرفة البشرية ومصدرها، وطبيعة الروح، ومسألة الجبر والاختيار، والمسؤولية، ومسألة الخلود، وحقيقة الموت وسر الرهبة منه وحقيقة ما بعده.
وأسئلة كثيرة غير هذه مما شغل الفكر الإنساني عن مصدر هذا الوجود، وعن أسباب هذا الوجود، ودورنا في هذه الحياة، وشغف بمعرفة ما لا نراه من العوالم وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة⁽²⁾.

(1) الجداول، إيليا أبو ماضي: (ديوان شعري)، دار العلم للملايين/ بيروت، ط11/ 1977: ص139 و154 و155.

(2) ينظر العقيدة في الله، عمر سليمان الأشقر ص 15.

المطلب الثالث:- أهم الإشكالات المعرفية للفكر البشري

وعلى الرغم من تباين الناس في كمية الأسئلة ونوعيتها تبعا لبيئاتهم وطبائعهم فإن من تلك الأسئلة ما لا يخضع لمكان ولا لزمان معين لذلك اصطلح الفلاسفة على تسميتها بالأسئلة الخالدة لأنها مُشتركة بين كل البيئات وبين كل الأزمنة.

إن أسئلة الإنسان لا حصر لها، ولكن الإنسان السوي من طبعه عدم إهدار أيامه الثمينة فيما لا قيمة له منها، أو تفويت كبريات الفوائد من مهمات المسائل بالانشغال بالسفاسف.

فتراه عندما يعي قصر عمره، وعظيم ما يهدده من خطر، وطول ترحاله وترحال غيره في الطلب وسبر الأغوار دون نيل الوطر، بل انقلاب بصره إليه خاسئا وهو حسير، يحط الرحال ليعيد النظر فيما قدّم وأخر، لأنه يدرك أن سعيه في طلبها لن يكون له آخر؛ فيحاول حصر مطالبه حصرا منهجياً، ليحصل على أهم مسائلها خطراً، وأعظمها عليه وعلى مستقبله أثراً، وثمّ تكمن عبقريته.. (إن عبقرية الإنسان لا تكمن في أنه يجيب عن الأسئلة المطروحة عليه بشكل جيد ... لأن السؤال قد يكون حجمه محدوداً ومهما تنوعت عبقرية الإجابة عنه يبقى الجواب بحجم السؤال المطروح ولذا تتحدد عبقرية الإنسان في مسار جوهرية الأسئلة التي يطرحها، وهذه كانت المهمة الأساسية التي اضطلع بها الإنسان عبر محاولاته الفلسفية القديمة⁽¹⁾).

إنّ اختلاف الناس في بيئاتهم (مكاناً وزماناً) ومواقعهم الاجتماعية، وفي طبائعهم؛ كالحس المرفه، والفضول وحب التطلع، والطموح، وتوقد الذكاء، وغيرها يؤدي إلى تفاوت بين بينهم في أهميّة ما يتناولونه من مواضيع، فيتساءل الفطن النّبّيه منهم عمّا لا يخطر ببال عوامهم، فضلاً عن البلهاء، فحين نجد رب الأسرة البسيط يتساءل عن سبل تأمين السعادة لأسرته ومن حوله فقط، نجد الحاكم

(1) الأسئلة الخالدة، أحمد الموصلي ص23.

يسأل عما يحمي به أمته، ونجد الحكماء يتساءلون عما يمكن أن يسعد البشرية في هذه الحياة، ونجد الأنبياء الذين أدركوا أنوار الهداية، يتساءلون عن كيفية هداية أقوامهم وسبلها.

قال الشاعر :

وقائلة لمْ علّتك الهموم فقلت: الهموم بقدر الهمم

غير أنه لما كثرت الأسباب الدافعة للإنسان على التساؤل، وكانت المواضيع التي تثير هذا الفضول مطموسة المعالم، لا يقف لها على نهاية، وكان عمره قصيرا، لا يكفي لإرواء كل تلك الأمناني، والإجابة عن كثير من تلك المواضيع اللامتناهية، عمد أهل النبأهة من بني الإنسان إلى محاولة تجنب العبث في تتبع أثر ما لا يقين من الظفر بنهايته، بتحديد ما يتوجب عليه معرفته مما يود أن يعرفه، ليوفر عليه المجهود، ويختصر عليه الطريق لنيل المقصود.

ما الذي يتوجب على الإنسان معرفته مما يود معرفته؟ وما أخطر ما يجهله

الإنسان؟

أولا:- مشكلة المصير. (إلى أين؟)

لا شك في أن أكثر ظواهر الحياة فظاعة وأشدّها وطأة وأعنفها أثرا في نفس الإنسان، هي مشاهدة ما تؤول إليه ذاته بعد الموت من التحلل والتفسخ بين الديدان، وما يصير إليه من الفناء والنسيان. وعلى الرغم من ذلك فإنّ الغريب في الأمر هو كثرة غفلة الناس عن هذا المصير ونسيانه بفعل العادة والإلف، وميل النفوس -في الغالب- إلى نسيان ما يؤلمها ويؤرقها.

يقول محمد سعيد رمضان البوطي: (.. فما رأيت أغرب من رجل يمتطي ركوبا يغذّ به السير إلى حيث لا يعلم، وهو مع ذلك مرخّ جذلان، لا يحاول أن

يسأل نفسه ولو في لحظة واحدة عن النهاية⁽¹⁾. أجل! إنها غفلة غريبة عند الكثيرين من الناس عن مصائرهم، وفي أغلب ساعات حياتهم، على الرغم من كثرة ما يستدعي الحرص والحذر من أسباب الهلاك والفناء. إنّ تلك النهاية الحتمية الرهيبة التي يعاينها كل الناس حولهم جديرة بجعل الإنسان يطرق أبواب هذا المجال من المعرفة بكل ما أوتي من قوة وبإلحاح شديد. إنه الموت!! النهاية المادية التي لم تستسغها النفس البشرية يوماً، ولا رضي بها أحد من الناس إلا خداعاً لنفسه... إنه خوف الإنسان من المجهول، وخوفه على مصيره بالدرجة الأولى.

وقد كان ذلك عاملاً قوياً لتطّلع النفس البشرية إلى الكشف على نوع معرفة يختص بمستقبلها.. إنه الخوف مما يخفيه المستقبل من أخطار، والشوق إلى ما يخفيه من مسرّات، فدفعته حاجته هذه إلى ملاحقة النبوءات ينشدها ويعلّق آماله عليها؛ يقول ابن خلدون: (اعلم أن من خواص النفس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة لمعرفة ما بقي من الدنيا ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها والتطلع إلى هذا طبيعة مجبولون عليها، ولذلك تجد الكثير من الناس ينتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام،... وقد نجد في المدن صنفاً من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه... فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها، وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش... وأكثر من يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماذ دولتهم⁽²⁾. وقد أسفر طرّق الإنسان لهذا الباب على ثلاثة أسئلة جوهرية وهي:

- سؤال خاص بمصيره، ومصير البشرية.

- سؤال خاص بمصير الكون ونهايته.

(1) كبرى اليقينيات الكونية، محمد سعيد رمضان البوطي: ص

(2) مقدمة ابن خلدون ص 330 طبعة دار الفكر.

- سؤال خاص، عما سيقع بعد نهاية الحياة الدنيا.

ويجمع كل هذه التساؤلات السؤال المعرفي الخالد (إلى أين؟).

ثانياً: - مشكلة العلل الأولى. (من أين؟)

ثم إنه لما استحال على الإنسان السفر إلى المستقبل لمعرفة جواب هذه المعضلة، غير وجهته فتوغّل في ماضيه بالبحث لعلّه يحوز أسباب وجوده، ومصيره.

والظاهر أن ما غير وجهته إلى الماضي السحيق هو شدة إيمانه بمبدأ السببية الذي يؤكد أن لكل معلول علة تسبقه، وذلك يعني أن كل شيء حدث أو يحدث الآن، إنما هو نتيجة حتمية لسبب سابق لذلك الحدث، وعليه فكل ما سيقع لاحقاً، ما هو إلا نتيجة حتمية لأسباب سبقته في الوجود بقليل أو كثير، ثم هو يعاين في كثير مما حوله - أشياء طبيعية أو من صنع الإنسان - أنها ذات غايات محددة، ويعاين في مصنوعات الناس أن القصد من صناعة الشيء يسبق صناعته في الواقع، وعلى ذلك لا بد أن سرّ حاضر الكون كلّ ومستقبله مطوي في ماضيه السحيق، فحاول الفكر الإنساني السفر عبر الزمن في رحلة طويلة عبر التاريخ، يتتبع تلك السلسلة الطويلة من الأسباب ليتعرّف قصة وجود الكون على العموم، وقصّة وجود نوعه على الخصوص، وقد أورثه كل ذلك شغفا بمعرفة أصول الأشياء ومصادرها، قاده قسراً إلى الاهتمام بالعلل والبدائيات الأولى، إلى أن انحصرت اهتماماته في اهتمامين أساسيين هما:

- سؤال عن العلة الأولى، والسبب المطلق الذي لا سبب قبله⁽¹⁾، فيسأل عن

الباري الذي خلق من العدم، والذي قدر صنعة كل شيء فأحكم. ما حقيقة هذا السبب؟ وما كنهه؟.

(1) تساءل الإنسان وما زال يتماذى في السؤال عن العلل إلى حدّ آخر ما يتوصل إليه خياله؛ وقد صح في الحديث القدسي قوله تعالى لنبيه ﷺ: "إن أمّتك لا يزالون يتساءلون فيما بينهم حتى

- ثم سؤال عن المعلولات أو البدايات الأولى،⁽¹⁾ وأهم ما فيها: بداية وجود هذا الكون عامة، وبداية وجود النوع الإنساني خاصة؛ ما هو الكون وما حقيقته؟ ما هو الإنسان وما هي حقيقته؟.

هذان السؤالان يشكلان معا أحد أسئلة الإنسان الخالدة، وهو قوله: (من أين؟)⁽²⁾

ثالثاً: - مشكلة الغاية من الوجود. (لماذا)

ومن مهمات ما يعرض للوعي البشري من التطلعات أيضاً حيرته فيما يجب عليه فعله وسط كل هذه الحركة ووسط كل هذا الكون الدؤوب؟ أليس عليه مسئولية في هذه الحياة، مسئولية يعقبها حساب وجزاء؟

إنّ العلم بالمعاد والحساب على الأعمال مما لا قبل للعقل البشري بمعرفته ولا معرفة شيء منه إلا بالوحي، لذلك وقفت البشرية منه موقف الريبة، ولكن ... هل يُسوِّغ ذلك الإعراض عن التفكير فيه والانغماس في الملذّات والحياة العابثة كما فعل الدهرية البارحة والوجوديون اليوم، اعتماداً على احتمال سير الأمر إلى العدم

يقولوا هذا الله خلق الناس فمن خلق الله" أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام: فتح الباري (329/13)، ورقمه: (7296).

(1) وقد صح في الأخبار أن وفد اليمن قدم إلى نبينا محمد ﷺ فقال لهم: (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا قبلنا. جنناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد: فتح الباري (351/6)، ورقمه: (3191). وصح أيضاً عن عمر بن الخطاب ؓ أنه كان يقول: (قام فينا النبي ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه). أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق: فتح الباري (352/6)، ورقمه: (3192) بغير هذا اللفظ. فكان الاستفسار عن بداية أمر الوجود، أول مسائلهم.

(2) ينظر مسألة الألوهية وأصل العالم، زياد الأحذب، دار الكتب العربية/ دمشق-سورية:

ص 10.

؟ إن فعل ذلك من أخطر أنواع القمار، بل من أخسر الرهانات؛ وقديما ناظر أبو العلاء المعري هؤلاء فقال:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تُحشر الأجساد قلت إليكما:
إن صحَّ قولكما فليست بخاسرٍ أو صحَّ قولي فالخسارُ عليكما
والذي يرجح خسران هذا الرّهان هو معرفة الإنسان بحظ وافر من سريان
مبدأ الغائية والنظام في هذا الكون، بل في نفسه.

وذلك أنّ الإنسان عندما ينعم النظر في مبدأ الغائية في المخلوقات، فإنّه يراها
فكرة يتزايد ما يؤيد القول بها كل يوم، ويتناقص ما قد ينقضها كذلك، وأن تراكم
المعارف لدى الإنسان وتقدمها لا يزيد هذه القناعة إلا ثبوتا ورسوخا، في حين لا
يزيد فكرة العبثية إلا انحسارا واندثارا.

إذ كلّما زادت معارفه وعلومه ومداركه اتساعا، انكشف له سريان مبدأ الغائية
والنظام في كثير مما كان يظنه بلا غاية، أولم يكن يأبه له غفلة منه وسهوا.
ومن هذا كله قفز فكر الإنسان من البحث في الغايات الجزئية في مظاهر
الكون، إلى البحث في أمهات الغايات وكلياتها.

إذ إنه بعد أن عاين شيئا من هذه الحقيقة في بعض أجزاء الكون، انجرّ إلى
البحث عن الغاية من وجود الكون. وبعد أن أدرك غايات بعض أعضاء بدنه؛ كفمه
وعينه ويديه ورجليه، وسريان مبدأ الغائية في الكثير مما حوله، خلص إلى
التساؤل عن الغاية من وجوده هو، وسبب وجود بني جلدته⁽¹⁾.

(1) ينظر ما كتبه د. محمد سعيد رمضان البوطي في هذا الموضوع تحت عنوان (عبث الحياة
تكذبه جدية النظام الكوني) في كتابه: مدخل إلى فهم الجذور (من أين؟ ولماذا؟ وإلى أين)،
محمد سعيد رمضان البوطي: دار الفكر/ دمشق-سورية. ط1/ 1412هـ - 1991م:

وهذا السؤال -بالذات- أخطر الأسئلة جميعا؛ يقول الدكتور يوسف القرضاوي في أهمية ذلك: سؤال واجب على الإنسان -كل إنسان- أن يسأله لنفسه، وأن يفكر مليا في جوابه، فإن كل جهل -مهما عظمت نتائجه- قد يغتفر إلا أن يجهل الإنسان سرَّ وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه على الأرض⁽¹⁾، ومما سبق ذكره، يتبين أن نهاية تطلعات الإنسان لمعرفة الغايات من الخلق، توجت بسؤالين كليَّين مهمَّين هما:

- تساؤلاته عن الغاية من وجود الكون؟.

وتساؤلاته عن الغاية من وجود الإنسان ووظيفته؟.

ويجمعهما سؤاله الخالد: (لماذا؟).

وهذا القدر من الأسئلة هو الذي خلُصت إليه الفلاسفة من مجموع ما سبق ذكره، وأطلقوا عليها (أسئلة الإنسان المعرفية الخالدة):

- معرفة أصول الأشياء وحقائقها وجذورها.
- معرفة الغاية من خلق الأشياء وحقيقة الحياة.
- معرفة مصير المخلوقات ونهايتها⁽²⁾.

قال الدكتور يوسف القرضاوي: ويعبر بعض المفكرين عن هذه الأسئلة بهذه الكلمات الموجزة: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟. هذه هي الأسئلة الثلاثة التي صاحبت الإنسان منذ فكر وتأمّل، ولا زالت تلحُّ عليه وتطلب الجواب الشافي لها فبدون هذا الجواب لا تتحدد كينونة الإنسان، وما موضعه في الكون ولا رسالته في

(1) العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة/ الجزائر، ط2، ص13.

(2) اعتمدت هذا الترتيب نظرا لكون الناس في الغالب لا يقومون بعمل معين إلا بعد معرفة الثمرة المترتبة عن فعله أو الضرر المتوقع من تركه، لذلك جعلت السؤال المتعلق بالجانب العملي آخر الأسئلة الخالدة ترتيبيا. وهو الذي عليه أكثر من تكلم عنها.

الوجود...إنها الأسئلة الخالدة⁽¹⁾ التي حاولت كل فلسفة في الشرق والغرب أن تجيب عنها..بل لا تعد فلسفة إذا أغفلت الجواب عنها؛ من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟⁽²⁾.

رابعاً:- مشكلة المعرفة. (بم يُعرف كل ذلك)

ثمّ إنّنا إذا نظرنا في هذه الأسئلة وجدنا الجواب عليها مُتَوَقِّفاً بدوره على معرفة مصدر الحصول على ما يخصّها من أجوبة، وقد أدّى جهل الإنسان بمن يستجير لتحصيل ما عجز عنه من حلول لهذه الأسئلة الخطرة، بل إنه وقع في مأزق كبير جعله يتّجه إلى محاولة الكشف عن ماهية العقل وطبيعة هذه الآلة التي يستعملها لحل تلك الألغاز، ما هي قدرات العقل وطاقته؟ وما هي حدوده؟ وما كيفية حصول المعرفة منه؟ وما هي وسائلها، وما هي معايير الخطأ والصّواب؟ وقد كان هذا سبباً كافياً لنشأة مبحث خاص أولته الفلاسفات بالأولوية في النّظر وهو ما يُعرف بفلسفة المعرفة، والذي يتناول الآراء التي قالها الفلاسفة في كيفية حصول المعرفة، ووسائلها، ومبلغها من الصّحة، ومقاييس الخطأ والصّواب. ومما يزيد الطّين بلة أن أكثر طموحاته وأكثرها أهميّة تقع خارج مجال مداركه، وهو متأكّد أنّ أكثر كلامه في تلك الغيبيات أوهام، فمن يأتيه بخبرها؟ أيرتمي في أحضان يأسه، أم أنّه يكتفي بما هدهه إليه عقله، وحواسّه؟ أو أن عليه البحث عن مصادر أخرى تخرجه من حيرة الضّياع، وتتّباع السّراب؟

(1) والتي عبر عنها الكاتب في آخر كتبه بـ "الحقائق الكبرى في الوجود" وحدّدها في الأسئلة الآتية: - من أين؟ لماذا؟ وإلى أين؟ بهذا الترتيب. ينظر كتابه الدين في عصر العلم، د. يوسف القرضاوي . دار الفرقان للنشر والتوزيع/ عمان - الأردن، 1417هـ - 1996م: من ص 65 إلى 72 .

(2) العبادة في الإسلام ص 14، وينظر تقريره لإجابة القرآن عنها بما لا مزيد عليه في كتابه: قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام، د.يوسف القرضاوي: ص5-6.

المطلب الرابع:- عناية القرآن بمهمّات مسائل الإنسان.

وردّ القرآن على السؤال الأخير يسير مُستساغ لأبسط العقول.. إنّه يقول بأن جواب ذلك كله عند قَالَ تَعَالَى: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ طه: ٥٠.. عند من قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ التغابن: ٤... عند عالم الغيب والشهادة، وكما قال عن نفسه قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام: ٥٩، ولا عجب من ذلك كله قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الملك: ١٤؟

يقول النورسي: (إن القرآن هو وحده الكفيل بالإجابة عن الأسئلة التي تسألها الحكمة (الفلسفة) من الكائنات: من أين؟ وبأمر من تأتون؟ من سلطانكم ودليلكم وخطيبكم؟ ما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟)(1).

إنّه حبل اللطف الإلهي ومدد العلم المطلق الذي جاء ليكرم ذلك الإنسان، ويخرجه من ظلمات النّيه إلى نور الهداية الربّانية، فيمده بمراده مما يتوجّب عليه معرفته وحاجياته:

فيكون لعقله العاضد المطمئن فيما يستقلّ بمعرفته مثل وجود خالق لهذا الكون. ويكون له المخبر الصادق فيما لا قبل له به ككلام الله تعالى، ورؤيته، والمعاد الجسماني، وتفاصيل ثواب المطيع، وعقاب العاصي، ترغيبا في الحسنات، وتحذيرا من السيئات.

ويكون له المبين الكاشف لحال الأفعال التي تحسن تارة وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل إلى مواقعها.

(1) محاكمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة، النورسي: ص23.

ويكون له المُطمئن والمُثبت والمزِيل لأي تردّد حاصل عند إتيان الفعل أو تركه.

ويكون له الكافي المحيط بما هو في حدود إمكان العقل ولكنه لا يهتدي إليه إلا بتجارب تستغرق أحقاباً مديدة؛ كبيان منافع الأغذية والأدوية ومضارها التي لا تقي بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار مع ما فيها من الأخطار.

ويكون له المزكي العالم بخبايا نفسه المكمل للنفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة في العمليات والعمليات.

ويكون له معلماً حاذقاً للصنائع الخفية من الخاصيات والضروريات. ويكون له المعلم الناصح بما يحتاجه من الأخلاق الفاضلة الراجعة إلى الأشخاص، والسياسات الكاملة العائدة إلى الجماعات من المنازل والمدن⁽¹⁾.

فينتقل به - بكل ذلك - من عماية التيه إلى نور الهداية؛ يقول القرضاوي:
لوفرّق كبير بين إنسان كعمر الخيام يقول في حال حيرته وشكه:

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرّت فيه بين شتى الفكر!
وسوف أنضو الثوب عني ولم أدر: لماذا جئت، أين المفر؟
وبين آخر يقول في يقين وطمأنينة:

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي⁽²⁾

يقول تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**

كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الأنعام: ١٢٢.

وليس في هذه الأسئلة من محذور شرعي، إن كانت على وجه طلب الحق⁽¹⁾؛ يقول ابن الأثير: "السؤال في كتاب الله والحديث نوعان: أحدهما ما كان على وجه

(1) ينظر كلام التفنازاني عن فوائد بعثة الأنبياء في كتابه: شرح المقاصد، التفنازاني، تحقيق عبد

الرحمان عميرة، عالم الكتب - بيروت: (6/5)

(2) الدين في عصر العلم، د. يوسف القرضاوي ص71.

التبيين والتعليم مما تمس الحاجة إليه فهو مباح أو مندوب أو مأمور به، والآخر ما كان على طريق التكلف والتعنت فهو مكروه ومنهي عنه فكل ما كان من هذا الوجه ووقع السكوت عن جوابه؛ فإنما هو ردغ وزجر للسائل وإن وقع الجواب عنه فهو عقوبة تغليظ⁽²⁾.

وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تأمر بالسؤال وتجيب عنه دونما حرج أو إنكار، كقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣)، وقوله (ﷺ) لمن سألته: (..سل ما بدا لك)⁽³⁾. وقوله لبعض أصحابه معاتباً لهم: (ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال..)⁽⁴⁾... فالسؤال المعرفي في حد ذاته فضيلة، وإنما يذم في الشرع إذا أريد به غير الاعتبار والعمل: (إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم..)⁽⁵⁾ أو لم تكن له فائدة فعن ابن عباس: "قال ما رأيت خيراً من أصحاب رسول الله (ﷺ) ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة

(1) تحدد مشروعية السؤال في الإسلام بالمعيارين الآتيين: 1- مقصد السائل من مسألته.
2- موضوع السؤال، وكيفية تبليغه لمن يجيب عنه (أي جوهره وصيغته). وقد فصلت الكلام عن ذلك في بحث الماجستير؛ ينظر مبحث شرعية السؤال في الإسلام: أجوبة القرآن على أسئلة الإنسان الثلاثة - من أين؟ لماذا؟ وإلى أين؟ - عز الدين كشنيط. (رسالة ماجستير، بإشراف د. مشعان سعود العيساوي/ كلية الشريعة، جامعة بغداد 1419هـ - 1998م): ص 26-36.

(2) أورده صاحب لسان العرب (337/13).

(3) صحيح البخاري: 22/1.

(4) سنن ابن ماجه (كتاب الطهارة وسننها): 189/1.

(5) صحيح مسلم (كتاب الحج): (975/2). وسنن ابن ماجه (المقدمة): (3/1).

مسألة حتى قبض ... قال ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم⁽¹⁾. ومن قبيل هذه الأسئلة الكبرى ما صحّ في السنّة أن أهل اليمن قالوا لرسول الله (ﷺ) حينما وفدوا عليه: "جنّناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟"⁽²⁾ فكان أول ما سألوا عنه هو بداية هذا الأمر. ومن ذلك أيضا سؤال بعضهم عن السّاعة، وسؤال الكثير من الصّحابة عما يُنجي من الأعمال الصالحة، أو ما يُهلك من المعاصي.

وقد اعتنى القرآن الكريم بحكاية مسائلهم والإجابة عنها، أو أجاب عنها من دون حكايتها، فأجاب عما لا يسوغ الجهل به منها بالبيان الكافي الشافي، وأهمّل ذكر ما لا ضرر في الجهل به أو ما في ذكره ضرر على عقول لا طاقة لها على استيعابه، مع عدم الحاجة الماسّة إليه.

وكان النبي (ﷺ) يتصدّى للإجابة عنها بما في القرآن، أو بما خصّه الله به من حقائق العلوم، فكان يقول (سلوني)، وكان الصّحابة رضي الله عنهم يحبّون من يتولّى سؤاله (ﷺ) عن مهمات الأمور، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنه قال: "...كنّا نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله (ﷺ) عن شيء قال فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل يسأل رسول الله (ﷺ) قال فجاء رجل فجلس عند ركبتيه فقال... فقال رسول الله (ﷺ) هذا جبريل أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا."⁽³⁾ وصح عن النبي (ﷺ) أيضا أنه قال: "سلوني، فهابوه أن يسألوه فجاء رجل فجلس... الحديث"⁽⁴⁾ فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن وقت الساعة

(1) أخرجه الطبراني في الكبير: 359/11، والحافظ الهيثمي عن ابن عباس: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (158/1). ينظر جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي/ السعودية، ط4/ 1419-1998: 1062/2.

(2) فتح الباري: 351/6، ورقمه: 3191.

(3) صحيح مسلم (كتاب الإيمان) : 41/1.

(4) صحيح مسلم : 40/1.

وأماراتها. وقد أخرج البخاري في صحيحه عن حذيفة بن اليمان أنه قال: "كان الناس يسألون رسول الله (ﷺ) عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني..."⁽¹⁾ وقد صحَّ أيضا أن جماعة أخطؤوا الفتوى في عهد رسول الله (ﷺ) في حق مريض كان جنبا مما كان سببا لوفاته فقال فيهم النبي (ﷺ): "قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، وإنما شفاء العيِّ السؤال"⁽²⁾.

وكان (ﷺ) يتولى جواب تلك الأسئلة بالقرآن أو بما أوحى إليه من أصناف البيان، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: "قام فينا النبي (ﷺ) مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه"⁽³⁾.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب: فتح الباري: 763/6-764، ورقمه:

(3606). وصحيح مسلم (كتاب الإمارة): 3/1475، ورقمه: (1847).

(2) سنن الدارمي (طهارة): 284.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الخلق؛ فتح الباري: (352/6)، ورقمه: (3192)

بغير هذا اللفظ.

الفصل الثاني

استخراج كبرى مقاصد القرآن الكريم

تَمْهِيدٌ

أنزل الله تعالى كلامه على عباده ليفهموا مراده منهم، ولمّا كانوا على مراتب في الفهم عنه قيّض لهم من يفهم عنهم مقاصده؛ وهم الأنبياء، ثم يليهم العلماء من أتباعهم إذ هم ورثة علومهم، بإجهد القرائح في الفهم عنهم وعن الله مراده. وقد رأيت أن الكلام عن مقاصد القرآن، أو ما عبّر به بعضهم بتقصيد القرآن من أعظم مواطن الزلل، وأقرب أسباب الهلاك؛ لذلك وجب على من اجترأ على ذلك أن لا يتفوّه ببنت شفة عن مراد الله تعالى مما قاله في قرآنه، حتى يشفعها ببينة بيّنة من كلامه تعالى، أو من كلام من عصم في فهم مراده؛ وهو نبيّه محمد (ﷺ)؛ ولذلك رأيت أن أسلك هذا المسلك لعليّ أعصم من الزلل؛ فقدّمت كلامي عن استخراج مقاصد القرآن ببيان ما وقع التنصيص عليه بالقرآن من مقاصده أولاً، ثم ذكر ما نصت عليه السنّة أو أشارت إليه من ذلك، ثمّ ببسط ما فهمه العلماء من كثرة سياحتهم في رياض القرآن.

المبحث الأول - استخراج ما صرّح به القرآن من أمّهات مقاصده.

وذلك من خلال المطالب الآتية:-

المطلب الأول: عناية القرآن ببيان أمّهات مقاصده.

دأب أكثر من تكلم أو كتب في موضوع مهم أن يقدّم لكلامه بأهمّ ما فيه، وهي سنّة إلهية ألهمها الله تعالى عباده، وزيّن بها سور القرآن على غير معهود أهل البلاغة واللسان.

فأما القرآن فقد زان جملته بفاتحة الكتاب كما سيأتي بيانه في المبحث الثاني، وأما سوره فقد وقع البيان الصريح عن بعض ما أنزل القرآن لأجله في مستهل كثير منها؛ خاصة تلك التي ابتدأت الكلام بالحروف المقطعة، فقد ألفيت أغلبها ابتدرت إلى ذكر القرآن والتتويه بشأنه والانتصار له⁽¹⁾، وذكر شيء من مهمات مقاصده في آياتها الأولى؛ فمن ذلك التصريح باحتوائه على الهداية التي تنفع المتقين في مُستهل سورة البقرة، وفي مستهل سورة آل عمران، والتصريح بمقاصد أخرى في مطالع سور كثيرة من القرآن، وسأمثل ببعض ما يدل على ذلك من بعض هذه السور:

سورة البقرة: قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ اَللّٰهُمَّ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ ﴿٢﴾ ﴿البقرة: ١ - ٢﴾؛ وفيها كلام صريح عن مقصد الهداية.

سورة آل عمران: قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴿آل عمران: ١ - ٤﴾؛ وفيها كلام صريح عن مقصدي التصديق لما ورد في الكتب السابقة والهداية.

سورة الأعراف: قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ اَلْمَصَّ كُتِبَ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِيْ صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٢﴾ اَتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴿الأعراف: ١ - ٣﴾؛ وفيها كلام صريح عن مقصد الإنذار، ومقصد التذكير، ومقصد الاتباع.

(1) قال ابن كثير: "كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة. "تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 3/1.

سورة الكهف: قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١﴾
 قِيمًا لِنَذِيرٍ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
 حَسَنًا ۝٢﴾ مَّنَكِّثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
 وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ الكهف: ١ - ٥؛
 وفيها التصريح بمقصد الإنذار ببأس الله، وإنذار النصارى، والبشارة للمؤمنين.

سورة إبراهيم: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
 النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ إبراهيم: ١؛ وفي تصريح بمقصد
 عظيم وهو إخراج الناس من ظلمات الضلال والعصيان إلى نور الهداية والإيمان.

سورة السجدة: قَالَ تَعَالَى: ﴿الْم ۝١﴾ تَنزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ السجدة: ١ - ٣؛ وفيه التصريح بمقصد الإنذار والهداية لقوم ما
 أتاهم من نذير.

سورة الزخرف: قَالَ تَعَالَى: ﴿حَم ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ الزخرف: ١ - ٣؛ وفيه الإشارة إلى مقصد البيان،
 والتصريح بمقصد التعقل.

سورة هود: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّكَتَبُ ۝١﴾ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝٢﴾ أَلَا
 تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٣﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَى
 أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٤﴾ إِلَى اللَّهِ
 مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥﴾ هود: ١ - ٥؛ وفيها الكلام على التوحيد وإخلاص
 العبودية لله تعالى، والبشارة والإنذار، والتوبة والاستغفار، واليوم الآخر.

سورة يوسف: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيكَ ③ ﴿يوسف: ١ - ٣﴾ وفيه التصريح بمقصد التعقل، ورفع الغفلة عن هذه الأمة.

سورة الرعد: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ① ﴿الرعد: ١﴾ وفيه إشارة إلى أن في إنزال القرآن بيان للحق وهو أعظم ما يحتاجه الناس في ظلمات هذه الحياة.

سورة الحجر: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ ① ﴿الحجر: ١﴾ وفيه إشارة إلى مقصد البيان والإيضاح.

سورة النحل: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكُ الْرُوحَ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ② ﴿النحل: ٢﴾ وفيه التصريح بمقصد التوحيد، والأمر به أمراً مقترناً بالإنذار والتحذير.

سورة طه: قَالَ تَعَالَى: ﴿طه ① مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ② إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ③ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ④﴾ طه: ١ - ٤؛ وفيه تصريح بمقصد التذكير.

سورة الفرقان: قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ① ﴿الفرقان: ١﴾ وفيها كلام صريح عن مقصد الإنذار للعالمين.

سورة النمل: قَالَ تَعَالَى: ﴿طس تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ① ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ③ ﴿النمل: ١ - ٣﴾ وفيه بيان صريح لمقصد الهداية والبشارة للمؤمنين مع بيان بعض صفاتهم.

سورة القصص: قَالَ تَعَالَى: ﴿طَسَمَ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ القصص:

١ - ٢؛ وفيه ذكر مقصد البيان.

سورة لقمان: قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ②﴾ هُدًى وَرَحْمَةً

لِلْمُحْسِنِينَ ③ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى

مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ لقمان: ١ - ٥؛ وفيها بيان لمقصد الهداية

والرحمة للمحسنين.

سورة الأحزاب: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ① وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَاعَتَعْمَلُونَ خَيْرًا ②﴾

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ③﴾ الأحزاب: ١ - ٣؛ وفيه التصريح بوجوب

اتباع الوحي؛ وهو مقصد.

سورة يس: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَس ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③﴾ عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ④ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ

الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦﴾ يس: ١ - ٧؛ وفيه التصريح بمقصد الإنذار

وإزالة الغفلة.

سورة الزمر: قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ②﴾ الزمر: ١ - ٢؛ وفيه الأمر بعبادة الله

وإخلاص الدين له وهما مقصدان عظيمان.

سورة فصلت: قَالَ تَعَالَى: ﴿حَمْدٌ ① تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ

آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ شَيْخًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا

قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونا

⑤ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ

لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ فصلت: ١ - ٦؛ وفيها الكلام الصريح على كونه: بشيرا ونذيرا-
أنه أتى بالتوحيد- وأنه أمر بالاستقامة والاستغفار؛ وهي مقاصد.

سورة الشورى: قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ حَمْدٌ ﴿٢﴾ عَسَى ﴿٣﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٥﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ
هُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ
﴿٧﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ
فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٨﴾ الشورى: ١ - ٧؛ وفيه التصريح بمقصد الإنذار،
والتحذير من يوم القيامة.

سورة الدخان: قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ حَمْدٌ ﴿٢﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ
مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾
رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ الدخان: ١ - ٦؛ وفيه الإشارة إلى مقصدي
الإنذار والرحمة.

سورة ق: قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿٢﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ
الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٣﴾ أَوَإِذَا نَزَّابًا ذَلِكَ رَجَعُ لَعِيدٍ ﴿٤﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ
وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِظٌ ﴿٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٦﴾ ق: ١ - ٥؛
أي: أنه جاءهم بنبأ الحشر والنشر- وهو مقصد- فعجبوا منه.

سورة القمر: قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٢﴾
حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنْذُرُ ﴿٣﴾ القمر: ٤ - ٥؛ وفيه دلالة واضحة على
مقصدي الزجر والإنذار.

سورة الجن: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا

﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن تُشْرِكَ رَبَّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ الجن: ١ - ٢؛ وفيه دلالة واضحة على مقصد الهداية إلى سبيل الرشاد.

سورة البينة: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى

تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾﴾ البينة: ١ - ٥؛ وفيه كلام ظاهر عن مقصد رفع الخلاف بين أهل الكتاب ببيان الحق، والأمر بعبادة الله، وإخلاص الدين له.

ومن أساليب القرآن أيضا في بيان كليات مقاصده إيرادها موجزة في ذيول الآيات؛ وسأسرد ذكر بعض ما يوضح ذلك:

فمن ذلك مقصد الإرجاع إلى الحق في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الأحقاف: ٢٧.

ومن ذلك مقصد الشكر في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾﴾ المائدة: ٨٩.

ومن ذلك مقصد حصول اليقين باليوم الآخر كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى:

﴿وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ الرعد: ٢، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ الأنعام: ١٥٤.

ومن ذلك مقصد الرحمة بالعباد في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ آل عمران: ١٣٢، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلَّكم ترحمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الأعراف: ٢٠٤.

ومن ذلك مقصد التعقل في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾﴾ الزخرف: ٣، وقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾﴾ يوسف: ١.

ومن ذلك مقصد التذكير في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾﴾ البقرة: ٢٢١، وقوله: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾﴾ إبراهيم: ٢٥ ومن ذلك مقصد حصول التقوى في القلوب في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾﴾ طه: ١١٣.

ومن ذلك مقصد حصول التفكير في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾﴾ البقرة: ٢١٩.

ومن ذلك مقصد حصول الإرشاد في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾﴾ البقرة: ١٨٦.

ومن ذلك مقصد حصول الهداية للمكلفين في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾﴾ البقرة: ٥٣.

ومن ذلك مقصد حصول الهداية في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾﴾ آل عمران: ١٠٣.

ومن ذلك مقصد حصول الرحمة في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾﴾ الأعراف: ٢٠٤.

هذه بعض أساليب القرآن في التعريف بأمهات مواضعه، وما أنزل لأجله في بعض أوائل سورته، وخواتيم آياته، وستأتي محاولة استقصاء بقية الآيات الصريحة

في بيان مقاصد القرآن مما حوته أوائل السور وبطونها وخواتيمها، أو خواتيم آياتها، واستخراج تلك المقاصد.

المطلب الثاني: الآيات القرآنية التي نصّت على أسباب نزوله صراحة.

- القصد إلى حصول الإيمان به.

وذلك بدعوة الناس إلى الإيمان به: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾ النساء: ١٣٦؛ (وهو مقصد ثابت من طريق الأمر (أَمِنُوا) الذي يليه الذم على الترك - وَمَن يَكْفُرْ... فَقَدْ....-).

ودعوة أهل الكتاب إلى ذلك أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ءَوَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾ النساء: ٤٧؛ (وهو مقصد ثابت بالأمر الذي يليه الوعيد على ترك الإيمان بما نزل على نبيّنا محمد ﷺ).

- القصد إلى تدبره وتعقله والتفكر فيه والاعتبار بما فيه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا نَزْلَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّتَذَكَّرَ أَتَيْنَهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝٢٩﴾ ص: ٢٩؛ في التدبر زيادة علم، وفي التذكر محافظة على ما حصل منه (والمقصدان ثابتان هنا بلام التعليل).

ويؤيد ذلك الآيات الآتية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ قُلُوبِ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ محمد: ٢٤؛ وفيها التعجب الإنكاري على من لا يتدبر القرآن.

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٢)،
 قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا
 جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ٣)؛ وفيها تعليل لعربيته بـ
 (لعل) بكونه أيسر للتعقل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦)، قَالَ تَعَالَى:
 ﴿لَوْ أَنْزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢١٩)؛ وفيها بيان القصد من سرد القصص وضرب
 الأمثال وبيان الآيات في القرآن؛ وهو التفكير.

- القصد إلى الاتعاظ والاعتبار بما فيه.

قال عز وجل: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ
 وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣١)، قَالَ
 تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨).
 وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (النور: ٣٤) وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، وحصول
 الموعظة والعبرة مقصد مهم من مقاصد إيراد القصص في القرآن؛ قال تعالى: قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
 وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي
 الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١).

وهذا مقصد ذكره الله تعالى لبعض كتبه فقال في التوراة: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ، فِي الْآلُوحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ الأعراف: ١٤٥، وفي الإنجيل: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ المائدة: ٤٦.

- القصد إلى بيانه وتبليغه للناس.

قال عز وجل: قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَلَّغُ النَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ إبراهيم: ٥٢، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ المائدة: ٦٧.

وهو عين ما كلف به أهل الكتب السالفة؛ كما قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ آل عمران: ١٨٧.

وقد لعن الله تعالى قوما كتموا الهداية الإلهية فقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أُنْزِلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ البقرة: ١٥٩.

- القصد إلى بيان ما يحتاج إليه الناس من العلم وكفايتهم عناء تكلفه.

قال عز وجل: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ النحل: ٨٩، وقال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾﴾ العنكبوت: ٥١.

وهو مقصد عام من مقاصد الوحي، كالذي ذكر في وصف كتاب موسى عليه السلام: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمٍ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾﴾ الأنعام: ١٥٤.

- القصد إلى إظهار كثير مما كان يخفيه أهل الكتاب من الحق.

وذلك أن أهل الكتاب كانوا يُخفون كثيرا من نصوص الوحي على غيرهم قال تعالى: - ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾﴾ البقرة: ١٤٦، وكشف الله تعالى في القرآن تلاعبهم بنصوص وحيه فقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَحْمِلُونَهُ قَرِاطِسَ ثُنْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أُنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾﴾ الأنعام: ٩١.

ثم بين الباري عز وجل أن من مقاصد بعثة نبيه محمد (ﷺ) بيان كثير مما كانوا يخفون من الحق: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾﴾ المائدة: ١٥.

- القصد إلى تشريع الأحكام والقيام بالقسط: (بيان الصراط المستقيم)

قال تعالى: - ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾﴾ النساء: ١٠٥، وهذا مقصد عام في كل الكتب

المنزلة؛ قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ البقرة: ٢١٣، وقال أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ... ﴿٢٥﴾﴾ الحديد: ٢٥.

- القصد إلى اتباع المكلفين له.

وذلك أول وعد من الله تعالى للتقلين عند إنزالهما من الجنة إلى دار التكليف؛ قال تعالى:- ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ البقرة: ٣٨. فهو مقصد أمر تعالى به نبيه (ﷺ) فقال:- قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾﴾ الأنعام: ١٠٦، وفي الآية الأخرى:- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ يونس: ١٠٩، وقال:- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ الأحزاب: ٢.

ثم إنه تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الأنعام: ١٥٥، وقال:- قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ الأعراف: ٣. وقد خصَّص الله تعالى ما ينبغي أن يتَّبَعَ منه فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا يَذَّكَّرُ مِنْ

عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴿٧﴾ آل عمران: ٧، وقال: قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ الزمر: ٥٥، وقال: قال تعالى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٨﴾ الزمر: ١٨.

وذكر تعالى أنه أقام بالقرآن الحجة على التائبين الذين قد يتعللون بعدم وجود هداية تصلح للاتباع فقال: - قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَكُنْهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ ﴿١٣٤﴾ طه: ١٣٤، وقال أيضا: - قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ القصص: ٤٧.

ولكنهم عندما دعوا إلى ذلك أعرضوا قال تعالى: - قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَوْكَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٢١﴾ لقمان: ٢١، وقال: - قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ البقرة: ١٧٠.

- القصد إلى الحكم به.

وهو مقصد صريح في القرآن وفيما انزل من قبله من الكتب، قال تعالى في القرآن: - قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بِهِ النَّاسُ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ ﴿١٠٥﴾ النساء: ١٠٥، وقال: - قال تعالى: ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿٤١﴾ المائدة: ٤٩، وقال أيضا: - قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿٣٧﴾ الرعد: ٣٧؛ أي: بلغة العرب.

وفي قوله تعالى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَعَيِّرَ اللَّهُ أَتَّبَعِيَ حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الأنعام: ١١٤، ثم عاتب الذين لم يقبلوا هذه الحاكمية أو ترددوا في قبولها فقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة: ٥٠.

وقال عز وجل في التوراة: - قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤، وقال في الإنجيل: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المائدة: ٤٧، وفي الآية الأخرى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المائدة: ٤٥.

وهذا مقصد ثابت بمختلف صيغ التعليل؛ كلام التعليل، والأمر به، والوعيد لمن أعرض عن الإتيان به.

- القصد إلى تذكير المكلفين ورفع الغفلة عنهم.

وذلك أن أول زلة وقع فيها الإنسان كان سببها النسيان، قال تعالى في آدم عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُحَدِّثْ لَهُ عَزْمًا﴾ طه: ١١٥، وقال عن بعض الأقوام: - قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَهْنَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف: ١٦٥، وجعل الناس ينسون ويقعون في الغفلة من وظائف الشيطان لعنه الله؛ قال تعالى: -

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَسْتَخَوِّدُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ (١٩) المجادلة: ١٩.

فلما كان الأمر كذلك اقتضت الرحمة الإلهية أن يُذكر الإنسان بما ينزل من الهدايات الربانية؛ ومن ذلك ما ذكره تعالى من قوله حين إنزاله أبونا وإبليس إلى الأرض: - قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٣٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٣٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْيَيْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ (١٣٦) طه: ١٢٣ - ١٢٦.

فالتذكير مقصد أساسي في كل ما نزل من الكتب، قال تعالى في كتاب موسى عليه السلام: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣) القصص: ٤٣.

وقال عن القرآن: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا سَأَلْتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠١) يوسف: ١٠٤، وقوله: - قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) ص: ٨٧، وقوله: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥٢) القلم: ٥٢، ثم ذكر المقصد من هذا التذكير فقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيدَ﴾ (٢٨) التکویر: ٢٧ - ٢٨، وقال أيضا: - قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٢) طه: ٢ - ٣؛ فمن أهمية هذا المقصد، ذكره الباري بصيغة الحصر في الآيات السالفة، فقارب ألا مقصود غيره.

وقد كثر ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢١) ص: ٢٩؛ فالتدبر زيادة علم، والتذكر محافظة على ما وجد منه.

وقال أيضا: - قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَبْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ الأعراف: ٢ - ٣؛ وقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١) الإسراء: ٤١، وقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَ أَيْتِيهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣٣) البقرة: ٢٢١، وفي هذه الآيات كلام صريح عن مقصد التذكير.

ومن ذلك أيضا أنه تعالى ذكر سبب تيسير قرآنه للناس: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٧) القمر: ١٧، وذكر سبب تيسيره بلغة العرب - وهي لغة البيان - فقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) الدخان: ٥٨.

وهو المقصد من ضرب الأمثال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) الزمر: ٢٧، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَوَقَّ أَكْثَرُهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١٥) إبراهيم: ٢٥. وهو المقصد من الوعيد الوارد في القرآن: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣) طه: ١١٣، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥) ق: ٤٥.

- المقصد إلى تبشير المطيعين وإنذار المخالفين.

أ- فمن ذلك آيات جمعت بين البشارة والندارة:

كما في قوله تعالى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٢) يونس: ١ - ٢ وفي قوله تعالى: - قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢) ﴿ الأحقاف: ١٢، وفي الآيات الآتية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (١١١) ﴿ البقرة: ١١٩

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ سبأ: ٢٨ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (٢٤) ﴿ فاطر: ٢٤ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴾ (١٧) ﴿ مريم: ٩٧ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (٥٦) ﴿ الكهف: ٥٦

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴾ (١٧) ﴿ مريم: ٩٧ ب- ومن ذلك آيات أنزلت الإنذار والتحذير:

كما في قوله تعالى في الآيات الآتية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١٢) ﴿ الأنعام: ٩٢

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (٧) ﴿ الشورى: ٧

قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) ﴿ الفرقان: ١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَزَّلَ الْغَزِيرَ الرَّحِيمَ ﴾ (٥) ﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٦) ﴿ يس: ٥ - ٦

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١١) ﴿ الزمر: ٢١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ

لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿٥١﴾ الأنعام: ٥١ وغالبا ما ينصرف الإنذار إلى تحذير الناس من عواقب أفعالهم في الدنيا والآخرة:

فمنه الإنذار بعاقبة الغفلة عن اليوم الآخر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ الشورى: ٧ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ الأنعام: ١٩ ومنه إنذار من حاد على التوحيد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِى الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ النحل: ٢ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَعْبُدُنَّ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾ فِيمَا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَلَكَيْنِ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَنُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ الكهف: ١ - ٥ -
- القصد إلى تصديق ما جاءت به الرسل والأنبياء من الحق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾﴾ آل عمران: ٣ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢١﴾﴾ فاطر: ٣١

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يونس: ٣٧ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ الأحقاف: ١٢ وهو ما أمر به أهل الإيمان في قوله تعالى: ﴿قُولُوا

ءَاْمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ البقرة: ١٣٦، وفي قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٧﴾ ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاْمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ءَ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ البقرة: ٢٨٥.

- القصد إلى بيان الحق ورفع الخلاف.

وقد ورد هذا المقصد في كثير من الآيات؛ منها قوله تعالى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٧﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٨﴾ الرعد: ١؛ وفيه إشارة إلى أن في إنزال القرآن بياناً للحق؛ وهو أعظم ما يحتاجه الناس في ظلمات هذه الحياة.

ومن ذلك قوله تعالى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٨﴾ أَمَرِيقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٣٩﴾ السجدة: ٣ وفيها أن الإنذار، وسيلة لمقصد الهداية. وقوله: - قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْعَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٤٠﴾ البقرة: ١١٩.

وبييان الحق يرتفع ما وقع فيه الناس من الخلاف: - قَالَ تَعَالَى: ﴿١٤٠﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤١﴾ النحل: ٦٤، وقد ذكر تعالى أيضا أن في القرآن بياناً لكثير مما وقع بين بني إسرائيل من الخلاف فقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿١٤٢﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٤٣﴾ النمل: ٧٦.

- القصد إلى تجديد الشريعة بما يصلح للأمة الخاتمة.

القصد إلى تجديد الشريعة، أي: مهيمنا على ما قبلها من الشرائع:- قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ المائدة: ٤٨.

وقال تعالى:- قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ الجاثية: ١٨.

- القصد إلى الدلالة على الطريق وهو مقصد الهداية.

يقول عز وجل في مستهل كتابه العزيز:- قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ البقرة: ٢؛ وهو وصف للقرآن بالهداية.

وهو عين ما وُصفت به توراة موسى في قوله تعالى:- قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ

الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴿١١﴾﴾ الأنعام: ٩١، وقوله:- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ

آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ البقرة: ٥٣، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ المؤمنون: ٤٩.

وقال أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ

وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾﴾ البقرة: ١٨٥.

وهي هداية وعدها الله تعالى الثقلين - عند إخراجهم من الجنة- بقوله: قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

﴿٣٨﴾﴾ البقرة: ٣٨.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٢) السجدة: ٣؛ وفيها أن الإنذار، وسيلة لمقصد الهداية.

قال تعالى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي الْأَمْرُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) الأعراف: ١٥٨؛ وفيها أن القصد من الإيمان بالقرآن واتباعه هو حصول الهداية؛ أي: وسيلة لتحصيلها.

وقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠٢) آل عمران: ١٠٣؛ وفيها أن بيان الآيات وسيلة لمقصد الهداية.

ثم ذكر فحوى هذه الهداية فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ (١) الإسراء: ٩، قال على لسان مؤمني الجن: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْمَنُ بِهِ وَلَنْ تُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ (٢) الجن: ١ - ٢، وقال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦) البقرة: ١٨٦.

- القصد إلى اتباع الناس لهذه الهداية.

وهو مقصد كلي من مقاصد إنزال الكتاب، وقد وقع الأمر للنبي (ﷺ) وغيره في القرآن بالاتباع فقال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٢) الأحزاب: ٢؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) الأعراف: ٣؛ وفيهما التصريح بوجوب اتباع الوحي؛ وهو مقصد.

ووقع الوعد لمن اتبع هذه الهداية بالفلاح والوعيد لمن أعرض عنها بالخسران، قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ البقرة: ٣٨، وفي سورة طه: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٦.

- القصد إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

أي إخراجهم من ظلمات الجاهلية وظلمها إلى نور الإسلام وعدله، وهدايته؛ قال تعالى في مستهل سورة إبراهيم عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّكَتَدُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ إبراهيم: ١، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾﴾ الحديد: ٩.

- القصد إلى تثبيت النبي (ﷺ) والمؤمنين على الحق.

قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ النحل: ١٠٢، وقد ورد مثل ذلك صريحاً في الحكمة من إيراد القصص في القرآن؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٢٣﴾﴾ الفرقان: ٣٢.

- القصد إلى إعلام الناس بوحدانيته تعالى وجمعهم على عبادته وحده.

قال تعالى: - قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ
أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾ (٥٢) إبراهيم: ٥٢، وقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ
أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦) فصلت: ٦.

وقد كانت تلك المقالة الأولى للرسول، ووظيفتهم الأساسية، قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَزِيدُ
الْمَلِكُكَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) النحل: ٢،
وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ
﴿ الأنبياء: ٢٥؛ فمن ذلك قول نوح عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى
قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٩١)
الأعراف: ٥٩، وقد تكرر ورود هذه العبارة بعينها في خبر هود وصالح وشعيب
في سورة (الأعراف 65-73-85) و (هود 50-61-84) و (المؤمنون 23-32).

والقصد هو جمع الناس على توحيد الله تعالى، والاعتصام به وبهدايته الواردة
في القرآن؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَتَاهِلَ آلِ كَتَبَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦٤) آل عمران: ٦٤، وقال: - قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ
اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا
وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٣) آل
عمران: ١٠٣.

- القصد إلى الاحتجاج به لصدق الرسالة الخاتمة، وتحدي المخالفين.

لإقامة الحجة على أهل الكتاب؛ قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾﴾ المائدة: ١٩، وقال أيضا: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ البقرة: ٨٩. لإقامة الحجة على المشركين من غير أهل الكتاب: قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧.

وقصد به التحدي أيضا كما في قوله تعالى: قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يونس: ٣٨، وقوله: قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ هود: ١٣، وقوله: قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء: ٨٨، وقوله: قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ القصص: ٤٩، وقوله: قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ الصافات: ١٥٧، وقوله: قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الطور: ٣٤، وقوله أيضا: قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتَرْوِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ الأحقاف: ٤.

- اليقين بالبعث والحساب والجزاء.

القصد إلى إعلام المكلفين باليوم الآخر كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٥٤﴾ وَالْقَمَرُ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يَذِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الرعد: ٢، وقوله في كتاب موسى عليه السلام: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٥٤﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الأنعام: ١٥٤.

والقصد من ذلك هو الترغيب أو الترهيب مما فيه، والمقصد من ذلك هو الاستقامة.

قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٥٤﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿١٥٥﴾﴾ الشورى: ٧.

- القصد إلى حصول التقوى في قلوب الناس.

وهي وصية عامة لكل الأمم من قبلنا كما في قوله تعالى: - ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣١﴾ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٢﴾﴾ النساء: ١٣١.

وقال عز وجل: - ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٣٣﴾﴾ طه: ١١٣، وقال أيضا: - ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٣﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٣٤﴾﴾ طه: ١١٣.

وقال أيضا: - ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٤﴾ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ الأنعام: ٥١، وهو المقصد من الوعيد الوارد في القرآن: - ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ

﴿ طه: ١١٣ ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ الزمر: ٢٨ ﴾، وهو مقصد مُقْضٍ إلى حصول الاستقامة. 23- القصد إلى تركية نفوس أهل الإيمان.

أي تطهير النفوس من كل منقصة، وهو مقصد عدّه الله تعالى من مقاصد بعثة نبيّنا (ﷺ)، ومن أخص وظائفه؛ قال تعالى: ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴾ (٢) ﴿ الجمعة: ٢ ﴾، وقال أيضا: ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴾ (١٦٤) ﴿ آل عمران: ١٦٤ ﴾، وكذا في (سورة البقرة: 151).

وتلك دعوة إبراهيم عليه السلام لهذه الأمة، كما وردت في القرآن؛ قال تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴾ (١٣) ﴿ البقرة: ١٢٩ ﴾.

وقد ربط تعالى الفلاح بهذا المقصد فقال: ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى ﴾ ﴾ (١٤) ﴿ الأعلى: ١٤ ﴾، وبيّن تعالى أن هذا المقصد متعلّق بالنفس المؤمنة فقال: ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٧) ﴿ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٨) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٩) ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١٠) ﴿ الشمس: ٧ - ١٠ ﴾. وفي هذا المقصد معنى الإحسان، وتهذيب النفوس، وإتمام مكارم الأخلاق.

المبحث الثاني- استخراج مقاصد القرآن بالسنة النبوية الشريفة.

بعد إيراد الآيات الكريمة الصريحة في بيان ما أنزل القرآن لأجله واستخراج قدر معتبر من مقاصده منها، أعرج على كلام نبيه (ﷺ) مما يمكن أن يستخرج منه

مقاصد القرآن الكريم، أو يستدل به عليها، إذ هو المبين عن الله تعالى مراده، وهو المفوض المؤيد بالعصمة.

ولما كانت صحة الاستدلال متوقفة على صحة الدليل ثبوتاً ودلالة؛ رأيت أن أورد هنا خلاصة عما صح في فضل بعض سور القرآن مما يمكن استثماره في هذه الدراسة.

يقول ابن قيم الجوزية: "والذي صح في أحاديث السور: حديث فاتحة الكتاب، وأنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها، وحديث البقرة و آل عمران أنهما الزهراوان، وحديث آية الكرسي وأنها سيدة القرآن، وحديث الآيتين من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه، وحديث سورة البقرة لا تقرأ في بيت فيقر به شيطان، وحديث العشر آيات من أول سورة الكهف من قرأها عصم من فتنة الدجال، وحديث قل هو الله أحد وأنها تعدل ثلث القرآن ولم يصح في فضائل سورة ما صح فيها⁽¹⁾، وحديث المعوذتين وأنه ما تعوذ المتعوذون بمثلها وقوله صلى الله عليه وسلم أنزل علي آيات لم ير مثلهن ثم قرأهما"⁽²⁾.

ثم قال ابن القيم: "ويلي هذه الأحاديث وهي دونها في الصحة: حديث إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وحديث قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن، وحديث تبارك الذي بيده الملك هي المنجية من عذاب القبر.

(1) نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (691-751)، تحقيق حسن السماعي سويدان: دار القادري/ بيروت، ط1/1411-1990م: 102/1، والمنار المنيف، محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة: حلب/ سورية، ط2/1403هـ، : 114/1، وقد نسب السيوطي هذه المقالة إلى الدارقطني؛ ينظر تدريب الراوي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف: مكتبة الرياض الحديثة/ الرياض (د.ت): 290/1.

(2) ينظر نقد المنقول: 102/1.

ثم سائر الأحاديث بعد كقوله: من قرأ سورة كذا أعطي ثواب كذا، فموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد اعترف بوضعها واضعها⁽¹⁾»⁽²⁾.

وأما ما يتصل منها بموضوع تقسيم القرآن الكريم؛ فهي ما ورد عنه (ﷺ) في كون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وما ورد في كون فاتحة الكتاب أنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها، ذكر ذلك ابن تيمية⁽³⁾ وغيره. والذي ورد في سورة الإخلاص أقوى ثبوتاً ودلالة مما ورد في سورة الفاتحة؛ وهذان الحديثان هما عمدة من تكلم في تقسيم القرآن موضوعياً. هذا ما وقفت عليه بعد تتبع طويل للموضوع في أمهات الكتب.

وذلك أنني جمعت الكثير مما قاله العلماء في هذه الأحاديث؛ فوجدت أنهم عمدوا إلى ما ورد في سورة الإخلاص من أحاديث أولاً. فأصلّوا بها للتجزئة الثلاثية للقرآن، والتقسيم الثلاثي لمواضيعه الكلية ومقاصده العامة. واجتهدوا بعد ذلك في بيان تلك الأقسام.

ثم عمدوا إلى ما ورد في سورة الفاتحة من أحاديث صحيحة تكلمت عن عظيم شأنها، وعلو قدرها؛ فتكوّن لهم بذلك شبه إجماع على أنها جامعة لما في القرآن كله، فطبّقوا عليها نتائج الاجتهادات المتعلقة بالإخلاص وفسّروها على وفق ذلك.

(1) قال ابن القيم: "ومنها ذكر فضائل السور وثواب من قرأ سورة كذا فله أجر كذا من أول القرآن إلى آخره كما ذكر ذلك الثعلبي والواحدي في أول كل سورة والزمخشري في آخرها قال عبد الله بن المبارك أظن الزنادقة وضعوها". المنار المنيف: 113/1.

(2) نقد المنقول: 102/1.

(3) ينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 6/17. وقد خصص كتاباً كاملاً للكلام عن حديث قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وسمّاه (جواب أهل العلم والإيمان في أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن).

وعليه فإنني سأجعل مما ورد في سورة الإخلاص وشروح العلماء له محورا ومادة أساسية لهذه الدراسة، مثنياً بمثل ذلك فيما ورد في سورة الفاتحة، ثم مستأنسا بما ورد في غيرهما من السور أو الآيات من الفضائل مما يفيد في تصنيف المحتوى القرآني، مبيّنا حكمها، وموردا أهم ما ورد فيها من تأويلات، مستدلا بالقدر الصالح منها للاحتجاج، وسأحاول اختيار ما أراه صوابا منها مما يؤيد الدليل الأقوى.

المطلب الأول :- سورة الإخلاص.

تواترت الأحاديث الصحيحة في فضل سورة الإخلاص، وفي كونها تعدل ثلث القرآن على عدة صيغ، من ذلك ما ورد في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ﷺ) قال في سورة الإخلاص ردّا على من كان يتقالّها: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن" (1).

وثبت عنه (ﷺ) أيضا أنه قال لأصحابه: "أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم وقالوا: أينما يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن" (2).

وعن أبي هريرة أن النبي (ﷺ) نادى يوما فقال: "احشدوا فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فلما حشد من حشد، خرج النبي (ﷺ)، فقرأ قل هو الله أحد، ثم دخل، ثم خرج فقال: إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن" (3). وثبت في صحيح مسلم أيضا من حديث أبي الدرداء قول النبي (ﷺ): "إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن" (1).

(1) صحيح البخاري: 4/1915، وفي 6/2449، وفي غيره من كتب الحديث.

(2) صحيح البخاري: 4/1916. صحيح مسلم: 1/556.

(3) صحيح مسلم: 1/557، وينظر تحفة الأحوذى: 8/167.

هذا أهم ما ورد من الأحاديث مما يفيد هذا الباب وسأمر الآن على استعراض ما قيل في تأويل هذه الأحاديث، واستخراج معانيها ثم نجني ثمارها. قال السيوطي: "ومعنى تعدل تساوي، والمساواة بين الشيئين قد يكون باعتبار الوزن، وقد يكون باعتبار المساحة، وقد يكون باعتبار القيمة. فالمساواة من كل وجه ليست بضرورية"⁽²⁾.

أما باعتبار الحجم فهو احتمال غير وارد؛ قال الحافظ ابن حجر (ت852هـ): "المتبادر من إطلاق ثلث القرآن؛ أن المراد ثلث حجمه المكتوب مثلاً، وقد ظهر أن ذلك غير مراد"⁽³⁾. وهو ما لم يقله أحد من أهل العلم.

وأما باعتبار القيمة أو الفائدة العائدة على القارئ فمن العلماء من حمل عدلها لثالث القرآن عليه؛ أي: على المثلية في تحصيل الثواب، وهو حصول من يقرأها

(1) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سعيد بن أبي عروبة ومن حديث شعبه وأبان بن يزيد عن قتاده. صحيح مسلم: 556/1، وينظر مسند أحمد: 443/6، و447/6، وشعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البیهقي (384-458هـ): دار الكتب العلمية/بيروت، ط1/1410هـ: 503/2، والسنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (215-303)، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية/بيروت- ط1/1411هـ-1991م: 176/6، وسنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي (181-255هـ)، تحقيق فواز أحمد زمرلي خالد السبع العلمي: دار الكتاب العربي/بيروت، ط1/1407هـ: 551/2 و552، وينظر الكلام فيه في: شرح النووي على صحيح مسلم، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (631-676): دار إحياء التراث العربي/بيروت، ط2/1392هـ: 94/6، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (368-463هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي محمد عبد الكبير البكري: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية/المغرب، 1387هـ: 258/7، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 568/4.

(2) شرح سنن ابن ماجه، السيوطي وآخرون: قديمي كتب خانة/كراتشي: 268.

(3) فتح الباري: 61/9.

على مثل ما يحصل لمن قرأ ثلث حجم القرآن من الثواب. وزاد بعضهم فقال من دون تضعيف؛ أي: بدون احتساب عشر حسنات لكل حرف⁽¹⁾. فكأنما استفادوا هذا المعنى من سياق رواية (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن) فإنها توحى بأنه يرشدكم إلى ما يحصلون به ثواب قراءة ثلث القرآن كل ليلة بمجرد قراءة سورة الإخلاص. وهذا السياق وإن أفاد هذا المعنى فإنه لا يمنع غيره من المعاني، بل إن سياق بقية الروايات يؤيد أكثر من هذا المعنى، وتخصيص الحديث بهذا المعنى دعوى بغير دليل⁽²⁾.

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد هو أن "من عمل بما تضمنته من الإخلاص والتوحيد كان كمن قرأ ثلث القرآن"⁽³⁾. وهذا وجه ذكره ابن الجوزي عن ابن عقيل فقال: أن المعنى؛ أن من عمل بما تضمنته من الإقرار بالتوحيد والإذعان للخالق، كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته. ذكر ابن تيمية هذا الوجه وضعفه⁽⁴⁾.

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه، فإنه لا يمتّ بصلة إلى سياق الصيغ المذكورة للحديث. ولأن فيه استعمالاً للفظ في غير ما يتبادر للفهم عند سماعه. خاصة أن النبي (ﷺ) قال: "أن يقرأ ثلث القرآن" ولم يقل "أن يعمل بثلث القرآن" وهو أفصح العرب.

ومنهم من قال بأن هذا الحديث خاص بصاحب الواقعة:

(1) ينظر المصدر نفسه: 61/9، تحفة الأحوذى: 167/8، ونقل هذا القول أيضاً عن المازري.

نقله عنه النووي في شرحه على مسلم: 94-95، والديباج للسيوطي: 404/2.

(2) قاله ابن حجر وغيره؛ ينظر فتح الباري: 61/9، وتحفة الأحوذى: 167/8.

(3) فتح الباري: 61/9.

(4) ينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 104/17.

قال القابسي⁽¹⁾: "ولعل الرّجل الذي جرى له ذلك لم يكن يحفظ غيرها، فلذلك استقل عمله، فقال له الشارع ذلك ترغيباً له في عمل الخير وإن قل"⁽²⁾.
وقيل أيضاً لأن النبي (ﷺ): "سمع شخصاً يكرّرها تكرر من يقرأ ثلث القرآن فخرج الجواب على هذا"⁽³⁾ وهو قول حكاه الحافظ عن بعضهم فقال: "وادعى بعضهم أن قوله تعدل ثلث القرآن يختص بصاحب الواقعة، لأنه لما ردها في ليلته، كان كمن قرأ ثلث القرآن بغير ترديد"⁽⁴⁾.
وفي هذا الوجه بُعدٌ عن ظاهر الحديث⁽⁵⁾، ومخالفة صريحة لظاهر ما جاءت الرواية الصحيحة الأخرى التي تفيد بأن النبي (ﷺ) حشد الناس وقال (سأقرأ عليكم ثلث القرآن) تبطل هذا المذهب.
قال المازري⁽⁶⁾: "وهذه الرواية تقدح في تأويل من جعل ذلك لشخص بعينه"⁽⁷⁾.
وذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث ونحوه⁽¹⁾ من المتشابه الذي لا يُدرى تأويله. وإلى ذلك نحا أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، واختاره ابن عبد البر والسيوطي⁽²⁾.

-
- (1) القابسي؛ أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي: حافظ محدث؛ علامة المغرب، ولد سنة (324هـ)، كان عارفاً بالكتاب والسنة والفقه، توفي سنة (403هـ). ينظر طبقات الحفاظ، عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية/بيروت، ط1/1403هـ: 419/1.
(2) فتح الباري: 61/9.
(3) حكاه الزركشي في البرهان في علوم القرآن: 445/1 مما أورده ابن عبد البر من أقوال.
(4) فتح الباري: 61/9.
(5) قال بذلك الزركشي وغيره ينظر البرهان في علوم القرآن: 445/1.
(6) المازري: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري المالكي (ت536هـ)، ومازر بلدة بصقلية، له باع طويل في الفقه والأصول والحديث، له المعلم بشرح مسلم، وغيره من المؤلفات. ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي: 104/20-107.
(7) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 123/17.

قال ابن عبد البر في هذا الحديث: "...وقد ثبت عن النبي ذلك، ونحن نقول بما ثبت عنه ولا نعدوه. ونكل ما جهلنا من معناه إليه"⁽³⁾. وقال إن السكوت في هذه المسألة أفضل من الكلام وأسلم، وأنّ من لم يجب في هذا أخلص ممن أجاب فيه. ثم ذكر بسنده عن الإمام أحمد أنّه سئل عن معنى هذا التلث فلم يقم في ذلك على أمر بيّن⁽⁴⁾.

ويظهر أن سبب إحجامه عن ذلك اعتباره لهذه السورة من آيات الصفات والمتشابه، الذي تورّع العلماء عن الخوض والتدقيق في معانيه، ودليل ذلك قوله بعد مقالته تلك: "والقرآن عندنا مع هذا كله كلام الله، وصفة من صفاته، ليس بمخلوق، ولا ندري لم تعدل ثلث القرآن."⁽⁵⁾ ثم أورد ما حفظه عن الأئمة الذين سئلوا عن الأحاديث التي فيها الصفات (الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد وأحمد بن حنبل) فكلهم قال أمرها كما جاءت بلا تفسير، لتلقي العلماء لها بالقبول⁽⁶⁾. والناظر في مقالته هذه يجد أنه تحرّز عن إبداء رأيه فيها باستعمال منهج السلف في الكلام عن الصفات فيما لا صلة له بذلك؛ إذ المسؤول عنه هو وجه عدل السورة لثلاث القرآن، لا وجه كونها صفة للرحمن. وأما سكوت الإمام أحمد عن الكلام فيها فليس من الضروري أن يكون ذلك الإحجام من الباب المذكور، وإنما كان إحجامه لعدم وقوفه على أمر يقيني في وجه ذلك العدل. وهذا

(1) قال السيوطي: "وكذا حديث الفاتحة تعدل ثلثي القرآن وآية الكرسي ربع القرآن ونحن ذلك

وحديث الفرائض نصف العلم" شرح السيوطي على النسائي 172/2.

(2) تنوير الحوالك: 164/2، والديباج، السيوطي: 404/2.

(3) التمهيد: 231/19.

(4) ينظر التمهيد: 232/19، والبرهان في علوم القرآن: 445/1.

(5) المصدر نفسه: 231/19.

(6) ينظر المصدر نفسه: 231/19.

ما تفيده عبارة ابن عبد البر ذاتها وهي قوله (أنه سئل عن معنى هذا التلث فلم يقم في ذلك على أمر بين).

قال ابن تيمية: "واعلم قد اشتهر في التفسير أن النبي (ﷺ) سئل عن ماهية ربه وعن نعتة وصفته فانتظر الجواب من الله تعالى فأنزل الله هذه السورة؛ إذا عرفت هذا فنقول: هذه السورة يجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات، لأنه تعالى جعلها جوابا عن سؤال السائل، وأنزلها عند الحاجة، وذلك يقتضي كونها من المحكمات لا من المتشابهات"⁽¹⁾.

ثم بين شيخ الإسلام ما أشكل على العلماء من أمر هذا الحديث فقال: "والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان:

أحدهما؛ منع تفاضل كلام الله بعبارة على بعض وقد تبين ضعفه.

الثاني؛ اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف. فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم"⁽²⁾.

وقال الغزالي في رد هذه الوجوه: "فما أراك تفهم وجه ذلك، فتارة تقول: هذا ذكره هذا للترغيب في التلاوة، وليس المعنى به التقدير. وحاشا لمنصب النبوة عن ذلك. وتارة تقول: هذا بعيد عن الفهم والتأويل، فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية؛ فهذا القدر كيف يكون ثلثها. وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن، ونظرك إلى ظاهر ألفاظه، فتظن أنها تكثر وتعظم بطول الألفاظ، وتقصر بقصرها. وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهر الواحد نظرا إلى كثرتها"⁽³⁾.

وقال ابن تيمية: "قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم، فإنه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها، وباعتبار

(1) بيان تلبيس الجهمية: 1/460.

(2) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 17/136.

(3) جواهر القرآن: ص 47، وينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 17/114.

ألفاظه المبينة لمعانيه⁽¹⁾. وإذا ثبت فضل قل هو الله أحد على غيرها، فإن ذلك لا يعني الاستغناء بها عن غيرها، فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر، والنهي، والقصص، وإن كان التوحيد أعظم من ذلك. وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهى عنه من الأفعال، أو احتاج إلى ما يؤمر به ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد، لم يسد غيره مسده. فلا يسد التوحيد مسد هذا. ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي. ولا الأمر والنهي مسد القصص. بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه.⁽²⁾

فلا مانع -إذن- أن يكون معنى عدل هذه السورة لثلاث القرآن؛ عدلها لثلاث معانيه الكلية، إذ هذا ما تشهد له ظاهر الأحاديث خاصة حديث مسلم. قال القرطبي بعد إيراده لهذا التقسيم: "ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي (ﷺ) قال: (إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن). وهذا نص، وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص والله أعلم"⁽³⁾.

وقال المازري (ت536هـ): "وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن"⁽⁴⁾. ويمثل ذلك صرح الحافظ بن حجر في الفتح⁽⁵⁾. وحاصل هذه الأقوال أنه من اجتماع هذه الأحاديث مع ما أورده العلماء من القرآن تيسر لنا القول -في ثقة-:

(1) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 129/17.

(2) المصدر نفسه (جواب أهل العلم والإيمان): 137/17-138.

(3) الجامع لأحكام القرآن: 247/20.

(4) ذكره ابن تيمية عن المازري نقلاً عن القاضي عياض. الفتاوى: 122/17.

(5) ينظر فتح الباري: 61/9، وينظر تحفة الأحوذى: 167/8.

- إن القسمة الثلاثية للقرآن قسمة إلهية ثابتة بنص الحديث الثابت في صحيح مسلم.

- وإن هذا التقسيم يخص المعاني الكلية للقرآن الكريم.
وعلى هذين الأساسين تطرق أهل العلم إلى تأويل الحديث بيان مواضيع هذه الأقسام، وهم في ذلك فريقان:

الفريق الأول:

حصرها هذا الفريق في بعض مسائل العقائد أو بعض معاني التوحيد نفسه؛ ومن ذلك ما نقله الرازي عن الغزالي أنه حمل المعنى على أن: القرآن مشتمل على البراهين القاطعة على: 1- وجود الله تعالى. 2- ووحانيته. 3- وصفاته؛ وهذه الصفات: إمّا صفات الحقيقة، وإمّا صفات الفعل، وإمّا صفات الحكم. فهذه ثلاثة أمور وهذه السورة تشتمل على صفات الحقيقة؛ فهي ثلث⁽¹⁾.
وورد عن ابن منظور (ت711هـ) مثل هذه الوجهة في التعليل إذ يقول عن السورة: ".. جعلها تعدل ثلث القرآن لأن القرآن العزيز لا يتجاوز ثلاثة أقسام وهي:

- 1- الإرشاد إلى معرفة ذات الله عزّ وجلّ وتقديسه.
 - 2- أو معرفة صفاته وأسمائه.
 - 3- أو معرفة أفعاله وسنّته في عباده.
- ولمّا اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة -وهو التقديس- وازنها سيّدنا رسول الله بثلاث القرآن⁽²⁾.

(1) ينظر الإتيان : 424/2.

(2) لسان العرب: مادة (ثلاث) 122/2.

ثمَّ علَّلَ سر هذا الاختصاص فقال: "لأنَّ منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور:

لا يكون حاصلًا منه من هو من نوعه وشبهه؛ ودل عليه قوله ﴿لَمْ يَكُنْ﴾.
ولا يكون هو حاصلًا ممن هو نظيره وشبهه؛ ودل عليه قوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾.
ولا يكون في درجته، وإن لم يكن أصلًا له ولا فرعًا من هو مثله؛ ودل عليه قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

ويجمع جميع ذلك قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وجملته تفصيل قولك (لا إله إلا الله) ⁽¹⁾ ونُقل عن ابن الجوزي ما يقرب من هذا المعنى إذ يقول: "إن معرفة الله هي:

1- معرفة ذاته، 2- ومعرفة أسمائه وصفاته، 3- ومعرفة أفعاله.
فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته؛ إذ لا يوجد شيء إلا وجد من شيء ما خلا الله، فإنه ليس له كفاء، ولا له مثل ⁽²⁾.

وقد علَّلَ القرطبي هذه القسمة فقال: "اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء الله تعالى، يتضمَّنان جميع أوصاف الكمال، لم يوجد في غيرها من السور. وهما الأحد الصمد، لأنهما يدلان على أحدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال؛ وبيان ذلك أن الأحد يشعر بوجوده الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره، والصمد يشعر بجميع أوصاف الكمال لأنه الذي انتهى إليه سؤدده. فكان

(1) لسان العرب: مادة (ثَلَّث) 122/2، وهو قول نقله السيوطي عن ابن الأثير الجزري (ت 606هـ) في كتابه النهاية في غريب الحديث، وهو من المطابقة لكلام ابن منظور بما يُتَيَقَّن به أنه نقله عنه -لأنه متقدم عليه-، أو أنهما نقلاه من مصدر واحد على الأقل: قارن الفقرة بما أورده السيوطي في شرح سنن ابن ماجه: 268.

(2) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 104/17. ونسب ابن الجوزي هذا القول إلى بعض فقهاء السلف.

مرجع الطلب منه وإليه، ولا يتم ذلك على وجه التحقيق إلا لمن حاز جميع خصال الكمال، وذلك لا يصلح إلا لله تعالى، فلما اشتملت هذه السورة على معرفة الذات المقدسة؛ كانت بالنسبة إلى تمام المعرفة بصفات الذات وصفات الفعل ثلثاً⁽¹⁾.

والذي يقتضيه المنطق في هذه التقسيمات أن تكون الإخلاص عادلة لثلاث التلث، على تقسيم الغزالي لا للثلاث - هذا إن سلمنا بأن القرآن إلهيات فقط - . ثم إن القرآن ليس مجرد براهين على ما سلف ذكره، أو تعريف بالله وإرشاد إليه، فلا يتسنى على ذلك القول بأنها تعدل ثلث القرآن، وإنما يقال ثلث الإلهيات. وهو خلاف قوله (ﷺ) ثلث القرآن.

ففي هذا التقسيمات -إذن- قصور بين، إذ إنهم حصروا مواضع القرآن في العقائد فقط. وهي وإن ناسب أن تكون تقسيمات لثلاث التوحيد فإنها لا تصلح أن تكون تقسيماً لمواضع القرآن كلها.

الفريق الثاني:

أما الفريق الثاني -وهم جمهور العلماء والمفسرين- فحملوا الحديث على أنها ثلث القضايا الكلية التي أتى بها القرآن للناس.

فاتفقوا على أن التلث الذي تمثله سورة الإخلاص هو ما يتصل منه بتوحيد الله تعالى، والتعريف به، أو العقائد، واختلفوا فيما عداه من الأقسام، وسأورد هنا سبب تخصيصهم للثلاث الذي تمثله الإخلاص بموضوع التوحيد، ثم سأسرد جملة من أقوالهم وتقاسيمهم -معللة وغير معللة- معلّقا عليها عند الحاجة.

لجمهور العلماء فيما ذهبوا إليه من تيقنهم من كون قل هو الله أحد تعدل الثلاث الذي يمثل التوحيد هو ما أفادته السورة أولاً، ثم اجتماع عدة قرائن تؤيد ذلك.

(1) تحفة الأحوذى: 167/8، وفتح الباري: 61/9. وينظر الجامع لأحكام القرآن: 247/20.

فمن ذلك ما ورد في الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها "أن رسول الله (ﷺ) بعث رجلا على سرية، فلما رجعوا ذكر بعضهم للنبي (ﷺ) أن من بعثه يؤمهم في صلاتهم كان يقرأ لهم فيختم بقل هو الله أحد فقال لهم (ﷺ): سلوه لأي شيء يصنع ذلك. فلما سألوه. قال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي (ﷺ): أخبروه أن الله تعالى يحبه"⁽¹⁾. ففي هذا الحديث إقرار منه (ﷺ) لقوله (ﷺ) بأنها صفة الرحمن عز وجل.

ومما يؤيد كونها صفة لله تعالى ما سلف ذكره عما اشتهر في التفسير أن النبي (ﷺ) سئل عن ماهية ربه وعن نعته وصفته فانتظر الجواب من الله تعالى فأنزل الله هذه السورة⁽²⁾.

وقد تطرق شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تفصيل سبب اختصاصها بثلاث التوحيد فقال: "وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضا إلا هذه السورة"⁽³⁾. وقال أيضا: ".. هي صفة الرحمن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، وعليها اعتمد الأئمة في تنزيه الله، كما ذكره الفضيل بن عياض، والإمام أحمد، وغيرهم من أئمة الإسلام"⁽⁴⁾. فكانوا إذا أرادوا أن يذكر ما يستحقه الله من

(1) صح ذلك من حديث عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري ومسلم وغيرهما أن بعض الصحابة ذكروا للنبي (ﷺ) أن من بعثه يؤمهم في صلاتهم كان يقرأ لهم فيختم بقل هو الله أحد فقال لهم (ﷺ): "سلوه لأي شيء يصنع ذلك. فلما سألوه. قال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي (ﷺ): أخبروه أن الله تعالى يحبه". صحيح البخاري: 2686/6، وصحيح مسلم: 557/1.

(2) ينظر بيان تلبيس الجهمية: 460/1.

(3) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 134/17. وينظر المصدر نفسه: 13/17 و103-104.

(4) بيان تلبيس الجهمية: 460/1.

التنزيه؛ ذكروا سورة الإخلاص، لأنها مستوفية كل ما ينفي في هذا الباب⁽¹⁾. فليس في هذه السورة كلام عن غير الله تعالى.

ومن ذلك أيضا انفرادها باسمين لا يوجدان في غيرها من السور هما (الأحد والصمد)⁽²⁾(3). قال ابن تيمية بعد أن أطنب في شرح معناهما: "فظهر أن اسمه الأحد، يوجب تنزيهه عما يجب نفيه عنه، من التشبيه، ومماثلة غيره له في شيء من الأشياء. وكونه أحدا، يوجب أن لا يشرك به في العبادة، ولا الاستغاثة، فلا يدعى غيره. واسمه الصمد جاء معرّقا ليبين أنه هو الصمد الذي يستحق أن يُصمد إليه، ويوجب هذا الاسم تنزيهه عما يجب نفيه من الانقسام والتفرق، ونحو ذلك مما ينافي كمال صمديته"⁽⁴⁾. ثم قال: "وهذان الاسمان لم يذكرهما في القرآن إلا في هذه السورة، التي قد ثبت عن النبي (ﷺ) -من غير وجه- إنها تعدل ثلث القرآن"⁽⁵⁾.

وقال أيضا: "وقد قال من قال من العلماء هي ثلث القرآن، لأن القرآن ثلاثة أقسام: قسم توحيد، وقسم قصص، وقسم أمر ونهي. وهذه فيها التوحيد. وهذا الذي قالوه إنما يتم إذا كانت جامعة للتوحيد، والأمر كذلك؛ فإن هذين الاسمين يستلزمان سائر أسماء الله الحسنى وما فيها من التوحيد كله قولاً وعملاً، والنبي (ﷺ) ذكر

(1) ينظر المصدر نفسه: 57/2.

(2) وقد فسّر الصمد فقال: "ولفظ الصمد يدل على أنه لا جوف له وعلى أنه السيد ليس كما تقول طائفة من الناس إن الصمد في اللغة إنما هو السيد ويتعجبون مما نقل عن الصحابة والتابعين من أن الصمد هو الذي لا جوف له فإن أكثر الصحابة والتابعين فسّروه بهذا وهم أعلم باللغة وبتفسير القرآن ودلالة اللفظ على هذا أظهر من دلالتها على السؤدد وذلك أن لفظ (ص م د) يدل على الاجتماع والانضمام المنافي للتفرق والخلو والتخويف كما يقال صمد المال وصمده وتصمد إذا جمعه وضم بعضه إلى بعض". المصدر نفسه: 59/2.

(3) ينظر المصدر نفسه: 460/1.

(4) ينظر المصدر نفسه: 60/2 و 458/2.

(5) المصدر نفسه: 458/2.

هذين الاسمين. فقال: الله الواحد الصمد تعدل ثلث القرآن. وذلك أن كونه أحداً وكونه الصمد يتضمن أنه الذي يقصده كل شيء لذاته، ولما يطلب منه. وأنه مستغن بنفسه عن كل شيء. وأنه بحيث لا يجوز عليه التفريق والفناء. وأنه لا نظير له في شيء من صفاته، ونحو ذلك مما ينافي الصمدية. وهذا يوجب أن يكون حياً عالماً قديراً ملكاً قدوساً سلاماً مهيمناً عزيزاً جباراً متكبراً⁽¹⁾.

وقد حذا تلميذه ابن القيم حذوه حين أرجع سبب اختصاصها بمبحث التوحيد إلى كونها متضمنة لنفي الأصل والفرع والنظير والمماثل لله تعالى؛ قال: "ففي اسمه الصمد إثبات كل الكمال، وفي نفي الكفاء التنزيه عن الشبيه والمثال، وفي الأحد نفي كل شريك لذي الجلال، وهذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد"⁽²⁾.

وفصل الكلام في ذلك في موضع آخر فقال: "سورة قل هو الله أحد متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته، ونفي الكفاء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتظهير؛ فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يبين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن"⁽³⁾.

(1) بيان تلبيس الجهمية: 458/2-459.

(2) زاد المعاد: 181/4، وينظر فتح الباري: 61/9، وتحفة الأحوذى: 167/8.

(3) زاد المعاد: 316/1، وينظر الطب النبوي: 141/1.

قال الحافظ ابن حجر بعد حكايته لمثل هذا القول: "بأنها عادت ثلث القرآن لأنها حوت مجامع التوحيد الاعتقادي. فأخلصت الخبر عن الله وخلصت قارئها من الشرك الاعتقادي⁽¹⁾.

ولهذا وغيره قال بعضهم: "إنها تضاهي كلمة التوحيد لما اشتملت عليه من الجمل المثبتة والنافية، مع زيادة تعليل. ومعنى النفي فيها أنه الخالق الرزاق المعبود، لأنه ليس فوقه من يمنعه كالوالد، ولا من يساويه في ذلك كالكفاء، ولا من يعينه على ذلك كالولد"⁽²⁾.

وفيما يأتي سرد لما وجدت من أقوال العلماء -ممن اعتمد هذه القسمة- في تأويل عدل هذه السورة لثلاث القرآن، بادئاً بمن جعل من الأحكام والقصص بقية أثلاث القرآن.

فمن ذلك ما نُقل عن شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري (ت310هـ) إذ يقول: "يشتمل -أي القرآن- على ثلاثة أشياء: التوحيد، والأخبار، والديانات. ولهذا قال (ﷺ): قل هو الله أحد تحدل ثلث القرآن، وهذه السورة تشمل التوحيد كله"⁽³⁾. وأخاله يقصد بالديانات الأحكام والشرائع، وبالأخبار القصص.

وحكى ابن عبد البر عن بعضهم قريباً من هذا التقسيم فقال: "وقيل لأن القرآن يشتمل على قصص وشرائع وصفات، وقل هو الله أحد كلها صفات، فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار"⁽⁴⁾.

(1) ينظر فتح الباري: 61/9، وينظر تحفة الأحوذى: 167/8.

(2) فتح الباري: 61/9.

(3) البرهان في علوم القرآن: 18/1. وقول الطبري هذا أقدم ما وقفت عليه من أقوال العلماء في بيان تلك الأقسام، نقله عنه الزركشي ولم أقف عليه في تفسيره. ثم يليه قول ابن سريج.

(4) ذكر ذلك الزركشي في البرهان؛ المصدر نفسه: 445/1.

وبمثل هذه المعاني فسّر المازري الحديث فقال: "...لأن القرآن على ثلاثة أنحاء؛ قصص، وأحكام، وصفات، فلتمحصها للصفات كانت جزءاً من الثلاثة"⁽¹⁾. وهذا التقسيم هو ما قرّره البيضاوي في تفسيره إذ يقول: "ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الإلهية، والرد على من ألدّ؛ فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن، فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص..."⁽²⁾.

وحكى الحافظ ابن حجر مثل هذا القول عن بعض العلماء، وعدّه التقسيم الثلاثي لأمّهات مواضيع القرآن هو المعنى الظاهر لهذا الحديث فقال: "حملة بعض العلماء على ظاهره، فقال هي ثلث باعتبار معاني القرآن لأنه: أحكام، وأخبار، وتوحيد. وقد اشتملت هي على القسم الثالث فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار"⁽³⁾. ونقل عن غير واحد من أهل العلم أنهم قسّموا القرآن قسمين؛ خبر وإنشاء. والخبر قسمان؛ خبر عن الخالق، وخبر عن المخلوق، فهذه ثلاثة أثلاث، وسورة الإخلاص أخلصت الخبر عن الخالق، فهي بهذا الاعتبار ثلث⁽⁴⁾.

(1) حكاه عنه أبو الرضا الحموي: القواعد والإشارات في أصول القراءات، أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا الحموي أبو العباس (ت791هـ)، تحقيق د. عبد الكريم محمد الحسن بكار: دار القلم/ دمشق، ط1/1406هـ: 23/1، وقد أورد النووي مثل هذا القول عنه نقلاً عن القاضي عياض شرح النووي على صحيح مسلم: 94/6-95، وينظر الديباج، السيوطي: 404/2.

(2) تفسير البيضاوي، البيضاوي (ت791هـ)، تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة: دار الفكر/ بيروت، ط: (1416-1996): 549/5.

(3) فتح الباري: 61/9، وينظر تحفة الأحوذى: 167/8.

(4) ينظر الإتيان: 424/2، وروح المعاني: 267/30، وفتح الباري: 61/9، و تحفة الأحوذى: 167/8، والفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 13/17، و103-104 و121 و134، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم؛ محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله

قال ابن تيمية بعد عرضه لمذاهب العلماء في تأويل هذا الحديث، ونقده لها: "وقد بينا أن أحسن الوجوه أن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد، وقصص، وأحكام. وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده. وذلك لأن القرآن كلام الله، والكلام نوعان: إما إنشاء، وإما إخبار. والإخبار: إما خبر عن الخالق، وإما خبر عن المخلوق. فالإنشاء هو الأحكام؛ كالأمر والنهي. والخبر عن المخلوق؛ هو القصص. والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته"⁽¹⁾.

وقد أدرج الوعد والوعيد في القصص، وعبر عن الأمر والنهي والإباحة بالإنشاء، وهو ما عبر عنه أيضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽²⁾. وهو الذي اختاره الزركشي واطمأن له فقال: "وأحسن ما قيل فيه -يقصد الحديث- أن القرآن قسمان: خير وإنشاء، والخبر قسمان؛ خير عن الخالق، وخير عن المخلوق. فهذه ثلاثة، وسورة الإخلاص أخلصت الخبر عن الخالق، فهي بهذا الاعتبار ثلث القرآن"⁽³⁾.

وقد أرجع ابن القيم عدلها لثلاث القرآن لمثل هذه المعاني؛ أي: لكونها "أخلصت للخبر عن الرب تعالى وصفاته دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه"⁽⁴⁾. وقال أيضا: "فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة. والخبر نوعان: خير عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخير

(691-751)، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط: مؤسسة الرسالة - مكتبة

المنار الإسلامية/ بيروت - الكويت، ط4/1407هـ-1986م: 1/316-317.

(1) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 134/17. وينظر المصدر نفسه: 13/17، و103-104.

(2) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، تحقيق/ د. صلاح الدين المنجد: دار الكتاب الجديد/ بيروت-لبنان، ط2/ 1404هـ-1984م: ص9.

(3) البرهان في علوم القرآن: 1/446.

(4) الصواعق المرسلّة: 3/912.

عن خلقه. فأخلصت سورة قل هو الله أحد الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته؛ فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي⁽¹⁾. وكل من ذكرنا أقوالهم جعلوا التوحيد أو العقائد أول الأقسام، وجعلوا من الأحكام والقصص موضوعين للقسمين الثاني والثالث.

ونقل عن أبي العباس بن سريج (ت306هـ) أنه جعل ثالث الثالثة قسم الوعد والوعيد؛ وذلك أنه سئل: "ما معنى قول النبي (ﷺ) قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن؟ قال: إن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام؛ فثلث أحكام، وثلث وعد ووعد، وثلث أسماء وصفات. وقد جمع في قل هو الله أحد أحد الأثلاث؛ وهو الصفات، فقليل: إنها تعدل ثلث القرآن"⁽²⁾.

وأما الغزالي فإنه فضلا عن كلامه عن مهمات مقاصد القرآن، ضم إليها الكلام عن المقاصد المتممة لتلك المهمات؛ وحاصل كلامه أنها إنما عدلت ثلثه باعتبار أنواع العلوم الثلاثة التي هي أم القرآن: علم المبدأ، وعلم المعاد، وعلم ما بينهما؛ أي: علم أحكام المعاش أو الصراط المستقيم⁽³⁾. أي: أنه يجعل الثاني والثالث كلام القرآن عن موضوع اليوم الآخر وموضوع المعاش.

(1) زاد المعاد: 316/1-317.

(2) نقل هذا القول ابن تيمية في الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 103/17-104. نقله عن ابن الجوزي من رواية مسندة إلى الحاكم أنه سمع أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول أنه صاحب هذا السؤال. ونسب مثل هذا القول إلى المهلب والأصيلي وغيرهما. ينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 129/17.

(3) هذا تفسير الغزالي كما لخصه الألوسي في روح المعاني: 267/30.

وتفصيل ذلك أنه يصنّف مقاصد القرآن ومعانيه إلى ستة أصناف؛ ثلاثة منها هي السّوابق والأصول المهمّة، وثلاثة هي الرّوافد والتّوابع المغنية المتّمة أو الخدمية. وهذا ما يمكن وصفه بالتقسيم الثلاثي المزدوج؛ فأما الثلاثة المهمّة فهي: التعريف بالمدعوّ إليه؛ أي: معرفة الله.

التعريف بالصّراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه. التعريف بالحال عند الوصول إليه. أي: معرفة الآخرة وأحوالها⁽¹⁾.

يقول الغزالي بعدما فنّد مذهب من يرى أن المقصد من قوله (ﷺ) تعدل ثلث القرآن يرجع إلى الترغيب في قراءتها، أو أن هذا الحديث مما لا يتيسّر للعقل الوقوف على معناه⁽²⁾. قال: "فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعاً وترجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن وهي: معرفة الله، ومعرفة الآخرة، ومعرفة الصراط المستقيم. فهذه المعارف الثلاثة هي المهمّة، والباقي توابع. وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث؛ وهي معرفة الله وتقديسه، وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع. وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفاء. والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه. نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم؛ فلذلك تعدل ثلث القرآن أي: ثلث الأصول من القرآن كما قال الحج عرفة أي: هو الأصل والباقي تبع"⁽³⁾. وأشار إلى سبب استئثار هذه السورة بهذا القدر من العظمة بين غيرها من سور القرآن

(1) نقلت هذا الكلام مما قاله الغزالي في جواهر القرآن ودرره: ص9-12، وكتابه خواص القرآن فيما نقله السيوطي في كتابه أسرار ترتيب السور: ص75 بشيء من التصّرف.

وينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 115/17.

(2) ينظر المصدر نفسه (جواب أهل العلم والإيمان): 114/17.

(3) جواهر القرآن ودرره: ص47-48. وينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 113/17-114.

راجع إلى استنثارها بسرّ القرآن ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى، الذي هو "دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، وخالق السماوات العلى، والأرضين السفلى"⁽¹⁾.

وأما المقاصد الثلاثة الأخرى - وهي التتمة - فهي:

1- بيان أحوال المجيبين للدعوة، ولطائف صنع الله فيهم. وسره ومقصوده

التشويق والترغيب. وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية

قمع الله لهم، وتكيله بهم. وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

2- حكاية أقوال الجاحدين، وكشف فضائهم، وجهلهم بالمجادلة والمحااجة

على الحق. وسرّه ومقصوده في جنب الباطل الإفصاح والتحذير والتفجير.

وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقدير.

3- تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد، والأهبة للاستعداد⁽²⁾.

وقد علّق ابن تيمية على هذه القسمة الثلاثية المزدوجة فقال: " ما ذكره من أن

أصول الإيمان ثلاثة، فهو حق كما ذكره، ولا بد من الثلاثة في كل ملة ودين، كما

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ مِنْ ءَمَنِ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾

البقرة: ٦٢ ونحو ذلك في سورة المائدة، فذكر هذه الأصول الثلاثة: الإيمان بالله،

واليوم الآخر، والعمل الصالح" (3).

وأما الثلاثة الأخر التابعة، فهي داخلة في هذه الثلاثة. فإن ما في القرآن من

ذكر أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة، فهو من تفصيل الإيمان باليوم الآخر.

(1) جواهر القرآن ودرره: ص9، وينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 115/17.

(2) نقلت هذا الكلام مما قاله الغزالي في جواهر القرآن ودرره: ص 9-12، ينظر أسرار ترتيب

السور: ص75. وينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 115/17.

(3) الفتاوى: 115/17.

وما فيه من عمارة الطريق، فهو من العمل الصالح. وما فيه من المجادلة والمحاجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة، فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والأدلة المثبتة لذلك، وذكر شبه الجاحدين، وبين فسادها⁽¹⁾.

ويُرجع ابن تيمية سبب فصله لهذه الثلاثة عن تلك إلى أنه "يجعل الحجاج صنعة الكلام. ويجعل عمارة الطريق علم الفقه. ويجعل أخبار الأنبياء علم القصص. ويقول إن الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل، بل إنما فيه دفع البدع ببيان تناقضها. ويجعل أهله من جنس خفراء الحجاج. ويجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا. وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس، وتكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه..."⁽²⁾ و"لأنه يقول إنما يعرف معاني ذلك بطريق التصفية فقط، لا بطريق الخبر النبوي، ولا بطريق النظر الاستدلالي"⁽³⁾.

ثم استرسل ابن تيمية في الاستدلال بالكثير من الآيات القرآنية على كون هذه الأقسام التبعية داخلية في تلك الأصول المهمة إلى أن قال: "والمقصود أن هذا الذي ذكره في قل هو الله أحد، أحسن من قول كثير من الناس فيها، وهو أقرب إلى القول الذي ذكرناه عن ابن سريج ونصرناه. لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب؛ فإن النبي (ﷺ) أخبر بأن الله جزء القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن؛ وهذا يقتضي أن مجموع القرآن ثلاثة أجزاء. ليس هو ستة: ثلاثة أصول، وثلاثة فروع. وكذلك أخبر أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، لم يقل ثلث المهم منه، ولا ثلث أكثره، ولا أصوله، فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف. وعلى ما ذكره أبو حامد هو ستة: ثلاثة مهمة، وثلاثة توابع. والسورة أحد الثلاثة المهمة، وهذا خلاف الحديث.

(1) المصدر نفسه (جواب أهل العلم والإيمان): 115/17-116.

(2) المصدر نفسه: 120/17.

(3) المصدر نفسه: 121/17.

وأيضاً فإن تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام، تقسيم بالدليل؛ فإن القرآن كلام، والكلام: إما إخبار وإما إنشاء. والإخبار: إما عن الخالق، وإما عن المخلوق. فهذا تقسيم بيّن. وأما جعل علم الفقه خارجاً عن الصراط المستقيم والعمل الصالح، وجعل علم الأدلة والحجج خارجاً عن الإيمان والمعرفة بالله واليوم الآخر، فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف⁽¹⁾.

فأقرّه إذن على الأقسام الثلاثة الأولى، إقراراً صريحاً بقوله: "فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة؛ الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، والأصول الكلية التي يشترك فيها الأنبياء يذكرها الله في السور المكية؛ مثل (الأنعام والأعراف وذوات الر و طسم) وأكثر المفصل ونحو ذلك. والمدنيات تتضمن خطاب من آمن بجنس الرسل من أهل الكتاب من المؤمنين بالشرائع التي بعث بها خاتم الرسل..."⁽²⁾ ثم انتقده على فصله للثلاثة الأخرى عنها.

فالملاحظ على تعقيب ابن تيمية أنه كان وجيهاً في رد تلك التوابع إلى تلك الأصول. ولكنّه بعد تعديله لهذا التقسيم السداسي، رجّح عليه ما أقرّه سابقاً من قول ابن سريج وغيره دون أن يذكر وجه تفضيله لذلك على هذا التقسيم معدّلاً! وقد قارنت بين ما قال به ابن تيمية، وما رواه هو عن ابن سريج؛ فعلمت أن انتصاره له كان في مسألة التقسيم الثلاثي، لا في تعيين مواضيع الأقسام. إذ في حين يعتبر ابن سريج أن القسم الثالث بعد التوحيد والأحكام هو الوعد والوعيد، يذهب ابن تيمية إلى أن القسم الثالث هو موضوع القصص⁽³⁾.

(1) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 121/17.

(2) المصدر نفسه: 126/17.

(3) المصدر نفسه: 129/17 و 134.

وأما أبو بكر ابن العربي (ت543هـ) فإنه قد جعل من علم التذكير قسما ثالثا فقال: "وأم علوم القرآن ثلاثة أقسام: توحيد، وتذكير، وأحكام. فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله. والتذكير؛ ومنه الوعد والوعيد، والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن. والأحكام؛ ومنها التكليف كلها، وتبيين المنافع والمضار، والأمر والنهي والندب.

فالأول: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ كُفْرٌ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ (١٣٢) البقرة: ١٦٣ فيه التوحيد كله في الذات والصفات والأفعال.

والثاني: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَكَرْنَا فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥) الذاريات: ٥٥.

والثالث: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (٤٩) المائدة: ٤٩، ولذلك قيل في معنى قوله (ﷺ) قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن^(١).

وأورد القاضي عياض^(٢) تصنيفا ثلاثيا آخر جعل فيه من النبوات والشرائع

بقية الأتلات بعد ثلث الإلهيات فقال: "قال بعضهم قال الله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ كُنْتُ أَهْكَمْتُ إِيْنَهُ، ثُمَّ فَصَلْتُ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١) هود: ١. ثم بين التفصيل فقال:- قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ (٢) هود: ٢ فهذا فصل الألوهية ثم قال:- قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٣) هود: ٣، وهذا فصل النبوة. ثم قال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (٣) هود: ٣، فهذا فصل التكليف. وما وراءه من الوعد والوعيد، وعامة أجزاء القرآن مما فيه من القصص فمن فصل النبوة. لأنها من أدلتها وفهمها أيضا. وهذا يدل على أن قل هو الله أحد جمعت الفصل الأول^(٣).

(1) البرهان في علوم القرآن: 17/1-18.

(2) القاضي عياض؛ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى اليعصبى

السبتي، عالم المغرب. (476-544هـ)، ينظر طبقات الحفاظ، السيوطي: 470/1.

(3) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 123/17.

قال ابن تيمية: "مضمون هذا القول أن معاني القرآن ثلاثة أصناف: الإلهيات، والنبوات، والشرائع. وأن هذه السورة منها الإلهيات. وجعل صاحب هذا القول، الوعد والوعيد والقصص، من قسم النبوة؛ لأن ذلك مما أخبر به النبي (ﷺ) أو مما يدل على نبوته"⁽¹⁾. وقد انتقد ابن تيمية هذا التصنيف وضعفه، لجعله موضوع النبوات أحد أصناف الأقسام الثلاثة.

وذلك أنه إن كان إدراج الوعد والوعيد والقصص في قسم النبوات لأنهما مما جاءت به الأنبياء؛ فإن الإلهيات والأوامر والنواهي أيضا مما جاءت به الأنبياء. فإن مقصود النبوة هو الإخبار بما أمر الله به، وبما أخبر به. فلا معنى إذن لجعل الوعد والوعيد والقصص داخلين في النبوة من دون الإلهيات والشرائع.

وأما إن كان إدراجهما من باب أن الوعد والوعيد والقصص مما يدل على النبوة؛ فإن القصص تدل على الأمر والنهي أيضا كما تدل على النبوة. فإنها تدل على إكرامه لمن أطاعه، وعقوبته لمن عصاه، وهذا تقرير للأمر والنهي كما تقدم⁽²⁾.

قال ابن تيمية: "وأياها فالإلهيات التي تعلم منها قدرة الرب وإرادته وحكمته وأفعاله منها يعلم النبي من المتنبئين. ومنها يعلم صدق النبي، فهي أدل على صدق النبي من مجرد القصص، وما في القصص من الدلالة على صدقه إنما يدل مع الإلهيات، وإلا فلو تجرد لم يدل على شيء. فالنبوة مرتبطة بالإلهيات أعظم من إرتباطها بغيرها. والأنبياء إنما بعثوا بالدعوة إلى الله وحده، وقد يذكرون المعاد مجملا ومفصلا، والقصص قد يذكر بعضهم بعضها مجملا، وأما الإلهيات فهي الأصل ولا بد من تفصيل الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه"⁽³⁾. فقد أخبر الله عن

(1) المصدر نفسه: 124-123/17.

(2) ينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 124-123/17.

(3) المصدر نفسه: 126-125/17.

الأنبياء الذين قصّ أخبارهم أن كلاً منهم كان يقول لقومه: **قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (٧٣) ﴿الْأَعْرَافُ: ٧٣﴾**، يفتتح دعوته بذلك. قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) ﴿الْأَنْبِيَاءُ: ٢٥﴾** وقوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٣٦) ﴿النحل: ٣٦﴾**.

وأما الخويي^(١) فيرى أن القسمين الثاني والثالث هما النبوة واليوم الآخر فيقول: "المطالب التي في القرآن معظمها الأصول الثلاثة التي بها يصح الإسلام ويحصل الإيمان، وهي معرفة الله، والاعتراف بصدق رسوله، واعتقاد القيام بين يدي الله تعالى؛ فإن من عرف أن الله واحد وأن النبي صادق وأن الدين واقع صار مؤمناً حقاً ومن أنكر شيئاً منها كفر قطعاً، وهذه السورة -أي الإخلاص- تفيد الأصل الأول، فهي ثلث القرآن من هذا الوجه"^(٢).

وأما القرطبي(ت671هـ) فقد جعل ثالث الثلاثة موضوع الوعظ، فقال في معرض كلامه عن الفاتحة: "...كما صارت قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، إذ القرآن: توحيد، وأحكام، ووعظ. وقل هو الله أحد فيها التوحيد كله"^(٣). وتكلم النسفي (ت710هـ) في الحديث بمثل ذلك فقال: "...لأن القرآن يشتمل على توحيد الله وذكر صفاته، وعلى الأوامر والنواهي، وعلى القصص والمواعظ. وهذه السورة قد تجردت للتوحيد والصفات، فقد تضمنت ثلث القرآن. وفيه دليل

(١) هو القاضي شمس الدين أحمد بن الخليل بن جعفر الخويي الشافعي (586-637هـ)، والخويي نسبة إلى خوي من إقليم أذربيجان؛ كان من أذكى المتكلمين وأعيان الحكماء والأطباء، وله تصنيف في النحو. ينظر سير أعلام النبلاء: 63/23.

(٢) الإتيان 424/2، وينظر روح المعاني: 267/30.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: 110/1-111.

شرف علم التوحيد، وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم ويتضع بضعته⁽¹⁾.

وذهب المباركفوري في شرحه على الترمذي إلى أن الثالث الأخير هو علم تهذيب الأخلاق فقال: "وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لأن علوم القرآن ثلاثة: علم التوحيد، وعلم الشرائع، وعلم تهذيب الأخلاق، وهي مشتملة على الأول"⁽²⁾.

المطلب الثاني: - الفاتحة.

المعنى العام لسورة الفاتحة:

قال الفيروزآبادي: "المقصود من نزول هذه السورة؛ تعليم العباد التَّيَمُّنَ والتَّبرُّكَ باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء الأمور، والتلقين بشكر نعم المنعم، والتَّوَكُّلَ عليه في باب الرِّزْقِ المقسوم، وتقوية رجاء العبد برحمة الله تعالى، والتَّنبُّه على تَرْقُبِ العبد الحسابَ والجزاءَ يوم القيامة، وإخلاص العبودية عن الشرك، وطلب التَّوفيق والعصمة من الله، والاستعانة والاستمداد في أداء العبادات، وطلب الثبات والاستقامة على طريق خواص عباد الله، والرَّغبة في سلوك مسالكهم، وطلب الأمان من الغضب والضَّلال في جميع الأحوال والأفعال، وختم الجميع بكلمة آمين. فإنَّها استجابة للدَّعاء، واستنزال للرحمة، وهي خاتم الرَّحمة التي ختم بها فاتحة كتابه"⁽³⁾.

(1) تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: 364/4.

(2) تحفة الأحوذى: 166/8.

(3) بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز: 129/1.

الفاتحة أولى سور القرآن في ترتيب المصحف⁽¹⁾، وقد سميت بأسماء كثيرة أوصل بعضهم عددها قريبا من ثلاثين⁽²⁾، وهي سورة امتدح الله تعالى نفسه بإنزالها على نبيه (ﷺ) فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) **الحجر: ٨٧**، وبين النبي (ﷺ) لأصحابه عظيم قدرها فقال لأحدهم: "لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ... قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"⁽³⁾. وقال فيها: "أُمُّ الْقُرْآنِ؛ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ"⁽⁴⁾. وفي رواية "الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي"⁽⁵⁾. فسمّاها بأُم القرآن وأُم الكتاب⁽¹⁾.

(1) قال الزركشي: "...وقيل أول ما نزل سورة الفاتحة روى ذلك من طريق أبي إسحاق عن أبي مسرة قال كان رسول الله (ﷺ) إذا سمع الصوت انطلق هاربا وذكر نزول الملك عليه وقوله قل الحمد لله رب العالمين إلى آخرها. وقال القاضي أبو بكر في الانتصار وهذا الخبر منقطع." البرهان في علوم القرآن: 207/1. وهي رواية معزوة إلى ابن عباس ومجاهد أنها أول ما أنزل. وأخرج البيهقي والواحدي ما وصف رجاله بالنقات عن شرحبيل عن النبي (ﷺ) أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن. ووفق بعضهم بين هذه الرواية وبين ما صح في أولية نزول الآيات الأولى من العلق؛ بأن قالوا أنها أول سورة اكتمل نزولها. فقد ورد عن بعض الصحابة أنه لم يُرو أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة، وهذا من المرجحات.

ينظر الإتيان في علوم القرآن: 24-25، والتفسير الحديث: 16/1 و17 و19.

(2) ينظر الفيروزابادي في بصائر ذوي التمييز: 128-129. وما يهمنّا منها هنا ما نراه يتصل بمضمونها، فقد ورد في بيان معنى كونها (أُمًّا للقرآن) الكثير مما يتعلّق بموضوع هذه الأطروحة.

(3) صحيح البخاري: 1623/4 في باب ما جاء في فاتحة الكتاب.

(4) المصدر نفسه: 1738/4.

(5) أخرجه الترمذي في جامعه: 297/5 وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأبو داود في

سننه: 71/2 وغيرهما.

ومما صحّ في قسمتها ما أخرجه مسلم في صحيحه وغيره عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربّه أنّه قال: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال: أثني علي عبدي. فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال فهو لاء لعبدي ولعبدي ما سأل" (2).

وصحّ عن النبي (ﷺ) أنّه بينما كان جالساً مع جبريل نزل إليهما ملك فسلم على النبي (ﷺ) وقال له: "أبشّر بنورين أوتيتهما لم يؤتتهما نبي قبلك؛ فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة.." (3) وصحّ عنه (ﷺ) أيضاً أنّه قال يوماً لأبي بن كعب: "أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلاً؟ قال: نعم يا رسول الله. قال رسول الله (ﷺ): كيف تقرأ في الصلاة؟ قال: فقرأ أم القرآن. فقال: رسول الله (ﷺ): والذي نفسي بيده، ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلاً، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته" (4). فكأنّه (ﷺ) رأى أصحابه أو بعضهم يقرؤون بها

(1) كره أنس وابن سيرين هاتين التسميتين وجوّزها الجمهور، الأحاديث الثابتة ترد مذهبيهما.

وأما حديث "لا يقولن أحدكم أم الكتاب وليقل فاتحة الكتاب فلا أصل له. ينظر روح المعاني:

35/1، والجامع لأحكام القرآن: 112/1.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه: 296/1، وهو في الموطأ: 84/1، والسنن الكبرى، النسائي:

316/1، وسنن أبي داود: 216/1، وصحيح ابن حبان: 96/5، وفي غيرها.

(3) صحيح مسلم: 554/1، في باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة. والمستدرک: 745/1،

وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(4) مسند أحمد (2/357 و412)، وجامع الترمذي (5/155) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ومستدرک الحاكم (1/744، 2/283) وقال صحيح على شرط مسلم.

في صلاتهم، ولا يدركون حقيقة قدرها بين السور، فأحب أن يعرفهم بعضهم قدرها، وأن قدر السورة لا يقاس بمقدار ما فيها من الحروف بل بما تتضمنه من المعاني.

وتكلم فيها سيد التابعين الحسن البصري فقال: "أنزل الله عز وجل مئة وأربعة كتب من السماء، أودع علومها أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ثم أودع علوم القرآن المفصل. ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب؛ فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة".⁽¹⁾ ومثل هذا -إن صح عنه (عليه السلام)- لا يقال بالرأي.

هذه النصوص وغيرها -مما قيل في فاتحة الكتاب- دفع بالكثير من المفسرين والمحدثين إلى محاولة الكشف عما جعلها تتفرد بكونها أمًّا للقرآن دون غيرها من السور، استحواذها على كل هذا المدح.

ذهب بعض العلماء إلى أن تسمية سورة الفاتحة بأم الكتاب أو أم القرآن أو الأساس راجع إلى كونها أول ما يُقرأ من السور في ترتيب المصحف، أو لأنها أول ما يُقرأ به في الصلاة، وإليه ذهب البخاري فقال: "وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة".⁽²⁾

وقال الطبري: "وسميت (أم القرآن) لتقدمها على سائر سور القرآن.. وتأخر ما سواها في القراءة والكتابة، وذلك من معناها شبيهه بمعنى فاتحة الكتاب،.. وإنما قيل لها -بكونها كذلك- أم القرآن لتسمية العرب كل جامع أمراً أو مقدم لأمر -إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع- (أمًّا).. وسميت مكة أم القرى لتقدمها

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 450/2. وينظر أسرار ترتيب السور، السيوطي: 73-74.

(2) صحيح البخاري: 1623/4 في أول كتاب التفسير، وينظر تفسير ابن كثير؛ تفسير القرآن العظيم: 9/1.

أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها. ويقال لها أيضا الفاتحة لأنها تفتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام⁽¹⁾. وقال النووي: "أم القرآن اسم الفاتحة. وسميت أم القرآن لأنها فاتحته، كما سميت مكة أم القرى لأنها أصلها..."⁽²⁾.

وقال الزركشي: "قيل صارت أمًا لأنها مقدمة على القرآن بالقلبية، والأم قبل البنت"⁽³⁾. وقد انتقد الشيخ محمد عبده قوله هذا فقال: "كما نقول إن النواة أم النخلة، فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة، لا كما قال بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولًا ويأتي بعدها الأولاد"⁽⁴⁾.

ومن العلماء من لمّح في تعليل التسمية ولم يصرّح؛ كالذي نقله ابن تيمية عن القاضي أبي يعلى⁽⁵⁾ أنه قال: "...ولأنها تسمى أم القرآن، وأم الشيء أصله ومادته، ولهذا سمى الله مكة أم القرى لشرفها عليهن"⁽⁶⁾.

ومنهم من تردّد في التعليل، قال القنوجي: "...وسميت أم القرآن لكونها أصلا ومنشأ له؛ إمّا لمبدئيّتها له، وإمّا لاشتغالها على ما فيه..."⁽¹⁾.

(1) جامع البيان، الطبري: 107/1-108 (الطبعة المحقّقة). وينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 10/1.

(2) تحفة الأحوذى: 228/8.

(3) البرهان في علوم القرآن: 17/1-18.

(4) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 38/1.

(5) نقله عن كتاب من خط يده؛ ينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان) 14/17. وهو القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد، المعروف بابن الفراء، أحد فقهاء الحنابلة ببغداد (ت458هـ)؛ ينظر تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: 256/2.

(6) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان) 15/17. وينظر جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، ابن قيم الجوزية؛ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (691-751)، دار العروبة/ الكويت - ط1/1407 - 1987: 150/1، وزاد المعاد: 50/1.

وذهب كثيرون إلى أنها إنما سميت كذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته⁽²⁾. وفيما يأتي نبذ من كلام من قال بذلك من العلماء:

فمن ذلك ما نقلوه عن أبي حنيفة النعمان أنه قال: "ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرّات⁽³⁾ لاحتوائها على ما فيه من الوعد والوعيد، والأوامر والنواهي، وزيادتها بأسرار محجبة بين الأستار"⁽⁴⁾.

وقال الزمخشري (ت538هـ): "وتسمّى أمّ القرآن لاشتغالها على المعاني التي في القرآن... وسورة الكنز والوافية لذلك"⁽⁵⁾.

وقال القرطبي: "وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها حتى قيل: إن جميع القرآن فيها، وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن... وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم"⁽⁶⁾.

-
- (1) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: 26/1.
 - (2) قال به ابن كثير وغيره ممن سيأتي ذكر أقوالهم، ينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 10-9/1.
 - (3) لعلّ قوله هذا مستند على ما رواه الديلمي في الفردوس عن أبي الدرداء من قوله: "فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات". الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي الهمداني، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول: دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1/ 1986م: 144/3.
 - (4) فيض القدير: 420/4.
 - (5) الكشاف، الزمخشري: 1/1، وينظر تفسير المراغي: 23/1.
 - (6) الجامع لأحكام القرآن: 110/1-111.

وقال في سبب تسميتها بأَمَّ القرآن: "سميت أم القرآن لأنها أوله، ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى، لأنها أول الأرض، ومنها دحيت، ومنه سميت الأم؛ لأنها أصل النسل"⁽¹⁾.

وقال في سبب تسميتها بالقرآن العظيم: "سميت بالقرآن العظيم لأنها تشمل جميع علوم القرآن"⁽²⁾.

وقال ابن القيم متعجباً ممن يستبعد هذه الخصيصة: "إذا ثبت أن لبعض الكلام خواصاً ومنافع، فما الظن بكلام رب العالمين، ثم بالفاتحة التي لم ينزل في القرآن ولا غيره مثلاً؛ لتضمنها جميع معاني الكتاب"⁽³⁾. وقال مؤكداً هذا في موضع آخر: "اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن"⁽⁴⁾.

وقال النسفي: "وتسمى أم القرآن للحديث (قال عليه السلام لا صلاة لمن لم يقرأ بأَمَّ القرآن)، ولاشتمالها على المعاني التي في القرآن، وسورة الوافية والكافية لذلك"⁽⁵⁾.

وقال المباركفوري في شرح حديث أبي: "وسميت بها -أي أم القرآن- لاحتوائها واشتمالها على ما في القرآن إجمالاً، أو المراد بالأم الأصل، فهي أصل قواعد القرآن، ويدور عليها أحكام الإيمان"⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه: 1/112.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) فيض القدير: 4/419.

(4) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط1972م-1392هـ: 7/1.

(5) تفسير النسفي: 4/1.

(6) تحفة الأحوذى: 8/145.

ولا تعارض هذه التعليقات التعليق السالف الذكر، فإنهم علّوا التسمية بكونها أول القرآن وفاتحته، وعلّل هؤلاء سبب تلك الأوليّة في المصحف بما حوته هذه السورة المباركة؛ قال السيوطي: "افتتح سبحانه كتابه بهذه السورة لأنها جمعت مقاصد القرآن، ولذلك كان من أسمائها أم القرآن وأم الكتاب والأساس فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال"⁽¹⁾.

وقال الطيبي (ت743هـ): "وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة. فإنها بُنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً. فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله. ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق"⁽²⁾.

وبقريب من هذا التعليق استدلل الشيخ محمد عبده ورجّح قول من قال بأن الفاتحة أول ما نزل من القرآن فقال: "إن السنة الإلهية في هذا الكون -سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع- أن يظهر سبحانه الشيء مجملاً، ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة؛ فهي في بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع أصولها، ثم تنمو بالتدريج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحها ثم تجود عليك بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وُضعت فيها"⁽³⁾. وذكر الشيخ المواضع التي تضمّن القرآن، ومواقعها من عبارات الفاتحة ثم قال: "فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً، فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع. وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن

(1) أسرار ترتيب السور، السيوطي: 73.

(2) المصدر نفسه: 75.

(3) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا / دار المعرفة/ بيروت-لبنان/ ط2:

تسمّى (أمّ الكتاب) كما نقول إنّ النّواة أم النّخلة، فإنّ النّواة مشتملة على شجرة النّخلة كلها حقيقة، لا كما قال بعضهم إنّ المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً ويأتي بعدها الأولاد⁽¹⁾.

وعلى مثل ذلك اعتمد المراغي أيضاً في ترجيحه أوليّة نزولها إذ يقول: "وقد رجّح هذا -أي أوليّة نزولها على باقي السّور- بأنها مشتملة على مقاصد القرآن على سبيل الإجمال، ثم فصل ما أجملته بعد"⁽²⁾.

والى القول باحتوائها على ما في القرآن من معانٍ مال أكثر المتأخرين؛ كالذي ذكرناه عن الشيخ محمد عبده، وهو قول المراغي ودروزة وغيرهم. يقول محمد علي الصّابوني: "...وهي -على قصرها ووجازتها- قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسيّة بالإجمال"⁽³⁾.

بل من العلماء من عدّ علوم القرآن كلها مختصرة في جزء من أجزاء الفاتحة:-

فمنهم من قال: إنّ الفاتحة نفسها مختصرة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ اعتماداً على التّمتة المروية للأثر المذكور عن الحسن البصري وهي "...وجمع معاني المفصل في أم القرآن⁽⁴⁾، وجمع علم أم القرآن في هاتين الكلمتين الجامعتين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع في

(1) المصدر نفسه: 1/ 38.

(2) تفسير المراغي: 1/ 23.

(3) صفوة التّفاسير: 1/ 24.

(4) الفتاوى (بيان تلبّيس الجهمية): 2/ 454. وقد ذكره ابن تيمية بهذه الزيادة، وقال رواه ابن ماجة وغيره. ولم أقف عليها في سننه ولا فيما أتّيح لدي من كتب الحديث لحد الآن.

هاتين الكلمتين الجامعتين⁽¹⁾. وعلى هذا عول ابن القيم في كتابه مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

ومنهم من قال بأن علومها مختصرة في البسملة وبالتحديد في بائنها؛ قال السيوطي: "ذكر كثيرون في أثر (أن الله جمع علوم الأولين والآخرين في الكتب الأربعة، وعلومها في القرآن، وعلومه في الفاتحة). فزادوا علوم الفاتحة في البسملة، وعلوم البسملة في بائنها؛ ووَجَّهَ بأن المقصود من كل العلوم وصول العبد إلى الرب، وهذه الباء باء الإلصاق، فهي تلتصق العبد بجناب الرب، وذلك كمال المقصود"⁽²⁾.

وقد استند من أجمل معاني القرآن في الفاتحة إلى ما يأتي:
أولية كتابتها في المصحف الشريف؛ فهي بمثابة عنوان له، والعنوان لا بد من دلالاته الكلية على المعنوي له.

وصف الله تعالى لها بالقرآن العظيم. قال الخطابي: "في قوله (هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.) دلالة على أن الفاتحة هي القرآن العظيم، وأن الواو ليست بالعاطفة التي تفصل بين الشيئين. وإنما هي التي تجيء بمعنى التفصيل كقوله: (فاكهة ونخل ورمان) وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَلَكِكَةٍ وَأَرْسُلِهِ- وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١٨) البقرة: ٩٨⁽³⁾. وحتى عند من جعلها هي السبع المثاني وجعل قوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٨٧) الحجر: ٨٧ وصفاً لباقي السور اكتفى بأن الله تعالى قابلها بجميع القرآن فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ

(1) من نفس الحديث في المصدر السابق نفسه: 7/14. ينظر مجموع الفتاوى: 7/14.
(2) حكاه في الإتيان في علوم القرآن: 424/2، وقال: ذكره الإمام الرأزي وابن النقيب في تفسيرهما.

(3) فتح الباري: 159/8، وتحفة الأحوذى: 145/8.

سَبْعًا مِنَ الْمَنَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ الحجر: ٨٧. قال ابن تيمية: "وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها" (1).

وصف النبي (ﷺ) لها بأنها أم القرآن وأم الكتاب؛ وأم الشيء -على ما قال أهل العلم- أصله الذي تفرّع منه، فهو الجامع له، قال الطبري في تفسيره لوصف الله تعالى للآيات المحكمات في سورة آل عمران بأنهنّ أمّ الكتاب بقوله: "...يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم وما كلّفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم، وإنّما سمّاهن أمّ الكتاب لأنهن معظم الكتاب وموضع مفرع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب تسمي الجامع معظم الشيء أما له، فتسمي راية القوم التي تجمعهم في العساكر أمهم..." (2).

ومن ذلك وصف النبي (ﷺ) لها بأنها سورة ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها. وهذا يوحي بأنها إن لم يكن فيها أكثر مما في هذه الكتب فإنها لا تحتوي على أقلّ ما تضمنته تلك الكتب. وهذا ما يؤيده قول الحسن البصري المذكور.

وصف الحسن البصري لها بأنها جمعت علوم القرآن كلها، وأن القرآن جمع علوم الكتب السابقة كلها، وأن من علم تفسير الفاتحة أغنته فأنه علم تفسير الكتب السابقة كلّها.

قال الفخر الرازي في توجيه هذا الأثر: "والسبب فيه أن المقصود من جميع الكتب الإلهية علم الأصول والفروع والمكاشفات، وقد بيّنا أن هذه السورة مشتملة

(1) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان) 15/17.

(2) جامع البيان، الطبري: 170/3.

على تمام الكلام في هذه العلوم الثلاثة، فلمّا كانت هذه المطالب العالية الشريفة
حاصلة فيها لا جرم كانت كالمشتملة على جميع المطالب الإلهية⁽¹⁾.

تشريع ترديد قراءتها في كل الصلوات المفروضة، وغيرها. وكفايتها عن
غيرها من السور، وعدم كفاية قراءة بقية القرآن كله في الصلاة بدونها. وهذا قد
يوحي بأن فيها أكثر مما في بقية القرآن⁽²⁾.

قال المراغي: "ولعلّ في إيجاب قراءتها في كل ركعة حكمة تتصل بما فيها من
المقاصد الكلية"⁽³⁾.

كما أنّي وجدت بعض الفقهاء قد استدّلوا لبيان شرف هذه السورة وقدرها في
معرض كلامهم عن وجوب قراءتها في الصلاة. والذي حاولوه هو إثبات أن
الصلاة هي أفضل وأشرف الحالات، فيتعين أن يقرأ فيها بأشرف السور.

قال أبو المظفر السمعاني الشافعي⁽⁴⁾: "وهذه السورة أشرف السور لأنها السبع
المثاني، ولأنها تصلح عوضاً عن جميع السور، ولا تصلح جميع السور عوضاً
عنها ... فإذا صارت هذه السورة أشرف السور وكانت الصلاة أشرف الحالات

(1) مفاتيح الغيب: 184/1. (طبعة دار الفكر)

(2) هذا على قول من رجّح وجوب قراءتها في الصلاة.

(3) التفسير الحديث: 17/1.

(4) أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني؛ (نسبة إلى سمعان: بطن من تميم) التميمي
المروزي (426-489هـ)، الحنفي ثم الشافعي، صنّف في التفسير والفقه والحديث
والأصول، من أشهر مصنفاته البرهان والاصطلاح، والقواطع في أصول الفقه، وكتاب
الانتصار وغير ذلك. ينظر طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن قاضي شعبة
(779-851هـ)، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب/بيروت، ط1/1407هـ:

273/2 والرسالة المستظرفة: 104.

فَتَعَيَّنَتْ أَشْرَفَ السُّورِ فِي أَشْرَفِ الْحَالَاتِ⁽¹⁾. وَذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ نُقِلَ عَنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أَشْرَفُ السُّورِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَشْرَفُ الْحَالَاتِ، وَبَيَّنُوا مِنْ شَرَفِهَا عَلَى غَيْرِهَا مَا ذَكَرُوهُ. وَنُقِلَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ⁽²⁾.

وَقَدْ تَطَرَّقَ هَؤُلَاءِ إِلَى بَيَانِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَمَّ الْقُرْآنَ مِمَّا رَأَوْهُ جَامِعًا لِلْمَقَاصِدِ الْعَامَةِ لِلْقُرْآنِ، وَمَتَضَمَّنًا لِأَمَّهَاتِ مَعَانِيهِ، اعْتِمَادًا عَلَى مَا رَجَحَ مِنْ كَوْنِهَا تَتَضَمَّنُ كَلِّيَّاتِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ، أَوْ اعْتِمَادًا عَلَى بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْأُخْرَى مِمَّا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ.

أولاً- بيان مقاصد الفاتحة وكليّات مواضيعها باعتبارها شاملة لعموم مقاصد القرآن:

فَمِنْهُمْ مَنْ وَحَّدَ مَقْصِدَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ ثَنَّى تَقْسِيمَ مَقَاصِدِهَا إِمَّا ابْتِدَاءً، أَوْ اعْتِمَادًا عَلَى مَا صَحَّ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ نَصْفَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا ثَلَاثَةَ اعْتِمَادَاتٍ عَلَى مَا صَحَّ مِنْ "أَنَّ اللَّهَ جَزَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ .."، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا أَرْبَعَةَ مَقَاصِدَ، أَوْ خَمْسَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَادَ فِي ذَلِكَ أَوْ أَنْقَصَ عَلَى مُخْتَلَفِ الْإِعْتِبَارَاتِ، وَهَذِهِ أَهَمُّ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْسِيمَاتِ:

أ- التَّقْسِيمُ الْمُنْتَدِجُ:

مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ جَعَلَ لِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ مَقْصِدًا أُسَاسِيًّا، وَذَكَرَ بَقِيَّةَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَغْرَاضِ لَخِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَقْصِدِ، فَمِنْ هَؤُلَاءِ الْعَلَامَةُ الْبِقَاعِي الَّذِي يَرْتَبِّبُ بَعْضَ الْمَقَاصِدِ تَصَاعُدِيًّا لِيَصِلَ إِلَى أَنَّ أَسْمَى تِلْكَ الْمَقَاصِدِ هُوَ مَوْضُوعُ الْقُرْآنِ الْأُسَاسِيِّ، وَهُوَ مَحَوْرُ الْفَاتِحَةِ فَيَقُولُ: "... فَالْغَرَضُ الَّذِي سَيَقَتْ لَهُ الْفَاتِحَةُ، وَهُوَ إِثْبَاتُ

(1) نَقَلَ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ مِنْ كِتَابِهِ (الاصْطِلَامُ) فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ عَنْ حُكْمِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ. الْفَتَاوَى (جَوَابُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ): 13/14-14.

(2) يَنْظُرُ الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ: 14/17.

استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، وباستحقاق العبادة والاستعانة، بالسؤال في المن بالتزام صراط الفائزين والإنقاذ من طريق الهالكين ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم، لإفراده بالعبادة، فهو مقصود الفاتحة بالذات وغيره وسائل إليه، فإنه لا بد في ذلك من إثبات إحاطته تعالى بكل شيء، ولن يثبت حتى يعلم أنه المختص بأنه الخالق الملك المالك، لأن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب نصب الشرائع، والمقصود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحق، والمقصود من جمعهم تعريفهم الملك وبما يرضيه؛ وهو مقصود القرآن الذي انتظمته سورة الفاتحة بالقصد الأول..⁽¹⁾ وذلك عملا بما أسس له من أن مقاصد القرآن يمهد بعضها لبعض.

ومن ذلك أيضا ما نقله الشوكاني عن العصام قال: "سميت به لأن الله يفتح بها الكتاب على القارئ؛ إذ فيها الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم الذي لأجله نزل الكتاب الكريم، وبه يعرف وجه التسمية بسورة الكنز والكافية والوافية والشافية وأم الكتاب، ولأمر ما صارت أول الكتاب"⁽²⁾.

ب- التقسيمات الثنائية:

والأصل الشرعي لهذا التقسيم ما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربه أنه قال: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال: أثني علي عبدي. فإذا قال: (مالك يوم الدين) قال: مجدني عبدي. فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذه الآية

(1) نظم الدرر: 21/1-22.

(2) فيض القدير: 419/4.

يبني وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل. فإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) قال فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل⁽¹⁾.

وأبرز من تبنى هذا التقسيم وفصله معتمدا على هذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية⁽²⁾ وله كلام نفيس فيه، وذلك أنه ذكر بأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لا بد للعباد منها⁽³⁾. وعلل ذلك بأن الله تعالى قرن فيها بين الثناء والدعاء، فقسمها بينه وبين عبده مناصفة؛ نصفها ثناء للرّب، ونصفها دعاء للعبد⁽⁴⁾.

قال ابن تيمية: "فأخبر النبي (ﷺ) عن ربه أنه قال: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين) وسمى الصلاة في اللغة قد قالوا أنه مسمى الدعاء. والدعاء نوعان ... والنصف الذي للرب جل وعلا هو الثناء عليه، والمقصود بذلك نفسه سبحانه وتعالى، فهو بذلك معبود مقصود مدعو لنفسه، والنصف الآخر الذي للعبد هو السؤال والطلب منه وهو بذلك يقصد لذلك الأمر ويسأل ويطلب منه⁽⁵⁾.

وقد فصل الكلام في ذلك أيضا عند عرضة للكلام على تناسب ختم القرآن بسورة الإخلاص والمعوذتين فقال: "ثم ختم المصحف بحقيقة الإيمان وهو ذكر الله، ودعاؤه كما بُنيت عليه أم القرآن؛ فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبرا عن الله؛

(1) سبق تخريجه.

(2) وإن كان لا يعترض على بعض التقسيمات الأخرى كما سيأتي.

(3) ينظر الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 131/17.

(4) ينظر المصدر نفسه: (رسائل متفرقة في التفسير) 478/16.

(5) المصدر نفسه: (بيان تلبيس الجهمية): 454/2.

كنصف الفاتحة وسورة الإخلاص، وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب، وأنفعه وأوجبه ما كان طلباً من الله كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين⁽¹⁾.

ثم أشار إلى أن في ورود اسمي الجلالة (الله) و(الرب) في هذه السورة بهذا الترتيب تناسباً مع ما فيها من أمّهات المقاصد. بل مناسبة صريحة مع قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وركّز أكثر كلامه على مدلول هذه الآية -التي جعلها الله بينه وبين عبده نصفين- فقال: "وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع... وبيننا تعلق العبادة بالإلهية؛ فإن الإله هو المعبود. وتعلق الاستعانة بربوبيته؛ فإن رب العباد الذي يربهم، وذلك يتضمن أنه الخالق لكل ما فيهم ومنهم. والإلهية هي العلة الغائية، والربوبية هي العلة الفاعلية. والغائية هي المقصودة⁽²⁾... ولهذا قدم قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾"⁽³⁾ قال: "ولهذا بدأ في السورة بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة لأن تلك السورة فاتحة الكتاب وأم القرآن، فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية، فإنها علة فاعلية للعلة الغائية"⁽⁴⁾.

أما الغزالي فله تقسيمان متداخلان على اعتبارين مختلفين: فأما الأول فتقسيم ثلاثي باعتبار مواضيع الأقسام -وسياتي ذكره- وأما الثاني فتقسيم ثنائي باعتبار الأهمية.

(1) الفتاوى: (رسائل متفرقة في التفسير) 516/16. ذكر هذا في معرض كلامه عن وجه المناسبة بين ابتداء القرآن بالفاتحة وختمه بالإخلاص والمعوذتين. ينظر المصدر نفسه: 478/16.

(2) قال الجرجاني: "العلة الغائية ما يوجد الشيء لأجله، العلة الفاعلية ما يوجد الشيء لسببه". التعريفات: ص 202.

(3) الفتاوى: 454/2.

(4) الفتاوى: 14-13-14.

وقد وضّح ابن تيمية هذا التقسيم وأساسه فقال إن الغزالي قد جعل آيات القرآن نوعين: علمية وعملية. وفي الآيات ما يجمع بين الأمرين؛ قال: "وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، دون ما يتعلق باليوم الآخر والقصص، وسماها جواهر القرآن. وجمع العمليات وسماها درر القرآن. وجعل الشطر الأول من الفاتحة من الجواهر، والثاني من الدرر. والآيات التي تجمع المعنيين، يذكرها في أغلب النوعين عليها.

ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن؛ نحو ألف وخمسمئة آية⁽¹⁾. وذكر الفخر الرازي تقسيما ثنائيا آخر فقال إنها إنما سُميت أم القرآن لأن المقصود من جميع العلوم؛ إما معرفة عزّة الربوبية أو معرفة ذلّة العبودية، وقد اشتملت السورة المباركة على ذلك، فالآيات الثلاث الأولى تظهر عزّة الربوبية، وقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدلّ على ذلّ العبودية⁽²⁾.

وممن تكلم في ذلك أيضا أبو المظفر السمعاني الشافعي في أثناء كلامه على شرف أم القرآن على غيرها إذ يقول: ".. ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل عليه سورة ما على قدرها من الآيات وذلك من الثناء والتحميد للرب، والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد"⁽³⁾.

وللبقاعي تنبيه أخرى حول سبب كون الفاتحة أمّا للقرآن؛ فيذكر أن الآيات الثلاث الأولى شاملة لكل معنى تضمنته الأسماء الحسنى والصفات العلا، إذ كل ما في القرآن الكريم من ذلك فهو مفصل من جوامعها.

(1) المصدر نفسه: 114/17-115.

(2) ينظر مفاتيح الغيب: 174/1.

(3) نقل عنه هذا القول ابن تيمية من كتابه (الاصطلاح) في معرض كلامه عن حكم قراءة الفاتحة في الصلاة. الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 13/17-14.

والآيات الثلاث الأخيرة شاملة لكل ما يحيط بأمر الخلق في الوصول إلى الله والتحيز إلى رحمته والانقطاع دون ذلك، وإن كل معاني القرآن منه فهو تفصيل جوامع هذه.

وكل ما يكون وصلة بين ذلك مما ظهر من هذه المعاني من الخلق ومبدئيته وقيامه في الحق فمتصل في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾⁽¹⁾. وممن قال بإمكان هذه القسمة أيضا العلامة الألوسي؛ الذي قال بعد إيراد لتقسيم الزمخشري الثلاثي: "...ولك أن تردّ الثلاثة إلى اثنين فتدرج الثناء في التّعبد..."⁽²⁾.

أي أنه قصد اختصار قول من قال بأن مقاصد الفاتحة هي الثناء على الله والتّعبد والوعد والوعيد، إلى قسمين هما التّعبد والوعد والوعيد. لأن الثناء على الله من التّعبد له.

ج- التقسيمات الثلاثية:

وهذا التقسيم أهم ما وقفت عليه من تصنيفات أهل العلم على هذا الاعتبار، وأورد كل منهم ما ارتضاه من مواضع القرآن مما رآه الأنسب لشغل أحد أثلاث الفاتحة.

إن أقدم ما وقفت عليه من هذه التقسيمات مما يقرب أن يكون قسمة ثلاثية ما نقل عن أبي حنيفة النعمان من تعليقه لسبب رجحان الفاتحة على القرآن سبع مرات قال: "ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات لاحتوائها على ما فيه من الوعد والوعيد، والأوامر والنواهي، وزيادتها بأسرار محجبة بين الأستار"⁽³⁾.

(1) ينظر نظم الدرر: 53/1.

(2) روح المعاني: 35/1.

(3) فيض القدير: 420/4.

وعَدَل الزمخشري هذه القسمة مقرراً أن الفاتحة إنما كانت أمّا للقرآن لأنها مشتملة على الثناء على الله بما هو أهله، وعلى التعبد بالأمر والنهي، وعلى الوعد والوعيد. وقال بأن آيات القرآن لا تخرج عن هذه الأمور⁽¹⁾.

وقد تابعه الآلوسي في هذه القسمة مع زيادة شرح وتعليل، فقال بأنها إنما كانت أمّا للقرآن: "لاشتمالها... على مقاصد المعاني التي في القرآن؛ من الثناء على الله تعالى بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد؛ أما الثناء فظاهر. وأما التعبد؛ فإما من «الْحَمْدُ لِلَّهِ» لأنه للتعليم فيقدر أمر يفيد والأمر الإيجابي يلزمه النهي عن الضد في الجملة ولا نرى فيه بأساً، أو من «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» إن أريد به ملة الإسلام، أو من تقدير قولوا «بِسْمِ اللَّهِ» ومن تأخير متعلقه، وإما من «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» فإنه إخبار عن تخصيصه بالعبادة وهي التحقق بالعبودية بارتسام ما أمر السيد أو نهى فيدل في الجملة على أنهم متعبدون... وأما الوعد والوعيد فمن قوله تعالى «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» أو من «يَوْمَ الدِّينِ» أي: الجزاء والمجزي إما ما يسر، أو ما يضر، وهما الثواب والعقاب»⁽²⁾.

وعَلَّ سبب هذه القسمة فقال: "وإنما كانت المقاصد هذه لأن بعثة الرسل وإنزال الكتب رحمة للعباد، وإرشاد إلى ما يصلحهم معاشاً ومعاداً؛ وذلك بمعرفة من يقدر على إيصال النعم إيجادا وإمدادا، ثم التوصل إليه بما يربط العتيد ويجلب المزيد عملاً واعتقاداً، والتّصلّ عمّا يفضي به إلى رجع المحصل ومنع المستحصل قلوباً وأجساداً، والثناء فرع معرفة المثني عليه مع الاستحقاق وتدخل المعرفة بصفات الجلال والجمال، ومنها ما منه الإرسال والإنزال والتفاوت بين المطيع والمذنب فدخل الإيمان بالله تعالى وصفاته والنبوّات والمعاد على الإجمال.

(1) الكشف، الزمخشري: 1/ 23 (طبعة دار الفكر)، وينظر تفسير البيضاوي: 15/1، وأسرار

ترتيب السور، السيوطي: 74، وفتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: 26/1.

(2) روح المعاني: 1/ 35. نقل هذا القول الآلوسي عن نعتة بالعلامة، ولم أقف على هويته.

والتَّعَبُّدَ يتمكن به من التَّوَصُّلِ والتَّنَصُّلِ ويدخل فيه من وجه الإيمان بالنبّوات وما يتعلّق بها من الكتاب والملائكة؛ إذ الأمر والنهي فرع ثبوت ذلك في الجملة. والوعد والوعيد يتضمّنان الإيمان بالمعاد، ويبعثان على التَّعَبُّدِ، والناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة، والأكثرّون بعثتهم الرغبة والرغبة، وأوسطهم الرّجاء والخوف، والخواص -وقليل ما هم- الأنس والطيبة. فبالثلاثة تمّ الإرشاد إلى مصالح المعاش والمعاد⁽¹⁾.

وأما أبو بكر بن العربي فاتخذ من موضوع التذكير مقصدا، وجعله ثالث أثلاث القرآن؛ فقال بعد شرحه الحديث الوارد في سورة الإخلاص: "ولهذا المعنى صارت فاتحة الكتاب أم الكتاب لأن فيها الأقسام الثلاثة؛ فأما التوحيد فمن أولها إلى قوله ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾، وأما الأحكام فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأما التذكير فمن قوله ﴿إِهْدِنَا﴾ إلى آخرها. فصارت بهذا أمّا لأنه يتفرع عنها كل نبت⁽²⁾.

وهو ما تابعه فيه القرطبي إذ يقول: "...وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن... وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم... إذ القرآن توحيد، وأحكام، ووعظ... والفاتحة تضمنت: التوحيد، والعبادة، والوعظ والتذكير. ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى⁽³⁾. فهو يجعل من الوعظ والتذكير قسما واحدا.

واختار الرّازي موضوعا آخر لمقاصد الفاتحة، فنبت مقصدي الثناء على الله، والتشريع بما يقرب من معنهما، ثم جعل من علم السلوك أو علم التصوف قسما ثالثا. فيقول بأنّها إنّما كانت أمّا للقرآن لأن حاصل الكتب الإلهية يرجع إلى ثلاثة أمور: الثناء على الله باللسان، والاشتغال بالخدمة والطاعة، وطلب المكاشفات والمشاهدات. وقد اشتملت هذه السورة المباركة على ذلك؛ فالقسم الأول منها كلّ

(1) روح المعاني: الصفحة نفسها.

(2) أورده الزركشي في البرهان في علوم القرآن: 17/1-18.

(3) الجامع لأحكام القرآن: 110/1-111.

ثناء على الله، ووسط السورة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ اشتغال بالخدمة والعبودية، والقسم الأخير منها طلب للمكاشفات والمشاهدات وأنواع الهدايات⁽¹⁾.

وعبر عن هذه القسمة بأسلوب آخر فقال بأنّ الفاتحة أمّ القرآن لأنّ العلوم البشرية إمّا علم ذات الله وصفاته وأفعاله، وهو علم الأصول، وإمّا علم أحكام الله تعالى وتكاليفه؛ وهو علم الفروع، وإمّا علم تصفية الباطن وظهور الأنوار الروحانية والمكاشفات الإلهية. والمقصود من القرآن بيان هذه الأنواع الثلاثة وهذه السورة الكريمة مشتملة على تقرير هذه المطالب الثلاثة على أكمل الوجوه: فقوله (الحمد لله رب العالمين) يجري مجرى الإشارة إلى أنّه لا سبيل إلى معرفة وجوده إلا بكونه ربّاً للعالمين، وقوله (الحمد لله) إشارة إلى كونه مستحقّاً للحمد، ولا يكون مستحقّاً للحمد إلا إذا كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات، ثمّ وصفه بنهاية الرحمة -وهو كونه رحيمًا- ثمّ وصفه بكمال القدرة -وهو قوله مالك يوم الدين- حيث لا يُهمل أمر المظلومين، يستوفي حقوقهم من الظالمين، وعند هذا تمّ الكلام في معرفة الذات والصفات وهو علم الأصول، ثمّ شرع بعده في تقرير الفروع؛ وهو الاشتغال بالخدمة والعبودية، وهو قول (إياك نعبد) ثمّ مزجه أيضاً بعلم الأصول مرّة أخرى، وهو أن أداء وظائف العبوديّة لا يكمل إلا بإعانة الرّبوبيّة، ثمّ شرع بعده في بيان درجات المكاشفات وهي على كثرتها محصورة في أمور ثلاثة:

أولّها: حصول هداية النور إلى القلب، وهو المراد من قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم)، وثانيها أن تتجلّى له درجات الأبرار المطهّرين من الذين أنعم الله عليهم بالجلالاء القدسية والجواذب الإلهية، حتى تصير تلك الأرواح القدسية كالمرآيا المجلوّة فينعكس الشّاع من كلّ واحدة منها إلى الأخرى، وهو قوله (غير المغضوب عليهم) وعن أوزار الشبهات، وهو قوله (ولا الضّالّين) فثبت أن هذه

(1) ينظر مفاتيح الغيب: 179/1-180 (طبعة دار الفكر).

السورة مشتملة على هذه الأسرار العالية التي هي أشرف المطالب، فلهذا سُميت بأم الكتاب".

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على كل ذلك؛ الآيات الأولى مشتملة على علم الأصول، وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مشتمل على علم الفروع، وقوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مشتمل على علم تصفية الباطن وظهور الأنوار⁽¹⁾.
أما الغزالي فقد مرّ بنا أنه يقسم مقاصد القرآن إلى قسمين باعتبار الأهمية، وإلى ثلاثة أقسام باعتبار المواضيع، أي؛ تقسيم ثلاثي على مرتبتين، وبإعماله للاعتبارين معا حصل لنا ستة مقاصد؛ ثلاثة منها مهمة، وثلاثة منها تنمة، (أي تقسيم ثلاثي على مرتبتين):

فأما المهمة؛

- فأولها تعريف المدعو إليه، كما أشير إليه بصدر الفاتحة.
- وثانيها تعريف الصراط المستقيم، كما هو مصرح به فيها.
- وثالثها تعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى؛ وهي أخبار الآخرة كما أشير إليه بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

وأما التوابع المتمة؛

- فأولها التعريف بأحوال المطيعين؛ كما أشير إليه بقوله: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.
- وثانيها حكاية أقوال الجاحدين؛ وقد أشير إليها بـ ﴿المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

- وثالثها تعريف منازل الطريق؛ كما أشير إليه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.⁽¹⁾

(1) ينظر مفاتيح الغيب: 174/1.

أما البيضاوي فعَلَّ التسمية بأَم القرآن لاشتغالها على الأقسام التي ذكرها الزمخشري آنفاً، أو لاشتغالها "جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية؛ التي هي سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء"⁽²⁾. قال الآلوسي يفسر هذه العبارة: "والأول مستفاد من أول السورة إلى قوله ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾".

والثاني من قوله إياك نعبد وما بعده سلوك الصراط المستقيم من قوله ﴿اهدنا الآتية، والاطلاع من قوله ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ، وفيه وعد ووعد، فدخل فيه والأمثال والقصص المقصود بها الاتعاض، وكذا الدعاء والثناء. وهذه جملة المعاني القرآنية إجمالاً مطابقة وإلزاماً"⁽³⁾.

وقد خرج ابن تيمية على تقسيمه الأول تقسيماً ثلاثياً آخر؛ فبعد أن قال بأن الله تعالى قرن فيها بين الثناء والدعاء فقسمها بينه وبين عبده مناصفة؛ نصفها ثناء للرب، ونصفها دعاء للعبد⁽⁴⁾. قال: "والمناسبة في ذلك ظاهرة فإن أول الإيمان بالرَّسول الإيمان بما جاء به من الرسالة؛ وهو القرآن، ثم الإيمان بمقصود ذلك وغايته؛ وهو ما ينتهي الأمر إليه من النعيم والعذاب وهو الجزاء، ثم معرفة طريق المقصود وسببه وهو الأعمال؛ خيرها ليفعل، وشرها ليتترك"⁽⁵⁾.

(1) الإتيان في علوم القرآن: 421/2، وينظر أسرار ترتيب السور، السيوطي: ص 75. ناقلاً إيَّاه من خواص القرآن.

(2) تفسير البيضاوي: 15/1-16، وينظر أسرار ترتيب السور، السيوطي: ص 74، وفتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: 26/1.

(3) روح المعاني: 36/1.

(4) ينظر الفتاوى (رسائل متفرقة في التفسير) 478/16.

(5) المصدر نفسه: 478/16.

وعبر عن محتوى الفاتحة في موضع آخر بصيغة أخرى فقال أن: " .. أولها تحميد، وأوسطها توحيد، وآخرها دعاء"(1).

وعبر ابن القيم عن مقاصد الفاتحة الثلاثة بمثل هذا الأسلوب فقال: " فأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة"(2).

وأما البقاعي فقال: "تضمنت سورة الفاتحة الإقرار بالربوبية، والالتجاء إليها في دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهود والنصارى..."(3).

د- التقسيمات الرباعية:

ومن هذه التقسيمات ما نقلوه عن الطيبي أنه قال في الفاتحة: "هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين:

أحدها علم الأصول، ومعاقده:

- معرفة الله عز وجل وصفاته؛ وإليها الإشارة بقوله: - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

- ومعرفة النبوة؛ وهي المرادة بقوله: - ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

- ومعرفة المعاد؛ وهو المسمى إليه قوله: - ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وثانيها علم الفروع؛ وأسه العبادات وهو المراد بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وثالثها علم ما يحصل به الكمال؛ وهو علم الأخلاق وأجله الوصول إلى

الحضرة الصمدانية والالتجاء إلى جناب الفردانية والسلوك لطريقه والاستقامة فيها وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدنا الصراط المستقيم﴾.

(1) المصدر نفسه: 418/14.

(2) الفوائد: 20/1، وسيأتي بيان أسس تقسيمه فيما بعد.

(3) أسرار ترتيب القرآن، السيوطي: 76/1.

ورابعها علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة والقرون الخالية؛ السعداء منهم والأشقياء وما يتصل بها من وعد محسنهم ووعد مسيئهم وهو المراد بقوله: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»⁽¹⁾.

وقد عبّر السيوطي عن هذا التقسيم بعبارات أسهل فقال: "وُجّه ذلك -أي حديث الحسن البصري- بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن قامت بها الأديان أربعة: علم الأصول ومداره على:

معرفة الله وصفاته وإليه الإشارة بـ «رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بـ «الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ». ومعرفة المعاد وإليه الإشارة بـ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ». وعلم العبادات وإليه الإشارة بـ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ».

وعلم السلوك وهو حمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية وإليه الإشارة بـ «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

وعلم القصص وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه وإليه الإشارة بقوله: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة، وأنواع البلاغة⁽²⁾.

وللإمام فخر الدين الرازي تقسيم رباعي لمقاصد الفاتحة، فقال بأن المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر؛ فقله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» يدل على الإلهيات. وقوله: «مَالِكِ يَوْمِ

(1) الإتيان في علوم القرآن: 2/ 420-421، وينظر روح المعاني: 36/1.

(2) الإتيان في علوم القرآن: 284/2.

الدِّينِ» يدل على المعاد، وفي قوله «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» دلالة على نفي الجبر وإثبات أن الكل بقضاء الله وقدره. وقوله: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» يدل على إثبات قضاء الله وقدره، وعلى النبوات. فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة التي هي المقصد الأعظم من القرآن⁽¹⁾.

وتكلم القرطبي في سبب تسميتها بالقرآن العظيم فقال: "سُمِّيَتْ بذلك لتضمَّنْها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل:

- على الثناء على الله عزَّ وجلَّ بأوصاف كماله وجلاله.
- وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانتة تعالى.
- وعلى الابتغال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين.
- وعلى بيانه عاقبة الجاحدين⁽²⁾.

هـ- تقسيم خماسي:

وممن تبنَّى هذه القسمة الشيخ محمد عبده -في معرض حديثه عن ترجيح أولية نزول الفاتحة- إذ ردَّ سبب أولية نزولها على بقية السور، إلى احتوائها على أصول ما احتوى عليه القرآن مفصلاً فقال:

"وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور:

- (أحدها) التَّوْحِيدُ لأنَّ النَّاسَ كانوا كلَّهم وثنيّين إن كان بعضهم يدَّعي التَّوْحِيدَ.
- (ثانيها) وَعَدُ مَنْ أَخَذَ به وتبشيرُهُ بحسن المثوبة، ووَعِيدُ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ به وإنذاره بسوء العقوبة...

(ثالثها) العبادة التي تحيي التَّوْحِيدَ في القلوب وتنبِّته في النفوس.

(1) ينظر مفاتيح الغيب: 179/1 دار الفكر/ بيروت- لبنان، ط1/ 1401هـ-1981م. وأسرار

ترتيب السور، السيوطي: ص74.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 112/1.

(رابعها) بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة.

(خامسها) قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.

هذه هي الأمور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية، والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب؛⁽¹⁾ قال: "فأما التوحيد ففي قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأما الوعد والوعيد فيفيدهما قوله ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾، وقوله ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كما أن وعده تعالى مطوي في قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وضحاها في قوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وأما الأخبار والقصص فهي في قوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾⁽²⁾.

قال: "فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً"⁽³⁾.

(1) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 36/1.

(2) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 36/1-38، ملخصاً. وقد سقط ذكر ما يقابل القسم الرابع من أقسام القرآن المذكور سلفاً، أي: الآية أو الآيات التي تقابل موضوع (بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيه الموصل إلى نعم الدنيا والآخرة). والظاهر أنه قوله تعالى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

(3) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 38/1.

وقد تابعه المراغي في ذلك، فقال في بيان احتواء الفاتحة على مقاصد القرآن جملة: "أن القرآن اشتمل على التوحيد، وعلى وعد من أخذ به بحسن المثوبة، ووعد من تجافى عن تركه بسوء العقوبة، وعلى العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبت في النفوس، وعلى بيان سبيل السعادة الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة، وعلى القصص الحاوي أخبار المهتدين الذي وقفوا عند الحدود التي سنّها الله لعباده، وفيها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم والضالّين الذين تعدّوا الحدود، ونبذوا أحكام الشرائع وراءهم ظهريا، وقد حوت الفاتحة هذه المعاني جملة"⁽¹⁾.

و - تقسيمات مختلفة:

فمن ذلك ما أورده ابن القيم عما تضمّنته الفاتحة من المعاني الشاملة لجميع معاني الكتاب؛ فقد تضمّنت التعريف بالمعبود، وذكر أصول أسمائه تعالى ومجامعها وهي (الله، الرب، الرحمن).

وتضمّنت التوحيد بأنواعه الثلاثة، أي: العلمي، والربوبية والألوهية. وتضمّنت على إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم، حسناتها وسيئها؛ من قوله تعالى: - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتضمّنت إثبات النبوات من جهات عديدة منها: كونه (رب العالمين)، ومنها اسمه (الرحمن)، وغيرها من الإشارات.

وتضمّنت ذكر أفضل الدعاء وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته بفعل ما أمر به وتجنب ما نهى عنه والاستقامة عليه.

وتضمنها ذكر أوصاف الخلاق وقسمتهم إلى منعم عليه لمعرفة بالحق والعمل به ومغضوب عليه لدوله عن الحق بعد معرفته وضال لجهله به.

(1) تفسير المراغي: 23/1.

مع ما تضمنته من إثبات القدر والشرع والتوبة وتركية النفس وإصلاح القلب والرد على جميع أهل البدع⁽¹⁾.

وقد تكلم أيضا على محتوى سورة الفاتحة في كتابه الفوائد فقال: "للإنسان قوتان قوة علمية نظرية وقوة عملية إرادية. وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية الإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون: بمعرفة فطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها استكمال القوة العلمية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصا وصدقًا ونصحا وإحسانا ومتابعة وشهودا لمنته عليه، وتقديره هو في أداء حقه، فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه، ودون دون ذلك.

وإنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعاونته، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أوليائه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب. فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام؛ فإن قوله «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» يتضمن الأصل الأول وهو معرفة الرب تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله. والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنی، وهي اسم الله والرب والرحمن؛ فأسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الإحسان والجلود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

(1) ينظر مدارج السالكين: 7/1 وما بعدها، وفيض القدير: 4/419.

وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه واستعانه على عبادته.

وقوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وإن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب، الذي سببه فساد القصد والعمل⁽¹⁾.

قال: "أقول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة. وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته فلا يكون إلا رحيمًا منعما وذلك من موجبات إلهيته فهو الإله الحق وإن جده الجاحدون وعدل به المشركون فمن تحقق بمعاني الفاتحة علما ومعرفة وعملا وحالا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجاتهم عن عوام المتعبدین"⁽²⁾.

ومن المحدثين من عدّد مقاصدها التي جعلتها أمّا للقرآن فقال: "وهي -على قصرها ووجازتها- قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال؛ فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادة والتشريع، والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة

(1) الفوائد: 18/1-19.

(2) المصدر نفسه: 20/1.

والاستعانة والدعاء، والتوجّه إليه جلّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرّع إليه بالثبوت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين، وتجنّب طريق المغضوب عليهم والضالّين، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقين، والاطّلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، وفيها التعلّد بأمر الله سبحانه ونهيه، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف، فهي كالأمّ بالنسبة لبقية السور الكريمة، ولهذا تسمى (أم الكتاب) لأنها جمعت مقاصده الأساسية⁽¹⁾. قاله محمد علي الصابوني في صفوة التفاسير.

وقال محمد عزة دروزة: "ولقد أكثر المفسرون والمحدّثون القول في صدها ومداهها وبركاتها، وقالوا فيما قالوه: إنّها احتوت رموزاً لكل ما جاء في القرآن من مواضيع؛ ففيها التوحيد، وفيها الثناء على الله، وفيها العبادة لله والاستعانة به، وفيها إشارة إلى اليوم الآخر، وإشارة إلى الأمم على اختلافها من مهتدين وضالّين. وفيها إشارة إلى ملكوت الله وما فيه من عوالم الخ. ورأوا فيها لأجل ذلك براعة استهلال رائعة للقرآن وعنواناً لمواضيعه، ولمحوا من هذا حكمة جعلها في ترتيب المصحف فاتحة القرآن، وفي الصلاة مفتتح التلاوة وتكرارها في كل ركعة"⁽²⁾.

ثانياً- بيان مقاصد الفاتحة وكليات مواضيعها باعتبارها حاملة لبعض مقاصد القرآن:

ورد في الأثر منسوباً إلى النبي (ﷺ) أنه قال بأن الفاتحة تعدل ثلثي القرآن وقد رجح كون الحديث ضعيفاً، ولذلك قلّ من التفت إلى تأويله وتوجيه معناه، فليس المقصود من إيراد هذا التأصيل لتقسيم معين بقدر محاولة تتبّع ما قيل في توجيه معناه مما فهمه العلماء منه مما يتّصل بكليات مقاصد القرآن، فالمقصود إذن هو استثمار ما أوردوا فيه من تقسيمات إضافية.

(1) صفوة التفاسير: 24/1.

(2) التفسير الحديث: 19/1.

قال صاحب الإتيقان بعد أن ذكر التقسيم السداسي للغزالي: "ولا ينافي هذا وصفها في الحديث الآخر بكونها ثلثي القرآن لأن بعضهم وجهه بأن دلالات القرآن الكريم إما أن تكون بالمطابقة أو بالتضمن أو بالالتزام وهذه السورة تدل على جميع مقاصد القرآن بالتضمن والالتزام دون المطابقة، والاثنتان من الثلاثة ثلثان. ذكره الزركشي في شرح التنبيه وناصر الدين بن الميلاق.

قال وأيضا الحقوق ثلاثة حق الله على عباده وحق العباد على الله وحق بعض العباد على بعض، وقد اشتملت الفاتحة صريحا على الحقين الأولين؛ فناسب كونها بصريحها ثلثين. وحديث قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين شاهد لذلك⁽¹⁾. وقال الشوكاني: "فاتحة الكتاب تعدل بثلثي القرآن لاشتمالها على أكثر مقاصد القرآن من الحكمة العملية والنظرية باعتبار ما هو دعاء منها فالمشير إلى الحكمة العملية الصراط المستقيم، والمشير إلى الحكمة النظرية ذكر السعداء وضرهم"⁽²⁾.

المطلب الثالث: - سور وآيات أخر.

بعد إيرادنا لما صح من الأحاديث في سورتي الإخلاص والفاتحة، وما بُنيَ عليها من تقسيمات وتصنيفات، نورد هنا بعض ما أخرجه أهل الحديث في هذا الباب، مما عدّوه أقل صحة، أو وهّئوا أسانيده. وليس غرضي من إيرادها هنا التأسيس بها للتقسيمات، وإنما المقصود استثمار ما قيل فيها من تقسيمات وتصنيفات، وما استنبط منها العلماء مما رأوه من أمّهات المقاصد. ومعظم كلامهم وارد في سورة الكافرون، والزلزلة، والنصر، والتكاثر، ويس. ويستحسن قبل التطرق إلى ما قيل فيها، أن أورد أمّهات متونها، وأبينّ حالها من ناحية الثبوت.

(1) الإتيقان في علوم القرآن: 421/2

(2) فيض القدير: 419/4.

إيراد الأحاديث وبيان أحوالها:

ورد ذكر النسب في القرآن في عدة سور؛ فمن ذلك ما ورد في سورة الزلزلة أنها تعدل نصف القرآن أو ربعه، وفي سورة الكافرون أنها تعدل ربع القرآن، وفي سورة النصر أنها تعدل ربع القرآن، وورد في آية الكرسي⁽¹⁾ أنها تعدل ربع القرآن.

فللترمذي بسنده عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: "من قرأ إذا زلزلت عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ قل هو الله أحد عدلت له بثالث القرآن"⁽²⁾.

وله أيضا من حديث أنس بن مالك أن النبي (ﷺ) قال لأحد أصحابه: "...أليس معك قل هو الله أحد؟"⁽³⁾ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: أليس معك قل يا أيها الكافرون؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: أليس معك إذا زلزلت؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: أليس معك آية الكرسي؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن"⁽⁴⁾.

(1) أدرجت ما قيل في آية الكرسي هنا -مع أنها ليست بسورة- لورودها في نفس متون الأحاديث التي تكلمت عن هذه السور.

(2) الجامع الصحيح، الترمذي: 165/5.

(3) لم ألتفت إلى الوجه من هذه النسبة هنا لأنّ الثابت في سورة الإخلاص عدلها للتثالث لا للربع.

(4) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: 166/5. وقال فيه: هذا حديث حسن. وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد وسلمة ضعيف. مجمع الزوائد: 7 / 147. وقال صاحب كشف الخفاء في قوله (آية الكرسي ربع القرآن: "قال السيوطي في الجامعين رواه أبو الشيخ في الثواب عن أنس ورمز في الصغير لحسنه". كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي) 1162، (تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط 4/1405: 20/1.

وله من حديث ابن عباس عن النبي (ﷺ) أنه قال: "إذا زلزلت تعدل نصف القرآن⁽¹⁾، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن"⁽²⁾، وقال فيه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة⁽³⁾. وقال في كل منهما غريب. وأخرجه الحاكم عن ابن عباس وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"⁽⁴⁾ وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس⁽⁵⁾ وعن أنس وزاد فيه "وإذا جاء نصر الله والفتح ربع القرآن"⁽⁶⁾. وقد ضعف أهل التوثيق ونقد الأسانيد هذه الأحاديث، لضعف في أسانيدها، إذ مدار المتصل منها -وهو أقوى ما في الباب- في هذه السور، على سلمة بن وردان⁽⁷⁾، ويمان بن المغيرة⁽⁸⁾، والحسن بن سلم⁽⁹⁾. وهم ضعفاء عند أهل الحديث⁽¹⁾.

(1) وفي لفظ لعبد الرزاق: "وإذا زلزلت شطر القرآن". مصنف عبد الرزاق: 372/3.

(2) الجامع الصحيح، الترمذي: 166/5.

(3) المصدر نفسه: 166/5.

(4) المستدرک على الصحيحين: 754/1.

(5) ينظر شعب الإيمان، البيهقي: 496/2.

(6) المصدر نفسه: 501/2.

(7) عدّه ابن حبان في المجروحين فقال: "سلمة بن وردان الجندعي مولى بني ليث كنيته أبو يعلى

... يروي عن أنس.. مات سنة 156هـ وكان يروي عن أنس أشياء لا تشبه حديثه، وعن

غيره من الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات كأنه كان كبير وحطمه السن فكان يأتي بالشيء

على التوهم حتى خرج عن حد الاحتجاج به." المجروحين، أبو حاتم محمد بن حبان البستي

(354هـ)، تحقيق محمود إبراهيم زايد: دار الوعي/ حلب: 336/1.

(8) قال البخاري وأبو حاتم وهو منكر الحديث يروي المناكير التي لا أصول لها فاستحق

الترك". تحفة الأحوذى: 166/8.

(9) قال ابن حجر: "مجهول من الثامنة". تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر

العسقلاني (773-852هـ)، تحقيق محمد عوامة: دار الرشيد/ سوريا، ط1/ 1406 -

وكذلك لكونها تعارض ما رواه الأثبات من أنّ الإخلاص تعدل ثلث القرآن، إضافة إلى أن تعداد خمسة أرباع للقرآن يخرجهم عما يمكن فهمه أو توجيهه⁽²⁾. وفي هذه الأحاديث الكلام فيما تعدله سورة الإخلاص والكافرون والزلزلة والنصر وآية الكرسي.

1986: 161/1. وقال: "وهو شيخ مجهول له حديث واحد في فضل إذا زلزلت .. قلت قال العقيلي بصري مجهول في النقل وحديثه غير محفوظ. وقال الآجري عن أبي داود: خفي علينا أمره. وقال ابن حبان: يروي عن ثابت وأهل بلده، روى عنه العراقيون. ينفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الإثبات". تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773-852)، دار الفكر/ بيروت، ط1/1404هـ - 1984م: 244/2. وقال في تهذيب التهذيب: وهو شيخ مجهول له حديث واحد في فضل إذا زلزلت.

(1) ردّ مسلم حديث سلمة بن وردان المذكور لأنّه يخالف ما ثبت واشتهر عن عوام أهل العدالة. ينظر التمييز، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أبو الحسين (204-261)، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي: مكتبة الكوثر/ المربع السعودية، ط 3/1410هـ: 194-195، قال البيهقي: "ويمان بن المغيرة، وسلمة بن وردان غير قويين في الحديث". ينظر شعب الإيمان: 497/2، وقال الحافظ في تحسين الترمذي وتصحيح الحاكم: "...وهو حديث ضعيف لضعف سلمة، وإن حسنه الترمذي، فلعلّه تساهل فيه لكونه من فضائل الأعمال. وكذا صحح الحاكم حديث ابن عباس وفي سننه يمان بن المغيرة وهو ضعيف عندهم". فتح الباري: 62/9. وتعقب المناوي حديث الحاكم بقوله: "هذا حديث منكر وتصحيح الحاكم مردود". تحفة الأحوذى 166/8. وتعقب الذهبي تصحيح الحاكم لحديث يمان بن المغيرة عن ابن عباس في التلخيص وقال ضعّفه. ينظر فيض القدير: 367/1.

(2) قال مسلم معلّقاً على حديث أنس أنه خبر يخالف الخبر الثابت المشهور، ويخالف ما نقله عوام أهل العدالة عنه (ﷺ) وهو الشائع من قوله قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، قال: "فقال ابن وردان في روايته أنها ربع القرآن ثم ذكر في خبره من القرآن خمس سور يقول في كل واحد منها ربع القرآن وهو مستنكر غير مفهوم صحة معناه". التمييز: 194/1-195، وقال البيهقي: فقال في قل هو الله أحد أيضاً (ربع القرآن) وهو بخلاف رواية الثقات، ... ويमान بن المغيرة وسلمة بن وردان غير قويين في الحديث والله أعلم. شعب الإيمان: 497/2.

وأما سورة يس فقد ورد فيها أنها قلب القرآن، ورُوي أنَّ من قرأها كُتِبَ له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرّات، وأنها تعدل القرآن أو تعدل قراءته كله.

أخرج أحمد بسنده عن معقل بن يسار أن رسول الله (ﷺ) قال: "...ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له، وقرؤها على موتاكم"(1). ولعبد الرزاق في مصنفه بلفظ: "أن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، ومن قرأها فإنها تعدل القرآن، أو قال: تعدل قراءة القرآن كله"(2). وللبيهقي في شعب الإيمان "لكل شيء قلب، وأن قلب القرآن يس، من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات"(3). وللبرّار من حديث أبي هريرة بلفظ "إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس"(4).

(1) مسند أحمد: 26/5. وينظر السنن الكبرى: 265/6. وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: "في سنن أبي داود منه طرف رواه أحمد وفيه راو لم يسم بقيه رجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني وأسقط المبهم". مجمع الزوائد: 311/6. قال الشوكاني: "الحديث أخرجه أيضا النسائي وابن حبان وصححه وأعله ابن القطان بالاضطراب، وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه المذكورين في السند. وقال الدارقطني هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن ولا يصح في الباب حديث. قال أحمد في مسنده حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان قال كانت المشيخة يقولون إذا قرئت -يعني يس- لميت خفف عنه بها وأسند صاحب مسند الفردوس من طريق مروان بن سالم عن صفوان بن عمر وعن شريح عن أبي الدرداء وأبي ذر قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من ميت يموت فيقرأ عنده يس إلا هون الله عليه وفي الباب عن أبي ذر وحده أخرجه أبو الشيخ في فضل القرآن هكذا في التلخيص". نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخبار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن أحمد الشوكاني (ت1255): دار الجيل/بيروت، ط: 1973: 52/4.

(2) مصنف عبد الرزاق: 372/3.

(3) شعب الإيمان: 480/2.

(4) الجامع الصحيح، الترمذي: 162/5، وينظر تحفة الأحوذى: 159/8..

وأما سورة التكاثر فقد ورد فيها أنها تعدل ألف آية. أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عمر مرفوعاً أن النبي (ﷺ) قال: "ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع ذلك؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر؟!"⁽¹⁾.

وبسبب وهن أسانيد هذه الأحاديث، زهد كثير من العلماء في الالتفات إليها، وتأويل معانيها إلا النزر اليسير منهم، على خلاف صنيعهم مع ما صحّ في غيرها.

توجيه معاني هذه الأحاديث:

إذن فالوارد في هذه الأحاديث؛ عدل سورة الإخلاص لربع القرآن، و(الكافرون) لربع القرآن، وعدل (الزلزلة) لنصف القرآن أو لربعه، وعدل (النصر) لربعه، وعدل آية الكرسي لربعه، وورد في سورة التكاثر أنها تعدل ألف آية، وفي سورة يس أنها قلب القرآن. سورة (الكافرون):

فأما ما قيل في أن سورة (الكافرون) تعدل ربع القرآن، فقال المباركفوري: "قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن، لأن القرآن يشتمل على أحكام الشهادتين، وأحوال النشأتين، فهي لتضمنها البراءة من الشرك ربع"⁽²⁾.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: 755/1، وقال: رواه كلهم ثقات إلا عقبه فإنه غير مشهور. وينظر لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (و773-ت852)، تحقيق دائرة المعارف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت، ط3/1406-1986: 179/4.

(2) تحفة الأحوذى: 166/8.

وقال المناوي: "ولأن القرآن كله يشتمل على أحكام الشهادتين في التوحيد والنبوة وأحوال النشأتين، وذلك أربعة أقسام؛ والكافرون مقصورة على التوحيد، فهي ربع لتضمنها البراءة من الشرك والتدين بدين الحق، وهذا هو التوحيد الصرف"⁽¹⁾.

ومن ذلك ما نقله الآلوسي عن الرازي بأن الوجه في كونها ربعاً أن "القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات، والنهي عن المحرمات. وكل منهما إما أن يتعلق بالقلب أو الجوارح؛ فيكون أربعة أقسام، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بالقلب، فتكون كربع القرآن"⁽²⁾. وانتقد هذا التقسيم، ثم قال: "لعل الأقرب أن يقال أن مقاصد القرآن التوحيد، والأحكام الشرعية، وأحوال المعاد؛ والتوحيد عبارة عن تخصيص الله تعالى بالعبادة، وهو الذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام أولاً بالذات، والتخصيص إنما يحصل بنفي عبادة غيره تعالى وعبادة الله عز وجل؛ إذ التخصيص له جزآن النفي عن الغير، والإثبات للمخصص به، فصارت المقاصد بهذا الاعتبار أربعة، وهذه السورة تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه، والتبري منها، فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن"⁽³⁾.

وفي أهمية هذا المقصد يكمن سرّ التكرار الحاصل في سورة الكافرون؛ قال ابن القيم: "ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس، لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته، لأن هذا يزول بالعلم والحجة، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب ما يدلله العلم على بطلانه

(1) فيض القدير: 367/1.

(2) روح المعاني: 249/30.

(3) المصدر نفسه: 250/30.

وضرره لأجل غلبة هواه، واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه، فجاء من التأكيد والتكرار في سورة قل يا أيها الكافرون المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجيء مثله في سورة قل هو الله أحد⁽¹⁾.

وحكى الآلوسي عن بعضهم أنه وجه ذلك بأن "مقاصد القرآن؛ صفاته تعالى، والنبوات، والأحكام، والمواعظ. وهي مشتملة على أساس الأول وهو التوحيد ولذا عدلت رابعة"⁽²⁾.

وذكر في ذلك أيضا عن بعض معاصريه وجها استحسنة مفاده أن الدين الذي تضمنه القرآن أربعة أنواع هي: العبادات والمعاملات والجنايات والمناكحات، والسورة متضمنة من النوع الأول، فكانت رابعة.

وأما الإشكال الوارد على عدل سورة قل يا أيها الكافرون للربع، وعدل قل هو الله أحد للثلاث - مع أن كلا منهما تسمى بالإخلاص - فوجهه بأن السرّ في ذلك: أن سورة الإخلاص اشتملت من صفات الله على ما لم تشتمل عليه الكافرون. وأيضاً فالتوحيد إثبات إلهية المعبود وتقديسه ونفي إلهية ما سواه، وقد صرحت الإخلاص بالإثبات والتقديس، ولوحت إلى نفي عبادة غيره. والكافرون صرحت بالنفي، ولوحت بالإثبات والتقديس، فكان بين الرتبتين من التصريحين والتلوحيين ما بين الثلاث والربع"⁽³⁾.

وعرض ابن القيم لذلك فقال إن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أخلصت الخبر عنه تعالى وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلاث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ من الشرك العملي

(1) زاد المعاد: 317/1.

(2) روح المعاني: 250/30.

(3) الإتيان في علوم القرآن: 425/2. حكاه صاحب السيوطي عن ابن الميلاق. وينظر فيض التقدير: 367/1.

الإرادي القصدي، فكانت ربع القرآن بنص الحديث الذي أسنده الترمذي والحاكم وصححه⁽¹⁾، وعَلَّ ذلك التفاوت بينهما في النسبتين بتقدّم العلم على العمل، فهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازل⁽²⁾.

سورة الزلزلة:

وأما ما ورد من أن سورة (الزلزلة) تعدل نصف القرآن فقالوا فيها: "يحتمل أن يقال المقصود الأعظم بالذات من القرآن؛ بيان المبدأ والمعاد، وإذا زلزلت مقصورة على ذكر المعاد مستقلة ببيان أحواله، فتعادل نصفه"⁽³⁾.

وتطرق ابن الملق أيضا إلى تعليل ذلك فقال: لأن أحكام القرآن تنقسم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة، وهذه السورة تشتمل على أحكام الآخرة كلها إجمالاً، وزادت على القارعة بإخراج الأتقال وتحديث الأخبار.

وأما تسميتها في الحديث الآخر ربعاً؛ فلأن الإيمان بالبعث ربع الإيمان في الحديث الذي رواه الترمذي: "لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع؛ يشهد أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر، فاقترضى هذا الحديث أن الإيمان بالبعث الذي قرّره هذه السورة ربع الإيمان الكامل الذي دعا إليه القرآن"⁽⁴⁾.

وقالوا فيما ورد من أنها هي والكافرون تعدل كلّ منهما ربعاً: "وما جاء أنها - أي الزلزلة - ربع القرآن فتقريره أن يقال: القرآن يشتمل على تقرير التوحيد والنبوات وبيان أحكام المعاش وأحوال المعاد، وهذه السورة مشتملة على القسم

(1) ينظر زاد المعاد: 316/1-317.

(2) ينظر المصدر نفسه: 317/1.

(3) حكاه المباركفوري عن الطيبي، وقال الطيبي في ختامه: (وهذا تلخيص كلام الشيخ التوربشتي). تحفة الأحوذى: 64/8.

(4) الإتيان في علوم القرآن: 424-425/2، وحكاه المناوي عن القاضي. فيض القدير: 367/1.

الأخير من الأربع، وقل يا أيها الكافرون محتوية على القسم الأول منها، لأن البراءة من الشرك إثبات للتوحيد، ليكون كل واحدة منها كأنها ربع القرآن⁽¹⁾.
وأما ما ورد في أن سورة التكاثر تعدل ألف آية فوجهه ابن الملق بأن السر في ذلك أن: "القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وكسر؛ فإذا تركنا الكسر كان الألف سدس القرآن، وهذه السورة تشتمل على سدس مقاصد القرآن، فإنها فيما ذكره الغزالي ستة: ثلاث مهمة، وثلاث متممة... وأحدها معرفة الآخرة المشتمل عليه السورة، والتعبير عن هذا المعنى بألف آية أفخم وأجل وأضخم من التعبير بالسدس"⁽²⁾.

سورة يس:

وأما سورة يس فقالوا: إن المقصود من كونها قلب القرآن أنها لبه وخالصة⁽³⁾ وقيل بأن المعنى "أنها من القرآن كمحل القلب من البدن"⁽⁴⁾.
ووجه ذلك، فقيل بأن السرّ فيه أن هذه السورة "مشتملة على أحوال البعث والقيامة، وأحوال الأمم، وبيان خاتمتهن، وإثبات القدر، وأن أفعال العباد مستندة إليه تعالى، وإثبات التوحيد، ونفي الضد والنند، وأمارات الساعة، وبيان الإعادة والحشر، والحضور في العرصات، والحساب والجزاء والمرجع والمآل بعد الحساب، وغير ذلك؛ فبقراءتها يتجدد له ذكر تلك الأحوال، ويتنبه على أمهات أصول الدين،

(1) تحفة الأحوزي: 64/8؛ حكاه المباركفوري عن الطيبي، وقال الطيبي في ختامه: وهذا

تلخيص كلام الشيخ التوريشتي.)

(2) الإتيان في علوم القرآن: 425/2.

(3) ينظر المباركفوري في تحفة الأحوزي: 158/8.

(4) تأويل مختلف الحديث، عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوريذ(213-276)، تحقيق

محمد زهري النجار، دار الجيل/بيروت، ط 1393-1972: 258/1.

ويتذكر ما أشرف عليه من أحوال البرزخ والقيامة⁽¹⁾. وقيل: "لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر والنشر، وهو مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فجعلت قلب القرآن لذلك"⁽²⁾.

وقال النسفي: "يمكن أن يُقال إن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة: الوجدانية، والرسالة، والحشر، وهو القدر الذي يتعلّق بالقلب والجنان. وأمّا الذي باللسان وبالأركان، ففي غير هذه السورة، فلمّا كان فيها أعمال القلب لا غير؛ سمّاها قلباً، ولهذا أمر بقراءتها عند المحتضر، لأنّه في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوّة والأعضاء ساقطة، لكن القلب قد أقبل على الله تعالى، ورجع عمّا سواه، فيقرأ عنده ما يُزاد به قوّة في قلبه، ويشتدّ تصديقه بالأصول الثلاثة"⁽³⁾.

وأما كون قراءتها بقراءة القرآن مرّة واحدة، أو بقراءته عشر مرّات فعلّله بعضهم بما فيها مقارنة بقصرها، قال الطيبي: "إنه لاحتوائها مع قصرها على البراهين الساطعة، والآيات القاطعة، والعلوم المكنونة، والمعاني الدقيقة، والمواعيد الفائقة، والزّواجر البالغة، كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن أي: ثوابها عشر مرات؛ أي: من غيرها، والله تعالى أن يخص ما شاء من الأشياء بما أراد من مزيد الفضل كλίلة القدر من الأزمنة، والحرّم من الأمكنة"⁽⁴⁾.

(1) قاله المناوي في فيض القدير: 67/2.

(2) قاله الغزالي واستحسنه الفخر الرازي. الإتيان في علوم القرآن: 423/2، وينظر تحفة الأحوذى: 158/8-159.

(3) نقله عنه السيوطي في الإتيان في علوم القرآن: 423/2، وذكره المناوي في فيض القدير: 67/2.

(4) تحفة الأحوذى: 159/8.

آية الكرسي:

وأما ما أُثر في آية الكرسي، فوجّه المناوي كونها ربع القرآن: "لاشتماله - القرآن - على التوحيد والنبوات وأحكام الدارين، وآية الكرسي ذكر فيها التوحيد، فهي رابعة بهذا الاعتبار"⁽¹⁾. وقد مرّ تقرير وجه كونها تمثّل مقصد التوحيد. ولم أقف فيما وقعت عليه على أي كلام في توجيه كون سورة النصر تعدل ربع القرآن.

سورة العصر:

ورأيت تنميما للفائدة أن أدرج هنا كلاما قيما في سورة العصر؛ فقد ذكروا عن الإمام الشافعي أنه قال فيها: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم. وفي رواية عنه: لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم. وقال غيره: إنها شملت جميع علوم القرآن"⁽²⁾ فما الذي جعلها حجة على الخلائق؟

قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ العصر: ١ - ٣

أقسم الله تعالى بالعصر قسما يراد به تأكيد الخبر - كما هو شأن أقسام القرآن - على أن النوع الإنساني لفي خسران عظيم، إلا من حصلت له صفات هي:

- الإيمان.
- عمل الصالحات.
- التواصي بالحق وهو التذكير.
- التواصي بالصبر؛ وهو "تحمل مشقة إقامة الحق".

(1) فيض القدير: 60/1.

(2) التحرير والتنوير: 528/30.

قال ابن عاشور: "وقد اشتمل قوله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٢) العصر:

١ - ٣ على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر" (١).

وذلك أن الآفة التي تدخل على الإيمان هي الغفلة فكان التواصي بالحق تذكيراً وتنبهتاً لحقائقه في النفس، والآفة التي تدخل على الأعمال هي الكلال والفتور، فكان علاجها هو التواصي بالصبر، وحمل النفس على التحمل.

فمرجع كونها شاملة لعلوم القرآن وقيامها حجة على الخلائق، أنه تعالى ذكر فيها الإيمان وما يحفظ استمرار وجوده، والعمل الصالح وما يحفظ استمرار وجوده، وفي كل هذا قيام الدين في الناس واستمرار وجوده فيهم.

فلذلك "كان أصحاب رسول الله (ﷺ) يتخذونها شعاراً لهم في ملتقاهم، فقد روى الطبراني بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن الحصين الأنصاري -من التابعين- أنه قال: "كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر -أي سلام التفريق- وهو سنة أيضاً مثل سلام القدوم" (٢).

المبحث الثالث - ذكر أقوال أهل العلم في أقسام القرآن وأمّهات مقاصده.

بعد عرض ما أمكن استخراجاه من مقاصد عامة من آي القرآن، ثم ما أمكن استخراجاه من مقاصد كلية أيضاً من كلام رسول الله (ﷺ) نعرض الآن إلى بيان ما فهمه ذوو النظر والبصائر من خلال تعاملهم مع هذا الكتاب العظيم.

(1) المصدر نفسه: 30/ 533.

(2) ينظر المعجم الأوسط، الطبراني: تحقيق محمد حسن الشافعي: دار الكتب العلمية/ بيروت،

ط 1/ 1420-1999: 36/4. والتحرير والتنوير: 30/ 528.

يعسر على الباحث اقتفاء أثر كل ما قيل عن المقاصد العامة للقرآن من نبذ أو فقرات قصيرة، لكون معظمها كلاماً عرضياً غير مقصود في ذاته. وأكثر ما وجدت من ذلك؛ ما ذكره أهل العلم في التعليق على ما سلف ذكره في المبحثين السالف ذكرهما، غير أنني من خلال تتبّعي للموضوع وقعت على كثير من أقوال علماء حاولوا حصر أمهات المقاصد دون ربط كلامهم بما سلف ذكره من الآيات والسور والأحاديث، وقد تفاوت قدر تعرّضهم للكلام عن كليات المقاصد بين مسهب ومشير إلى ذلك في كلمات يسيرة أو فقرات مختصرة، جامعة للمقاصد أو ذاكرة لأكثرها، أو منبّهة على بعض مهمّاتها. فأدرجت ما جمعته من ذلك هنا، محاولاً استجلاء مأخذهم وأساس تقسيمهم.

فممن تكلم في ذلك ابن رشد الحفيد إذ قال في كتابه فصل المقال: "وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق، والعمل الحق.

والعلم الحق: هو معرفة الله -تبارك وتعالى- وسائر الموجودات على ما هي عليه، وبخاصة الشريفة منها، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروي.

والعمل الحق: هو امتثال الأفعال التي تفيد السعادة، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء. والمعرفة بهذه الأفعال هي التي تسمى العلم العملي؛ وهذه تنقسم إلى قسمين:

- أحدهما: أفعال ظاهرة بدنية، والعلم بهذه هو الذي يسمّى الفقه.

- والقسم الثاني: أفعال نفسانية، مثل الشكر والصبر وغير ذلك من الأخلاق التي دعا إليها الشرع أو نهى عنها، والعلم بهذه هو الذي يسمّى الزهد وعلوم الآخرة..⁽¹⁾

وأصل هذا التقسيم من القرآن؛ جمعه تعالى في كثير من الآيات بين الإيمان في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

(1) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد: ص 54-55.

وأما تقسيمه للعلم إلى المعرفة بالله والمعرفة باليوم الآخر فراجع إلى كثير مما ورد في القرآن من الاقتران بين هذين الركنين العظيمين «...بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»، حتى قال فيهما كثير العلماء أنهما الركنان الركيزان في كل الشرائع السماوية. وأما أصل هذا التقسيم من السنة فحديث جبريل عليه السلام وتقسيمه للدين إلى إسلام وإيمان وإحسان.

وممن تكلم في ذلك ابن القيم الذي ذكر أن: "معاني القرآن دائرة على:
- التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وماله من أوصاف الكمال، وما يُنزّه عنه من سمات النقص.

- وعلى الإيمان بالرسول، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم.

- وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتبييرهم الأمور بإذنه ومشينته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقرّ في رحم أمّه إلى يوم يوافي ربّه ويقدم عليه.

- وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعدّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعدّ لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح. وتفاصيل ذلك أتمّ تفصيل وأبينه.

- وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواظب والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، في خلقه وأمره..."(1).

وهو تقسيم قائم -كما هو ظاهر- على حديث جبريل في أركان الإيمان، وزيادات عليه.

وقد ذكر الزركشي عن علي بن عيسى أنه قال بأن القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً هي؛ "الإعلام، والتنبيه، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، ووصف الجنة والنار، وتعليم الإقرار باسم الله، وصفاته، وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه، والاحتجاج على المخالفين، والرد على الملحدين، والبيان عن الرغبة، والرغبة، والخير، والشر، والحسن، والقيح، ونعت الحكمة، وفضل المعرفة، ومدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم، والتحسين، والتوكيد، والتفريع، والبيان عن ذم الإخلاف، وشرف الأداء"⁽¹⁾ ويمكن رد هذه الأمور -عند التأمل فيها- إلى الأقسام الآتية:

ما يتعلّق بالتّعليم والاعتقاد ويدرج فيه: -الإعلام -والتنبيه -والاحتجاج على المخالفين -والرد على الملحدين -الخير -والشر -والحسن -والقيح -ونعت الحكمة -وفضل المعرفة -والبيان عن ذم الإخلاف -وشرف الأداء -التوكيد - وتعليم الإقرار باسم الله -وصفاته -وأفعاله -وتعليم الاعتراف بإنعامه.

ما يتعلّق بأحكام الأعمال ويدرج فيها: -التسليم -والأمر -والنهي -والتفريع -والتحسين.

ما يتعلّق بالحثّ على الاستقامة وفيها: -الوعد -والوعيد -ووصف الجنة -والنار -والبيان عن الرغبة -والرغبة -ومدح الأبرار -وذم الفجار.

فهذه الأقسام بجملتها راجعة إلى القصد إلى حصول العلم الحق لأجل العمل بمقتضاه والترغيب في ذلك أو الترهيب من ضده.

وممن تكلم في ذلك أيضاً أبو الحكم بن برجان في كتاب الإرشاد حيث قال: "وجملة القرآن تشتمل على ثلاثة علوم علم أسماء الله تعالى وصفاته ثم علم النبوة

(1) البرهان في علوم القرآن: 18/1-19.

وبراهينها ثم علم التكليف والمحنة قال وهو أعسر لإغرابه وقلة انصراف الهمم إلى تطلبه مكانه⁽¹⁾.

فأصل تقسيمه مبني على معرفة المقصود بكل حركة وسكنة، ثم معرفة منبع العلوم الحقّة؛ وهو علم النبوة وبراهينها، ثم معرفة تفاصيل أحكام الأعمال. ونسب الزركشي إلى بعضهم قوله باشتمال القرآن "على أربعة أنواع من العلوم؛ أمر ونهي وخبر واستخبار وقيل ستة وزاد الوعد والوعيد"⁽²⁾، ومرجع ذلك إلى الأقسام الثلاثة الخبر والإنشاء، والوعد والوعيد راجعان إلى الوازع الحامل على امتثال الأوامر والنواهي، وترجمة المعارف إلى أعمال. ومن ذلك أيضا ما أورده الزركشي عن بعضهم في توجيهه لحديث نزول القرآن على سبعة أحرف، والتي منها أنّ المراد من الأحرف السبعة اشتماله على سبعة علوم هي:

"علم الإثبات والإيجاد كقوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٦٤) البقرة: ١٦٤

وعلم التوحيد كقوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) الإخلاص: ١، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ كُؤُودٌ﴾ (١١٣) البقرة: ١٦٣.

وعلم التنزيه كقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ (١٧) النحل: ١٧، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١) الشورى: ١١.

وعلم صفات الذات كقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ (٨) المنافقون: ٨ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ (٢٣) الحشر: ٢٣

(1) المصدر نفسه: 18/1.

(2) البرهان في علوم القرآن: الصفحة نفسها.

وعلم صفات الفعل كقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (٣٦) النساء: ٣٦ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ (٣١) الروم: ١٢ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ (١٣) آل عمران: ١٣٠ ،

وعلم العفو والعذاب كقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١٣٥) آل عمران: ١٣٥ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَجِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) الحجر: ٤٩ - ٥٠ .

وعلم الحشر والحساب كقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ (٥٩) غافر: ٥٩ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤) الإسراء: ١٤ .

وعلم النبوات كقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (١٦٥) النساء: ١٦٥ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ (٤) إبراهيم: ٤ ، والإمامات كقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٥٩) النساء: ٥٩ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ (١١٥) النساء: ١١٥ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ (١١٠) آل عمران: ١١٠ (1) وهذا تقسيم مبتذل يحمل الكثير من التكلف لأنه إنما وضع ليوافق عدد أحرف القرآن الكريم التي نزل بها، فلا هو جعلها سبعا، ولا هو استوعب جميع مقاصد القرآن أو مجموع مواضيعه.

وقد ذكر ابن الأثير في سياق كلامه على المعنى اللغوي لكلمة القرآن بأن الأصل في هذه اللفظة الجمع وكل شيء جمعته فقد قرأته، قال: "وسمي القرآن لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض" (2). سسس ومرجع هذا التقسيم إلى ما في القرآن من أخبار وإنشاء ووازع.

(1) البرهان في علوم القرآن: 224/1-225.

(2) لسان العرب: 129/1.

وأما الشاطبي فإنه خُصَّص إلى أن القرآن الكريم إنما أتى ليعرّف بمصالح الدارين جلباً لها، والتعريف بمفاسدهما دفعاً لها؛ وتتلخّص المصالح التي أتى للتعريف بها في ثلاثة مراتب:

- ضروريات - حاجيات - تحسينيات. فأرفعها منزلة وأكثرها أهميّة ما كان من قبيل الضروريات؛ وقد حصرها في حفظ أمور خمسة هي:

1- الدين. 2- النفس. 3- العقل. 4- النسل. 5- المال.

وعلى الرغم من كون هذه الخمسة المذكورة من الضروريات المُجمع على ضرورتها، فليس بمُجمع على كونها كلّ الضروريات التي جاء القرآن الكريم لإيجادها أو المحافظة عليها⁽¹⁾.

وممن أسهب في ذكر أمهات المقاصد العلامة ولي الله الدهلوي في كتابه الفوز الكبير في أصول التفسير، إذ حصر علوم القرآن في خمسة أقسام فقال بأن معاني القرآن المنطوقة لا تخرج عن هذه العلوم الخمسة⁽²⁾ وهي:

علم الأحكام، (وهو علم الفقه).
علم المخاصمة (وهو الجدل أو علم الكلام).

(1) ممن صرّح بانحصار الضروريات في هذه الخمسة الآمدي. ينظر الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي: 3/300، وينظر نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي: ص59 و386. وقد انتقد ابن تيمية على هذا الفريق حصرهم لمقاصد الشريعة في هذه الخمسة؛ إذ رأى أنها تشتمل أكثر ممّا ذكره بكثير؛ فمما رأى أنهم أهملوه: العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وأحوال القلوب وأعمالها؛ كمحبّة الله، وخشيته وإخلاص الدين له، والتّوكل عليه، والرّجاء لرحمته ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدّنيا والآخرة. وكذلك فيما شرعه من الوفاء بالعهود، وصلة الأرحام، وحقوق الممالك والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه: حفظاً للأحوال السّنية، وتهذيب الأخلاق. ينظر الفتاوى: 234/32.

(2) ينظر الفوز الكبير ص11.

علم التذكير بآلاء الله (وفيه الحديث عن خلق العالم، وعن خالقه).
علم التذكير بأيام الله (وفي ذكر القصص القرآني الحادث في الدنيا).
علم التذكير بالموت وأمور الآخرة.

فأما القسمان الأخيران فظاهر رجوعهما إلى الوازع أو الدافع إلى العمل، وأما القسم الثالث فمنه ما هو راجع إلى أمور العقيدة وهو الحديث عن الخالق-أي من قبيل القسم الثاني-، ومنه ما هو راجع إلى القصص كأخبار خلق العالم؛ فمرد هذه العلوم الخمسة إلى علوم ثلاثة هي:
علم الأحكام.

وعلم العقائد وهو ما عبّر عنه بعلم المخاصمة، ينضمّ إليه التذكير بالخالق والآله.

وعلم الدوافع والمواظ، ويدخل فيه علم التذكير بأيام الله وعلم التذكير بالموت وأمور الآخرة، وشيء من علم التذكير بآلائه تعالى.

وقد ذكر الشيخ الخضري ما اشتمل عليه القرآن من الأعمال فقال: "اشتمل القرآن على أنواع من الأعمال كلّ بها العباد:

الأول: معاملة بين الله والعبد، وهي العبادات التي لا تصح إلا بالنية، ومنها عبادات محضة وهي الصلاة والصوم، وعبادة مالية اجتماعية وهي الزكاة، وعبادة بدنية اجتماعية وهي الحج. وقد عدّت هذه العبادات الأربع بعد الإيمان أساس الإسلام.

الثاني: معاملة بين العباد بعضهم مع بعض، وهي أقسام:

أ - مشروعات لتأمين الدعوة وهي الجهاد.

ب- مشروعات لتكوين البيوت، وهي ما يتعلق بالزواج والطلاق والأنساب والمواريث.

ج- مشروعات لطريق المعاملة بين الناس من بيع وإجارة وغير ذلك، وهي المعروفة بالمعاملات.

د- مشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهي القصاص والحدود⁽¹⁾.
وظاهرٌ أنّ هذا التقسيم مقتصر على بيان أقسام الأعمال التي في القرآن وهي الغاية مما فيه من العلوم، ولكنّ هذا التقسيم قاصر لإغفاله ذكر أطراف أخرى كمعاملة العبد لنفسه، ومعاملته لغير بني الإنسان من العوالم الأخرى.

وممن كتب في ذلك الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في المقدمة الرابعة من تقديمه لتفسيره (التحرير والتنوير) إذ قال: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾﴾ النحل: ٨٩. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية... فمراد الله من كتابه هو بيان تصارييف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بيّنا وتعبّدنا بمراده والاطلاع عليه فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ص: ٢٩(2).

ثم تحدث عن المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فقال: "فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور:

الأول- إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق.

الثاني- تهذيب الأخلاق.

(1) تاريخ التشريع الإسلامي، الخصري. ص29، ينظر بحث جديد عن القرآن، محمد صبيح: ص 127-128.

(2) التحرير والتنوير: ج1/ الكتاب الأول: ص38-39.

الثالث- التشريع وهو الأحكام (خاصة وعامة).

الرابع- سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها.

الخامس- القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي أو الحذر.

السادس- التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع والأخبار.

السابع- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير.

الثامن- الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول⁽¹⁾.

ويمكن ردّ هذه الأقسام إلى ما يأتي:

قسم فيه: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين... وذلك علم الشرائع والأخبار، وبه يتم إصلاح الاعتقاد بتعليم العقد الصحيح، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، وفيه إقامة الحجة على صدق الرسالة بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول.

قسم فيه: تهذيب الأخلاق.

قسم فيه: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة، وفيه سياسة الأمة القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها.

قسم فيه: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي أو الحذر، وفيه المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، والترغيب والترهيب.

وقد عاود ابن عاشور الحديث عن هذه المقاصد في تفسيره لمحكمات القرآن التي جعلها أصوله؛ حيث قال: "فالمحكمات هي أصوله، الاعتقاد والتشريع،

(1) ينظر التحرير والتنوير؛ ج1/ الكتاب الأول: ص 39-41.

والآداب والمواعظ، وكانت أصولاً لذلك بآتّصاح دلالتها بحيث تدلّ على معان لا تحتل غيرها، أو تحتلّه احتمالاً ضعيفاً غير مُعتدّاً به⁽¹⁾.

وكتب الشيخ محمود شلتوت أيضاً في مقدمة تفسيره فقرة تحت عنوان (مقاصد القرآن) فذكر الخطوط الأصلية لمقاصد القرآن ومدارها بقوله:
"مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث: ناحية العقيدة، وناحية الأخلاق، وناحية الأحكام.

- فالعقائد: تظهر القلب من بذور الشرك والوثنية، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية..

- والأخلاق: تهذب النفس وتزكيها، وترفع من شأن الفرد والجماعة، وتقوي عرى التآخي والتعاون بين بني الإنسان،..

- أما الأحكام: فهي ما بيّنه الله في كتابه أو بين أصوله من النظم التي يجب اتباعها، في تنظيم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان،..⁽²⁾.

وتعرّض أبو الأعلى المودودي للمحتوى القرآني أيضاً؛ فذكر أن للقرآن موضوعاً هو الإنسان، وبحثاً رئيسياً؛ هو بيان بطلان التصورات والنظريات التي وضعها الإنسان عن نفسه وعن الحياة وعن نظام الكون وعن ذات الإله. وأما هدفه؛ فهو دعوة الإنسان إلى المنهج الصحيح، ببيان الهداية الإلهية التي ضل عنها الإنسان⁽³⁾. ومردّد ذلك كله إلى الهداية الإلهية في العلم والاعتقاد.

وتكلّم الشرباصي على وظيفة القرآن الكريم فذكر أن رسالته الأساسية هي أن يكون هداية: - للفرد في نفسه. - ولل فرد مع الفرد. - ولل فرد مع مواطنيه.

(1) التحرير والتنوير: 155/1.

(2) إلى القرآن (تفسير)، شلتوت: ص5-6 ملخصاً.

(3) ينظر المبادئ الأساسية لفهم القرآن، المودودي: ص20-21.

- وللغرد مع البشرية كلها. - بل مع الحياة جميعها⁽¹⁾.

أما محمد غلاب فذكر أن القرآن قد عرض لإحدى عشرة مشكلة -قال بأنها من أعوص المشكلات الفلسفية وأعظمها خطرا- وهي: الألوهية، الوجدانية، القدرة، التنزه عن الأنسال، مخالفة واجب الوجود لكل من عداه من الموجودات، علم الله بجزئيات الكون المجردة وأجزائه المتحيّزة، استحالة إدراكه بحاسة البصر، أزلية الباري، ثباته، بدء الخلق، مصير العالم في الحياة الأخرى⁽²⁾. ويمكن ردها إلى قسمين من مواضيع القرآن هما: -قسم الإلهيات، -وقسم أخبار اليوم الآخر. وتعرض الزرقاني لذلك فذكر أن: "الله تعالى في إنزال كتابه ثلاثة مقاصد رئيسة:

أن يكون هداية للنقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي، وأن يُتَعَبَّد بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس"⁽³⁾.

وبمثل هذا التقسيم كتب زاهر عواض الألمعي في كتابه دراسات في التفسير الموضوعي تحت عنوان (مقاصد القرآن الرئيسية)⁽⁴⁾.

وأما الشيخ العثيمين فقد أرجع سبب نزول القرآن إلى أمور ثلاثة هي: التعبد بتلاوته، وفهم معانيه، والعمل به. واستدل لذلك بما كان عليه الصحابة قال: "وبهذا كان الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها، وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل به، فالقرآن نزل لهذه الأمور

(1) ينظر يسألونك عن الدين والحياة، أحمد الشرباصي: 370.

(2) وذلك بعد عرضه لبعض النصوص القرآنية، وتعرضه لبحث قدمه المستشرق كاراديفو عن المحتوى القرآني. ينظر الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية، د. محمد غلاب: ص164.

(3) مناهل العرفان: 89/2.

(4) ينظر دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي: ص49-52 ملخصاً.

الثلاثة⁽¹⁾. وهذه مقاصد بيّنة لكنّه ذكر هذه المقاصد من أدناها إلى أعلاها أي: رتّبها تصاعديا وذلك أنّ أول أسباب فهم القرآن هو تلاوته، ثمّ تدبّره لفهمه، ثمّ العمل به.

وقد حاول الدكتور فضل حسن عباس أن يستجمع عددا من تقسيمات العلماء الموضوعية للقرآن على عدد من الاعتبارات المختلفة⁽²⁾ فذكر أنّ القرآن مشتمل على كل المبادئ العامة والشؤون التي لا بدّ منها لهذا الإنسان مستدلا بقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨ ثمّ قال: "موضوعات القرآن هي الموضوعات التربوية التي لا يستغني عنها الإنسان:

- 1- لجسمه وروحه وفكره.
 - 2- في المحيط الفردي والأسرة والمجتمع والدولة والعالم، أي: في القضايا الفردية والأسرية والاجتماعية والدولية.
 - 3- لشؤون الدنيا والآخرة⁽³⁾.
- ثمّ قال: "وإذن فموضوعات القرآن العامة التي تنتظم فكر الإنسان وسلوكه، لا بد من أن تنتظم العقائد والعبادات والتشريع والأخلاق وما يتصل بذلك من حقائق الكون وسنن الاجتماع وقضايا التاريخ⁽⁴⁾.
- فجمع بين الجسم والروح والفكر لأنها تمثل جوانب الإنسان الذي أنزل القرآن لأجله فلا بد أن لكل جانب منها حظه من هذا القرآن.

(1) شرح مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير، ابن عثيمين: ص7.

(2) ينظر قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس: ص 99-104.

(3) المصدر نفسه: ص 102.

(4) قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، الصفحة نفسها.

وذكر الفرد ثم الأسرة ثم المجتمع ثم الدولة ثم العالم، لأن القرآن نزل ليسير الفرد على اعتباره كائنا مستقلا عن غيره من جهة، وعلى اعتباره جزءا من جماعة.

وذكر شؤون الدنيا والآخرة ليستوعب بذلك زمان وجود الإنسان كله. وتعرض محمد علي الصابوني إلى ذكرها فأوجزها في عشرة مقاصد رمى بها القرآن إلى إصلاح الأفراد المجتمعات من خلالها، وهي:

- 1- إصلاح الأفراد. 2- إصلاح المجتمعات. 3- إصلاح العقائد.
 - 4- إصلاح العبادات. 5- إصلاح الأخلاق. 6- إصلاح الحكم والسياسة.
 - 7- إصلاح الشؤون المالية. 8- إصلاح الشؤون الحربية.
 - 9- إصلاح الثقافة العلمية. 10- تحرير العقول والأفكار من الخرافات⁽¹⁾.
- ويمكن إرجاع هذه العشرة إلى الأقسام الآتية:

القسم الأول- إصلاح العقائد، وتحرير العقول والأفكار من الخرافات، وإصلاح الثقافة العلمية.

القسم الثاني- إصلاح العبادات.

القسم الثالث- إصلاح الشؤون المالية، وإصلاح الشؤون الحربية، وإصلاح الحكم والسياسة (معاملات).

القسم الرابع- إصلاح الأخلاق.

وقد تحدّث الأستاذ فريد وجدي أيضا عن مقاصد القرآن في موسوعته بكلام لطيف أثرت نقله هنا لنفاسه وشموليته إذ يقول: "وعقيدتنا معشر المسلمين أنه الكتاب الجامع لأشتات الحكم ومتفرقات الأصول، وأن فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدّمة، وأنه جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين الدنيوية والأخروية، وأنه آخى بين طبيعتي الإنسان الجسدية والروحية، وأنه أنزل للعالمين أجمعين

(1) التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني: ص139.

وروعيت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم. ولا جرم أن كتابا هذا شأنه لا بد من أن يكون راميا إلى مقاصد ومتوخيّا في تعاليمه دستوراً. ولا بد أن يكون قد وعد وأوعد وبشّر وأنذر، ورغب ونفّر، وبنى وهدم، وقوّى ووهّن، ووصل وقطع، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة أدته إلى المكانة التي بلغها في نفوس الآخذين به قديماً أو حديثاً⁽¹⁾.

وفيه ذكر لكثير من خصائص القرآن مع ذكر بعض مقاصده، الزائد منها على ما ذكر سالفاً قصد القرآن إلى المؤاخاة بين طبيعتي الإنسان؛ أي: تلبية حاجيات الروح والجسد معاً.

وقد وقعت للمستشرق هرشفلد (Hirschfeld) على تقسيم موضوعي للقرآن الكريم حاصله مواضيع القرآن أربعة أقسام:

1- تبليغ. 2- قصص. 3- وصف. 4- تشريع.

وقد ذكر محمد صبيح هذا التقسيم ثم قال: "ربما كان هذا التقسيم أدنى تقسيم معروف إلى الإيجاز والصواب"⁽²⁾. والحق أنني نظرت فيه فلم أجد فيه ما يؤهّله لهذا الترجيح؛ إذ إن ما في القرآن من القصص والوصف والتشريع داخلة في حيز التبليغ، وما فيه من الوصف قد يتعلّق بقسم القصص.

وممن تكلم في ذلك محمد بن لطفي الصبّاغ في كتابه بحوث في أصول التفسير تحت عنوان (الشعب الرئيسة الثلاث في القرآن)، حيث قال: "لا يخفى أن الدين في معظمه يعمل على ترقية النفوس، وتربية العقول وإصلاح الأعمال الطاهرة، أي: أن معظمه عقائد وأخلاق وشرائع، والقرآن الكريم تكفّل بكل ذلك بأحسن ما يكون وهذه الشعب فيه متّصل بعضها ببعض، مترابط بعضها ببعض. معتمد بعضها ببعض. معتمد بعضها على بعض، فلا تكاد تقف على حكم من أحكام الفقه إلا وتراه

(1) المصحف المفسّر، محمد فريد وجدي: ص .

(2) بحث جديد عن القرآن، محمد صبيح: ص128.

معتمدا على العقيدة، منبّها إلى الخلق الزكي، والمعاملة الحسنة... ذكرنا أن معظم آيات الكتاب الكريم يمكن أن تصنّف في ثلاث شعب: شعبة العقيدة، وشعبة الأخلاق، وشعبة الأحكام.

وأن هذه الشعب قامت لخدمتها وتقعيد قواعدها، ولم أطرافها وموضوعاتها علوم ثلاثة هي: علم التوحيد، وعلم الأخلاق، وعلم الفقه⁽¹⁾. وهو من التقسيمات الموافقة لما في حديث جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان.

وممن تكلم في أقسام القرآن وأحسن تفريعها⁽²⁾ عز الدين بليق إذ يقول:

"أنواع الأحكام التي جاء بها القرآن الكريم ثلاثة:

الأول- أحكام اعتقادية: تتعلّق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر.

ثانيا- أحكام خلقية: تتعلّق بما يجب على المكلف أن يتحلّى به من الفضائل وأن يتخلّى عنه من الرذائل.

ثالثا- أحكام عملية: تتعلّق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات؛ وهذا النوع الثالث هو فقه القرآن.

والأحكام العملية في القرآن تنظم نوعين:

أحكام العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ونذر ويمين ونحوها من العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه.

وأحكام المعاملات من عقود وتصرفات وعقوبات وجنایات وغيرها مما عدا العبادات، ومما يقصد بها تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض، سواء أكانوا أفرادا

(1) بحوث في أصول التفسير، محمد بن لطفي الصبّاغ: ص134-136.

(2) منهاج الصالحين ، عز الدين بليق: ص532-534.

أم أمّا أم جماعات. فأحكام ما عدا العبادات تسمى في الاصطلاح الشرعي أحكام المعاملات.

وأما في اصطلاح العصر الحديث فقد تنوّعت أحكام المعاملات بحسب ما يتعلّق به وما يقصد بها الأنواع الآتية:-

- 1- أحوال شخصية. 2- أحكام مدنية. 3- أحكام جنائية.
- 4- أحكام المرافعات. 5- الأحكام الدستورية. 6- الأحكام الدولية.
- 7- الأحكام الاقتصادية والمالية⁽¹⁾.

وممن تطرّق لذلك الدكتور معروف الدواليبي إذ حصر كليات القرآن العامة في ثلاثة مقاصد هي: "أولا - العقيدة في (مبدأ) هذا الكون، وأنه هو الله.

ثانيا - العقيدة في (معاد) هذا الكون أيضا، وأنه إلى الله.

ثالثا - الالتزام بشريعة (معاش) الإنسان في حياته العرضية القصيرة على هذه الأرض، وذلك من أجل سعادته في (معاشه ومعاده)⁽²⁾. وقد سبق إيراد تبريره لسبب هذه القسمة في آخر كلامنا عن سورة الإخلاص.

أما الشوكاني فقد حصر مقاصد القرآن الكلية فيما اتّفقت عليه جميع الشرائع السماوية وهي ثلاثة مواضع فقال إن مقاصد القرآن الكريم التي يكررها ويورد الأدلة الحسية والعقلية عليها ويشير إليها في جميع سوره وفي غالب قصصه وأمثاله هي ثلاثة مقاصد:

- 1- إثبات التوحيد. 2- إثبات المعاد. 3- إثبات النبوات⁽³⁾.

(1) منهاج الصالحين: ص 532-534.

(2) الأصالة (ملتقى القرآن): 221/2؛ (من محاضرة ألقاها د. معروف الدواليبي في ملتقى

القرآن بعنوان: القرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسان -في المبدأ، والمعاد، والمعاش-)

(3) ينظر إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد بن علي

الشوكاني: تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية/ بيروت- ط1/ 1984: 4-3/1.

فأما التّوحيد فلأنّه أهمّ مواضيع العقائد، وأمّا ذكره للمعاد فلأنّه أعظم وازع على امتثال الأوامر واجتناب النّواهي، وأمّ ذكره للنّبوات فلأنّها مصدر الشّرائع والأوامر والنّواهي،

وذلك ما أكّده ابن القيم قبله بقوله: "وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن فإنه كفيلاً بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بياناً"⁽¹⁾. وقد مرّ بيان المأخذ على هذا التقسيم عند ذكر تقسيم القاضي عياض.

ومن أوسع ما وقفت عليه في الكتابة عن أمهات مقاصد القرآن الكريم ما كتبه الأستاذ محمد الصالح الصديق في كتابه مقاصد القرآن فذكر في مقدمته عن محتوياته فقال:

"احتوى القرآن الكريم على كل ما يضمن للإنسان سعادة الدنيا والآخرة وفي الإمكان أن نحصر ذلك فيما يأتي:

- 1- العقائد الدينية. 2- الفرائض الدينية. 3- الأوامر والنواهي.
 - 4- الإنذار والتبشير. 5- الجدل والتحدي. 6- القصص.
 - 7- التشريع الاجتماعي. 8- التشريع السياسي. 9- التشريع الجنائي.
 - 10- التشريع المدني. 11- التشريع الحربي. 12- المواعظ والإرشاد"⁽²⁾.
- ففي كلامه هذا ذكر لما رآه مقصداً كلياً لمحتويات القرآن الكريم وهو تحصيل السعادة الدنيوية والأخروية للإنسان، من خلال بيان ما يؤدي إلى ذلك من الأقسام التي ذكرها.

(1) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (691-751)، تحقيق محمد حامد الفقي: ط2/1395-1975، دار المعرفة/بيروت: 44/1.

(2) مقاصد القرآن، محمد الصالح الصديق: ص16.

ويمكن رد كل ما ذكر هنا إلى الأقسام الآتية:

- 1- قسم العقائد وفيه: -العقائد الدينية -والجدل والتحدي.
- 2- قسم الأحكام وفيه: -الفرائض الدينية -الأوامر والنواهي -التشريع الاجتماعي -التشريع السياسي -التشريع الجنائي -التشريع المدني -التشريع الحربي.
- 3- قسم متعلق بالحث على الاستقامة وفيه: -الإنذار والتبشير -القصص -المواعظ والإرشاد.

وقد أعاد الأستاذ صياغة محتوى كتابه في محاضرة⁽¹⁾ بعنوان (مقاصد القرآن) أضاف فيها أن القرآن قد عني بشيئين مهمين هما الإنسان والكون.. اهتم بالإنسان لأنه خليفة الله في الأرض... واهتم بالكون لأنه وثيق الصلة بالإنسان... وذكر أن: "مقاصد القرآن تستهدف الإنسان في هذا الكون؛ تستهدفه في:

- علاقته بخالقه،

- وعلاقته بأخيه الإنسان،

- وعلاقته بالكون،

- وعلاقته بنفسه -إن صحَّ التعبير -

كما تستهدف مصيره في الحياة الباقية بعد هذه الحياة القصيرة المحدودة.

ثم ذكر للقرآن سبعة مقاصد أجمل فيها الأقسام المذكورة في الكتاب

غير أنه حينما ذكر الشرائع (ما يتعلق بأفعال الجوارح من الأوامر والنواهي)

نبّه على أن منها ما يتعلق بصلة العبد بربه -وهي العبادات-، ومنها ما يتعلق

(1) أُلقيت المحاضرة في ملتقى القرآن، أثناء انعقاد الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي

بالجزائر العاصمة، في فترة: 2-8 ذو القعدة 1407هـ-1-7/9/1981م. ونشرت

محاضراته في المجلد الثاني من كتاب الأصالة.

بصلة العباد بعضهم ببعض وهي المعاملات. ثم أضاف مقصداً أو موضوعاً آخر وهو الأخلاق والآداب...⁽¹⁾.

ومن الكتابات الموسّعة في هذا المجال أيضاً الفصل الذي كتبه الأستاذ محمد رشيد رضا في كتابه (الوحي المحمدي)⁽²⁾؛ فقد رتبته في مقدمات وخمسة فصول وخاتمة، خصص الفصل الخامس منه -والذي يقارب نصف الكتاب- للكلام عن مقاصد القرآن. فذكر للقرآن عشرة مقاصد:

- 1- في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة التي دعا إليها الرسل، وضل فيها أتباعهم؛ وهي الإيمان بالله، وعقيدة البعث والجزاء، والعمل الصالح.
 - 2- بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل.
 - 3- إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام.
 - 4- الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان.
 - 5- تقري مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات.
 - 6- بيان حكم الإسلام السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة.
 - 7- الإرشاد إلى الإصلاح المالي.
 - 8- إصلاح نظام الحرب، ودفع مفسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر.
 - 9- إعطاء النساء جميع الحقوق البشرية، والدينية، والمدنية.
 - 10- تحرير الرقبة.
- مع التفريع لكل من هذه المقاصد بما يقع تحتها، ويرجع إليها من المقاصد الفرعية⁽³⁾.

(1) ينظر الأصالة (ملتقى القرآن)،: 239/2-247.

(2) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا. ط9/1399هـ-1979م. المكتب الإسلامي/بيروت.

(3) ينظر الوحي المحمدي: ص 166-342.

وقد استوفى -في نظري- الكلام عن أمّهات مقاصد القرآن الكريم في العنصر الأول، وسيأتي بيان ذلك في الباب الثالث.

وقد خصّص عباس محمود العقّاد كتابه (الفلسفة القرآنية) للبحث في مهمّات المسائل البشرية التي حمل القرآن أجوبتها، بسط ذلك في مباحث متعددة:

- منها ما هو غيبي متعلّق بالإلهيات؛ كالإله، والأسباب والخلق، والروح، والقدر، والحياة الأخرى.

- ومنها ما يتعلّق بالشرائع والسياسة؛ كالحكم، والعلاقات الدّولية، والأسر والرق، والعقوبات، والطبقات، والمرأة، الزّواج، والميراث.

ومنها ما يتعلّق بالعبادات والسلوك؛ كالعبادات والفرائض، والأخلاق والتّصوف.

أما الشيخ محمد الغزالي فقد لخصّ أمّهات مقاصد القرآن في خمسة محاور فقال: "والقرآن الكريم مع استفاضة معانيه، وكثرة سورته يمكن القول بأنّه يدور على محاور خمسة..."⁽¹⁾.

1- محور عن الله الواحد. 3- محور البعث والجزاء.

2- محور عن الكون الدّال على خالقه. 4- محور القصص القرآني.

5- محور عن ميدان التّربية والتّشريع. ويمكن رد ما ذكره هنا إلى

ثلاثة أقسام؛

- أحدها خاص بالمحورين الأول والثاني وفيه الكلام على ما يتصل بالله تعالى.

- والثاني مخصّص للمحور الخامس وفيه الكلام على ما يتوجب فعله من عبادات ومعاملات وسلوك.

(1) المحاور الخمسة: ص16.

- والثالث خاص بالمحورين الثالث والرابع، وفيه الكلام عما يحصل به الاعتبار من أخبار البعث والجزاء، وقصص الغابرين⁽¹⁾.

وممن كتب عن ذلك أيضا الدكتور يوسف القرضاوي؛ فقد اقتصر على ذكر سبعة مما اشتدت عناية القرآن به وتأكيد عليه من المقاصد المهمة وهي كالاتي:

1- تصحيح العقائد والتصورات. 2- تقرير كرامة الإنسان وحقوقه.

3- عبادة الله وتقواه. 4- تركية النفس البشرية.

5- تكوين الأسرة وإنصاف المرأة. 6- بناء الأمة الشهيدة على

البشرية.

7- الدعوة إلى عالم إنساني متعاون. مع التفريع لكل منها بما يراه مناسبا⁽²⁾.

ولم يورد لهذا الحصر تعليلا، وواضح من هذا التقسيم أنه يراعي حاجة الفكر الإسلامي المعاصر من مقاصد القرآن المهمة أكثر من مراعاته لما أكدّه القرآن فعلا، يتضح ذلك في إقحامه مسألة إنصاف المرأة في مهمّات المقاصد.

ومن آخر ما وقفت عليه في هذا المجال ما ذكره الدكتور طه جابر العلواني مما أسماه بالمقاصد الشرعية العليا الحاكمة، والتي حصرها في ثلاثة مقاصد هي: التوحيد، التزكية، العمران⁽³⁾.

وكأنه بنى هذه القسمة على موقف المكلف تجاه كل أطراف الوجود؛ فموقفه تجاه الخالق توحيده، وموقفه تجاه نفسه تركيتها، وموقفه تجاه الملوك العمران.

(1) ينظر المحاور الخمسة للقرآن الكريم: محمد الغزالي.

(2) ينظر (كيف نتعامل مع القرآن العظيم)، القرضاوي: ص 63-112.

(3) ينظر مقاصد الشريعة، تحرير وحوار (عبد الجبار الرفاعي)، من (حوار مع د. طه جابر العلواني): دار الفكر، ودار الفكر المعاصر/ سورية، لبنان، ط 1422/1هـ-2002م: ص 82.

هذا ما تيسّر لي جمعه هنا من مذاهب العلماء في مهمّات مقاصد القرآن الكريم وكتّياته، ولا أدعي استيعاب ما قالوه فذلك عسير لكون معظمه -كما ذكرت- مبنوثةً هنا وهناك ليس له معلم يرشد إليه، أو علامة تستدل بها عليه. وأظن أن الحاصل من هذا الفصل من مقاصد كافٍ لِيُنتخب منه أمهات مقاصد القرآن وكتّياته.

حصيلّة هذا الفصل من كبرى مقاصد القرآن ورؤوس مواضيعه:

فأما من القرآن الكريم فقد استخرجنا منه ما يأتي:

القصد إلى حصول الإيمان به.

القصد إلى تدبره وتعلّقه والتفكير فيه.

القصد إلى الاتّعاظ والاعتبار بما فيه.

القصد إلى بيانه وتبليغه للنّاس.

القصد إلى بيان ما يحتاج إليه الناس من العلم وكفايتهم عناء تكلفه.

القصد إلى إظهار كثير مما كان يخفيه أهل الكتاب من الحقّ.

القصد إلى تشريع الأحكام والقيام بالقسط: (بيان الصراط المستقيم)

القصد إلى اتباع المكلفين له.

القصد إلى الحكم به.

القصد إلى تذكير المكلفين ورفع الغفلة عنهم.

القصد إلى تبشير المطيعين وإنذار المخالفين.

القصد إلى تصديق ما جاءت به الرسل والأنبياء من الحق.

القصد إلى بيان الحق ورفع الخلاف.

القصد إلى تجديد الشريعة بما يصلح للأمة الخاتمة.

القصد إلى الدلالة على الطّريق وهو مقصد الهداية.

القصد إلى اتباع الناس لهذه الهداية.

القصد إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور.
 القصد إلى تثبيت النبي (ﷺ) والمؤمنين على الحق.
 القصد إلى إعلام الناس بوحديته تعالى وجمعهم على ذلك.
 القصد إلى الاحتجاج به لصدق الرسالة الخاتمة، وتحذّي المخالفين.
 القصد إلى حصول اليقين بالبعث والحساب والجزاء.
 القصد إلى حصول التقوى في قلوب الناس.
 وأما من إشارات السنة وأقوال أهل العلم فاستخرجنا ما تيسر نظمه منها في
 الجدول الآتي، مع ذكر القائل به، وسردنا ما كثرت أقسامه ملخصا بعد الجداول
 الآتية:

القائل	القسم الأول	القسم الثاني	أقسام أخرى
الطبري	توحيد	الديانات (أحكام)	الأخبار (قصص)
حكاه ابن حجر	توحيد	أحكام	أخبار
حكاه ابن عبد البر	صفات	شرائع	القصص
المازري	صفات	أحكام	القصص
البيضاوي	بيان العقائد	بيان الأحكام	القصص
ابن القيم	خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأحكامه	أمر ونهي وإباحة	خبر عن خلقه

	ابن تيمية والزرركشي وغيرهما من العلماء	خبر عن الخالق التوحيد وفيه الأسماء والصفات	الإشياء أو الأحكام؛ الأمر بالمعروف النهي عن المنكر.	خبر عن المخلوق (القصص) وفيه الوعد والوعيد	
	ابن القيم	خبر عن الرب وصفاته	أحكامه	خبر عن خلقه	وثوابه وعقابه
	الطبيي والسيوطي	علم الأصول	علم العبادات	علم القصص	علم السلوك
	الصابوني	العقيدة	التشريع	القصص	العبادة
	ابن عاشور	تعليم العقائد	الشرائع	الحث على الاستقامة	تهذيب الأخلاق
	محمد صالح الصديق	عقائد	أحكام	الحث على الاستقامة (قصص، مواظب...)	
	علي بن عيسى	التعليم والاعتقاد	أحكام الأعمال	الحث على الاستقامة	

القائل	القسم الأول	القسم الثاني	أقسام أخرى	
حكاه الزركشي		أمر ونهي	خير واستخبار	وعد وعيد
محمد عبده والمراغي	توحيد	العبادة	القصص	وعد ووعد
النسفي	ترديد الله وذكر صفاته	الأوامر والنواهي	القصص	والمواعظ
ابن العربي	توحيد	أحكام	تذكير	
ابن العربي والقرطبي	توحيد	أحكام	تذكير	وعظ
القرطبي ابن عاشور	توحيد	أحكام		وعظ
	الاعتقاد	والتشريع	المواعظ	والآداب
الصابوني	إصلاح العقائد	إصلاح العبادات	إصلاح المعاملات	إصلاح الأخلاق
المباركفوري	علم التوحيد	علم الشرائع		علم تهذيب الأخلاق
محمد الصباغ	تربية العقول	إصلاح الأعمال الظاهرة		ترقية النفوس
	العقائد	الشرائع (أحكام)		الأخلاق
محمود شلتوت	ناحية العقيدة	ناحية الأحكام		ناحية الأخلاق
عز الدين بليق	أحكام اعتقادية	أحكام عملية		أحكام خلاقية
فضل عباس	العقائد	العبادات	التشريع	الأخلاق
	الربوبية			العبودية

القائل	القسم الأول	القسم الثاني	أقسام أخرى
أبو حنيفة		الأوامر والنواهي	وعد ووعد
الزمخشري	الثناء على الله	التعبد بالأمر والنهي	الوعد والوعيد
الآلوسي	الثناء على الله	التعبد بالأمر والنهي	الوعد
الآلوسي		التعبد وفيه الثناء	الوعد والوعد
محمد غلاب	الإلهيات	أخبار اليوم الآخر	
التوربشتي	بيان المبدأ	بيان المعاد	
فضل حسن عباس		بيان علاقاته في حاضره: بنفسه، وخالقه، وما حوله.	بيان مآله الإنسان
الآلوسي	توحيد (نفي وإثبات)	أحكام شرعية	أحوال المعاد
ابن تيمية والغزالي	الإيمان بالله	العمل الصالح	الإيمان باليوم الآخر
الغزالي	علم المبدأ	علم ما بينهما	علم المعاد
الخويي	معرفة الله		اعتقاد في المعاد
			تصديق رسوله

القرطبي	النشاء على الله بأوصاف كماله..	الأمر بالعبادات والإخلاص فيها والاعتراف بالعجز..	بيان عاقبة الجاحدين.	الابتهاال بطلب الهداية إلى .. والصرف عن..	
الرازي	الإلهيات	القضاء والقدر	المعاد	النبوات	
ابن تيمية	الإيمان بالقرآن	أحكام الأعمال	الجزاء (منتهى الأمر)		
المنـاوي والمباركفوري وغيرهما	توحيد وأحكامه	أحكام المعاش وأحوال الدنيا	أحوال المعاد والآخرة	النبوة وأحكامها	
دروزة	التوحيد	التعبد	اليوم الآخر	أخبار الأمم	الملوكوت وما فيه
الغزالي (عرف بـ	المدعو إليه	الصراط المستقيم	الحال في المعاد		
			منازل الطريق	أقول الجاحدين	أحوال المطيعين

القائل	القسم الأول	القسم الثاني	أقسام أخرى
النسفي عن الآلوسي ابن سريج ابن الميلىق الزركشي ابن برجان القاضي عياض ابن القيم النورسي ابن عثيمين	الوحدانية		الرسالة
		أعمال اللسان	أعمال الجوارح
		مأمور للجوارح	نهى للجوارح
	أسماء وصفات	أحكام	وعد ووعد
		أحكام الدنيا	أحكام الآخرة
	حق الله على العباد	حقوق العباد بعضهم على بعض	علم النبوة وبراهينها
	علم الأسماء والصفات	علم التكليف والمحنة	النبوات
	الإلهيات	الشرائع والتكليف	والتنبؤات
	التوحيد	وإثبات الصفات	علم النبوة وبراهينها
	إثبات الصانع الواحد	العدل	إثبات الحشر الجسماني
	فهم معانيه	والعمل به	التعبد بتلاوته

		قصص	طلب أمور والكف عن أمور		أورده الزركشي
	وصف	قصص	تشريع	تبليغ	هرشfeld ومحمد صبيح
	قيادة الأمة في صراعها مع الجاهلية من حولها	إيجاد المجتمع القرآني الأصيل	إيجاد الشخصية الإسلامية المتكاملة والمتوازنة	هداية إلى الله تعالى	صلاح الخالدي
التَّعَبُّد بتلاو ته	أن يقوم آية على صدق النبي (ﷺ)			هداية: منظمة لعلاقات المكلفين بخالقهم وبالمخلوقين	الزرقاني والألمعي
	معاملة الخلق بعضهم بعضا		معاملة بين الخلق والخالق		الخصري
	مصالح الدنيا		مصالح الدين		الشوكاني
					الغزالي
					البقاعي

ونزيد على مجموع هذه الأقوال ما تعذر إدراجه في أثناء هذا الجدول مما قيل في أمّهات مقاصد القرآن من التّقسيمات إمّا لكثرة أقسامه أو لكثرة فروعه:

- فريد وجدي عن المقاصد فقال: "وعقيدتنا معشر المسلمين: أنه الكتاب الجامع لأشتات الحكم ومتفرقات الأصول، وأن فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدّمة، وأنه جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين الدنيوية والأخروية، وأنه آخى بين طبيعتي الإنسان الجسدية والروحية، وأنه أنزل للعالمين أجمعين وروعت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم. ولا جرم أن كتابا هذا شأنه لا بد أن يكون قد: وعد وأوعد وبشّر وأنذر، ورغب ونفّر، وبنى وهدم، وقوّى ووهّن، ووصل وقطع.

- أبو الأعلى المودودي ذكر أن للقرآن:-
- بحث رئيسيا؛ هو بيان بطلان التصورات والنظريات التي وضعها الإنسان؛ عن نفسه، وعن الحياة، وعن نظام الكون، وعن ذات الإله.
- وهدفه؛ أنه دعوة الإنسان إلى المنهج الصحيح، ببيان الهداية الإلهية التي ضل عنها الإنسان.

ومردّ هذا الكلام كلّه راجع إلى العلم والاعتقاد.
- وتكلم الشرباصي عن رسالة القرآن الأساسية أن يكون هداية:
- للفرد في نفسه. - وللفرد مع الفرد. - وللفرد مع مواطنيه.
- وللفرد مع البشرية كلها.
- بل مع الحياة جميعها.
وأما الشاطبي فخلّص إلى أن مقاصد الشريعة خمس:
1- حفظ الدين 2- حفظ النفس. 3- حفظ العقل.
4- حفظ النسل. 5- حفظ المال. ومنهم من زاد فقال: حفظ العرض.

الباب الثالث

أمّهات مقاصد القرآن الكريم ومراتبها.

ويشتمل على الفصلين الآتيين:

الفصل الأول: تصنيف وترتيب أمّهات مقاصد القرآن الكريم.

المبحث الأول:- معايير التقسيم، وبيان الأقسام الكلية.

المبحث الثاني:- معايير الترتيب، ومراتب المقاصد.

الفصل الثاني: التعريف بأمّهات مقاصد القرآن الكريم.

المبحث الأول:- المقصد الأقصى.(إفراد الله تعالى بالعبودية)

المبحث الثاني:- المقاصد الأساسية.(العلم - الإيمان - العمل الصالح)

المبحث الثالث:- المقاصد الخادمة.(الوازع- التذكير-الوعظ-الإحسان-

الصبر)

المبحث الرابع:- منظومة القرآن المقاصدية.

بعد استخراجنا لعدد وافرٍ مما عُدَّ من أمّهات مقاصد القرآن وكلّياته، نأتي إلى المرحلة الأخيرة التي خُط لها في هذا البحث؛ وهي مرحلة انتخاب وتقرير ما يصلح منها ليكون -بحق- من أمّهات المقاصد التي رمى إليها القرآن الكريم، فإذا بانّت لنا هذه المقاصد أتممنا ما رسمنا لها من فوائد بالتعريف الموجز بكل مقصد من تلك المقاصد بما يتناسب وموقعه من هذه الرسالة، وذلك من خلال مباحث الفصلين الآتيين:

الفصل الأول

تصنيف أمّهات مقاصد القرآن الكريم وترتيبها

بعد أن بيّنا أهمّ الطرق الدّالة على مقاصد القرآن الكريم، ثمّ استخرجنا ما أمكننا مما هو مظنة كونه من مقاصد القرآن الكلية، نأتي الآن إلى مرحلة الكلام على مسألة أسس تقسيم مواضيع القرآن وتصنيفها، لنستخرج أهمّ الأقسام على وفق ما تيسّر لنا من معايير، ثمّ ترتيبها حسب أهمّيّتها وخطرها على ما تيسّر لنا من معايير أيضاً، موزعا ذلك على المبحثين الآتيين:-

المبحث الأول: معايير التقسيم، وبيان الأقسام الكلية.

المبحث الثاني: معايير التّرتيب، ومراتب المقاصد.

المبحث الأول- معايير التقسيم، وبيان الأقسام الكلية.

سردنا فيما سبق عددا وافرا مما عدّه أهل العلم في أمّهات المقاصد، ومرجع ذلك التّعّدّد وذاك التّنوّع إلى اختلاف الاعتبارات والمعايير والغاية الباعثة على كل تقسيم، والذي دلّ عليه القرآن في مثل هذا الموقف هو الاحتكام فيما وقع فيه الاختلاف إلى الله ورسوله؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ النساء: ٥٩، فما لم نجد فيه تصرّحا في نصوص القرآن والسنة، أرجعناه إلى إشارتهما وما اتفق عليه العلماء من تأويلات فيه. فإذا لم نجد في ذلك سندا من نصّ أو إجماع ردّ الأمر فيه إلى استنباطات ورثة الأنبياء وأهل الذكر من أعلام هذه الأمة؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ الأنبياء: ٧، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمُهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء: ٨٣، وعلى ذلك أوردنا الكلام عن معايير التقسيم الموضوعي للقرآن الكريم من خلال النصوص، ثم من خلال مجهود العلماء في هذه المسألة، وبسطنا ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: التقسيم على مقتضى النصوص أو إشاراتها.

إن الأمر يحتاج -بادئ ذي بدئ- إلى إثبات مبدأ التقسيم أو التصنيف قبل الشروع في بيان الأقسام، وأقوى ما وقعت عليه من نصوص القرآن في ذلك التصنيف الثنائي البين لمجموع آي القرآن في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ آل عمران: ٧.

فهذه قسمة ثنائية لأي القرآن (محكم ومتشابه) بغض النظر عما قيل في ماهية كل صنف، فهذه هي الفائدة الأولى.

وأما الفائدة الثانية المستقاة من هذه الآية فهي ما ذكره بعضهم في تفسير هذه الآية مما يخص هذا الموضوع؛ فمن ذلك قول الواحدي (ت468هـ) من أن المراد بالمحكم في هذه الآية ما أمر الله به في كل كتاب أنزله نحو قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾⁽¹⁾. فالمحكمات على قول الواحدي هي ما اتفقت عليه الدعوات السماوية كلها، وهي ثوابت الرسائل السماوية، التي تكرر الأمر بها والحث عليها، أو تثبيتها والبناء عليها في كل رسالة؛ وهي ما عبروا عنه بأصول الإيمان، فقالوا هي ما ذكره تعالى في القرآن من الإيمان والعمل الصالح أو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح،

(1) انظر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي: 199/1.

وممن اعتمد هذا القول وأعمله أبو حامد الغزالي فيما ذكرنا من تقسيمه لآيات القرآن إلى جواهر ودرر، وتقسيمه لمقاصد القرآن إلى مقاصد مهمّة، ومقاصد تنمّة، ثمّ عمد إلى مقاصده المهمّة فجعلها ثلاثة أقسام هي: (معرفة الله، ومعرفة الآخرة، ومعرفة الصراط المستقيم).

وقد علّق ابن تيمية على هذه القسمة فقال: "ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة، فهو حق كما ذكره، ولابد من الثلاثة في كل ملة ودين، كما قال الله تعالى: **قَالَ تَعَالَى إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّعْبِيَّةَ مَنَ ءَامَنَ يَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ الْأَخْرَجُ وَعَمَلُ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿١٦﴾ البقرة: ٦٢ ونحو ذلك في سورة المائدة، فذكر هذه الأصول الثلاثة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح" (1).

وقد تكلم ابن عاشور في ذلك أيضا، فذكر أن المراد من المحكمات في الآية أصول القرآن، إذ قال: "ووصف المحكمات بأنها أم الكتاب، فاحتمل أن يكون المراد من الأم الأصل أو المرجع؛ وهما متقاربان، أي: هن أصل القرآن أو مرجعه، وليس يناسب هذين المعنيين إلا دلالة القرآن للإرشاد والهدى، فالمحكمات هي أصوله؛ الاعتقاد والتشريع، والآداب والمواعظ. وكانت أصولا لذلك بتأضح دلالتها بحيث تدل على معان لا تحتل غيرها، أو تحتمله احتمالا ضعيفا غير معتد به" (2). فالمحكمات - على قوله - هي أمّهات القرآن وأصول مواضعه، وقد حصرها في رؤوس المواضيع الأربعة، وهي (الاعتقاد والتشريع والآداب والمواعظ) (3).

(1) جواب أهل العلم والإيمان، ابن تيمية: 123.

(2) التحرير والتنوير: 155/2.

(3) وقد قدّمت هذا النص في الذكر لأنّه على ما فيه من كثرة التأويلات لمعناه، إلا أنّه مقدّم على ما سيأتي بعده من نصوص السنّة، لأنّ كلا الدليلين مؤوّل، ليس بقطعي الدلالة في بيان أقسام القرآن.

فلتصنيف آي القرآن أصل من القرآن نفسه، كما أنّ التفاوت في الأهمية بين الصنفين ثابت بصريح القرآن في تفريقه بين من يتبع مُحكمه ويؤمن بمنتشابهه، وبين من عدل عن اتباع المحكم إلى قسم المتشابه لعلّه يجد فيه بغيته وهواه، وكذلك تفضيله لمن يتبع الأحسن منه على غيرهم، ومدحه تعالى لعقولهم بقوله: قَالَ تَعَالَى:

﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ١٨﴾

الزمر: ١٨،

وقد نظرت في ما استخرجته من مقاصد قرآنية من صريح الآيات فحاولت اختصارها بردّ بعضها إلى بعض لنرى حصيلتها:

المقاصد	حاصلها
حصول الإيمان به.-----	(حصول الإيمان)
تدبره وتعلّقه والتفكّر فيه.-----	(حصول العلم، الوازع)
الاتّعاظ والاعتبار بما فيه.-----	(الاتّعاظ)
بيانه وتبليغه للنّاس.-----	(حصول العلم الحق)
بيان ما يحتاج إليه الناس من العلم وكفايتهم عناء تكلفه.	(حصول العلم الحق)
إظهار كثير مما كان يخفيه أهل الكتاب من الحقّ.-----	(العمل به)
-----	(العمل الصّالح)
تشريع الأحكام والقيام بالقسط.-----	(العمل به)
اتباع المكلفين له.-----	(التذكير)
الحكم به.-----	(الوازع)
تذكير المكلفين ورفع الغفلة عنهم.-----	(الإيمان، العلم الحق)
تبشير المطيعين وإنذار المخالفين.-----	(بيان العلم الحق)
تصديق ما جاءت به الرسل والأنبياء من الحق.	(التشريع)

(العلم الحق، العمل الحق)	-----
(العمل به)	بيان الحق ورفع الخلاف.-----
(حصول العلم الحق)	تجديد الشريعة بما يصلح للأمة الخاتمة.-----
(التثبيت)	الدلالة على الطريق وهو مقصد الهداية.-----
(العلم، توحيد العبادة)	اتباع الناس لهذه الهداية.-----
(بيان العلم الحق)	إخراج الناس من الظلمات إلى النور.-----
(الوازع)	تثبيت النبي (ﷺ) والمؤمنين على الحق.-----
(الوازع)	إعلام الناس بوحدانيته تعالى وجمعهم على عبادته
(التركية)	وحده.
	الاحتجاج به لصدق الرسالة الخاتمة، وتحدي المخالفين.
	حصول اليقين بالبعث والحساب والجزاء.-----
	حصول التقوى في قلوب الناس.-----
	تركية نفوس أهل الإيمان.-----

وحاصل ما في هذه المقاصد ما يأتي:

(العبادة الخالصة) - (حصول أو بيان العلم الحق) - (العمل به، أو بيان العمل الصالح)

(حصول الإيمان) - (التركية) - (الوازع) - (التذكير) - (الاعتاظ) - (التثبيت).

من السنة:

أمّا السنة الشريفة فقد زادت مسألة التقسيم بيانا وقطعية، فيكفي الاعتماد على ما سلف ذكره من صحيح الأحاديث الواردة في سورة الإخلاص؛ وعلى رأسها ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي الدرداء عن النبي (ﷺ) أنه قال: "إن الله

جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن⁽¹⁾. ثم ما أخرجه البخاري وغيره في صحيحه من أخبار في عدل سورة الإخلاص لثلاث القرآن منها قوله: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن"⁽²⁾. ومن حديث أبي هريرة أن النبي (ﷺ) نادى يوماً فقال: "احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فلما حشد من حشد، خرج النبي (ﷺ)، فقرأ قل هو الله أحد، ثم دخل، ثم خرج فقال: إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن"⁽³⁾.

فمن خلال ما ورد في هذه السورة من أحاديث، ومن توجيهات للعلماء في معنى ذلك مما ذكرناه سالفاً نخلص واثقين إلى ثلاث نتائج في غاية الأهمية:

الأولى - أن القسمة الثلاثية للقرآن قسمة إلهية ثابتة بنص الحديث الثابت في صحيح مسلم.

قال القرطبي بعد اعتماده لهذا التقسيم: "ودلّ على هذا التأويل ما في صحيح مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي (ﷺ) قال: (إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن). وهذا نص، وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص والله أعلم"⁽⁴⁾.

والذي يزيد هذا التقسيم قوة؛ القسمة الثلاثية لأقسام الدين أو مراتبه المستقاة من حديث جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان.

الثانية - أن هذا التقسيم يخص المعاني الكلية للقرآن الكريم وأمّهات مقاصده، لما ذكرت من أقوال أهل العلم في ترجيح ذلك.

(1) سبق تخريجه.

(2) صحيح البخاري: 4/1915، وفي 6/2449، وفي غيره من كتب الحديث.

(3) صحيح مسلم: 1/557، وينظر تحفة الأحوذى: 8/167.

(4) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 20/247، وينظر فتح الباري: 9/61، وينظر تحفة الأحوذى: 8/167.

الثالثة- اعتمدوا على المحتوى الموضوعي لسورة الإخلاص وبعض ما قيل فيها ليقرّروا أنّ موضوع القسم الذي تمثّله هذه السورة هو ثلث التّوحيد، أو أنّ موضوع التّوحيد علّم لمواضيع هذا القسم، على مختلف التسميات الأخرى له (الخبر عن الله تعالى، أو قسم العقائد، الإلهيات، أو علم الأصول، الأسماء والصفات، ...الخ).

أمّا بقيّة الأقسام فقد استنبطها العلماء من غير هذه السورة. فاستعانوا بما قيل في سورة الفاتحة من أحاديث ممّا يشير إلى احتوائها على مجمل معاني القرآن الكريم، وحاولوا استنباط مواضيع القسمين الباقيين من معاني القرآن الكلّية؛ وظاهرٌ مما سلف سرده أنّه لم يعتن بالتأصيل والتعليل لما أورده من مواضيع مُختارة للثلثين الآخرين من أقسام القرآن ولا صرّح بذلك إلا قلة منهم. وجملة ما وقفت عليه من تعليلاتهم طريقتان:

- إحداهما: تعليل من ثنى بالأحكام وثلث بالقصص، وهو معتمد على القسمة المنطقية للكلام؛ وسيأتي ذكر ذلك قريباً.

والثانية: تعليل من أصل للتنبيه بالأحكام المعاش، وثلث بأخبار المعاد -وهو تقسيم الغزالي وغيره- وفي ذلك يقول د. معروف الدواليبي: "اعتمدنا هذا التقسيم أخذاً من الحديث الشريف الوارد في سورة (قل هو الله أحد..) وسورة (الفاتحة)، فقد قال رسول الله: (قل هو الله أحد..) تعدل ثلث القرآن، وقال في سورة (الفاتحة) أنها (أم القرآن)، أي: الجامعة لجميع مقاصد القرآن. وبالتأمل في سورة (قل هو الله أحد..) نجدها لم تتجاوز ذات الله باعتباره (المبدئ للكون). ثم بالتأمل في (الفاتحة) نجدها تناولت (المعاد) في (مالك يوم الدين)، ثم تناولت (المعاش) في باقي السورة"⁽¹⁾.

(1) الأصالة (ملنقى القرآن): 221/2 (من هامش البحث).

وعمدته في هذا تأويلات العلماء والمفسرين لمقاصد سورة الفاتحة، فذهب مذهب الغزالي ومن وافقه من كون الثلثين الآخرين في سورة الفاتحة هما الإخبار عن أمور الآخرة، والأحكام العملية.

ولكن العلماء وإن حصل لهم قريب من الإجماع على كون الثلث الثاني هو ثلث الأحكام، فإنهم لم يجمعوا على كون الثلث الأخير في الفاتحة هو المعرفة بأمر اليوم الآخر، وهذا يرجئ اعتماد هذا التقسيم والتسليم به إلى أن يثبت رجحانه على التأويلات الأخرى.

وهذا يفيد أن ما ورد في سورة الإخلاص يُستفاد منه أمران هما:

- القسمة الثلاثية لمواضيع القرآن.

- وتحديد القسم الأول من مواضيع القرآن.

أما تحديد بقية الأقسام فيحتاج في الوقوف على ذلك إلى قرائن أخرى ومزيد

بيان.

المطلب الثاني: التقسيم على مقتضى القسمة العقلية.

مرّ علينا من خلال ما سلف ذكره في الباب السابق استعمال بعض العلماء لأساسين منطقيين في التعليل لبعض تقسيماتهم؛ اعتمدوا في أولهما على النظر في أقسام الكلام، واعتمدوا في الثاني على النظر في أقسام الحكمة، أو أقسام العلم، وسأضيف مع ذكرها هنا والتعليق عليها- بعض ما رأيته أساسا لتقسيمات أخرى.

أولاً:- التصنيف اعتماداً على القسمة العقلية للكلام.

وذلك ما أوردّه بعضهم⁽¹⁾ في توجيهه لكون التلثين الآخرين لأقسام القرآن هما القصص والأحكام؛ فقد استندوا إلى القسمة المنطقية للكلام التي تفيد أنه منقسم إلى خبر وإنشاء:

وقسموا الخبر -على مقتضى طبيعة الموجودات- إلى خبر عن الخالق، وخبر عن المخلوقات.

وقسموا الإنشاء إلى أمر ونهي وإباحة.

قال ابن تيمية في ذلك: "وقد بينّا أن أحسن الوجوه أن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد، وقصص، وأحكام ... وذلك لأن القرآن كلام الله، والكلام نوعان: إما إنشاء، وإما إخبار.

والإخبار: إما خبر عن الخالق، وإما خبر عن المخلوق. فالإنشاء هو الأحكام؛ كالأمر والنهي. والخبر عن المخلوق؛ هو القصص. والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته"⁽²⁾.

وبمثل ذلك قال ابن القيم: "...فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه. فأخلصت سورة قل هو الله أحد الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته؛ فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشُّرك العلمي"⁽³⁾.

(1) ينظر الإِتقان في علوم القرآن: 424/2، وروح المعاني: 267/30، وفتح الباري: 61/9،

وتحفة الأحوذى: 167/8، والفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 13/17، و103-104

و121 و134، وزاد المعاد: 316/1-317.

(2) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 134/17. وينظر المرجع نفسه: 13/17، و103-104.

(3) زاد المعاد: 316/1-317.

وتابعهما الزركشي فقال: "وأحسن ما قيل فيه -يقصد حديث سورة الإخلاص- أن القرآن قسمان: خبر وإنشاء، والخبر قسمان؛ خبر عن الخالق، وخبر عن المخلوق. فهذه ثلاثة، وسورة الإخلاص أخلصت الخبر عن الخالق، فهي بهذا الاعتبار ثلث القرآن"⁽¹⁾.

والاعتراض الوارد على هذا الأساس هو أن قسَمي الخبر عن الله تعالى، والخبر عن الخلق يُعدّان ربعين على مقتضى القسمة لا ثلثين، لأنّهما نصفان للنّصف. كما أن التعبير عن قسم أخبار المخلوقين بالقصص الذي ينصرف غالباً إن لم يكن كليّة إلى ذكر أخبار الغابرين، حصر غير مستساغ في اللغة ولا مرضي في المصطلح القرآني، ولا هو من قبيل التعبير عن القسم بأهمّ ما فيه كما في القسم الأول، لأن أهمّ ما فيه هي أخبار الآخرة.

غير أن الجانب الأصيل والقوي في هذا الأساس موافقته للعبارة القرآنية السارية في كل جنباته وهي الإيمان والعمل الصالح، فجانِب الأخبار متعلّقة بالإيمان والتصديق، وجانب الإنشاء متعلّق بالعمل الصّالح، وذلك هو واجب المكلف وموقفه المُفترض من كلا القسمين.

ثانياً: - التصنيف بالنظر إلى أقسام الحكمة.

وأساس هذا التّقسيم هو ما درج عليه الحكماء من تقسيمهم الحكمة إلى ما يتعلّق منها بالنّظر، وما يتعلّق منها بالأعمال؛ أو ما له وجود داخلي باطني، وما له وجود خارجي.

وعلى هذا الأساس وضع ابن رشد تقسيمه لمقاصد الشرع، فجعل مقصوده في تحقيق أمرين:

1- تعليم العلم الحق (العلم النظري):

(1) البرهان في علوم القرآن: 446/1.

وهي (معرفة الله -تبارك وتعالى- وسائر الموجودات على ما هي عليه، وبخاصة الشريفة منها، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروي).

2- تعليم العمل الحق (العلم العملي):

وهي (امتثال الأفعال التي تفيد السعادة، وتجنب الأفعال التي تفيد الشقاء)، وجعلها قسمين:

- أ- أفعال ظاهرة بدنية، والعلم بهذه هو الذي يسمّى الفقه.
- ب- أفعال نفسانية، مثل الشكر والصبر وغير ذلك من الأخلاق التي دعا إليها الشرع أو نهى عنها، والعلم بهذه هو الذي يسمّى الزهد وعلوم الآخرة..(1).

ويُرجع ابن القيم ذلك إلى عاملي القوة في الإنسان فيقول: "للإنسان قوتان قوة علمية نظرية وقوة عملية إرادية. وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوّتيه العلمية والإرادية.

واستكمال القوة العلمية إنما يكون: بمعرفة فطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوة العلمية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه، وتقصيره هو في أداء حقه، فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة، لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه، ودون دون ذلك"(2).

(1) ينظر فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، بن رشد : ص54-55.

(2) الفوائد: 18/1.

ثم بيّن موقع ذلك كله من سورة الفاتحة إلى أن قال: "وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وإن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب، الذي سببه فساد القصد والعمل" (1).

وهذا التقسيم وجهٌ علّل به البيضاوي تسمية الفاتحة بأمر القرآن فقال لأنها مُشتملة على "جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية؛ التي هي سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء" (2).

وقد ذكر الشوكاني موقع هذين القسمين من الفاتحة فقال: "فالمشير إلى الحكمة العملية الصراط المستقيم، والمشير إلى الحكمة النظرية ذكر السعداء وضدهم" (3).

وعليه فسّر ابن كثير قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾﴾ الأحقاف: ٣٠ فقال: "وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾؛ أي: في الاعتقاد والإخبار ﴿وإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبّره صدق وطلّبه عدل؛ ... فالهedy هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح" (4).

وقال في موضع آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾﴾ التوبة: ٣٣، فالهedy هو ما جاء به من الأخبار

(1) المصدر نفسه: 18/1.

(2) تفسير البيضاوي: 15/1-16، وينظر أسرار ترتيب السور، السيوطي: ص 74، وفتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: 26/1.

(3) فيض القدير: 419/4.

(4) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 171/4، طبعة دار الفكر بيروت، 1401هـ.

الصّادقة والإيمان الصّحيح والعلم النّافع، ودين الحقّ هو الأعمال الصّالحة الصّحيحة النّافعة في الدّنيا والآخرة⁽¹⁾. فردّ القسمين النظري والعملي العلم النّافع والعمل الصّالح.

وعلى هذا الأساس اعتمد أبو حامد الغزالي في تقسيمه لآيات القرآن، إذ جعل آيات القرآن نوعين: علميّة وعمليّة. وفي الآيات ما يجمع بين الأمرين. وبه وجّه كون الفاتحة جامعة لمقاصد القرآن؛ ذكر ابن تيمية ذلك فقال: "وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، دون ما يتعلّق باليوم الآخر والقصص، وسماها جواهر القرآن. وجمع العمليات وسماها درر القرآن. وجعل الشّطر الأول من الفاتحة من الجواهر، والثاني من الدرر. والآيات التي تجمع المعنيين، يذكرها في أغلب النوعين عليها"⁽²⁾.

ومنهم من جمع بين الاعتبارين فذكرهما معا كابن كثير في قوله: "فإنّ الشريعة تشتمل على شيئين علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فأخباراتها حق، وإنشاءاتها عدل."⁽³⁾

وفي ضوء هذين الاعتبارين وضعت هذا الجدول الذي جمعت فيه بينهما، وأدخلت فيه ما وافقهما من تقسيمات، ووزعت على وفق ذلك ما أمكن من أقسام أو مواضيع القرآن مبينًا ما رمت إليه من مقاصد:

(1) المصدر نفسه: 350/2.

(2) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 114/17-115.

(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 204/4.

مختصر مجموع التقسيمات				
القسم الأول		القسم الثاني		
علم		عمل		
الحكم النظرية (قصص وأخبار).		الحكمة أو الأحكام العملية (الصراف المستقيم).		
فهم معانيه		العمل به		
الهداية إلى الحق في الاعتقاد والأخبار		وإلى طريق مستقيم في الأعمال		
قسم الأخبار (خبر صادق)		قسم الإنشاء (طلب عدل)		
خبر عن الله	خبر عن مخلوقاته	أمر		
		نهي	إياحة	
		أفعال بدنية (الفقه).	أفعال نفسانية (الزهد وعلوم الآخرة).	

وموضع الإشكال في هذا التقسيم هو موقع الاعتقاد والإيمان من العلم والعمل، إذ أدرجه من عدّهما عملاً من أعمال القلب في جانب العمل، وأدرجه من عدّه في الأعمال الباطنة أو من درجات العلم في قسم النظريات، مثله مثل العلم لأن العلم ثمرة من ثمار حركة الفكر وعمل العقل، وكذلك الإيمان؛ فإنّه ثمرة من ثمار تصديق القلب بها وإذعانه لها.

والإشكال الوارد على هذا التقسيم هو إدراج الإيمان تحت مصطلح العلم النظري، إذ إن التعبير عن (إدراك الشيء على ما هو عليه، والتصديق به واعتقاد صحّته) بالنظري لا يسوغ إلا ببعض التجوّز، لأن الاعتقاد والإيمان مبين للنظر، بل هو في حقيقة الأمر عمل من أعمال القلب.

والأسلم في ذلك استعمال العلم بمعنى (اليقين)؛ أي: حصول الإدراك والتصور مع الحكم القاطع بصدقه، وإذعان القلب له، وذلك دون تقييده بكلمة (النظري). وفي هذه الحال يمكن جعل العمل قسيماً له، بمعنى الأعمال الظاهرة.

وهذا هو الأنسب في التقسيم من وجهة استعمال الشارع؛ لأنه لا وزن للإدراك في الإسلام إلا بالتصديق والإذعان، وهو قرار القلب. لذلك لا تجد لهذه الثنائية ذكرا في القرآن إلا بمصطلحي الإيمان والعمل الصالح. ونجد أيضا أن الشارع مدح من وصفهم بالعلم في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾** فاطر: ٢٨، وهو الذي كان عليه السلف، فقد نقل ابن كثير عن الحسن البصري أنه قال: "العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا **﴿إِنَّمَا يَخْشَى..الآية﴾**" (١)، وقال الربيع بن أنس: "من لم يخش الله فليس بعالم" (٢). وهذا المعنى من العلم هو الذي يتعلق به الثواب أو العقاب.

وكذلك مُسمّى العلم في المصطلح القرآني، ويؤيد ذلك أنه لما أتى محتملا غير هذا المعنى أتى معرّفا بالإضافة، كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾** الشعراء: ١٩٧، فحمل مجاهد هذه الصفة على من أسلم منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان وغيرهما ممن أسلم، وحملها ابن عباس على من أسلم ومن لم يُسلم (٣).

فعلى الإطلاق الأول، يكون الإيمان تابعا للعلم:

العلم		الإيمان	
العمل	العمل	العقل	القلب
الجوارح	العمل	النظر	الحكم
العمل	العمل	الإيمان	العمل

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 554-555/3.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 343/14.

(3) ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 138/13.

وأما على الإطلاق الثاني، فيكون الإيمان تابعا للعمل:

العلم	العمل	
العقل	القلب	الجوارح
النظر	الإيمان	العمل الصالح

وأما إن وسّعنا من دائرة العمل ليشمل ما ظهر وما بطن من نشاطات الإنسان العقلية والعاطفية، فلا يسعنا استثناء النظر من الدخول تحت الأعمال لأنه عمل ونشاط الذهن أو العقل. فيدخل الكل تحت مُسمى العمل على ما يأتي:-

العمل			
عمل باطن		عمل ظاهر	
الأخبار		الأحكام (الظاهرة)	
العلم بمعنى: النظر والاعتقاد (الجانب النظري)		العمل: بمعنى القول والفعل (الجانب العملي)	
عمل العقل:	عمل القلب:	عمل اللسان:	عمل الجوارح:
إدراك الأشياء على ما هي عليه	اعتقاد صحة أو كذب التصور	العمل بمقتضاه (وهو التصديق العملي)	ترك العمل به أو مخالفته قولاً أو فعلاً.
الأخلاق والتزكية، أو درجة الإحسان			

والذي يظهر لي أن هذا الأساس يقتضي - هو الآخر - قسمة ثلاثية، أولها عمل العقل وهو إدراك الأشياء على ما هي عليه (التصور، أو الوجود الذهني)، وثانيها عمل القلب⁽¹⁾ وهو محاولة الحكم بصدق ذلك الإدراك أو كذبه (التصديق الباطني)،

(1) وههنا مسألة عويصة يصعب حلها وهي فك ذلك التداخل الحاصل بين العقل والقلب في المفهوم القرآني، والأظهر أن العقل من وظائف القلب، لصريح قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلَّمَ أَفَلَهُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَادَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٦﴾﴾ الحج: ٤٦ .

وثالثها عمل الجوارح، وهو محاولة إيجاد وجود خارجي ظاهر لذلك التصور (الوجود اللفظي أو الحقيقي).

-العقل: تصوّر - القلب: تصوّر وحكم - الجوارح: تصوّر وحكم وعمل.

ثالثا: - بالنظر إلى موقف المكلف من أقسام الموجودات.

وذلك أن القرآن أتى بالهداية للإنسان ليريه موقعه وطريقه في هذا الوجود، فإذا نظرنا إلى هذا الوجود وجدناه منقسما إلى خالق ومخلوقين، فالقرآن بيّن له علاقته بخالقه، وعلاقته بنفسه وعلاقته ببقية المخلوقات.

فأما علاقته بخالقه فهي علاقة عبد بسيّده، فهي علاقة عبودية.

وأما علاقته بنفسه فهي علاقة بناء للذات وتركيزية للأنفس.

وأما علاقته بغيره من المخلوقات فهي علاقة استخلاف وعمارة.

فالقرآن أنزل ليبين مظاهر تلك العبودية وشعائرها، وليعلم الإنسان بكيفية عمارته هذا الكون، وضوابط الاستخلاف فيه، وليبني ذات الإنسان التي هي آية الخلافة والعبودية.

رابعا: - بالنظر إلى مكونات الإنسان، وحظ كل جانب من تعاليم القرآن.

إن النظر إلى مكونات الإنسان توقفه على جوانب ثلاثة، يتوقف كماله على كمالها، وهي العقل والروح والجسد، وإن أمل أي متدين من أي شريعة أو دين أن يمدّه بأسباب القوة والكمال مما يتعلّق بهذه الجوانب.

فأما العقل فإن ازدياد قوّته مرهون بازدياد رصيده المعرفي كما وكيفا.

وأما الروح فإن ازدياد قوّتها مرتبطٌ بازدياد رصيدها من القيم والمبادئ السامية والأخلاق الفاضلة، والخواطر البريئة الفطرية.

وأما الجسد فإن ازدياد قوّته مُرتبطٌ بازدياد حظّه من الحركات السوية، والأعمال الصالحة.

وعلى هذه الحاجات تنزلت الآيات، وانقسمت بذلك إلى ما يُرشد العقل، وما يغذي الروح، وما يصوّب الأقوال والأعمال.

المطلب الثالث: التقسيم على مقتضى التصنيفات الموضوعية لمحتويات القرآن الكريم.

وعمدتي في هذا المطلب هو النظر في ما جمعت فيما سلف ذكره في آخر الباب الثاني مما ورد في القرآن من مهمّات المقاصد، وما استخرجنا من تقسيمات العلماء وتصنيفاتهم المختلفة، ثمّ رد ما يمكن رده من تلك الأقسام إلى بعضها لتستبين لنا -في الأخير- رؤوس المواضيع وأمّهات المقاصد.

أولاً:- حصر المواضيع الأساسية.

بعد النظر إلى الخصائص الموضوعية لهذه الأقوال ورد الفروع منها إلى أصولها، وحذف المكرر، أمكننا حصر ما سلف ذكره من الأقوال في الأقسام الموزعة موضوعيا على أعمدة الجدول الآتي:

مختصر مجموع التقسيمات		
القسم الأول	القسم الثاني	الأقسام الأخرى وأغراضها
- علم العقائد.	- الديانات - علم الفروع-	- القصص، ماضي البشرية، أخبار المخلوقين،
- علم الأصول.	علم العبادات.	حكاية أقوال الجاحدين وأحوال
- الإلهيات.	- بيان التكاليف والشرائع؛	المطيعين. حث على الاستقامة.
- علم المبدأ؛	المأمور به والمنهي عنه والمباح.	

تهذيب الأخلاق، السلوك، الآداب، تصفية الباطن، والإخلاص، التركية، ترقية النفوس، معرفة منازل الطريق، أحكام أعمال القلب. حث على الإحسان والتركية.	- الإيمان بالله وبالقرآن، والقضاء والقدر، وتصديق رسوله. - الخبر عن ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه. - التعريف بالله تعالى، لتحصل المعرفة به، لتقديسه. - التوحيد (نفي وإثبات) وأحكامه؛ وفيه الأسماء والصفات.	- للعمل التبعّد به، إصلاح الأعمال الظاهرة، الاشتغال بالخدمة والطاعة. - قسم الإنشاء. - بيان أحكام الأعمال والمعاش وأحوال الدنيا، سبيل السعادة، وحق الله على العباد، الصراط المستقيم والعمل الصالح. - بيان علاقات الإنسان (بنفسه، وخالقه، وما حوله) وحقوقها كل هذه عليه.
أخبار اليوم الآخر، بيان مآل الإنسان وأحوال المعاد وعاقبة الأمر، الإيمان باليوم الآخر، الحشر والجزاء. حث على الاستقامة.		
الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار. حث على الاستقامة.		
والمواعظ، أو الوعظ حث على الاستقامة.		
التذكير لاستدامة العلم.		
التثبيت لاستدامة العمل.		
القيام بحق العبودية لإرضاء الخالق.		
علم النبوة وبراهينها الرسالة النبوت وأحكامها لحصول العلم.		

إقامة الحجّة. لحصول اليقين.		
لفهمه. لحصول العلم.		
التبليغ، والبيان. لحصول العلم.		
رفع الخلاف، وإزالة اللبس. لحصول العلم.		
وهذه الأقسام راجعة إلى أحد هذه النواحي الثلاث: - التحفيز على العمل ودوامه - التزكية والإحسان - بيان الحق واستمرار وجوده	وجمع البقاعي بين هذين القسمين في قوله: تعريف الخلق بالملك وما يرضيه.	

ثانياً: - ردّ بعض هذه الأقسام إلى بعض.

من خلال النظر في هذه الأقسام يتّضح لنا جلياً انحصار كل تلك الأقوال في ثلاثة أقسام؛ اتفقوا على تعيين الأول والثاني منها -على خلاف في سعة كل منهما- واختلفوا فيما عدهما من الأقسام، وسأذكر كلاً منها مع بيان مرجع كل قسم منها فيما يأتي:

القسم الأول؛ وقد اتفقوا على كونه قسماً من مواضيع القرآن ومقصداً من مقاصده على اختلاف عباراتهم:

فمنهم من وسّع فقال هو (العلوم النظرية، أو علم العقائد، أو علم الأصول، أو الإيمانيات: الإيمان بالله وبالقرآن، والقضاء والقدر، وتصديق رسوله).

ومنهم من اقتصر على أهم ما في هذا القسم فقال هو (علم المبدأ، أو علم الإلهيات، أو الخبر عن ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، أو التعريف بالله تعالى).

ومنهم زاد في الاختصار فعنون لهذا القسم بأهم مسائل الإلهيات وهي مسألة الوجدانية فقال هو (علم التوحيد وأحكامه؛ أو الأسماء والصفات). فتارة يذكرونه بأهم مسأله على الإطلاق وهي مسألة التوحيد، أو علم التوحيد، ووسّعه البعض فقالوا هو الخبر عن الله تعالى أو الإلهيات، ووسّعه آخرون فقالوا علم العقائد أو علم الأصول، فأدخلوا فيه العلم بجميع العقائد الواردة في القرآن، فيمكن رد كل ما ذكره هنا إلى قسم العلوم النظرية والإيمانيات. وهو من المقاصد العالية غير أنه يرمي إلى إقامة القسم الثاني.

[العلوم النظرية والإيمانيات]

القسم الثاني؛ وقد ذكره أغلب من تعرّض لأقسام معاني القرآن على اختلاف في التعبير عنه:

(علم الأحكام العملية، أو علم الفروع، علم العبادات، الديانات، الشرائع، التكاليف. أو إصلاح الأعمال الظاهرة، وهو قسم الإنشاء)؛ والهدف منه بيان سبيل السعادة، بيان الصراط المستقيم، بيان علاقات الإنسان في حياته: (بنفسه، وخالفه، وما حوله)، بيان المأمور به والمنهي عنه والمباح، بيان أحكام أعمال الجوارح، أحكام المعاش وأحوال الدنيا، بيان حقوق العباد بعضهم على بعض، بيان العمل الصالح، بيان الطاعات.

وهذا قسم منفصل، وهو المقصد من جلّ الأقسام المذكورة، أما هو فالمقصد منه تحقيق العبوديّة الخالصة التي خلق الإنسان لأجلها، والمقصود منها إرضاء الله تعالى وما ينجم عنه من النّجاة من النار، والفوز بالجنّة، ومآل ذلك كلّهُ إلى تحصيل السعادة الأبدية. [أحكام الأعمال]

وأما القسم الثالث أو باقي الأقسام فاختلّفوا في تقديرها:

1- ف قيل فيه: هو (القصص، بيان ماضي الإنسان، أخبار الأمم، حكاية أقوال الجاحدين، وأحوال المطيعين)، ومنهم من وسّع الدائرة فقال هو (الإخبار عن المخلوقين، والملكوت وما فيه)؛ فمنهم من استعمل القصص بمعنى أخبار الماضين، وهو الأقرب إلى معنى القصص، ومنهم من وسّع فيه، فجعله في مقام أخبار المخلوقين؛ وعلى هذا الإطلاق تدخل فيه أخبار الآخرة وغيرها.

وظاهر أن الغاية من هذا القسم هو الوقوف على ما فيه من الوعد والوعيد لحصول الاعتبار والاتّعاظ، والحذر والرّغبة من الوقوع فيما وقع فيه السابقون ممن أساء وهلك، والرغبة في متابعة طريقة من أحسن ونجى. ففيه الترغيب والترهيب، وفيه الوعد والوعيد، وفيه الوعظ والتذكير؛ والمقصد من كل هذا هو الحث على السّعي في تحقيق المقصدين السابقين. [الاعتبار والاتّعاظ]

2- وقيل هو معرفة (أخبار الآخرة، منتهى الأمر، عاقبة الأمور، أحوال المعاد وأحكام الآخرة، مآل الإنسان، الحشر: الجزاء وتفصيل الثواب والعقاب)؛ أو الإيمان باليوم الآخر.

وبينّ رجوع هذا القسم إلى قسم الأخبار، ويتّضح للنّاظر في هذا القسم أن الغاية منه حصول الرّغبة في خير الآخرة، والرّغبة من أهوالها، وهو دافع إلى معرفة سبيل الفوز والنّجاة، ثم الاستقامة على المنهج الموصل إلى برّ الأمان. [الاعتبار، الحث على الاستقامة]

3- وقيل هو (الوعظ أو المواعظ)؛ ومقصود هذا القسم حدوث الرّغبة أو الرّغبة في النّفس، وذلك لحثّها على البحث عن طريق الفوز والنّجاة، والاستقامة عليه. [الحث على الاستقامة]

4- وقيل هو (الوعد والوعيد، أو الترغيب والترهيب، أو التبشير والإنذار)؛ والمقصد من هذه الأضداد هو حدوث الاتعاض والاعتبار في النفس، لتتحرك نحو خلاصها؛ وهو الإتيان بالعمل؛ وهو الحث على الاستقامة.

[الحث على الاستقامة]

5- وقيل هو (تهذيب الأخلاق)؛ تصفية الباطن، التزكية، ترقية النفوس، السلوك والآداب، أحكام أعمال القلب، معرفة ذلة العبودية، الإخلاص والاعتراف بالعجز، التعريف بمنازل الطريق، طلب المكاشفات والمشاهدات، الإحسان.

وهو في حقيقته من قسم الأعمال ولكن غايته السعي إلى ما أمكن تحصيله من مراتب الكمال في المزاجية بين الإيمان والعمل. فمرجع هذا القسم إلى الإتيان بالقسمين على أكمل الوجوه الممكنة؛ أي: (إحسان العمل، أو العمل الصالح في مرتبة الإحسان)، ومقصوده القيام بوظيفة العبودية وهي أعلى مراتب الأعمال بل هي غايتها. [إحسان العمل]

6- وقيل هو (القيام بحق العبودية: وهو حق الله على العباد)؛ وهو غاية المقاصد، أو المقصد الأقصى، ولا مقصد من الأعمال يُرجى من المكلف بعده، وإنما غايته إرضاء المعبود عز وجل. [العبودية الخالصة]

7- وقيل هو (علم النبوة وبراهينها، الرسالة، النبوات وأحكامها)؛ وظاهر رجوع هذا القسم إلى قسم العلم والعقائد، لأنه دائر على إثبات النبوة، والرسالة بالحجج والبراهين، والمقصد منه إثبات صدق القرآن وعلومه. وأما ما فيه من الأخبار فبين رجوعها إلى قسم القصص، الذي يُقصد به الوعظ والترغيب والترهيب، وذلك لأجل الاستقامة. [بيان العلم الحق]

8- وقيل هو (إقامة الحجّة)؛ أي: أنزل القرآن ليكون حجّة، ومرجعه إلى بيان الحق والعلم اليقين، ليعمل به. [الدلالة على العلم الحق]

9- وقيل (لفهمه؛ أي: أنزل القرآن ليفهم أولًا)؛ ومرجعه بين إلى القسم الأول؛ وهو حصول العلم بما في القرآن. [حصول العلم الحق]

10- وقيل هو (التذكير)؛ ومقصود هذا القسم استمرار وجود العلم خصوصاً بالمرهبات والمرغبات لحمل النفس على الاستقامة. [حفظ العلم الحاصل]

11- وقيل هو (التثبيت)؛ والمقصود من هذا القسم استمرار الثبات على الحق في العلوم الاستقامة على الأعمال. [استمرار الاستقامة]

ثالثاً:- تعيين رؤوس مواضيع القرآن وأمّهات مقاضده:

ومن خلال جمع ما أثبتناه في آخر كل صنف من هذه الأصناف نحصل على ما يأتي:

- 1- الإيمانيات (العقائد).
- 2- أحكام الأعمال (الشرائع).
- 3- العلوم النظرية (بيان العلم الحق).
- 4- التذكير: حفظ العلم الحاصل.
- 5- الوازع (الحث على الاستقامة).
- 6- الاعتبار والاعتاظ (المواعظ).
- 7- الإحسان (التزكية).
- 8- العبودية الخالصة.
- 9- التثبيت وحصول الصبر: لاستمرار الاستقامة.

1- (قسم العقائد):

أما موضوع المقصد الأول فهو بلا شك قصد القرآن إلى بيان ما يجب أن يُعلم ويؤمن به أي: حصول العلم مع حصول تصديق القلب بها وخضوعه لها، وهي عقائد الإسلام المُعبّر عنها في كثير من الآيات بالإيمان بالله واليوم الآخر، وفي حديث جبريل بأركان الإيمان الستة.

واخترنا تسمية هذا القسم بقسم العقائد، عازفين عن مصطلح العلم لما سلف ذكره من أن العلم المعتمد به في المصطلح القرآني هو ما كان أساساً للإيمان، فلا

يُعتد به في الإسلام ولا يُعبأ به إلا من حيث كونه موصلاً إلى الاعتقاد والإذعان؛ وهو الإيمان الذي يتعلّق به الأجر والثواب، وهو الموافق لقسم الإيمان المذكور في حديث جبريل.

2- (قسم الشرائع العملية):

ووقع قريباً من ذلك الإجماع بالنسبة للقسم الثاني؛ وهو قصد القرآن إلى بيان أحكام الأعمال، وهي شرائع الإسلام المُعبّر عنها في كثير من الآيات بالعمل الصّالح، وتارة بأهم ما فيها؛ وهما ركنا الصّلاة والزكاة، وفي حديث جبريل بأركان الإسلام الخمسة.

ولا خلاف لأحد -ممن يُعتد بقوله- في كون هذا القسم يحقق مقصداً كلياً من مقاصد القرآن، ولهذا القسم طرفان أو حدّان:

أحدهما الإتيان بأقل ما يُحفظ به نظام الحياة الخاصة والعامة على الأقل، وبأقل ما تحصل به النجاة في الآخرة؛ وهو القدر الذي يطيقه أكثر المكلفين، وغايته تحصيل الكمية في الجماعة المؤمنة، وإنقاذها من النار.

والثاني الإتيان بالحد الأدنى المذكور مع الإتيان بأكثر ما تطيقه النفوس من الأعمال الصّالحة، وأبواب الخير. والغاية من هذا الحد هو حصول النوعية في المجتمع المؤمن، مع إبقاء المجال مفتوحاً للمنافسة على مراتب الجنان.

وموقع الخلق من هذين الحدين بين ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

وما أكثر ما يجمع القرآن بين هذين القسمين -العقائد والشرائع- في عبارة (الإيمان والعمل الصّالح)⁽¹⁾.

(1) وردت العبارة القرآنية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خمسين مرّة في القرآن، وقلّما يذكرها تعالى ولا يعقبها بذكر الجزاء الحسن على من وصفهم بها. ينظر عبارة (آمنوا

3- (العلوم النظرية، أو بيان الحقائق):

هو جانب العلم، لأن العلم أو الإعلام مقصد عام في القرآن يشمل كل محتوياته ومواضيعه؛ فالأحكام العملية والشرائع علم (في وجودها الذهني)، والتزكية علم، والترغيب والترهيب والوعد والوعيد علم وكذلك الإيمان والعقائد علم، ويكفي به أهمية أن أول آية نزلت من القرآن أمرت بأعظم أدوات تحصيله؛ وهما القراءة والكتابة في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١﴾ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٣﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٤﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٥﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٦﴾﴾ العلق: ١ - ٥ فالعلم أساس الإيمان والعمل وأساس باقي المقاصد الكلية والجزئية.

4- (الـوازع، أو الحث على الاستقامة):

ويضم مجموعة من الأقسام جميعها يفيد الحث على الاستقامة، وقد أطلقت على هذا الصنف من علوم القرآن اسم (الوازع) كي يشمل الدوافع والمُرغبات معاً. وقد اختلف العلماء في التعبير عن هذا الجانب في القرآن؛ فمنهم من عبّر عنه بأبلغ ما فيه أثراً في النفس البشرية؛ وهي أخبار اليوم الآخر، ومنهم من عبّر عنها بالقصص، ومنهم من عبّر عنه بالوعد والوعيد، أو بما فيهما من الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، وكلّها تهدف للمعنى نفسه؛ إذ كلّها مُحفّزات على المعرفة والإيمان ثم العمل الصالح على مرتبتيه.

وعملوا الصالحات)؛ برنامج القرآن الكريم، الإصدار السادس 1996. وأما التعبير عن هذين

المقصدتين بغير هذه العبارة فكثير يعسر حصره.

5- (الإحسان):

وكما أنّ هذا الوازع منقسم إلى محبّبات، وإلى منفّرات، فإنّ لهذا العمل الصالح المطلوب من المكفّين طرفان:

- أحدهما متعلّق بالمنفّرات؛ وهو أقلّ ما تتمّ به النّجاة من النّار، وتجنّب الحياة الضنك في الدنيا، وهو أدنى مراتب العمل؛ كالذي أقسم عليه الأعرابي في حديث أركان الإسلام من أنّه لا يزيد على ما ذكر له النّبي (ﷺ) ولا يُنقص، فبشره النّبي (ﷺ) بالفلاح إن صدق.⁽¹⁾

- وثانيهما متعلّق بالمحبّبات والمرغبات، وهو ما يتوصّل به إلى الحياة الكريمة في الدنيا، وأعلى مراتب النّعيم في الآخرة.

والسعي بالذات البشرية من العصيان إلى الطاعة في أدنى مراتبها، ثمّ السعي من هذه المرتبة إلى أسمى مراتب العمل الصّالح يحتاج من الإنسان إلى وظيفة أخرى هي الإحسان الذي عبّر عنه بعضهم بالتزكية، أو السلوك، أو تهذيب الأخلاق، أو الآداب، أو ترقية النفوس إلى غير ذلك من المصطلحات، والأقرب منها إلى مصطلحات الشّرع هو الإحسان، والتزكية، وتهذيب الأخلاق الذي قال فيه (ﷺ): "إنما بعثت لأتمم صالح الأعمال"⁽²⁾، فالأركان الخمسة هي أقلّ ما يجب الإتيان به، أما مكارم الأخلاق فهي أعلى مراتب الأعمال الصّالحة، والإحسان هو المراقبة.

وعلى ذلك مُستند من ثلث بالأخلاق والتزكية فجعلها قسما من أقسام القرآن ومقاصده الكلية.

(1) قال الراوي بعد ذكر الحديث: "فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد عليه ولا أنقص"، قال رسول الله (ﷺ): "أقلح إن صدق." صحيح البخاري: 25/1.

(2) مسند الإمام أحمد: 381/2، والمستدرک علی الصحیحین: 670/2.

6- (التذكير):

الصنف الآخر الذي يتعذر الاستغناء عنه أيضا هو مقصد التذكير؛ وتكمن أهميته في كونه عاملا على استدامة وجود تلك العلوم، ومقاومة آفتي الغفلة والنسيان، وهما أخطر ما يواجهه الإنسان من الآفات في مدة وجوده في هذه الحياة، وذلك أنها كانت سببا لأول معصية في تاريخ البشرية؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُحِذِّ لَهُ عَزْمًا﴾ طه: ١١٥.

فهو السبب في ما حل باليهود من اللعنة وقسوة القلوب؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّثْقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا﴾ المائدة: ١٣، وهو سبب ضلال النصارى، كما في قوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ أَخَذْنَا مِثْقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ المائدة: ١٤.

والفرق بين النسيان المنسوب لآدم عليه السلام والنسيان المنسوب لأهل الكتاب، أن الأول من طبائع البشر، غير أن هذا النوع إن تذكر صاحبه ولم يحفل بالمذكور؛ أصبح تناسيا يتعلّق به الوعيد، وطمس البصيرة، ويُنسيهم الله تعالى لقاءه جزاء تعاميه عن الحق حينما ذكروا به.

لذلك أمرنا تعالى من خلال نبيه ﷺ بالمسارعة في التذكّر والإنابة حين النسيان بقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ الكهف: ٢٤.

والسر في هذه الوظيفة، أن العلم قد يحصل، فإذا انعدم ما يبقي وجوده اضمحل وتلاشي، وبذلك لا إيمان ولا وازع ولا عقيدة ولا عمل!.

7- (التثبيت).

إن العلم قد يحصل للمكلف ثم يحصل له الإيمان ويثمر عملاً صالحاً، ولكن استمرار وجود العلم والإيمان يحتاجان إلى مصابرة في الاعتبار والمذاكرة، واستمرار العمل أشدّ منهما حاجة إلى الصبر والثبات لأجل استمرار وجوده، أو ازدياده كما وكيفا.

لذلك كان تعالى يقول لنبيه في الحكمة مما قصّ عليه من أخبار إخوانه الأنبياء مع أمهم: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴿١٢٠﴾﴾﴾** هود: ١٢٠، وقال له ممتناً عليه بهذه النعمة: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَفَدَكْتَ تَرَكَّنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾﴾** الإسراء: ٧٤، فأحوج ما يحتاج إليه المؤمن بعد علمه وإيمانه هو خصلة الصبر.

وهذان الصنفان هما ما وقع التعبير عنهما بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر في قوله تعالى: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾﴾** إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٢﴾ **﴿العصر: ١ - ٣﴾**، والتواصي بالحق (تذكير بالحقائق)، والتواصي بالصبر (تواصي على الثبات على الحق في العقائد والأعمال) وأكثر تعلقه بالأعمال الظاهرة، لنقلها على النفس.

8- (النوع — ظ):

وأكثر تعلق هذا المقصد القرآني بالجانب الوجداني في الإنسان، ويمكن أن نعرفه (الوعظ؛ تذكير بالوازع) وغالبا ما يستعمل جانب الدوافع؛ المرهبات والوعيد.

وقد فصلته عن قسمي الوازع والتذكير لأنهما وسيلتا تحريك ما في القلب، فهو المُحرِّك، وهما المُحرَّك به.

9- (إخلاص العبودية):

وإنما عدته مقصداً مستقلاً لكونه جامعاً لكل ما سلف ذكره من المقاصد، فكأنها روافد تصب فيه، وكونه المقصد الأساسي الذي خلق الله تعالى المكلفين لأجله؛ دلّ على ذلك قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦)** الذاريات:

والذي نخلص إليه مما سلف ذكره من هذه التقسيمات أن أقواها من حيث السند الشرعي، هو التقسيم الثلاثي؛ لما سلف ذكره من صريح العبارة الصحيحة في أن الله تعالى جزأ القرآن ثلاثة أجزاء.

وقد اتضح من عبارات العلماء الإجماع على تعيين طبيعة القسم الأول؛ وهو قسم العقيدة والذي ذكره أغلبهم ممثلاً في موضوع التوحيد؛ لأنه أهمّ مسائله على الإطلاق، ولهم في ذلك سند قوي من قوله (ﷺ) بأن (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن كما سلف ذكره.

ثمّ إنهم أجمعوا على حصر القسم الثاني في موضوع الأحكام والشرائع، أو علم الفروع.

وبذلك نكون قد انتهينا من تحديد قسمين أو مقصدين مهمين من مقاصد القرآن وهما المعنى من العبارة القرآنية المتكررة الجامعة بين الإيمان والعمل الصالح.

والإشكال الوارد على هذا التقسيم هو تعيين موضوع القسم الثالث؛ أهو قسم العلوم النظرية، أم هو قسم التذكير، أم هو قسم الوازع، أم هو قسم المواعظ، أم هو الإحسان والتركية، أم هو القصد إلى التثبیت وحصول الصبر، أم هو القصد إلى حصول العبودية الخالصة.

فأي قسم من هذه تؤيده معايير التقسيم المذكورة سالفاً ليكون ثالث هذه الأقسام؟

1- فأما معيار تصريحات نصوص القرآن بمقاصده؛ فقد انحصرت لي

مقاصده الكلية من هذا الأساس فيما يأتي:

(العبادة الخالصة) - (حصول أو بيان العلم الحق) - (العمل به، أو بيان العمل الصالح) (حصول الإيمان) - (التركية) - (الوازع) - (التذكير) - (الاعتاظ) - (التثبيت).

وأقواها ثبوتاً من هذا الطريق هو مقصد (العبودية الخالصة)، ثم مقصد (حصول أو بيان العلم الحق).

2- وأما معيار ما أجمعت عليه رسالات السماء (مما ثبت بنصوص القرآن

أيضاً)، فقد ثبت من قبله الأقسام الآتية: الإيمان - العمل الصالح - الوازع - إخلاص العبودية لله تعالى.

وأقواها ثبوتاً من هذا الطريق هما مقصدا: - الوازع - إخلاص العبودية لله تعالى.

3- وأما معيار انتخاب ما لا غنى عنه من حاصل المقاصد التي ذكرها

العلماء، فقد قادتني إلى قريب مما أثمرت به نصوص القرآن الصريحة، وهي الأقسام الآتية:

- العلم - الإيمان - العمل الصالح - الإحسان والتركية - الوازع - الوعظ - التثبيت - الصبر - إخلاص العبودية لله تعالى.

وأقواها ثبوتاً (لكثرة من قال بها) من هذا الطريق هما مقصدا: - الوازع - التركية.

4- وأما معيار القسمة العقلية للكلام؛ (أخبار الخالق، أخبار الخلائق، إنشاء)،

فتؤيد قسم (الوازع) الذي يندرج فيه القصص أخبار الآخرة والوعد ومعيار الوعيد والترغيب والترهيب والتبشير والإنذار. وترجع أهمية هذا القسم إلى كونه رابطاً بين العلم والعمل، ومحولاً للعلوم العملية إلى عمل،

ومُخرج لها من القوّة إلى الفعل. هذا إضافة إلى كثرة ذكر اليوم الآخر مع الإيمان بالله والعمل الصالح⁽¹⁾.

5- وأما معيار القسمة العقلية للحكمة؛ (حكمة نظرية، حكمة عملية) فإنه قد أفادنا بأمرين:-

أحدهما: قسمته للأعمال إلى أعمال ظاهرة، وأعمال نفسية باطنة (تهذيب الأخلاق، أو الإحسان). ثانيهما: ذكره للإيمان ضمن العلوم النظرية فجمع بين التصورات والتصديقات (العلم والاعتقاد). في قسم النظريات، والحق أن الحكم على الشيء غير تصوّره، فأنفصل لنا بذلك العلم عن الاعتقاد والإيمان، فحاصله زيادة مقصدين هما: (قصد القرآن إلى حصول العلم، وقصده إلى تهذيب الأخلاق).

6- وأما معيار القسمة العقلية لمواقف المكلف تجاه أطراف الوجود؛ (العبودية، التزكية، الخلافة) فيرشح لنا مقصدين هما: (إخلاص العبودية لله تعالى، والتزكية)، لأنّ وظيفة الخلافة تتدرج في الأعمال الصالحة، والعبودية.

7- وأما معيار موافقة القرآن لحاجيات مكونات الإنسان؛ (العلم للعقل، والإيمان للقلب، والعمل الصالح للجسد) فترشح لنا قسم العلم، لأنّه المطابق لما يحتاج إليه العقل من العلوم، كما احتاج القلب والروح إلى الإيمان، والجسد إلى العمل الصالح.

وهذه خلاصة ناتج ما ذكرت من المعايير، ملخّصة في خلايا الجدول الآتي:

(1) ورد ذكر الإيمان بالله مقرونا باليوم الآخر في أكثر من ثلاثة وعشرين موضعا من القرآن الكريم، ونادرا ما تُذكر دون ذكر الأمر بعمل شيء أو الإشارة إلى إثبات شيء أو الانتهاء عنه. ينظر عبارة (بالله - اليوم الآخر) في برنامج القرآن الكريم.

الأقسام	العلم	الإيمان	العمل الصالح	التقوى	الإحسان	التذكير	الوعظ	التوبيخ والصبر	العلم والعمل
المعايير									
حاصل معاني آيات المقاصد	#	#	#	#	#	#	#	#	#
حاصل تقسيمات العلماء	#	#	#	#	#	#	#	#	#
ما اتفقت عليه الرسالات	#	#	#	#	#	#	#	#	#
القسمة العقلية للكلام	#	#	#	#	#	#	#	#	#
القسمة العقلية للحكمة	#	#	#	#	#	#	#	#	#
موقف المكلف من الموجودات	#	#	#	#	#	#	#	#	#
موافقة جوانب مكونات الإنسان	#	#	#	#	#	#	#	#	#

وقد آثرت -بعد طول تردد، وكثرة أخذ ورد وسبر وتقسيم- إعمال القسمة الثلاثية التي ثبتت في السّنة النبوية، مع عدم إهمال ما ثبت قصد القرآن إليه مما لا يسوغ الاستغناء عنه، فاخترت أحد هذه الأقسام لشغل القسم الثالث، وهو قسم العلوم النظرية (بعد فصله عن الإيمان والعقائد)، ويرجع ترشيحي لهذا المقصد لشغل هذا القسم لعدد من المسوّغات؛ منها ما يظهر من الفروق الجوهرية الحاصلة بين مفهومي النظر والاعتقاد، ودليل الفرق بينهما أيضا أن العلم قد يحصل للكفار من غير أن يكونوا مؤمنين، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَمْدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾﴾ النمل: ١٤.

ومن ذلك أيضا كون هذا التقسيم يحقق لنا مطابقة تامة بين الأقسام الناتجة عنه، ومركبات الإنسان الثلاثة (العقل القلب الجسد).

ويؤيد ذلك أيضا كون حصول العلم أول ما يتوجب على قارئ القرآن، وهو السر في ذكر بعض العلماء له في أول المقاصد؛ أي: (فهمه).

ولأن العلم أو الإعلام مقصد عام في القرآن يشمل كل محتوياته ومواضيعه؛ فالأحكام العملية والشرائع علم (بالنظر إلى وجودها الذهني)، والتركيبية علم، والترغيب والترهيب والوعد والوعيد علم وكذلك الإيمان والعقائد علم، وعلى ذلك يكون المقصد الأول هو مقصد تحصيل العلوم، والثاني هو القصد إلى حصول الإيمان في القلوب، ويبقى القسم الثالث هو القصد إلى حصول العمل الصالح، أو - بمعنى أدق - إصلاح الأعمال الظاهرة؛ لأنه يكون في مقابل الأعمال الباطنة التي هي من خصائص القلب والعقل، فنحصل من ذلك على الثلاثية الآتية: (العلم - الإيمان - العمل)، وهذا التقسيم - كما ذكرت - هو الموافق لمكونات الإنسان الثلاثة: (العقل - الروح أو النفس - الجسد)، وهو الذي يوفيها حاجياتها وأصناف كمالها، ولا شك في عدم إمكانية استغناء الإنسان المؤمن عن أي قسم أو مقصد من هذه الكليات الثلاثة، لشدة ارتباط بعضها ببعض، فالعلم أساس الإيمان والعمل، والإيمان هو شرط قبول الأعمال ووسيلة تحصيل الأجر على طلب العلم والعمل، ولا نفع في علم لا يقود إلى إيمان ولا يهدي إلى عمل صالح.

وذلك كله - كما ذكرت - مع عدم إهمال الباقي مما ثبت قصد القرآن إليه، وذلك حرصا مني على عدم إهمال كل ما لا غنى عنه مما ذكرت من كليات القرآن، في تقسيم ثلاثي مركّب، سأزيده وضوحا بما سأذكره في المبحث القادم، ثم أبسط معانيها وأهميتها وتعلّق بعضها ببعض في الفصل الأخير من هذه الأطروحة.

المبحث الثاني - معايير الترتيب، ومراتب المقاصد.

بعد استخراجنا لكليات مقاصد القرآن، وبيان أهم أقسامه الموضوعية، نصل إلى المرحلة ما قبل الأخيرة وهي مرحلة تعيين مراتب هذه المقاصد في سلم الأولوية، ودرجة الأهمية.

ولا ضير في ذلك لأنه " قد عُلِمَ أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم، فإنه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه." (1) وإذا ثبت فضل قل هو الله أحد على غيرها من السور فإن ذلك لا يعني الاستغناء بها عن غيرها، وكذلك إذا ثبت لموضوع من المواضيع، أو مقصد من المقاصد الكلية أنه أهم وأولى من غيره في العناية فإن ذلك لا يعني الاستغناء به عن باقي المقاصد الكلية بل لا الجزئية أيضا.

فليس في تصنيف القرآن على مراتب الأهمية تقليل من قيمة بعض مقاصده، وإنما هو تقديم لما قدّمه القرآن أو السنة على غيره من المقاصد.

وقد رأيت أن أبسط الكلام عن هذا المبحث في مطلبين، أتكلّم في أحدهما عن معايير ترتيب أمّهات مقاصد القرآن، وأخصّ الثاني بذكر الترتيب الذي توصلت إليه.

المطلب الأول:- معايير ترتيب أمّهات مقاصد القرآن.

إن ترتيب أمّهات مقاصد القرآن الكريم على مراتب أهميتها يحتاج إلى معايير حاسمة ترشح هذا ليكون أولى من ذاك، وذلك ليكون قبل هذا، وأقوى الموازين والمرجّحات ما كان مصدره القرآن نفسه، لذلك رأيت الاختصار عليه؛ مُعْتَمِداً في ذلك على معيارين:

(1) الفتاوى (جواب أهل العلم والإيمان): 129/17.

أولها:- معيار أوليتها وأهميتها في رسالة القرآن الكريم؛ أي: ما تناوله القرآن في أولوياته فذكره قبل غيره من أمّهات المواضيع، وذلك بالنظر إلى القرآن على ترتيب نزوله، وأقرب المسالك للوقوف على ذلك هو جمع مقالات أهل القرآن وعلومه في الخصائص الموضوعية لمكي القرآن ومدنيّه.

الثاني:- معيار أوليتها وأولويتها في رسالات الأنبياء، مما ذكر في القرآن من دعواتهم عليهم السّلام.

أولاً:- معيار الأوليّة في النزول (من خلال خصائص المكي والمدنيّ).

إنّ الكلام عن الأوليّة في نزول القرآن يجرّ لا محالة إلى الكلام عن المكي والمدنيّ في القرآن الكريم، وقد اعتمدت على معناهما الاصطلاحيّ الراجح عند أهل علوم القرآن؛ وهو التفريق بينهما بالهجرة النبوية -أي باعتبارهما مرحلتين زمنيتين-⁽¹⁾ لأنّ هدي هنا هو استخلاص الجانب المتعلّق منهما بهذه الدراسة وهو بيان الخصائص الموضوعية لكلٍّ من المرحلتين.

وذلك أنّ القرآن قد أنزل في أعلى مراتب البلاغة التي تقوم أساساً على رعاية مقتضيات الأحوال، فمراعاة مقتضى الحال من أخصّ معاني البلاغة، ولذلك خاطب القرآن الناس بما يلائم نفسيّاتهم وحاجيّاتهم في المرحلتين، إذ لكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليبها.⁽²⁾

وقد تطرّق كثير من العلماء إلى الكلام على الخصائص الأسلوبية والموضوعيّة لكل من مكّي القرآن ومدنيّه؛ وهذا ما يمكننا من استخراج ما عدّوه

(1) ذكر أهل الاصطلاح في المكي والمدنيّ عدّة أقوال، أشهرها التفريق بينهما زمنياً؛ فالمكيّ ما نزل قبل الهجرة وإن نزل في غير مكّة، والمدنيّ ما نزل بعد الهجرة وإن نزل في غير المدينة. وهو الذي يخدم موضوع البحث هنا. ينظر البرهان في علوم القرآن: 187/1-188، والإتقان في علوم القرآن: 35/1، ومناهل العرفان: 160/1-161.

(2) ينظر كيف نفهم القرآن، محمد بن جميل زينو: ص36.

من أهمّ الخصائص الموضوعية للقرآن ممّا اقتضته المرحلتان. وسأجمل هنا ذكر ما عدّوه من الخصائص الموضوعية للتّزليل المكي، وما عدّوه من خصائص المدني.⁽¹⁾

1- أهمّ الخصائص الموضوعية للقرآن المكيّ:

يقول المراغي: "إن أمهات المسائل التي ذكرت في السور المكية هي: أصول الإيمان من الاعتقاد بوحداية الله والتصديق بالوحي والرسالة والبعث والجزاء، وقصص الرسل مع أقوامهم، ثم أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة، وجاء في أثناء ذلك محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول ودحض شبهاتهم وإبطال ضلالاتهم والنعي على خرافاتهم"⁽²⁾.

وقال سيد قطب في بداية تفسيره سورة الأنعام: "هذه السورة مكية من القرآن المكي القرآن الذي ظلّ يتنزّل على رسول الله (ﷺ) ثلاثة عشر عاما كاملة يحدثّه فيها عن قضية واحدة لا تتغيّر، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر، ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة حتى لكأنما يطرقها للمرّة الأولى.

لقد كان يعالج القضية الأولى والقضية الكبرى والقضية الأساسية في هذا الدين الجديد؛ قضية العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسية؛ الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة ...

(1) استخلصت هذه الخصائص من بعض كتب الدراسات القرآنية وعلوم القرآن وفقه السيرة؛ ينظر مناهل العرفان: 1/167-168، ومباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص 57-58، ومختصر علوم القرآن، محمد علي عبد الكريم الرديني: ص 103، وكيف نفهم القرآن، محمد بن جميل زينو: ص 36، ودراسات في التفسير الموضوعي، د. عواض الألمعي: ص 53-73، الفقه الحركي في العمل الإسلامي المعاصر: دراسة تأصيلية نقدية، موسى إبراهيم الشيخ: ص 100، فقه السيرة، محمد الغزالي: ص 92.

(2) تفسير المراغي: 46/10.

لقد كان القرآن المكيّ يفسّر للإنسان سرّ وجوده ووجود هذا الكون من حوله؛
كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية
المطاف؟ ومن ذا الذي جاء به من العدم المجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به؟ وما
مصيره هناك؟

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من
التفريعات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن علم أنها قد استوفت ما تستحقّه من البيان
وأنها استقرّت استقراراً مكيناً ثابتاً في قلوب العصابة المختارة من بني الإنسان التي
قدّر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها...⁽¹⁾.

ويعلّل د. عمر سليمان الأشقر قلّة التشريعات التفصيلية في العهد المكيّ، بكون
المسلمين كانوا مستضعفين آنئذ، فكانت طبيعة الصّراع مع الكفار لا تناسب ورود
تشريعات تفصيلية جزئية.

يقول الأشقر: "حتى ما شرعه الله في مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن
على التفصيل والبيان الذي عُرف في المدينة؛ فالزكاة كانت في مكة بمعنى الصدقة
والإنفاق في سبيل الخير من غير أن يحدد لها جزء معيّن ولا نظام خاص".⁽²⁾ بل
حتى الأحكام التشريعية التفصيلية القليلة التي شرّعت في هذه المرحلة فإن المتأمل
فيها يلاحظ أنها تتعلّق بالأصول العقائدية؛ كتحرّيم ما ذُبِح لغير الله، أو ما لم يُذكر
اسم الله عليه، أو أنها تحارب الرذائل الخطيرة في الحياة البشرية؛ كوأد البنات.⁽³⁾
وحاصل كلامهم عن موضوعات المكي منحصر في ما يأتي:-

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب: 2/1004-1005، وينظر الفقه الحركي: ص53.

(2) تاريخ الفقه الإسلامي ص42.

(3) ينظر المصدر نفسه: ص42-44.

إثبات وحدانيّته تعالى في ألوهيّته وربوبيّته، وفي أسمائه وأوصافه. والدّعوة إلى عبادته وحده وإقامة الأدلة الكونية المحسوسة والعقلية على وحدانيّته، والاحتجاج عليهم بما تواتر عندهم من أخبار الأمم الغابرة حينما أشركوا بالله غيره. التحذير من الشرك وبيان عواقبه.

الكلام على المبدأ؛ مبدأ البشرية بذكر قصّة آدم وإيليس، وذكر تاريخ الدعوة الإسلاميّة متمثلاً في قصص الأنبياء وسيرتهم في أقوامهم. ذكر المعاد، والدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر؛ بالنشر والحشر وبالحساب، وبالجنة والنار.

إثبات النبوات عامّة، ونبوة محمد خاصّة، والرد على الطّاعنين في صحّتها. الكلام على الوحي والقرآن والتّحدي به، والاحتجاج به، وردّ شبهات الطّاعنين في صحّة مصدره.

الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة وفعل الخير، وترك المنكرات. العناية ببناء الشخصية المؤمنة وتثبيتها على الحق، وتحليلتها بمكارم الأخلاق، وتزويدها بالقوّة التي تتطلّبها المرحلة القادمة وهي تحمّل عبء الدعوة، ونشر الرسالة الخاتمة.

فمدار التنزيل المكي قائم -إذن- على بيان أصول الإيمان وأصول الدين، والدعوة إليها، كالإيمان بالله ورسالة محمد (ﷺ) والإيمان باليوم الآخر، من التّركيز على مسألة التوحيد ونبذ الشرك -وهو ما أجملته كلمة التوحيد-.

ثم الأمر بمكارم الأخلاق كالعدل والإحسان والوفاء بالوعد وأخذ العفو والخوف من الله وحده، والشّكر له وتجنّب مساوئ الأخلاق كالزنا والقتل ووأد البنات والتّطيف في الكيل والميزان، والنّهي عن كلّ ما هو كفر أو تابع للكفر⁽¹⁾.

(1) ينظر تاريخ الفقه الإسلامي، د. عمر سليمان الأشقر: ص 41-42.

فالأولوية -إذن- كانت للكرّ على الشرك ومظاهره، ونسف عقائد المشركين الضالة. ثم توطيد أصول الإيمان والعقيدة مركزاً على قطب الرحي فيها وهو التوحيد. ثم العناية ببناء الشخصية المؤمنة، وتحليلتها بمكارم الأخلاق، وتزويدها بالقوة التي تتطلبها المرحلة القادمة وهي تحمل عبئ الدعوة، ونشر الرسالة.

2- أهمّ الخصائص الموضوعية للقرآن المدني:

فالعناية بالتنزيل المدني -إذن- كانت موجّهة إلى بناء أركان المجتمع المؤمن، وتنظيم صفوفه وتوحيدها، وإعداده ليكون النموذج المرتضى للاجتماع البشري الذي يجتمع على ما تقتضيه تعاليم الرسالة الخاتمة، وإحكام هذا البناء بسنّ الشرائع والقوانين السياسية والاقتصادية، وتحديد علاقة الدولة الإسلامية بغيرها وغير ذلك مما يدخل في دائرة الأحكام الدولية العامة.

يقول د.عمر سليمان الأشقر أن التنزيل المكي كان منصبا على بيان أصول الدين، وفي المرحلة المدنية استمرّ تلك العناية مع تنزّل آيات الأحكام التي تعرّضت إلى جميع أنواع ما يصدر من الإنسان من أعمال العبادات، والمعاملات والجنايات، ونظام الأسرة، وتنظيم شؤون الدولة⁽¹⁾.

ثمّ يعلّل سبب ذلك المنعرج الموضوعي لهذه المرحلة بقوله: "والسبب في تنزّل الأحكام العملية في المرحلة المدنية هو تغيّر وضع المسلمين فقد شكّل المسلمون بعد الهجرة مجتمعا وكونوا دولة، فاحتاجوا إلى التشريعات التي يسير عليها المسلمون في مجتمعهم الجديد، وتبني شخصية الفرد، وتحمي الأسرة، وتنظّم العلاقات..."⁽²⁾.

(1) ينظر المصدر نفسه: ص44.

(2) المصدر نفسه: ص44.

ويُزاد إلى ذلك معالجة ظاهرة النفاق التي تنخر في كيان الأمة من الداخل، ومجادلة أهل الكتاب وحجاجهم بما هو ثابت في كتبهم ودعوتهم إلى الإسلام. ويرجع حاصل كلامهم عن الخصائص الموضوعية للقرآن المدني إلى ما يأتي:-

تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية.
دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى، ومجادلتهم فيما هم عليه.
معالجة ظاهرة النفاق، وفضح المنافقين بذكر أوصافهم والتشنيع عليهم.
بيان ضوابط المعاملات وأحكامها، وتفصيل أحكام الأسرة كالزواج والطلاق وبيان الحقوق، والأنصبة الإرثية.
بناء أركان الدولة الإسلامية، وبيان ملامح هذا المجتمع الجديد.
إرسال الدعاة إلى الملوك والرؤساء، ودعوتهم إلى الإسلام، لتتجلى بذلك عالمية هذا الدين.

ذكر الجهاد والإذن به، وتفصيل أحكامه. وبيان أحكام الحرب والسلام وما يتبعها من غنائم وأسرى، ومعاهدات ومواثيق.

والحق أنّ معرفة المكي والمدني كما أفادت أهل الأحكام في معرفة ناسخها من منسوخها، فإنّها تفيد الدّعاة في معرفة منهجية القرآن التربوية في التدرّج بالمكلفين بمراعاة الأولويات من الجهة النظرية، والنظر إلى واقعهم ثم قدراتهم وطاقاتهم من الجهة العملية، ذلك ما فهمه الرعيل الأول وعملوا به، فقد روي عن أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: *إنّما نزل أول ما نزل منه -أي القرآن- سورة من المفصل فيها ذكر الجنّة والنار، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً* (1).

(1) صحيح البخاري: 4/1910. باب تأليف القرآن.

قال الزرقاني بعد ذكره لأهم خصائص المكي: "كما أن قانون الحكمة العالية قضى بأن يسلك سبيل التدرّج والارتقاء في تربية الأفراد، وأن يقدم الأهم على المهم، ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية؛ لذلك كثر في القسم المكيّ التحدث عنها، والعناية بها كما علمت في الخواص الماضية جريا على سنة التدرّج من ناحية، وتقديمها للأهم على المهم من ناحية أخرى"⁽¹⁾.

يقول الشيخ محمد علي السائيس: "جاء الإسلام والعرب في إباحة واسعة يكرهون كل ما يقيد حريتهم ويحد من شهواتهم، وقد تمكنت من نفوسهم عادات كثيرة وغرائز متنوعة لا يستطيعون التحول عنها دفعة فاقترضت الحكمة الإلهية ألا يفاجؤوا بالأحكام جملة فتثقل بها كواهلهم وتنفّر عنها نفوسهم فلذلك نزل القرآن نجوما -متفرقا- ووردت الأحكام التكليفية شيئا فشيئا ليكون السابق من الأحكام مُعدّاً للنفوس ومُهيّئاً لقبول الحق"⁽²⁾.

وإن كان من العسير تتبّع القرآن سورة سورة وآية آية لمعرفة ما نزل أولاً مما نزل في الأخير، فإنّه لا يفوتنا في هذا الموضع أن نلقي نظرة سريعة على أول ما نزل، ثمّ نستوفي ما بقي من المقاصد فيما اتّفقت عليه الشرائع، في العنصر الموالي.

إن أول ما نزل من القرآن -على أرجح الأقوال- هي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق؛ قال تعالى: ﴿أَفْرَأَى بِأَسْمِرِكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ (٢) أَفْرَأَى وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ (٥)﴾ العلق: ١ - ٥؛ وعليه فأول

(1) مناهل العرفان: 167/1. طبعة دار الكتاب العربي.

(2) تاريخ الفقه الإسلامي/ السائيس نقلا عن الفقه الحركي ص 50-51.

ما أمر به النبي (ﷺ) هو القراءة التي تُعدّ أعظم أسباب حصول العلم، ومما يزيد هذا المقصد وضوحاً زيادة تكرار الأمر بالقراءة والإشارة إليه بذكر العلم والقلم. ومما يعزّز أولية هذا المقصد أن الباري عز وجل استهلّ ثاني سور القرآن نزولاً -وهي- سورة القلم- بالتنويه بذكر القلم أيضاً؛ فقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ عَلَّمَ مَا لَمْ يَكُنْ يُعَلِّمُ وَلَوْ أَلَمَّا لَعَلَّهُمْ أَتْقَنَ﴾** ١، وقد سلف أن ذكرت استهلال كل رسول رسالته بدعوى النبوة، وفي ذلك إثبات لمصادقية العلوم التي يأتي بها، قبل ذكر أي مقصد آخر. أما سورة المزمل ففيها أمر إلهي بإعداد النفس للقيام بحق تلك العلوم الواردة على البشرية.

وأما سورة المدثر ففيها الأمر بإنذار الناس بعواقب ما هم عليه من الانحراف عن منهج الله تعالى. وأما الفاتحة ففيها إجمال ما سيأتي ذكره في باقي سور القرآن مفصلاً، وقد سبق ذكر محتواها المقصدي.

ثانياً: - معيار الأولوية والأولوية في رسالات الأنبياء.

ذكرت معيار الأولوية والأولوية هنا وقصدت بهما ما أمر به المرسلون وأمروا به أولاً مما وقع الإجماع عليه في كل الرسالات السماوية. وهذه الطريقة مفضية إلى فائدتين، إحداها متعلّقة ببيان أهم المقاصد الكلية للقرآن والرسالات السماوية كافة، والثانية -وهي الأكثر تعلّقاً بهذا الموضع- بيانها لأعلى مراتب مواضيع القرآن الكريم، على غرار كل الرسالات السالفة. فلنعرّج إذن على مدى دلالة ما اتفقت عليه الشرائع السماوية على ما نحن بصدد الكلام عنه من أمّهات مقاصد القرآن.

مما تواطأت عليه العقول أن البناء العاقل لا يقيم جداراً لبيت حتى يؤسس قواعده، والمنظر من أهل العقول السليمة أيضاً أنهم إذا رأوا شخصاً مُشرفاً على

الهلاك أن يبادروا إلى أقرب أسباب إنقاذه، فالجراح البارع إذا أوتي بحالة طارئة تراه يصرف كل عنايته إلى أكبر مظنة للهلاك، فإذا تحقق له ذلك، التفت إلى ما في المصاب من الجروح أو الرضوض التي لا تتوقف عليها حياة أو موت، فإذا سلم المصاب من مجموع تلك الآفات، التفت إلى تقوية جسمه وتحسينه مما قد يصيبه من تلك الآفات مستقبلاً، وبمثل هذا يتصرف أي مصلح ناصح لأمتة مهما كانت ملته؛ هذه سنة فطر الله الناس عليها.

ولمثل ذلك هبت أكثر رسل الله تعالى لنجدة أقوام أشرفوا على الهلاك، فلا بد أن تكون أعظم عنايتهم متعلقة بأعظم أسباب خلاص أقوامهم، ولا بد أن يكون ما أجمعوا على الدعوة إليه أولاً هو أعظم تلك الأسباب أهمية، ثم الذي يليه وهكذا، ولاستجلاء ذلك عمدت إلى جمع ما أمكن جمعه من الآيات التي قصت علينا أوائل ما دعت أو أمرت الرسل بالدعوة إليه من المواضع، بادئاً بما قيل في مجموعهم، ثم أفردت أكثرهم بما ورد في حق دعوته من الآيات.

1- ذكر أوائل ما دعت إليه الأنبياء:

فمن قبيل ما ذكر في حق جميع الرسل قوله تعالى: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاحْتَبِرُوا لَظَلُوتِ ﴾ (٣٦) النحل: ٣٦، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢٥) الأنبياء: ٢٥، وفيهما: - الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة.**

وقال تعالى في دعوة إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴾ (٧٣) الأنبياء: ٧٣، وفيها: - طلب فعل الخيرات - طلب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة - إخلاص العبودية لله تعالى.**

وأخبر تعالى عما أمر به أهل الكتاب من قبلنا فقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥٥﴾** البينة: ٥، وفيها: - أمروا بإخلاص العبادة لله وحده - وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقال تعالى في بني إسرائيل: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٢﴾** المائدة: ١٢، وفيها: - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة - الإيمان بالرسول وتوقيرهم.

وهو الموقف الذي بقي عليه الراسخون في العلم من علمائهم؛ كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٢﴾** النساء: ١٦٢، وفيها: - الإيمان بما أنزل من عند الله - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة - الإيمان بالله وباليوم الآخر.

ولنأت على ذكر ما جاء في دعوة كل نبي من ذلك:

ما ورد في دعوة نوح (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: **قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾** الأعراف: ٥٩، وفي سورة المؤمنون: **قَالَ تَعَالَى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾** المؤمنون: ٢٣، وفيها: - طلب توحيد الله تعالى بالعبادة - التحذير من عذاب الآخرة.

وفي سورة هود: **قَالَ تَعَالَى: ﴿۱﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿۲۵﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ ﴿۲۶﴾** هود: ٢٥ - ٢٦، وفيها: - دعوى النبوة - طلب توحيد الله تعالى بالعبادة - تحذير من عصي من عذاب الآخرة.

وفي سورة نوح: **قَالَ تَعَالَى: ﴿۱﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿۲﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿۳﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿۴﴾ نوح: ١ - ٣، وفيها: - دعوى النبوة - طلب عبادة الله - التحذير من غضب الله - طلب طاعة الرسول.**

ما ورد في دعوة هود (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: **قَالَ تَعَالَى: ﴿۱﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿۲﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿۳﴾** الأعراف: ٦٥، وفي سورة هود: **قَالَ تَعَالَى: ﴿۱﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿۲﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿۳﴾** هود: ٥٠، وفيهما: - أمر بتوحيد الله تعالى بالعبادة - التحذير من غضب الله - وتوبيخ.

وفي الشعراء: **قَالَ تَعَالَى: ﴿۱﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿۲﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿۳﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿۴﴾** الشعراء: ١٢٤ - ١٢٦، وفيها: - تحذير من غضب الله - دعوى النبوة - طلب الطاعة.

وفي الأحقاف: **قَالَ تَعَالَى: ﴿۱﴾ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿۲﴾** الأحقاف: ٢١، وفيها: - أمر بتوحيد الله تعالى بالعبادة - التحذير من سوء العاقبة.

ما ورد في دعوة صالح (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿٧٣﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَاْخُذْكُمْ عَذَابُ الْإِلْمِ ﴿٧٣﴾﴾ الأعراف: ٧٣، وفيها: - الأمر بتوحيد الله تعالى بالعبادة - إثبات صدق الرسالة - التحذير من عذاب الله.

وفي سورة هود: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿٦١﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ هود: ٦١، وفيها: - أمر بتوحيد العبودية - تذكير بالنعم - أمر بالاستغفار والتوبة.

وفي الشعراء: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٤٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾﴾ الشعراء: ١٤٢ - ١٤٤، وفيها: - دعوى الرسالة - التخويف من الله - طلب الطاعة.

وفي سورة النمل: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ النمل: ٤٥، وفيها: - أمر بعبادة الله تعالى. ما ورد في دعوة إبراهيم (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ العنكبوت: ١٦ - ١٧، وفيها: - دعوى إلى عبادة الله وتهكم وتوبيخ لهم على ما يعبدون - دعوة إلى الخوف من الله تعالى.

وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿٧١﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧١﴾﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا مِنْ عِصْفَيْنِ ﴿٧١﴾﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ

أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٢﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الشعراء: ٦٩ - ٧٧،
وفيها: - إنكاره لعبادتهم غير الله تعالى.

وفي سورة إبراهيم: قَالَ تَعَالَى: ﴿٣٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا
وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ إبراهيم: ٣٥، وفيها: - دعاء بالثبات على
توحيد العبادة.

ودعا أيضا فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ إبراهيم: ٣٧، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿٤٠﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ إبراهيم: ٤٠، وفيها: - إفراد الكلام عن الصلاة.

وفي سورة الزخرف قَالَ تَعَالَى: ﴿٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ
إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ الزخرف: ٢٦ - ٢٧، وفيها: - البراءة من كل
المعبودات إلا الله تعالى.

وفي سورة الممتحنة قَالَ تَعَالَى: ﴿٤﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ
قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ
أَبَدًا حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ الممتحنة: ٤، وفيها: - البراءة من المشركين
ومعبوداتهم.

ما ورد في دعوة لوط (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: قَالَ تَعَالَى: ﴿لُوطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ الأعراف: ٨٠ - ٨١، وفيها: - دعوة إلى الرجوع إلى الأخلاق الفطرية.

وفي الشعراء قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ الشعراء: ١٦٠ - ١٦٤، وفيها: - تحذير من غضب الله - دعوى الرسالة - طلب الطاعة.

ما ورد في دعوة إسماعيل (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (٥٥) مريم: ٥٥، وفيها: - الأمر بالصلاة والزكاة.

ما ورد في دعوة يعقوب (عليه السلام):

تجلّت دعوته عليه السلام في وصيته: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنْبَنَى إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣) البقرة: ١٣٢ - ١٣٣، وفيها: الوصية بتوحيد الله تعالى بالعبادة.

وقال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣) البقرة: ٨٣، وفيها: -

الأمر بإفراد الله تعالى بالعبودية - الإحسان إلى فئات من الناس - إقام الصلاة -
إيتاء الزكاة.

ما ورد في دعوة يوسف (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: **قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧)** وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَصْصَحِي السَّجْنَاءَ رَبَّاتٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَنْفَكْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يوسف: ٣٧ - ٤٠، وفيها: - إنكار على من لم يؤمن بالله - أنكار على من لم يؤمن باليوم الآخر - إنكار على من افترى وأشرك بالله في العبادة - دعوة إلى توحيد الله بالعبادة.

ما ورد في دعوة شعيب (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) الأعراف: ٨٥ - ٨٦، وفيها: - طلب إفراد الله تعالى بالعبادة - تذكير بإثبات صدق نبوته - أمر بالاستقامة في المعاملات التجارية - طلب الإصلاح والكف عن الإفساد في الأرض - طلب**

الكف عن الصد عن سبيل الله - تذكير بنعمة الله عليهم - تذكير وتحذير من غضب الله.

وفي سورة هود: قَالَ تَعَالَى: ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا أَلْمِيزَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ هود: ٨٤، وفيها: - طلب إفراد الله تعالى بالعبادة - طلب إيفاء الكيل - تحذيرهم من عذاب الله وانتقامه.

وفي الشعراء قَالَ تَعَالَى: ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ شِئَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ الشعراء: ١٧٧ - ١٨٤، وفيها: - التحذير من غضب الله - دعوى النبوة - طلب الطاعة - طلب إيفاء الكيل - طلب الكف عن الظلم - طلب الكف عن الفساد في الأرض.

وفي سورة العنكبوت: قَالَ تَعَالَى: ﴿٣٦﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْحُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ العنكبوت: ٣٦، وفيها: - طلب توحيد الله بالعبادة - التنبيه على اليوم الآخر - النهي عن الإفساد في الأرض.

ما ورد في قصة أيوب (عليه السلام):

قال تعالى في قصته: قَالَ تَعَالَى: ﴿٤٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ص: ٤٣ - ٤٤، وفيها: - التنبيه على حسن عاقبة فضيلة الصبر.

ما ورد في دعوة موسى (عليه السلام):

قال تعالى في أول دعوته: قَالَ تَعَالَى ﴿١٣﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ طه: ١٣ - ١٥، وفيها: - دعوة من الله إلى توحيده بالعبادة - إقام الصلاة لذكره تعالى - التنبيه إلى الجزاء في الآخرة.

وفي سورة طه قَالَ تَعَالَى ﴿١٦﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿١٨﴾ طه: ٤٩ - ٥٠، وفيها: - حجاج على ربوبية الله تعالى.

وفي سورة النازعات قَالَ تَعَالَى ﴿١٩﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٢٠﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى ﴿٢١﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٢﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَىٰ ﴿٢٣﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشَىٰ ﴿٢٤﴾ طه: ١٥ - ١٩، وفيها: - القصد إلى كف طغيان فرعون - طلب التزكي - طلب الخشية.

وجاء في الأعراف: قَالَ تَعَالَى ﴿٢٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٧﴾ الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥، وفيها: - دعوى الرسالة - البينة على الرسالة - تخليص بني إسرائيل من فرعون.

وفي سورة طه قَالَ تَعَالَى ﴿٢٨﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٢٩﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٣٠﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٣١﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَن يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطَّغَىٰ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٣٣﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٣٤﴾ طه: ٤٢ - ٤٧.

وفي سورة الشعراء قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦) أَنَّ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿الشعراء: ١٦ - ١٧﴾، وفي هذه الآيات: - إقامة دعوى الرسالة - طلب تسريح بني إسرائيل.

وفي سورة الدخان قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (١٧) أَنَّ أَدُّوا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ الدخان: ١٧ - ١٩، وفي هذه الآيات: - إقامة دعوى الرسالة - طلب تسريح بني إسرائيل - بيان صدق دعواه.

ما ورد في دعوة سليمان (عليه السلام):

ذكر تعالى في ما كانت عليه دعوته مما ذكره الهدى من إنكاره على أهل سبأ عبادتهم غير الله في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٥٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٥٦﴾ النمل: ٢٥ - ٢٦.

ما ورد في دعوة إلياس (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تُنْفِقُونَ﴾ (١٢٤) أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ الصافات: ١٢٤ - ١٢٥، وفيها: - تحذير من عاقبة ما يفعلون - النهي عن دعاء غير الله تعالى.

ما ورد في دعوة عيسى (عليه السلام):

قال تعالى في دعوته (عليه السلام): قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) المائدة: ٧٢، وفيها: - دعوة إلى توحيد الله بالعبادة - الإنذار بالنار لمن أشرك بالله غيره.

وفي المائدة قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (١١٧) وفيها: - أنه أمرهم بعبادة الله وحده.

قال تعالى في النصارى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢١) التوبة: ٣١، وفيها: - الأمر بتوحيد الله تعالى بالعبادة.

وفي سورة الزخرف قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦٤) الزخرف: ٦٣ - ٦٤، وفيها: - أتاهم بالبينة على صدق نبوته أتاهم بالحكمة - إزالة الخلاف - تحذير من غضب الله - طلب الطاعة - طلب عبادة الإله الحق - بيان طريق الحق.

وفي آل عمران قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٥٠) آل عمران: ٥٠، وفيها: - التخفيف عنهم في بعض الشرائع - التحذير من غضب الله - طلب الطاعة.

وفي سورة الصف قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٦) الصف: ٦، وفيها: - دعوى الرسالة - التصديق بما جاءت به التوراة - التبشير بخاتم الأنبياء - بيان صدق ما ادعاه.

وقال تعالى في وصيته إلى عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾﴾ ﴿٣١﴾ مريم: ٣١؛ وفيها: - الوصية بالصلاة والزكاة.

ما ورد في دعوة محمد (ﷺ):

أما دعوة نبينا (ﷺ) فأليك أول خطاب للناس يعرض لقارئ القرآن الكريم: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ البقرة: ٢١ - ٢٢؛ وفيها: - دعوة إلى عبادة خالق الكل وعدم الإشراك به.

وأمره تعالى أن يقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿١١﴾ الزمر: ١١، وأن يقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَايَهُمُ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ يونس: ١٠٤؛ وفيهما: - الدعوة إلى عبادة الله والإعراض عن غيره.

وقد ورد ذكر أولى خصائص مؤمني هذه الأمة في أول القرآن الكريم في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٢﴾ البقرة: ٢.

وفيها: - الإيمان بالغيب - إقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله.

وهو الذي أمر به تعالى رسوله الكريم فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَعْجَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ ﴿٣١﴾ إبراهيم: ٣١، وفيها: - ذكر الإيمان - الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة - ذكر اليوم الآخر.

وهو القدر المطلوب من الأعمال الظاهرة العاصم لدم المشرک، الموجب لهم حقوق الأخوة في الدين؛ دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ التوبة: ٥، وقوله أيضا: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ التوبة: ١١، وفيها: - ذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وهو الذي أمر به المؤمنون من هذه الأمة في أول الإسلام بمكة؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا عَلَيْهِمُ الْغَالِ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴿٧٧﴾﴾ النساء: ٧٧ وفيها: - الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقال تعالى مبينا حقيقة البر لهذه الأمة: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ البقرة: ١٧٧، وفيها: - الإيمان بالله والملائكة والكتاب والأنبياء - الإنفاق في سبيل الخير - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة - الوفاء بالعهد - الصبر.

2- الحصيلة المشتركة لدعوات الأنبياء:-

من خلال استقراء مجموع ما ذكر في الرسائل السماوية ودعوات الأنبياء من الآيات في القرآن الكريم، نلمس تكرّر ذكر بعض الأمور في كل تلك الدعوات، مما يجعلها محورا تدور عليه تعاليمها، وقد حصرتها في الأمور الآتية:

الأمر الأول:- إثبات دعوى النبوة (طلب التصديق). ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وهي أول ما جاءت به الرسل؛ إذ في ذلك إثبات لثلاثة أمور مهمة: المرسل، المرسل إليه، والرسالة (وهي ما يحمله من تعاليم)، وفيه فتح لأعظم أبواب المعرفة بإثبات مصدر معرفي جديد؛ هو أعظم أسباب حصول الهداية.

فأول ما يؤمر به النبي أو الرسول، هو إقامة دعوى النبوة، والبرهان عليها طلبا للتصديق، وعلى ذلك يكون أول ما يجب على المكلفين هو تصديق من ثبتت نبوته أو رسالته بما يُخبر عن ربه، ثم الطاعة؛ وهذا ما تثبته أوائل أقوال الأنبياء لأقوامهم، وأوائل ما كلّفت به الرسل في عدد من الآيات الكريمات؛ قال تعالى يخاطب بذلك رسوله الكريم (ﷺ): ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

الأعراف: ١٥٨، وقال في رسالة موسى وهارون (عليهما السلام): قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيِّ وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٦﴾ فَأَنِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ ﴿٧﴾ طه: ٤٢ - ٤٧، وفي سورة الشعراء قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعْ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ الشعراء: ١٦ - ١٧، وفي سورة الدخان قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ

فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ ثُبِينٍ ﴿١٩﴾ الدخان: ١٧ - ١٩، وفي الأعراف: ﴿١٠٤﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿١٠٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٧﴾ الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥.

وقال في دعوة عيسى عليه السلام: ﴿١٠٨﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿١٠٩﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَبُشْرًا بِرَسُولِي يُأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ الصف: ٦.

وقد تكرر ذكر ذلك في سورة الشعراء على لسان عدد من رسله الكرام في عبارة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (دعوة نوح في الشعراء: 107- دعوة هود في الشعراء 125- دعوة صالح: الشعراء 143- دعوة لوط: الشعراء 162- دعوة شعيب: الشعراء 178- دعوة موسى: الدخان 18).

ففي دعوة نوح عليه السلام: ﴿١١١﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٢﴾ كَذَبْتَ قَوْمٌ نُّوحٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوَنَ ﴿١١٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٦﴾ الشعراء: ١٠٥ - ١٠٨. وفي دعوة هود عليه السلام: ﴿١١٧﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِوَنَ ﴿١١٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢١﴾ الشعراء: ١٢٤ - ١٢٦. وفي دعوة صالح عليه السلام: ﴿١٢٢﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْقِوَنَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٦﴾ الشعراء: ١٤٢ - ١٤٤. وفي دعوة لوط عليه السلام لسدوم: ﴿١٢٧﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿١٢٨﴾ كَذَبْتَ قَوْمٌ لُوطٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْقِوَنَ ﴿١٣٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٣٢﴾ الشعراء: ١٦٠ - ١٦٣. وفي دعوة شعيب عليه السلام: ﴿١٣٣﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿١٣٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوَنَ ﴿١٣٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٣٧﴾ الشعراء: ١٧٧ - ١٧٩.

432

٢-، وقال في القرآن الكريم: قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا لِلْآلَتِيبِ ﴾ (٥٢) ﴿ إبراهيم: ٥٢ .

وعادة ما نجد ذكر هذا الوازع مقرونا:

إما مع طلب الطاعة؛ ويكون ممثلا في الأمر بالتقوى، كما في العبارة القرآنية المتكررة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾، إذ هو الدافع إلى الطاعة بعد معرفة صدق الرسول، وكون ما يقوله حق.

وإما بمسألة الإيمان بالله؛ ويكون ممثلا في ذكر اليوم الآخر، الذي يشكل معه إحدى الثنائيات المترافقة في القرآن الكريم. (1)

الأمر الثالث:- طلب الطاعة (بيان العمل الصالح).

ومما أجمعت عليه الرسل في دعواتها أيضا؛ الدعوة إلى الطاعة، طاعة الله وطاعة الرسول فيما جاء به عن الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ (النساء 64)

ويظهر ذلك جليا في تكرار قوله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۚ ﴾ (٢) ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۚ ﴾ (٣) ﴿ نوح: ٢ - ٣، وبمثل ذلك قال هود (الشعراء 126)، وصالح (الشعراء 144) ولوط (الشعراء 162-163)، وشعيب (الشعراء 178-179)، وعيسى (الزخرف 63 وآل عمران 50) عليهم السلام.

وبمثل ذلك الطلب جاءت الرسالة الخاتمة؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۚ ﴾ (٣٢) ﴿ آل عمران: ٣٢، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۚ ﴾ (٥٩) ﴿ النساء: ٥٩، وقال: قَالَ

(1) (ورد ذكر عبارة الإيمان باليوم الآخر في القرآن في (26) موضعا، كلها مرتبطة بالإيمان بالله أو الكفر بهما؛ ينظر برنامج القرآن الكريم؛ عبارة (اليوم الآخر).

تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾
 الأنفال: ٢٠، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
 وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاسُ الْمُنِيرِ ﴿٥٤﴾﴾ النور: ٥٤،
 وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد: ٣٣.

ويكون هذا الطلب عادة بعد بيان صدق نبوته، والطاعة متعلقة بالأوامر والنواهي كما أن التصديق يكون في الأخبار؛ فمرجع الطاعة إلى العمل الصالح الذي أكثر القرآن من ذكره، بل شكّل به مع الإيمان بالله تعالى ثنائية قرآنية، لا يذكرهما غالبا إلا وأعقبهما بذكر الجزاء الحسن عليهما (ورد ذكر عبارة "عملوا الصالحات" في (52) موضعا من القرآن اقترنت (51) منها بكلمة "آمنوا".
 الأمر الرابع:- ذكر الصلاة والإنفاق (الزكاة).

ومما اتفقت عليه الشرائع أيضا، ما ذكره القرآن عن أطراد ذكر فريضتي الصلاة والإنفاق في دعوات الأنبياء، وقد وقع الاختصار على ذكر هذين الركنتين فهما القدر المشترك من العمل الصالح المذكور في أكثر الرسالات.
 قال تعالى في إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء 73).

وقال تعالى في مدح نبيه إسماعيل عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ مريم: ٥٥.

وقال تعالى في بني إسرائيل: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ

سَيَاتِكُمْ وَلَا دَخَلَتْكُمْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ المائدة: ١٢.

وهو الذي أمر به أهل الكتاب من قبلنا: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٥﴾ البينة: ٥.

وهو الموقف الذي بقي عليه الراسخون في العلم من علماء اليهود؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٦٢﴾ النساء: ١٦٢.

وقال تعالى في وصيته إلى عيسى عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿٣١﴾ مريم: ٣١.

وأما هذه الأمة فقد ورد ذكر أولى خصائص مؤمنيتها في أول القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٢﴾ البقرة: ٣، أي: الصلاة والإنفاق في سبيل الله.

وهو الذي أمر به تعالى رسوله الكريم فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾ ﴿٢١﴾ إبراهيم: ٣١.

وهو الذي أمر به المؤمنون من هذه الأمة في أول الإسلام بمكة؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٧٧﴾ النساء: ٧٧.

وهو القدر المطلوب من الأعمال الظاهرة العاصم لدم المشركين، الموجب لهم حقوق الأخوة في الدين؛ دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٠٨﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ التوبة: ٥، وقوله أيضاً: قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ التوبة: ١١.

وهو القدر الذي اكتفى به القرآن حينما عرف بالبر المعتبر شرعاً؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٢﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَلِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤَفَّقُ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ البقرة: ١٧٧.

والذي حدا بنا إلى التنويه بشأن هذين الركنتين من بين بقية الأعمال الصالحة هو تنويه الله تعالى بهما؛ إذ إنه تعالى كثيراً ما يذكرهما مع ذكر العمل الصالح كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿١٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ البقرة: ٢٧٧، قال القرطبي في تفسير هذه الآية: "خص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمنتها عمل الصالحات تشريفاً لهما، وتنبيهاً على قدرهما؛ إذ هما رأس الأعمال؛ الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال" (١).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 362/3.

بل يذكرهما مع ذكر فعل جميع الخيرات كما قال تعالى في رسالة إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾﴾ الأنبياء: ٧٣، وذلك يُنبئ عن مكانة خاصة لهاتين الشعيرتين من بين كل الأعمال الصالحة، وأنهما أساسها.

الأمر الخامس:- الدعوة إلى إخلاص العبودية لله وحده. ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

وذلك أنّ ظاهرة النبوة أو الرسالة عادة ما تكون علاجاً لهذا المرض الذي ما يفتأ يلمّ بالبشرية كلّما أخذتها سنة، أو سكّرت في ملذات الدنيا ومستتقع المعاصي، لذلك كانت هذه المسألة هي المحور الذي تدور عليه أغلب الرسائل والنبوات إن لم تكن كلّها.

هذا ما تشهد عليه أغلب ما أوردناه من الآيات القرآنية، وأكثر ما يشير إلى هذه المسألة هي تلك العبارة القرآنية المتكررة على لسان كثير من الأنبياء؛ في قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ تكررت هذه العبارة في تسعة مواضع من القرآن الكريم⁽¹⁾ على لسان كلّ من نوح وهود وصالح وشعيب، وبمثل ذلك أوحى الله تعالى إلى غيرهم من رسله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء: ٢٥، وقال في أهل الكتاب: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾﴾ البينة: ٥.

(1) ينظر: الأعراف(59، 65، 73، 85) هود(50، 61، 84) المؤمنون(23، 32).

وهي أول ما حاج عليه إبراهيم عليه السلام قومه؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كَيْفَيْنِ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الشعراء: ٧٠ - ٧٧.

وهي وصية يعقوب لابنيه كما ذكرها تعالى في قوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ البقرة: ١٣٣، كما كانت هذه الدعوة أول أمر دعا إليه يوسف عليه السلام في سجنه إذ قال لصاحبي سجنه: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَصْدِحِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢١﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يوسف: ٣٩ - ٤٠.

وهو أول ما دُعي إليه موسى الكليم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ طه: ١٣ - ١٤.

وهو الذي أمرت به النصارى في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحْبَتَهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ التوبة: ٣١.

وبمثل ذلك أمر رسول هذه الأمة (ﷺ)؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ الكهف: ١١٠؛ وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا

إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴿فصلت: ٦﴾، وعلى المقصد وقع التصريح في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ﴾ ﴿٥٢﴾ إبراهيم: ٥٢.

فالكلمة السواء، والأمر الجامع بين دعوة هذه الأمة ودعوات من سبقها من أهل الكتاب هو توحيد الله تعالى بالعبادة كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ آل عمران: ٦٤.

فمن كل هذا يتضح لنا جلياً أن أعظم مقاصد القرآن الكريم، وأول وظائف الرسل وجوهر الرسائل السابقة هو دعوة المكلفين إلى توحيد الله تعالى بالعبادة (1).

باقي ما ذكر من مقاصد الرسائل:

هذه مجموع الأمور التي تكرر ذكرها في القرآن في أثناء ذكر دعوات الأنبياء، وأما الباقي مما اختصت به بعض الرسائل أو وقع التركيز عليه في بعض الدعوات دون بعض؛ فذلك راجع لما اختصت به كل أمة من الأحوال و الأمراض دون بعض.

كالقصد إلى أعمال الأخلاق في المعاملات التجارية في رسالة شعيب عليه السلام، والقصد إلى إرجاع الناس إلى الفطرة في رسالة لوط عليه السلام، والقصد إلى كف طغيان الحاكم وتقويم نفوس الرعية في رسالة موسى عليه السلام، وإعطاء المثال الحي للحاكم العادل في نبوة داود وسليمان عليهما السلام، وبيان فضيلة الصبر وعاقبة المتحلي بها في رسالة أيوب عليه السلام، وغير ذلك مما تميزت به كل رسالة أو النبوة، وكل ذلك جعله الله تعالى دروساً سائغة لهذه الأمة، لتعتبر به.

(1) ينظر دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي: ص 220.

3- ذكر أسلوب القرآن في بيان مراتب المتفق عليه بين الرسالات:

للقرآن الكريم طريقته الخاصة في ترتيب أمهات مقاصده وأمّهات الرسالات السماوية، وهي حسب تقديري خمسة أمور، وزّعها الأسلوب القرآني على ثلاث مستويات:

المستوى الأول: - إخلاص العبودية.

فإذا أفرد القرآن ذكر مقصد من مقاصده الكلية، ذكر مقصد (إخلاص العبودية لله تعالى) وهو أشد مقاصد الرسالات وضوحاً وثبوتاً، وقد ذكره تعالى في حق جميع الرسل فقال: **قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٢٥﴾** وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ الأنبياء: ٢٥، وقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٢٦﴾ النحل: ٣٦، وقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿٢٧﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢٧﴾ النحل: ٢٧.****

ومصدق ذلك ما ذكرنا في دعوات الأنبياء عليهم السلام؛ من نوح **﴿٢٨﴾** في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٢٨﴾** إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ الأعراف: ٥٩، إلى دعوة نبيّنا **﴿٣٠﴾**؛ في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَتَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿٣١﴾ الكهف: ١١٠.**

وأوضح ما يفسّر سرّاً استحواذ هذا المقصد القرآني العظيم على عرش الأولوية والأولوية بين أمّهات مقاصد القرآن ما ورد التصريح به من الحكمة الكامنة وراء خلق الإنس والجان في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿٣٢﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٣٢﴾** الذاريات: ٥٦.

المستوى الثاني: - الإيمان والعمل الصالح.

إذا تلى القرآن أمهات مقاصده بالذكر سمي لنا ثنائية كثيرٌ تردّدها في أثناء القرآن الكريم؛ وهي ثنائية (الإيمان والعمل الصالح)، فهما من أكثر عبارات القرآن تكرارا وورودا في القرآن الكريم، وبشتى الصيغ؛⁽¹⁾ وقلما تجد ذكرهما في القرآن دون التصريح أو الإشارة إلى حسن عاقبتهما، وقد ذكرهما القرآن صفة لمن يرضى الله عنهم في كل الأمم.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ﴾ البقرة: ٢٥، وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾﴾ النساء: ١٢٤، وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾﴾ الإسراء: ٩، ومثيلاتها من الآيات كثير، وقلما تجد هذه العبارة في القرآن ولا تجد معها ذكر الوعد بالجزاء الحسن في الآخرة⁽²⁾. وكل هذه الآيات تفيد أن الإيمان مقدّم على العمل، فهو شرط قبوله، كما أن العمل أكمل حالات الإيمان، لأنه غايته.

فإخلاص العبودية -إذن- هي جوهر هذا الدين والمقصد الأقصى للقرآن الكريم، الإيمان والعمل الصالح هما عموداهما، وهما الركنان الركبان في كل رسالة سماوية، وإذا طُلب منا اختيار أكثر مقصدين كليّة في القرآن، أو أهم مقصدين للقرآن الكريم بعد مقصد العبودية، قلنا بلا تردّد: هما القصد إلى حصول الإيمان والقصد إلى حصول العمل الصالح.

(1) أحصيت ما كان بهذه الصيغ (آمنوا وعملوا - يؤمن يعمل - يعمل مؤمن) فبلغ تكرارها 57 مرة في القرآن، وغير هذه الصيغ كثير.

(2) ينظر عبارة "آمنوا وعملوا الصالحات" في برنامج القرآن الكريم.

وترجع أهميتهما في القرآن إلى كونهما مناط التكليف، وعليهما يقع الأجر، ومنهما يتكوّن المقصد الأقصى (إخلاص العبودية)، فهما دعامتاه.

أمّا عن مرتبة كلّ واحد منهما، فواضح تقدّم الإيمان على العمل، لأن الإيمان قد يُقبل بلا عمل، أمّا العمل فلا يُقبل بلا إيمان أبداً؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٤)، أمّا أعمال الكفار فقال فيها: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩)﴾ (النور: ٣٩).

المستوى الثالث: - الإيمان (بالله وبالיום الآخر) والعمل الصالح (الصلاة والإنفاق).

ثمّ إن هذين الركنين - الإيمان والعمل الصالح - قد يردان مُجملين كما ذكرت، وقد يردان مفصلين:

أ- فإذا تُلّت القرآن ذكر أمّهات مقاصده، فصلّ الأول منهما بالذكر ممثلاً في (الإيمان بالله والعمل الصالح)، لنحصل على ثلاثية (الإيمان بالله وبالיום الآخر والعمل الصالح). والظاهر أن السرّ في التثليث بذكر الإيمان باليوم الآخر راجع إلى كونه أعظم المرغبات وكونه العنصر المترجم لعلوم القرآن وتعاليمه من الفكر إلى الواقع، فيحوّلها من وجودها الذهني والقلبي إلى وجودها الخارجي، وهو ما يعبر عنه المنطقة بالتحوّل من القوة إلى الفعل. فهو وازع يدفع إلى الإتيان بتلك العبادة، لذلك ذكرت دعوة شعيب عليه السلام مختصرة فيهما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ فَقَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦)﴾ (العنكبوت: ٣٦).

وقد ذكر العلماء أن هذا القدر هو الحد المشترك بين كل الرسالات مستشهدين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة: ٦٩).

ب- فإذا رُبّع لنا العدد؛ فصلّ لنا طرفي ثنائية الإيمان والعمل الصالح ممثلين في أهم ركنيهما في عبارة (الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨)، وقال أيضا: ﴿قَالَ تَعَالَى: لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢)، فأكثر ما يُذكر في القرآن من شعائر قسم الأعمال الصالحة في دعوات الأنبياء هو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٧)؛ وقد سلف ذكر قول القرطبي من أنهما رأس الأعمال؛ الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

وعلى الرغم من تكرّر ذكر ركني إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وعدهما ركنين ركنين لقسم العمل الصالح، فإن العلماء يدرجون ذكرهما فيما اتّفقت عليه الشرائع،

ويرجع ذلك -في تقديري- لكون القرآن صرّح باختلاف الشرائع التي تمثل جانب العمل في قوله تعالى: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٤﴾ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾** المائدة: ٤٨ .
وأجمع من ذلك ذكراً للأعمال الصالحة قوله تعالى: **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾** آل عمران: ١١٤ .

فجمع بين ركني الإيمان؛ الإيمان بالله (المقصود)، الإيمان باليوم الآخر (الدافع)؛ وهو أعظم مرغّب، ثم ذكر العمل الصالح بأجمع معانيه؛ وهو الأمر بإتيان كل الأوامر -ومن ضمنها الصلّاة والزكاة- والانتهاز عن النواهي، والمصارعة فيما أمكن من أنواع القربات.

فمن خلال النظر في دعوات الأنبياء عليهم السلام يظهر لنا ما يأتي:
إنّ أوّل ما يعتني به النّبّي أو الرّسول هو إثبات نبوّته أو رسالته، لينتبت من وراء ذلك صحّة العلوم التي جاء بها، وعليه يكون حصول العلوم الحقّة النّافعة أولى مقاصد القرآن وجوداً في القرآن وفي غيره من رسالات الأنبياء.
إنّ أقصى ما ترمي إليه تلك العلوم ودعوات الأنبياء والمرسلين أجمعين هي الدّعوة إلى توحيد الخالق بالعبادة؛ أي: إخلاص العبوديّة له.

إنّ أهمّ ما يحقق ذلك المقصد الأقصى أمران؛ هما الإيمان والعمل الصّالح.
إنّ تحوّل تلك العلوم من مجرد أفكار إلى إيمان وعمل صالح يحتاج إلى وجود الوازع، وإنّ أعظم ما يمثّل هذا الوسيط المحوّل هو الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الثاني:- مراتب أمّهات مقاصد القرآن.

من خلال ما سلف ذكره نخلص إلى أن لدعوات الأنبياء والمرسلين -بعد إثبات نبوتهم- وجهتين:

- **وجهة خارجية؛** وهي دعوة الكفار إلى الإيمان والتوحيد، وأهم ما يُذكر فيها الإيمان بركنيه (الإيمان بالله واليوم الآخر).

- **وجهة داخلية؛** وهي دعوة أهل الإيمان إلى الأعمال الصالحة، وأكثر ما يُذكر فيها ركنا الصلّاة والزكاة.

فأما الوجهة الخارجية فأهم مواضيعها على الإطلاق هو الإيمان بالله تعالى، وأهم ما فيه إعلام المشركين بوحدانيته، ويأتي ذلك -عادة- مصحوباً بالتحذير من عاقبة الشرك الوخيمة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً. ويأتي بعد ذلك الانتقال إلى الوجهة الداخلية.

وأما الوجهة الداخلية فأغلب كلام الأنبياء فيها التنبيه على ركنين مهمّين أولهما إقام الصلاة، والثاني إيتاء الزكاة أو الإنفاق في سبيل الله؛ وذلك لأنهما -فيما نرى- خير ما يعبر عن وجهتي عمل الإنسان:

- **وجهة مع خالقه،** وأعظم حالاتها الصلّاة، وهي خير ما تتجلّى فيه وظيفة العبودية.

- **وجهة مع المخلوقات** وأعظم حالاتها إيتاء الزكاة؛ وهي أوضح تجلّيات وظيفة الخلافة في الأرض.

أو لأنهما -على قول القرطبي- رأس الأعمال؛ الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.⁽¹⁾

فإذا تكاملت الوجهتان حصل للمكلفين ما كان مؤملاً من توحيد الباري عز وجل وإخلاص العبوديّة لجلاله.

(1) ينظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 362/2.

ونخرج من كلّ هذا إلى أن أساس هذه الدّعاوات هو العلم الحاصل من التصديق بالنبوّة أو الرّسالة، وأنّ أوّل ثمرة لهذا العلم هو حصول الإيمان، والثمرة من هذا العلم مع هذا الإيمان هو حصول العمل الصّالح، وثمره اجتماع هذه المقاصد الثلاثة هي حصول المقصد الأقصى المتمثّل في إخلاص العبودية لله تعالى.

وعليه يكون العلم أوّل مراتب المقاصد المهمّة في القرآن الكريم، وإخلاص العبودية هي غايتها القصوى في الأهميّة، وبين هذين المقصدين تترتّب بقية المقاصد المهمّة؛ وهي الإيمان والعمل الصّالح.

إخلاص العبودي لله تعالى			
الإيمان (التّصديق)		العمل الصّالح (الطاعة)	
بالله	باليوم الآخر	إقام الصّلاة	إيتاء الزكاة
(المعبود)	(خير دافع إلى العبادّة)	(أعظم مظهر للعبودية)	(أعظم مظهر للخلافة)
تحصيل العلوم الحقّة			

فأمّهات مقاصد القرآن الكريم إذن متفاوتة في الأهميّة بين أوّل وأولى ما يجب تحصيله وبين أكمل ما يمكن تحصيله منها.

ثمّ إنّ إمعان النظر في كل ما سبق ذكره من المقاصد العالية قادني إلى محاولة إعمال ما أمكن من تلك المقاصد وتلك الضّوابط والمعايير قسمة وترتيباً؛ أي: إعمال المستويات الثلاثة، والتقسيم الثلاثي الثابت بالحديث، وحفاظاً على أهميّة ما لا يجوز الاستغناء عنه منها، مما ذكره القرآن والسنة وأهل العلم من المقاصد الكلّية، رأيت نظم ذلك كلّ في منظومة مقاصدية قرآنية شاملة ومُحمّكة، تتكوّن عقدها مما صفا لي من مقاصد كلّية فيما سبق؛ وهي تسعة:

-إخلاص العبودية لله تعالى -العلم -الإيمان -العمل -الوازع -التذكير -
الوعظ -الصبر -الإحسان.

وذلك بتوزيعها على المستويات الثلاثة، وتقسيم المستوى الثاني على القسمة
الثلاثية، الممثلة للمقاصد الأساسية في القرآن، والمكوّنة لمقصده الأقصى، ثمّ
إبراداف هذه المقاصد بذكر باقي المقاصد الخادمة في المستوى الثالث.
وعلى هذا يكون ترتيب أمّهات مقاصد القرآن -حسب الأهمية- على ثلاثة
مستويات وكالاتي:

المستوى الأول - المقصد الأقصى: القصد إلى حصول العبودية الخالصة لله
تعالى.

فأرفع هذه المستويات وأعلاها مستوى هو مقصد إخلاص العبودية لله تعالى
الذي ثبت -بمختلف المعايير- أنّه أقصى المقاصد وغاية المطالب القرآنية.

المستوى الثاني - المقاصد الأساسية: العلم الحق - الإيمان الصحيح -
العمل الصّالح.

ثمّ يليها مستوى المقاصد الأساسية المكوّنة لجوانب تلك العبودية المذكورة،
وهي:

العلم - الإيمان - العمل الصّالح.

وذلك أنني نظرت إلى أن الإنسان إنّما خُلق لأجل العبادة الخالصة، فهو المقصد
الأساسي، ولما كان الإنسان مكوّنًا من ثلاثة جوانب أساسية، وهي العقل والقلب
(أو النفس أو الرّوح)، والجسد؛ كان عليه تحقيق تلك العبودية المطلوبة بكل جانب
من تلك الجوانب، ثمّ نظرت إلى ما يوافق كل جانب من جوانب الإنسان، فوجدت
تحصيل العلم هو حظ العقل من العبودية، وحصول الإيمان هو حظ القلب والوجدان
من تلك العبودية، وحصول العمل الصّالح هو حظ الجسد من تلك العبودية، وبقدر
اكتمال تلك الجوانب وتكاملها يعظم قدر ما تتصف به النفس من عبودية لله تعالى.

ويكون ترتيب هذه المقاصد إمّا بالنظر إلى مدى حاجة الناس إليها، وإمّا إلى درجتها في الكمال (أي ترتيبها حسب أكمل ما يمكن تحصيله):-
فأما من ناحية مدى حاجة الناس إليها، فإننا نجد أن العلم أشد المقاصد القرآنية أهميّة لأن كل ما عداه منها متوقّف عليه، في حين نجده غنيا في وجوده عن وجودها، ثم يليه أهميّة الإيمان لأنه أول ثمار ذلك العلم، وهو كاف للنّجاة لمن لم يسعه وقت للعمل، ويكون العمل الصّالح أدنى درجات هذه الثلاثية المقصدية، لذلك تجده آخر ما يُطلب منها في دعوات الرسل، ويكون الترتيب على هذا الأساس كالآتي:-

المرتبة الأولى:- العلم؛ لأنه أساس وجودها، فلا إيمان بلا علم، ولا عمل بلا علم.

المرتبة الثانية:- الإيمان؛ لأنه المنجي لمن لم يسعهُ وقت للعمل والطاعة.

المرتبة الثالثة:- العمل الصّالح، لأنه آخر ما يُطلب.

العلم ← الإيمان ← العمل الصّالح.

وأما من ناحية الكمال فلا شك في أن العمل الصّالح القائم على الإيمان والعلم الصحيح أشرف وأعلى منزلة من مجرد العلم والإيمان، أو مجرد العلم الصحيح فقط؛ ويكون الترتيب على هذا الأساس كالآتي:-

المرتبة الأولى:- العمل الصّالح الذي استوفى شرطيه (العلم والإيمان)، فهو أشرف الحالات.

المرتبة الثانية:- الإيمان؛ الذي استوفى شرط العلم، لأنه أساس العمل، ومفتاح الأجر على الأعمال، فلا عمل بلا إيمان.

المرتبة الثالثة:- العلم؛ لأنه أساس وجودها.

العمل الصّالح ← الإيمان ← العلم.

وغاية هذه الثلاثية هو إقامة جوانب حق الله تعالى على العباد المتمثل في العبودية الخالصة لذاته العلية.

المستوى الثالث - المقاصد الخادمة: الوازع - التذكير - الوعظ - الصبر - الإحسان.

مُستوى المقاصد الخادمة، التي تعمل عملها في هذه الأسس، لتُقيم صرح المقصد الأقصى، وذلك أنه لما كانت هذه الأسس لا يُفضي بعضها إلى بعض إلا بوسيط، قيّض لها القرآن ما يتكفل لها بذلك، وهو مجموع ما ذكره تعالى من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، مما يصدق على مجموعه اسم الوازع.

ولما كانت هذه الأسس لا يستقيم لها وجود إلا بوجود دائم لأساس العلم، تكفل لها القرآن بما يحفظ لها استمرار وجود هذا العلم بمقصد التذكير.

ولما كانت تلك العلوم محتاجة إلى محوّل لها من وجودها الذهني إلى وجودها القلبي (الإذعان) ثم وجودها الخارجي، وظّف لها القرآن مقصد الوعظ.

ولما كان في هذه التكاليف نوع ثقل تتبرّم منه النفس، وتكلّ عن حمله، رتب الله تعالى ما يحفظ لتلك التكاليف استمرار وجودها؛ وتلك وظيفة الصبر والتثبيت.

ثم إنّ التذكير والوازع قد يعملان في النفس عملهما فيوجدان الإيمان والعمل الصالح، ولكن للإيمان والعمل الصالح حدان متفاوتان؛ حدّ أدنى وهو ما تقع به النّجاة، وحدّ أقصى وهو ما يقع به الحصول على أسمى الدّرجات، لذلك هيا لنا القرآن ما يأخذ بأيدي ذوي الهمم من حدّهما الأدنى إلى ما كُتب لهم من درجات الكمال، وتلك وظيفة الإحسان.

فغياب الوازع يُعدم الثمرة من العلم، وغياب التذكير يُخمد الإيمان أو يُخمد الإيمان والعمل الصالح معاً. وغياب الوعظ يُفقد القلب نشوته وحياته، فلا يفيد علم، ولا إيمان. وغياب الصبر ضياع للعمل وانقطاع لوجوده، وغياب الإحسان ضياع لأعلى مراتب الإنسانية، وأعلى ما يحب الرّب من مراتب العبودية.

ويكون ترتيبها هذه المقاصد حسب تعلّقها بمقاصد القرآن الأساسية على الطريقتين المذكورتين آنفاً، فإذا نظرنا إلى أوّل ما يجب حصوله منها، وجدناها على الترتيب الآتي:-

المرتبة الأولى:- الوازع؛ لأنّه العنصر المحرّك لما سلف ذكره من المقاصد الأساسية.

المرتبة الثانية:- التذكير؛ لأنّه العنصر الذي يحفظ للعلوم وللوازع استمرار وجودها، الذي يتعلّق به وجود واستمرار باقي المقاصد.

المرتبة الثالثة:- الوعظ؛ لأنّه المحوّل لتلك العلوم، وذلك الوازع من فكرة إلى حركة باطنية في القلب، ومحرّك ما في القلب ليكون أقوالاً وأفعالاً.

المرتبة الرابعة:- التثبيت والصبر؛ لأنّه العامل الذي يحفظ للعلم والإيمان والعمل الصّالح وجودها.

المرتبة الخامسة:- الإحسان لأنّه العامل على ارتقاء المُكلّف من أدنى مراتب العبودية إلى أعلى الدّرجات.

هذا من ناحية أوّل ما يُحتاج إليه منها قبل غيره، أمّا من ناحية الكمال، فلا يخفى أنّ وسيلة الأكمل أسمى مرتبة من وسيلة ما كان أقلّ منه كمالاً. فالإحسان أعلى مراتب وسائل تحقيق العبودية، وهي ما وقع التعبير عنه في الحديث القدسي بقوله تعالى: "ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه..." الحديث، ثمّ يليه مرتبة الصبر والثبات على الحدّ الأقصى من الأعمال لأجل النجاة، ثمّ الوعظ المحرّك للقلب ليعمل، ثمّ التذكير ليستمرّ وجود العلم، ثمّ وجود الوازع.

وزيادة في الإيضاح وضعت رسماً بيانياً يبيّن توزيع ما ذكرت من أمّهات المقاصد على المستويات الثلاثة في الشكل الآتي:-

إخلاص العبودية لله تعالى

العلم

الإيمان

العمل

الوازع

التذكير

الوعظ

التثبيت

الإحسان

الثاني الفَصْل

التعريف بأُمّهات مقاصد القرآن الكريم.

توصلنا مما ذكرنا آنفاً إلى أن مقاصد القرآن الكلية الحاكمة تُشكّل منظومة مقصدية مُحكمة يرتبط بعضها ببعض، ويخدم بعضها بالآخر. والذي استقرّ عليه الأمر في أقسام القرآن الموضوعية الكلية ومقاصده المهمة، هي أن يحصل للمكفّ العلم بمهمّات الأمور، ثم أن يقع له الإيمان بذلك كله، ثم أن يمتثل لأوامره.

ثم إن هذه المهمّات تحتاج إلى وسائل أخرى ألحقناها بسلك أمّهات المقاصد لتعزّز الاستغناء عنها في حصول هذه المقاصد الثلاثة؛ وهي قصد القرآن إلى وجود الوازع وقصده إلى حصول التذكّر وهما متعلقان المقصد الأول المتعلق بالعقل والعلم، ثم قصده إلى حصول الاتّعاظ بالنسبة إلى القسم الثاني المتعلق بالقلب (أو الروح) والإيمان، ثم قصده إلى حصول الإحسان وهو متعلّق بجل هذه المقاصد، وقصده إلى تحلّي المكفّ بالصبر والثبات، وهو متعلّق بتحصيل وحصول واستمرار وجود كل ما سلف ذكره من المقاصد.

فإذا أعملنا هذه الخمسة في تلك الثلاثة أثمرت هذه المنظومة أعظم مقاصد القرآن الكريم وأقصى غاياته على الإطلاق؛ وهو القصد إلى تحقيق السبب الذي خُلق لأجله الإنسان؛ أي: تحقيق وظيفة العبودية الخالصة لله تعالى.

وقد عددت كل ما ذكرت في أمّهات مقاصد القرآن الكريم على الرغم من إفضاء بعضها إلى بعض، وكون بعضها وسائل إلى بعض، لأنّ هذه المنظومة يتعطلّ عملها إذا استغنت عن أحد هذه المقاصد، ولنُفصل الكلام في كلّ مما ذكرت من المقاصد في هذا الفصل معرّفاً بها بما يناسب أهمّيّتها، ومقامها، ومبيّناً لكيفية تأثير بعضها في بعض، وإفضاء بعضها إلى بعض في المباحث الآتية:

المبحث الأول - المقصد الأقصى (القصد إلى إخلاص العبودية لله)

من خلال ما سلف ذكره في الفصل السابق تبين جلياً أن أكثر ما اهتم به القرآن الكريم من المقاصد هو بيان الوظيفة الأساسية التي خلق المكلفون لأجلها، توحيد الله تعالى بالعبادة، وحثهم على القيام بها؛ فلنعرّج على تعريفها أولاً ثم نبسط الكلام في مسائلها.

- **العبادة في اللغة:** (العين والباء والdal أصلان صحيحان، كأنهما، متضادان، والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ)⁽¹⁾.

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب في المعاني. يقال تعبد فلان لفلان - إذا تذلل له وكل خضوع فهو عبادة، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهي عبادة. والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم، كالحياة والفهم والسمع والبصر.

وجاء في اللسان: والتعبد التتسك، والعبادة: الطاعة⁽²⁾. و(العبد) هو الإنسان حراً كان أو رقيقاً⁽³⁾. لقال الخليل: إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والعبيد المملوكين. يقال: هذا عبد بين العبودة، ولم نسمعهم يشتركون منه فعلاً... قال: وأما عبد، يعبد، عبادة؛ فلا يقال إلا لمن يعبد الله تعالى... وتعبد يتعبد تعبدًا. فالمتعبد: المتفرد بالعبادة... وأما عبد في معنى خدم مولاه فلا يقال عبده، ولا يقال يعبد مولاه... والمعبد: الذلول...⁽⁴⁾.

(1) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق عبد السلام هارون.

دار الفكر، 1399هـ - 1973م: مادة (عبد).

(2) العبادة في الإسلام ص27.

(3) موسوعة أخلاق القرآن ص 146.

(4) معجم مقاييس اللغة مادة (عبد).

يقول د. أحمد الشرباصي في موسوعته: لقد ذكر القرآن الكريم مادة العبودية والعبادة في عشرات من الآيات، وأرشدنا إلى أن العبادة لله هي غاية العباد التي خلقهم لها...ومن هنا نهى الحديث عما يشعر - ولو في الظاهر - بأن هناك عبودية لغيره، فقال: " لا يقل أحدكم لمملوكه: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي"(1) لأن المستحق لذلك إنما هو الله وحده لأنه رب العباد"(2).

والعبودية هي إظهار التذلل، لأنه يقال طريق معبد، أي: مذل، بالمشي فيه، ويقال بعبير معبد، أي: مذل، وعبدت فلانا أي: أذلته، ومن ذلك قول القرآن: ﴿أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(3)... والعبادة) أبلغ من العبودة لأن العبادة هي غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله جل جلاله، ولذلك قالوا إِنَّ العبادة هي الحب بغاية الذل والخضوع، والتعبد هو التذلل والخضوع"(4).

- المفهوم الشرعي للعبادة:

إِنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) الذاريات: ٥٦، حصراً لكل المراد من خلق الإنسان في وظيفة واحدة وهي القيام بعبادة الله تعالى. قال صاحب الكشف في تفسيره لهذه الآية: (أي وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها)(5).

(1) صحيح البخاري: 901/2، سنن أبي داود: 294/4.

(2) موسوعة أخلاق القرآن، د/ أحمد الشرباصي. دار الرائد العربي. بيروت لبنان ط1/ 1401-1981: ص146-147.

(3) (الشعراء 22)

(4) أخلاق القرآن: ص146-148.

(5) الكشف، (22/4)

وقد أفادت هذه الآية أمرين؛ أحدهما أن الله تعالى ما خلق الثقلين إلا لوظيفة العبودية، والثاني أن هذه العبودية لا تكون إلا لله تعالى؛ أي: أنه ما خلقهما إلا لإخلاص العبودية له.

فهو ينضم بذلك طوعا في سلك الناموس الكوني العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه. فإذا كان كل مخلوق قد علم صلاته وتسبيحه فهو بهذا قد علم مقصد وجوده أيضا. وعلى هذا فكل ما لم يتحقق فيه مفهوم العبادة يعتبر انحرافا عن المنهج الذي سطره الله تعالى له، وعدولا عن المقصد الذي خلق لأجله. ففي هذه الآية تحديد قرآني لطبيعة العلاقة التي تربط الإنسان بخالقه عز وجل، فهي علاقة عبادة، كما أن نسبة كل المخلوقات وخالقها هي نسبة العبد إلى مالكه وسيده⁽¹⁾.

بل إن القرآن يحصر بذلك معنى الحياة المرادة من خلق الإنسان في العبودية فقط، والظاهر من الآية أن أداء تلك الوظيفة يستغرق الحياة كلها. فتلك إذن هي حقيقة العلاقة التي تربط الإنسان بخالق الكون، وتلك هي وظيفته التي طالما ذكره بها الأنبياء والرسل. فما كانت دعوة أي: منهم إلا قوله: يا قوم اعبدوا الله مالمكم من إله غيره.

إنه التذكير بالعهد القديم..(العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان، وسجله بقلم القدرة في فطرتهم البشرية وغرسه في طبائعهم الأصلية منذ وضع في رؤوسهم عقولا تعي وفي صدورهم قلوبا تحقق وفي الكون حولهم آيات تهدي قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي مَعَكُمْ بِأَنَّ لَكُمْ مِنْهُ آيَاتٌ مُبِينٌ ۖ وَإِنْ عُثِرْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِنِّي أَصْلَحُ الظَّالِمِينَ ۚ﴾ ٦٠ - ٦١. هذا العهد بين الله وعباده هو الذي صورته القرآن في روعة وبلاغة حين قال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

(1) ينظر المعجم الصوفي: ص 765-766.

ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴿الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣﴾ (١) لقد أشهدهم على أنفسهم؛ فشهدوا له بالربوبية. ودانوا له بالعبودية.

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد. ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. بهذا دعا قومه نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وكل رسول بعث إلى قوم مكذبين.. (٢) قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿٣٦﴾ النحل: ٣٦، وقال أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٥﴾ الأنبياء: ٢٥؛ وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿٢﴾ النحل: ٢؛ بداية من نوح عليه السلام كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾ الأعراف: ٥٩، إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) الذي أمره تعالى فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٦﴾ فصلت: ٦. وأمره بدعوة أهل الكتاب فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّاهِلُ الْكَافِرُ تَعَالَوْا إِلَىٰ

(١) العبادة في الإسلام: ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢-٢٣.

كَلِمَةٍ سَوَاءً بَيَّنَّا وَبَيَّنَّا أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ آل عمران: ٦٤.

وقد يظهر للنناظر أن هذه العبودية التي تستغرق الحياة كلها قد تعارض حاجة الإنسان إلى القيام بالكثير من النشاطات الأخرى غير تلك الشرائع والشعائر التي تعبدنا الله بها في القرآن كالصلاة والصوم والحج وغيرها. لو من ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلية في مدلول العبادة قطعاً⁽¹⁾.

ولذلك أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية من سألته عن مفهوم العبادة المذكور في هذه الآية بقوله: "العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى لقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله⁽²⁾.

إن جملة حركات الإنسان وسكناته لا تخرج عن كونها أعمال قلوب أو أعمال جوارح كالأقوال والأعمال. وكل ذلك متناول ومستوعب في كلامه تعالى في الكثير من الآيات التي تتحدث عن الإيمان والعمل الصالح. وقد بين النبي (ﷺ) ما أجمله

(1) في ظلال القرآن: 6 / 3387-3388.

(2) العبودية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية. دار الكتب العلمية/ بغداد: ص 4.

القرآن أو فصله في الآيات المتفرقة في حديث جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان. إقرار بما أخبر به تعالى، وانقياد الظاهر والباطن لما أمر به أو نهى عنه، ثم الإحسان في كل شيء، وذلك ما يستغرق حياة الإنسان كلها.

فحصر الآية إذن للمقصد الذي خلق له الناس في العبودية وحدها يعني (أن تستقيم حياة الإنسان بكاملها على أمر الله بحيث تكون شريطا متصلا، وحلقة مستمرة من الطاعات لا في مجال إقامة الشعائر فحسب، بل في سائر أوجه الحياة. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٣) ﴿الأنعام: ١٦٢﴾ (1) وذلك بأن يستقر معنى العبودية في ضمير العبد فيعنيه، ثم يتوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله. بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله.. وكلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه (2).

وزيادة على ذلك فقد نبّه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى بُعد آخر في المفهوم الإسلامي للعبودية؛ ألا وهي عاطفة الحب الخالصة التي تصاحب ذلك التذلل والخضوع التام. قال في كتابه العبودية: (العبادة أصل معناها: الذل أيضا. يقال طريق معبد، إذا كان مذلا قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها شرعا تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له) (3). ثم

(1) الإسلام (حقيقته وموجباته)، د. محمد عقله. شركة الشهاب/ الجزائر. 1988: ص58-59.

(2) في ظلال القرآن: 6/ 3387-3388.

(3) العبودية: ص10.

قال: (ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله..)(1).

ولهذا العنصر أهميته الكبرى في الإسلام، وفي كل الأديان؛ فهو عنصر لا تتحقق العبادة إلا به. يقول د. القرضاوي: (تغيير هذا العنصر العاطفي الوجداني لا توجد العبادة التي خلق لها الخلق، وبعث بها الرسل وأنزل الكتب)(2).

وعلى ذلك فإن العبادة المشروعة لا بد لها من أمرين:

الأول: هو التزام ما شرعه الله ودعا إليه رسله، أمرا ونهيا، وتحليلا وتحريما، وهذا هو الذي يمثل عنصر الطاعة والخضوع، فليس عبدا ولا عابدا لله من رفض الاستسلام لأمره، واستكبر عن اتباع نهجه، والانقياد لشرعه وإن أقر بأن الله خالقه ورازقه؛ قال الشاعر(3):

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأُطِعْتَهُ إِنَّ الْمَحَبَّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

لذلك عرّف الرازي العبادة المذكورة في هذه الآية فقال: "التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما"(4) قال ابن عاشور: "فهي بهذا التفسير تشمل الامتنال لأحكام الشريعة كلها"(5).

(1) المصدر نفسه ص10.

(2) العبادة في الإسلام ص 31-34.

(3) البيهتان لمحمود الوراق، ديوان الوراق، محمود بن حسن الوراق البغدادي ت(225هـ)، جمع عدنان راغب العبيدي: دار البصري/ بغداد، 1969، ص90.

(4) تفسير الفخر الرازي: 233/14.

(5) التحرير والتنوير: 180/1.

الثاني: أن يصدر هذا الالتزام من قلب يحب الله تعالى. فليس في الوجود من هو أجدر من الله تعالى بأن يُحَبَّ، فهو صاحب الفضل والإحسان⁽¹⁾. سسس وذلك تمام ما أمر الله به.

يقول ابن عاشور: "لا شك أن داعي العبادة التعظيم والإجلال وهو إما عن محبة أو عن خوف مجرد، وأهمه ما كان عن محبة لأنه يرضي نفس فاعله .. وهي تستلزم الخوف من غضب المحبوب.. ولذلك قال تعالى قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) آل عمران: ٣١، فذلك يشعر بأن اتباع الشريعة يوجب محبة الله وأن المحب يود أن يحبه حبيبه كما قال المتنبي:

أنت الحبيب ولكني أَعُوذُ بِهِ مِنْ أَنْ أَكُونَ مُحَبًّا غَيْرَ مُحَبِّبٍ⁽²⁾

والى هذا النوع ترجع عبادة أكثر الأمم، ومنها العبادة المشروعة في جميع الشرائع لأنها مبنية على حب الله تعالى، وكذلك عبادة المشركين أصنامهم قال تعالى قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (١٦٥) البقرة: ١٦٥، ومن الأمم من عبدت عن خوف دون محبة وإنما هو لاتقاء شر كما عبدت بعض الأمم الشياطين وعبدت المانوية من المجوس المعبود "أهرمن" وهو عندهم رب الشر والضر⁽³⁾.

فالعبادة في الإسلام قائمة على عاطفتين عبر عنهما قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) السجدة: ١٦.

(1) ينظر العبادة في الإسلام ص 34.

(2) شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى/ مصر، ط: 1348هـ-1930م: 123/1.

(3) التحرير والتنوير: 182/1-183.

ومن تمام فوائد الآية في بيان مفهوم علاقة العبودية التي تربط العبد بربه قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) الذاريات: ٥٧ - ٥٨**. إذ في ذلك إشارة إلى أن طبيعة عبودية الناس لله تعالى تختلف عن عبودية بعضهم لبعض؛ فإنما يتخذ الناس العبيد ليكونوا لهم عوناً في تحصيل المعاش. قال صاحب الكشف: ليريد إن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم...⁽¹⁾ وجاء في الانتصاف: **لإنها إنما سيقت لبيان عظمتة عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون، بالخدمة والتكسب للسادة ... والله يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقاً أنه هو الذي يرزقهم**⁽²⁾. فإن من أسمائه تعالى "الغني"، فليس له حاجة في عبادة الثقيلين له. قال موسى **عليه السلام** لبني إسرائيل حينما رأى تثقلهم في أمر الله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ (٨) حيد** إبراهيم: **٨ يقول جل جلاله في الحديث القدسي: "يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً"**⁽³⁾.

ولا يفوتنا في هذا المقام زيادة بيان لمفهوم العبادة الدائر في الاستعمالات القرآنية، وذلك أنه تعالى ذكر أنه ما خلق الثقيلين إلا لعبادته. وفي كثير من الآيات ينفي عبودية الكفار له. وأخبر بأن من الناس من آمن به وعبدته. ومنهم من كفر به

(1) الكشف: 22/4.

(2) من كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال وهو حاشية على الكشف (22/4).

(3) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، صحيح مسلم 194/4.

وعبد غيره. وفي نفس الوقت يشير القرآن إلى أن الجن والإنس ليسا وحدهما اللذان خلقا للعبادة بل إن كل مخلوق في هذا الوجود خلق لهذه الغاية، وهو يمارسها في وظيفته التي وكل بها. يظهر ذلك جليا في قوله سبحانه: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ۝ الرَّعد: ١٥﴾. وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۝ الإسراء: ٤٤﴾ (١).

وهذا يبين أننا هنا أمام مفهومين متباينين للعبودية المذكورة. والسر في ما قد يظهر أنه تناقض إنما يرجع إلى أن العبودية التي أمر بها تعالى عباده من الجن والإنس ليست من نوع تلك التي تعبد بها جميع مخلوقاته. فإنما أراد منهم عبادته طواعية باختيارهم ومحبتهم ورغبتهم. زيادة على تلك العبودية الكونية التي تمارسها جميع المخلوقات طوعا وكرها. فلو أنه أراد حصول ذلك منهم بالقهر لما تأخر منهم أحد في امتثال أمره. قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لَئِنَّ الْأَمْرَ لَجَمِيعًا ۝ فَلَمْ يَأْتِ الْذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۝ الرَّعد: ٣١﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ۝ يس: ٨٢﴾.

إذن ففي "اختصاص الجن والإنس من بين المخلوقات بالذكر، إشارة إلى أنهما هما المخلوقان اللذان لهما إرادة عاملة^(٢)، وهما بهذه الإرادة يعملان، فيؤمنان أو

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب. دار الفكر العربي: (537/7).

(٢) وقد تكون هناك مخلوقات أخرى لها إرادة، وعليها تكليف وحساب وجزاء، ولكن الذي يقع في محيط الإدراك الإنساني، هو ما يعلمه الإنسان من نفسه، وما بلغه من رسالات الرسل، كما كان علمه بالجن، وأنهم مكلفون، ومنهم المؤمنون، ومنهم القاسطون كما أخبر بذلك (رسل الله...) المصدر نفسه: (538/7).

يكفران، ويطيعان أو يعصيان، ومن هنا وقع عليهما التكليف، وحق عليهما الحساب والجزاء، بمقتضى ما يعملان من خير أو شر⁽¹⁾.

قال الزمخشري في الكشف: (إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم⁽²⁾). وإنما هي إرادته الشرعية الدينية.

وقال الشنقيطي: (إرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: ليعبدون، إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله لا إرادة كونية قدرية، لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الْكُفْرُوتَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) الكافرون: ١ - ٣(3).

وعليه فإن العبودية التي اتصف بها جميع الخلائق نوعان (عامة وخاصة):
فالعبودية العامة هي خضوع أهل الأرض والسموات كلهم لجلال الله وقهره، وقد أشار القرآن إلى هذا النوع في قوله في سورة مريم: ﴿قَالَ تَعَالَى: إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١٣) مريم: ٩٣.

(1) المصدر نفسه: (538/7).

(2) الكشف: (22/4).

(3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: عالم

الكتب/ بيروت، ط: 1396هـ - 1980م: 671/7-673.

والعبودية الخاصة هي عبودية الطاعة والمحبة، وإليها الإشارة بقوله تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ﴾ (١٧) الزمر: ١٧ فهؤلاء العباد هم الذين خضعوا لربهم طوعا واختيارا^(١).

هذا هو الفرق بين صنفى العبودية السارية في الكون كله.

أما بالنسبة لتباين هذه الصفة بين المكلفين فإن معانيها تتفاوت بينهم كتفاوت معادتهم وأشخاصهم، على اختلاف دوافعهم ومقدار أعمالهم، ومن هذا الباب فرّق بعضهم بين لفظي العبادة والعبودية بالنظر إلى القدر الذي يحملانه من معنى؛ ومن هذا القبيل تعريف بعض الصوفية للعبادة بأنها فعل ما يرضي الرب، وللعبودية بأنها الرضا بما يفعل الرب. قالوا: فهي أقوى.^(٢) وعرف بعضهم العبودية فقال: "العبودية الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود. والصبر على المفقود"^(٣).

وفرّق بينهما الفخر الرازي فقال: "مراتب العبادة ثلاث:

الأولى: - أن يعبد الله طمعا في الثواب وخوفا من العقاب وهي العبادة، وهي درجة نازلة ساقطة لأنه جعل الحق وسيلة لنيل المطلوب.
الثانية: - أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته والانتساب إليه بقبول تكاليفه وهي أعلى من الأولى إلا أنها ليست كاملة لأن المقصود بالذات غير الله.

(١) موسوعة كتاب أخلاق القرآن: ص ١٤٦.

(٢) ينظر التحرير والتنوير: ١٨٠/١.

(٣) ينظر التحرير والتنوير: ١٨٠/١.

الثالثة: - أن يعبد الله لكونه إلها خالقا مستحقا للعبادة وكونه هو عبدا له، وهذه أعلى المقامات وهو المسمى بالعبودية⁽¹⁾. ففرق إذن بين العبادة والعبودية بالباعث على كل منهما.

غير أن ابن عاشور تحفظ على بعض ما في هذا التقسيم فقال: "وما ادّعاء الفخر في سقوط الدرجة الأولى ونزول مرتبتها قد غلب عليه فيه اصطلاح غلاة الصوفية وإلا فإن العبادة للطمع والخوف هي التي دعا إليها الإسلام في سائر إرشاده، وهي التي عليها جمهور المؤمنين وهي غاية التكليف، كيف وقد قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴿فَاطِرُ: ٢٨﴾ فإن بلغ المكلف إلى المرتبتين الآخرين فذلك فضل عظيم وقليل ما هم، على أنه لا يخلو من ملاحظة الخوف والطمع في أحوال كثيرة، نعم إن أفاضل الأمة متفاوتون في الاحتياج إلى التخويف والإطماع بمقدار تفاوتهم في العلم بأسرار التكليف ومصلحه وتفاوتهم في التمكن من مغالبة نفوسهم، ومع ذلك لا محيص لهم عن الرجوع إلى الخوف في أحوال كثيرة والطمع في أحوال أكثر. وأعظم دليل على ما قلنا أن الله تعالى مدح في كتابه المتقين في مواضع جمة ودعا إلى التقوى، وهل التقوى إلا كاسمهما بمعنى الخوف والانتقاء من غضب الله قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٧﴾ الإسراء: ٥٧(2).

ثم زاد المرتبة الثالثة (العبودية) وضوحا فقال: (المرتبة الثالثة هي التي أشار لها قوله (ﷺ) لمن قال له كيف تجهد نفسك في العبادة وقد غفر لك الله ما تقدم من

(1) التفسير الكبير، الرازي: دار الفكر، ط1/1401-1981: 253/1-254 (بتصرف)، وينظر

التحرير والتنوير: 180-181.

(2) التحرير والتنوير: 181/1.

ذنبك وما تأخر فقال **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**⁽¹⁾ لأن من الظاهر أن الشكر هنا على نعمة قد حصلت فليس فيه حظ للنفس بالطمع في المزيد لأن الغفران العام قد حصل له فصار الشكر لأجل المشكور لا غير وتمحض أنه لا لخوف ولا طمع⁽²⁾.

ومن هذا الباب أيضا صنف محيي الدين بن عربي العباد إلى صنفين تبعا لطبيعة عبوديتهم لله ﷻ فيقول: **..وعبيد الله عبدان: عبد ليس للشيطان عليه سلطان، وهو عبد الاختصاص، وهو الذي لا ينطق إلا بالله، ولا يسمع إلا بالله... وأما عبد العموم فهو الذي قال (تعالى) عنهم لرسول الله (ﷺ): قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١٨٦) البقرة: ١٨٦ فما خص عبيدا من عبيد وأضافهم إليه، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ (٥٣) الزمر: ٥٣. فأضافهم إليه مع كونهم مسرفين⁽³⁾.**

فابن عربي يميز في نسبة العباد إلى الحق بين نوعي نسبة لا يظهرهما اللفظ، وهما:

نسبة اختصاص وتخصيص، ونسبة عامة شاملة:

- الأولى تظهر في الآية: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٥٣) الحجر: ٤٢. ففي نسبة العباد إلى الحق في هذه الآية اختصاص يدل على تميز عن مجموع، وإن كان هذا المجموع كذلك لا يخرج عن دائرة العبودية للحق.

- والثانية تظهر في الآيتين: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

﴿البقرة: ١٨٦﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ (٥٣)

(1) صحيح البخاري: 380/1، صحيح مسلم: 2171/4.

(2) التحرير والتنوير: 181/1.

(3) المعجم الصوفي: ص 771.

الزمر: ٥٣. إن نسبة العباد إلى الحق في هاتين الآيتين نسبة عامة، لا تخرج من دائرتها أحدا من المخلوقين فالكل هنا عباده. (1).

وحاصل الكلام في ذلك هو أن العبودية لله تعالى على اعتبار دخول الإرادة فيها صنفان قهرية قدرية وأخرى اختيارية طوعية. وهذه الأخيرة تتباين مراتبها متراوحة ما بين العبودية الخالصة لله التي لا حظ لسلطان الشيطان فيها. وهي أعلى المراتب وأسمى ما امتدح به الأنبياء والصالحون. فمن ذلك ما ورد في التنزيل كقوله في داود عليه السلام: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ ١٧﴾ ص: ١٧. وقال في مدحه: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٣٠﴾ ص: ٣٠. وقال في الخضر عليه السلام: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ٦٥﴾ الكهف: ٦٥. وقال في عامة المؤمنين ينسبهم إلى نفسه: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ١٨٦﴾ البقرة: ١٨٦. وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ٦٣﴾ الفرقان: ٦٣. حتى أنشد أحدهم فرحا بها فقال (2):

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتَيْهَا وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَا الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صِيرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

وقد تجلت هذه الصفة في أكمل صورة لها في سيد الوجود نبينا ﷺ الذي جمع أطراف الكمال بأوفر قدر أتيح لبشر أن يحوزه. ومع ذلك قد أثرت الآيات إلا أن تصفه بهذه الصفة لأنها أشرف الفضائل التي يفخر بها (3) كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ١﴾ الإسراء: ١، وقد روي عنه ﷺ أنه

(1) المصدر نفسه ص 771.

(2) أخلاق القرآن: ص 149.

(3) ينظر المصدر نفسه ص 148.

خَيْرُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا رَسُولًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا فَاخْتَارَ الثَّانِيَةَ لِأَنَّهَا أَسْمَى دَرَجَةً وَأَعْلَى مَنْزِلَةً عِنْدَ مَلِكِ الْمُلُوكِ (1).

وأدنى مراتبها عبودية القهر التي تجري على ذوي الإرادة والاختيار. ويتزعمهم إبليس الذي أبى أن يخضع لأمر الله تعالى ويتذلل له بل تكبر عليه. ولسائر الجن والإنس في ذلك مراتب وأحوال بقدر تحقق مفهوم العبودية الخاص فيهم.

فالعبودية لله تعالى -إذن- مقصد سُخِّرَ له جميع المخلوقات طوعاً أو كرهاً، وما تميَّزُ الثَّقَلَيْنِ من باقي المخلوقات إلا في اختصاصهما بطلب العبودية الطوعية دون إجبار منه تعالى، وبذلك وقعت عليهما مسؤولية أفعالهما، هذا من حيث النظر إلى الجانب التكليفي في الإنسان، وإلا فما من خَلْقَةٍ أو ذرة من ذرات جسم الإنسان إلا وهي مسبَّحة موحدة لربها على غرار باقي المكوّنات؛ قال تعالى: قَالَ تَمَآلَى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

ولنعد الآن إلى ما ذكرنا من تفاوت العباد في مراتب تحقق معاني العبودية فيهم، فهم بين درجة من أسرف على نفسه منهم إلى من بلغ سدرة المنتهى، وعباد الرحمان فيما بين هذه الدرجة وتلك، متفاوتون في الرتب والدرجات كتفاوت عباد الشيطان والأهواء في الدرجات.

من خلال الآية المحددة لوظيفة الثقلين في هذه الحياة الدنيا تبين لنا أنهما مطالبان بإخلاص العبودية لله تعالى، وتحقيق هذا الأمر متوقّف على الإتيان بما طلبه تعالى من مظاهر هذه العبودية وشعائرها، وما تفاوت الخلق في مراتب

(1) رواه أبو يعلى بأسناد حسن: مسند أبي يعلى: 318/8، ومجمع البيان: 19/9. وانظر زاد المعاد: 83/5، البداية والنهاية: 30/2.

العبودية إلا لتفاوتهم في قدر ما وفَّقوا إلى الإتيان به من مظاهرها وشعائرها، فما أراد الله تعالى منا؟

ذكر تعالى أنه ما خلق الإنسان إلا يحقق وظيفة العبادة، فحق عليه القيام بها بكل ما يطيق من مكوّناته الثلاثة؛ عقله وقلبه وجسده، لذلك كتب الله تعالى لكل جانب من هذه الجوانب حظه من العبودية.

فحظ العقل من تلك العبودية هو امتثال ما أمر به تعالى في كتبه من التفكير والتدبّر في أقواله وجليل أفعاله وعظيم آياته في الآيات وفي الأنفس.

وأما حظ القلب من تلك العبودية فهي الإيمان بما أخبر به الرسل عن ربهم، والإخلاص لله ومحبّته والمحبة فيه تعالى والخشوع والرغبة والرغبة إلى غير ذلك من الأعمال الباطنة.

وأما حظ الجسد من تلك العبودية فهو امتثال الأوامر واجتناب النواهي الظاهرة مما شرعه الله تعالى لهذه الأمة.

وبقدر كمال وتكامل تحقّق هذه العبودية في جوانب هذا الإنسان تكمل عبوديّته لله تعالى.

المقصد الأقصى من الإنسان هو العبودية الخالصة لله تعالى		
والإنسان		
عقل	وقلب	وجسد
القصد إلى حصول العلم الحق	القصد إلى حصول الإيمان	القصد إلى حصول العمل الصالح

وسأبسط هذه المقاصد الأساسية الثلاثة في المطالب الآتي ذكرها من المبحث الثاني.

المبحث الثاني - المقاصد الأساسية: العلم - الإيمان - العمل الصالح

وهذه المقاصد مقصودة لكل الناس مؤمنهم وكافرهم، غير أن المؤمن يُؤجر على تحصيل كلٍّ منها في حين الكافر لا يُؤجر عليها إلا إذا حقق ركنها الثاني وهو الإيمان.

وقد جعلت من هذه المواضيع الثلاثة مقاصد أساسية لعدّة أسباب منها:
- كونها مكوّنات الذات العابدة، فلا تكمل عبوديتها إلا بكمال كل جانب من تلك المكوّنات.

وقد قصد القرآن إلى حصول كلٍّ من تلك المكوّنات على حظه الأقصى من تلك العبودية؛ فحرص على أن يجدّ العقل في تحصيل حقائق العلوم النّافعة، وحرص على أن يجدّ القلب في تحصيل الإيمان والاستزادة منه وابتغاء حلاوته، وحرص على أن يجدّ الجسد في العمل الصالح والمسارة في الخيرات.

- ومن ذلك أيضا إستقلال بعضها عن بعض، وتعدّر الاستغناء عن أحدها في اكتمال الحد الأدنى من النظام العام الذي أتى به القرآن الكريم، فلا معنى لعلم بلا إيمان، ولا معنى لإيمان لا يُثمر عملا صالحا.

- ومن ذلك أيضا أن باقي ما ذكرنا من المقاصد إمّا عاملة على عمل هذه المقاصد، أو عاملة على استمرار وجودها، وإمّا هي ثمرة لعمل تلك العوامل فيها. وقد جاء كل هذا في المطالب الآتية:-

المطلب الأول: - القصد إلى حصول العلم الحق.

فأول ما يُحتاج إليه لتحقيق المقصد الأقصى -إذن- هو تحقّق عبودية العقل، وهو ما قصد القرآن إليه من حصول المكلف على حاجته من حقائق العلوم، بما يكفي ليؤدي وظيفته على بيّنة من أمره.

وأما فحوى هذا البيان فإنّ الله تبارك وتعالى عرّف الإنسان بما يحتاج إليه للقيام بأعباء تلك العبودية من أركانها؛ وهي أربعة: المعرفة بالعابد، المعرفة بالمعبود، المعرفة بالحامل على تلك العبادة، المعرفة بالعبادة.

472

أخبره بعدوه الذي يتربّص به الدوائر ليل نهار، والذي لا يجد مسلكا أو سبيلا لإهلاكه إلا أتاه.

2- وأما المعرفة بالمعبود -وهو الخالق- فقد بيّن الله تعالى للإنسان أوصاف خالقه وأسماءه. وعرفه بشيء مما هو عليه من أوصاف الجلال والجمال، وما هو منعوت به من العظمة والكبرياء.

3- وأما المعرفة بالحامل على تلك العبادة، فقد بيّنه تعالى من خلال ما ذكر عن مصير المطيعين أو العاصين لأوامره في هذه الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي..﴾، ومن خلال ما ذكر من الوعد والوعيد، والتبشير والإنذار، وقد مثّل لنا من أخبار السابقين ما فيه مزدجر.

4- وأما المعرفة بالعبادة، فهو ما بينه القرآن الكريم من الأوامر والنواهي مما يحبه الله أو يكرهه من الأعمال الظاهرة أو الباطنة، وبيان ذلك أن الله تعالى بيّن للإنسان موقعه وعلاقته بطرفي هذا الوجود؛ الخالق والمخلوقات، وذلك أننا إذا نظرنا إلى هذا الوجود فإننا نجده قسمين؛ (خالقا ومخلوقاً، أو الله والعالم). ثم إننا إذا عدّنا تميز الإنسان عن بقية الخلائق بما خصّه تعالى من الكرامة، فإننا نعيد تقسيم الوجود إلى ثلاثة أقسام؛ (الله والعالم والإنسان). وللإنسان موقف تجاه كل من هذه الأقسام.

وفائدة هذا التقسيم هو بيان علاقة الإنسان بعناصر هذا الكون لمعرفة وظيفته فيه فإذا عرف الإنسان قدره ووعى حقائق الحياة التي يحيها، وعرف غايته التي يسعى إليها؛ حق له أن ينطلق في هذه الحياة، مطمئن البال، قرير العين، فيصنع الحضارة التي تنتظرها البشرية، ويحقق العبودية التي خلق لها. وجملة ما في القرآن مما يتوجب على الإنسان فعله أمران:

أولهما: تعرّف طرفي هذا الوجود من خالق ومخلوق. و تحديد علاقته بهما - علاقته العمودية بخالقه. وعلاقته الأفقية بالمخلوقات -.

والثاني: العمل بمقتضى ذلك.

والأحق من ذلك أن نرجع العلاقة الثانية إلى العلاقة الأولى لأن عمل المؤمن كلّهُ لله ومع الله تعالى؛ فأما علاقته بخالقه فلها وجهتان؛ إحداهما في مقابل الأخرى، فأما التي للعبد فهي الخلافة والكرامة العظيمة التي خصّه بها الباري دون غيره من الخلائق، والثاني للخالق تعالى؛ وهي العبودية الخالصة وهي حقه على العباد.

وذلك أنّ عناية الله تعالى بالإنسان ومكانته عنده في هذا الكون جعلت منه برزخاً فاصلاً بين كل ما هو دونه من العوالم وبين ما هو فوقه. فقد سخر الخالق ما في السموات وما في الأرض لخدمته، وعهد إليه بالخلافة في الأرض وما فيها، وفي المقابل أخذ منه العهد بأن يسخر حياته كلها -طواعية- لخالقه فلا يعبد غيره.

المطلب الثاني: - القصد إلى حصول الإيمان.

فالذي يُحتاج إليه بعد تحصيل العلم الحق هو تحقيق عبودية الجانب الثاني في الإنسان؛ وهي عبودية القلب المتمثلة في الإيمان وما ينمّيهِ من الأعمال الباطنة. الإيمان في اللغة: التصديق. وأما شرعاً: فذهب جمهور أهل السنة إلى أنه تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان. وذهب أكثر أصحاب أبي حنيفة إلى أنه التصديق بالجنان والقول باللسان⁽¹⁾. وقد استعمل القرآن هذا المصطلح للمعنيين: فاستعمله بما يرادف مذهب الجمهور كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ** البقرة: ١٤٣؛ يقصد بذلك صلاتهم إلى بيت المقدس. واستعمله

(1) ينظر شرح العقيدة الطحاوية، محمد بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي. تحقيق ومراجعة

مجموعة من العلماء. المكتب الإسلامي. بيروت - لبنان، ط5: ص373.

بما يرادف مفهومه لدى الفريق الثاني كما في قوله ﷻ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧) يوسف: ١٧. وغالبا ما يستعمله بالمفهوم الثاني (أي الأعمال الباطنة) عندما يذكره مقترنا بالعمل الصالح كما في عبارة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المتكررة بكثرة في القرآن. وأنا أستعمله هنا بمعناه الثاني أي: للأعمال الباطنة لأنه ورد في هذه العبارة مقرونا بالأعمال الصالحة وقصد به ما سوى الأقوال والأعمال الظاهرة.

ثم إن ما آمن به الإنسان على ثلاثة أقسام - قسم يكفي فيه التصديق، - وقسم المقصود منه التصديق والاعتبار والاتعاظ. - وقسم قصد منه التصديق والعمل؛ وهو المقصد الأساسي الثالث،

العلم

التصديق والتسليم	الاتعاظ	العمل
الإيمان	الوازع	العمل الصالح

وأما الأصول التي أمرنا الله تعالى فكثيرا ما يقتصر القرآن على ذكر أهمها على الإطلاق وهو الإيمان بالله تعالى وهو غاية المقاصد كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) الحديد: ٨، وأهم مسائله على الإطلاق مسألة التوحيد، التي بعثت الرسل للتأكيد عليها والدعوة إليها؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٥) الأنبياء: ٢٥، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِزُّ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢) النحل: ٢، ويقوم هذا التوحيد على أصول ثلاثة:

إثبات الكمال، والتنزّه عن الشبيه، ونفي الشريك؛ قال ابن القيم في معرض كلامه عن اشتغال سورة الإخلاص على التوحيد كله: "ففي اسمه الصمد إثبات كل

الكمال وفي نفي الكفاء التنزيه عن الشبيه والمثال وفي الأحد نفي كل شريك لذي الجلال وهذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد⁽¹⁾.

وقد يقتصر القرآن في مواطن عديدة على ذكر أهم وأخطر ركنين من أركانه وهما الإيمان بالله وباليوم الآخر، اللذان يمثلان الغاية والدافع كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ الممتحنة: ٢٦(2).

ويذكرها في بعض المواضع بشيء من التفصيل باقي أهم أركانه وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر كما في قوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء: ١٣٦، وفي قوله ﷻ: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ إِلَٰهَ أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَٰهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ءَالْمَلَائِكَةِ ءَالْكِتَابِ ءَالنَّبِيِّنَ﴾ البقرة: ١٧٧.

وقد أجمل رسول الله ﷺ ذكرها في حديث جبريل المشهور وغيره بقوله: "الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر"⁽³⁾. إن نظرة استشرافية على ما حملته هذه الآية وهذا الحديث من معان تفيدنا بثلاثة أمور رئيسة:

أولها- الإيمان بالله الذي هو البداية المطلقة لكل شيء، وأصل كل وجود.

(1) زاد المعاد: 181/4.

(2) ذكر الركنان مقترنين في هذه العبارة «الله واليوم الآخر» وبمختلف الصيغ في عشرين

موضعا من القرآن الكريم. ينظر موسوعة القرآن الكريم (قرص ليزر)

(3) صحيح البخاري (18/1) في كتاب الإيمان، وصحيح مسلم (39/1-40)، ورقمه (9و10).

في كتاب الإيمان. واللفظ المشهور هو حديث جبريل الذي انفرد به مسلم في صحيحه.

والثاني- الإيمان باليوم الآخر الذي أخبر به تعالى كنهاية لهذه الحياة، ووعده به يوما للحشر والحساب.

والثالث- الإيمان بالهداية التي بعث بها الله إلينا - سنذا (الملائكة والرسل) وممتا (الكتب عامة والقرآن خاصة) وبيانا (السنة)-.

وزيادة على هذه الأصول فإن الإيمان -بمعناه العام والتام- هو الاعتقاد بصحة كل ما أخبر به تعالى في القرآن الكريم من أمور الغيب- محكمه ومتشابهه-، وما صح عنه (ﷺ) أنه أخبر به عن ربه؛ كالإيمان بالقضاء والقدر وأخبار عالم الجن والشیاطین وغير ذلك من أخبار الغيب. يتجلى ذلك بوضوح في إيمان الراسخين في العلم بمحكمه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: لَنَكِينُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢). وفي موقفهم من متشابهه. قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧). وينجر حكم ذلك على كل خبر صح عن رسول الله (ﷺ).

المطلب الثالث: - القصد إلى حصول العمل الصالح.

ويُعد هذا المقصد الثمرة المنتظرة من اجتماع المقصدين السابقين، وهو حظ الجوارح من العبودية التي خلق الإنسان لأجلها. والعمل الصالح وإن كان يصدق إطلاقه على عمل العقل وعمل القلب كما أطلق على عمل الجوارح، فإنني استعملته هنا للدلالة على الأعمال الظاهرة للجوارح سيرا على الاستعمال القرآني في عبارته المتكررة (الإيمان والعمل الصالح).

إن العمل الصالح هو الجانب العملي الظاهر من هذا الدين، وقد أطنب القرآن في ذكره الإشادة به والثناء الحسن على أهله، فيشير إليه -في كثير من المواضع- بأهم ركنيه وهما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما في قوله ﷺ: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ٥٥﴾** **البيّنة: ٥**. ويشير في مواضع أخرى إلى باقي الأركان وهي توحيد الله تعالى بالعبادة، والشهادة له بالألوهية، ولمحمد (ﷺ) بالرسالة النطق بالشهادتين في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٨﴾** **آل عمران: ١٨**. وفي قوله: **قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ٤٠﴾** **وكان الله يكلّ شئٍ عليماً ٤٠﴾** **الأحزاب: ٤٠**. والصيام في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾** **البقرة: ١٨٣**. والحج في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَن الْمَلَكِينَ ٩٧﴾** **آل عمران: ٩٧**.

وقد جمعها النبي (ﷺ) في حديثه مقتصرًا في حديث الأعرابي -الذي جاء يسأل عن الإسلام- على ثلاثة أركان وهي الصلوات الخمس وصوم رمضان والزكاة. قال له رسول الله (ﷺ): "خمس صلوات في اليوم والليلة فقال هل علي غيرهن؟ قال: لا إلا أن تطوع. وصيام شهر رمضان فقال: هل علي غيره فقال: لا إلا أن تطوع وذكر له رسول الله الزكاة فقال: هل علي غيرها قال لا إلا أن تطوع قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال رسول الله (ﷺ) أفلح إن صدق" ^(١) وقد ذكر جميعها في قوله (ﷺ): "بني الإسلام على خمس؛

(١) سبق تخريجه من صحيح مسلم.

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان⁽¹⁾.

هذه هي شعائر هذا الدين الظاهرة وأهم أسسه وأركانه، ثم إنه لما كانت أعمال الناس ومواجيدهم متعددة ومتنوعة، وهمهم وقدراتهم متفاوتة. شرع الله لهم النوافل والتطوعات وما لا حصر له من أعمال البرِّ والقربات. وذلك كفيل بامتصاص أي: رغبة جامحة في الاستزادة من المجاهدة والتعبد. قال تعالى في الحديث القدسي: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها..." الحديث⁽²⁾ فشرع لهم من الأذكار ما يشغل به ألسنتهم وقلوبهم. وشرع لهم النوافل في الصلوات، والزيادة على صوم رمضان، والإنفاق تطوعاً ومسارعة في الخيرات. وطلب منهم الإحسان في كل ما يأتون وما يذرون⁽³⁾. وزودهم بضوابط وقواعد كلية توجههم فيما يعملون. وقال (ﷺ) في جوامع كلمه: "الإيمان⁽⁴⁾ بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء من الإيمان⁽⁵⁾". فجمع في هذا الحديث كل الأقوال والأعمال الظاهرة ولم يترك زاوية من زوايا الحياة إلا وشملها بمنطوقه أو بمضمونه.

(1) سبق تخريجه من صحيح البخاري وصحيح مسلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الرقائق، فتح الباري (414/11)، ورقمه (6502).

(3) من ذلك قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعُ بِإِحْسَنٍ﴾ البقرة: ٢٢٩ وقوله (ﷺ): "إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته". صحيح مسلم (1548/3).

(4) الإيمان هنا بمعنى الدين كله.

(5) سبق تخريجه من صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود.

ولنحصر الآن ما يتوجب على الإنسان فعله من الأعمال الصالحة من خلال بيان واجباته العملية تجاه كل أطراف الوجود الثلاثة؛ أي: وظيفة الإنسان تجاه خالقه، ووظيفته تجاه العالم من حوله، ووظيفته تجاه نفسه وبني جلدته.

فأما وظيفته تجاه خالقه فهي وظيفة العبودية في مقابل ما أكرمه به من الخلافة في الأرض، وتسخير الكون لخدمته.

وأما وظيفته تجاه العالم من حوله فهي وظيفة خلافة في مقابل ما يجده فيه تسخير له.

وأما وظيفته تجاه نفسه فهي التزكية على المستوى الفردي، والعمارة على المستوى الجماعي⁽¹⁾، وإليك مزيد بيان:

أولاً: - فأما وظيفته تجاه خالقه فقد ذكرنا أنها وظيفة عبودية، فالواجب عليه فيها هي أداء ما افترض عليه من العبادات الظاهرة بشروطها وأركانها الباطنة التي لا تنفصم عنها، فهو مكلف أن يقيم شعائر تلك العبادة بكيفياتها التي ذكرت في القرآن أو بينها النبي (ﷺ) عن ربه. وهي ما يصطلح عليه الفقهاء بقسم العبادات؛ من صلاة وزكاة وصوم وحج وما شرع من أصناف الأذكار والدعاء⁽²⁾.

(1) استأنست في هذا التقسيم بقسمة الراغب الأصفهاني في بيان أقسام الجانب (العملي) من وظائف الإنسان؛ إذ يقسمه إلى أمور ثلاثة وهي: عمارة الأرض، وعبادة الله تعالى، وخلافة في الأرض. غير أنه أهمل ذكر وظائفه تجاه نفسه. ينظر الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت: ص 31-32.

(2) والقاعدة فيها أن لا يعبد الله إلا بما شرع.

ثانياً: - وأما واجبه نحو العالم من حوله فهو أداء وظيفة الخلافة⁽¹⁾ التي نيّطت به، والخلافة لنيابة مجردة عن شخص النائب والمنوب عنه، فكل متصرف بالنيابة عن آخر فهو: خليفة المنوب عنه فيما ملكه التصرف فيه. وبذلك تتعدد أشخاص الخلائف بتعدد فعل الاستخلاف⁽²⁾.

واستعمل القرآن كلمة الاستخلاف والخلافة والخلفاء مشيراً إلى مرتبة الحكم والتصرف في الأرض. التي هي بالأصالة للباري ﷻ وبالنيابة للإنسان. وهي للإنسان عامة وللأنبياء خاصة.⁽³⁾

قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾﴾^(٢٠) البقرة: ٣٠. قال القاسمي: إن معنى خليفة أي قوما يخلف بعضهم بعضاً، قرنا بعد قرن. كما قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۖ﴾﴾^(٢١) فاطر: ٣٩⁽⁴⁾. وجوز أن يراد غير ذلك ككونها خلافة عن الملائكة، أو خلافة عن الله قال: (لأن آدم كان خليفة الله في أرضه. وكذلك كل نبي قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ ص: ٢٦⁽⁵⁾ قال صاحب أضواء البيان (لأنه خليفة الله في تنفيذ أوامره)⁽¹⁾.

(1) (الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أحدهما أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني خلاف قدام، والثالث التغير.

فالأول الخلف، والخلف: ما جاء بعد ويقولون: هو خلف صدق ... وخلف سوء ... فإن لم يذكروا صدقاً ولا سوءاً قالوا للجيد خَلَفَ وللرديء خلف، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَٰعِثِهِمْ خَلَفٌ ۖ﴾﴾^(٥١) مريم: ٥٩.... الخلافة، وإنما سميت خلافة لأن الثاني يجيء بعد الأول قائماً مقامه). معجم مقاييس اللغة مادة (خلف).

(2) المعجم الصوفي د. سعاد الحكيم ص 413.

(3) ينظر المصدر نفسه: ص 412.

(4) محاسن التأويل للقاسمي: (44/2).

(5) المصدر نفسه (45/2).

والمقصود من ذلك الاستخلاف (هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة، ومكارم الشريعة هي: الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم، والإحسان والفضل)⁽²⁾ وهذه الخلافة ليست مختصة بآدم فقط وإنما هي مدرجة في جميع النوع الإنساني كما قال سبحانه: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ۖ﴾ الحديد: ٧. فشمّل ذلك برّهم وفاجرهم بدليل قول الملائكة: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ﴾ البقرة: ٣٠. والمستيقن عن آدم عليه السلام أنه لم يكن سفاكا للدماء ولا مفسدا في الأرض⁽³⁾.

ويعلق الدكتور محمد عقلة على قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فيقول: (فهذه الآية تبين أن الإنسان هو خليفة الله. خلقه الله ليحمل الأمانة الكبرى؛ أمانة التكليف والمسؤولية) ثم يقول: (لإنسان إذن هو خليفة الله في الأرض أي: نائب عنه فيها. وليس للنائب أن يجعل لنفسه هدفا غير استرضاء من اختياره نائبا عنهم بكل ما أوتي من وسع، فلا يقبل من إنسان أن يتخذ له غاية سوى إرضاء الله وطاعته⁽⁴⁾).

وأما عن سبب استحقاقه لتلك الوظيفة فالحكمة في ذلك راجعة إلى ما جمعه الله فيه من محاسن مخلوقاته، وما خصه به من تجليات بعض أوصاف الربوبية فيه. هذا ما أهله لينفرد بحمل أمانة التكليف وخلافة الله تعالى طواعية في إنفاذ أوامره في أرضه ولعل ذلك ما يقصده ابن عربي حين يقول: (بعدما خلق الله العالم،

(1) أضواء البيان: (48/1).

(2) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني: ص 31 أو 32.

(3) ينظر أضواء البيان: (48/49).

(4) الإسلام: حقيقته وموجباته، ص 60.

قال للملائكة: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ البقرة: ٣٠ وتلك الخلافة رتبة لا يستحقها إلا من خلق على صورتين: الإلهية والكونية؛ أي: من جمع في ذاته جميع حقائق الحق والعالم، وهو الإنسان الكامل⁽¹⁾.

يقول ابن عربي: (فالخليفة لا بد أن يظهر فيما استخلف عليه بصورة مستخلفه وإلا فليس بخليفة له فيهم، فأعطاه: الأمر والنهي، وسماه بالخليفة)⁽²⁾.

ولكن ينبغي أن يتفطن هذا الخليفة في تقليده لمستخلفه إلى الفرق الجوهرية الذي يختص به الأصل دون الفرع ويراعي ذلك (لأن مفهوم الاستخلاف نفسه يحمل في طياته عدم الأصالة، فالمستخلف مستعار في رتبة هي بالأصالة لغيره)⁽³⁾.

ثم إن هذه الخلافة تختلف مراتبها في بني البشر ولابن عربي كلام لطيف في ذلك إذ يقول: "وهم إما خلفاء عن الله -رسل، أنبياء- أو يخلفون الرسل ويخلف بعضهم بعضاً.." ثم قال إن كلا منهم "مستخلف من قبل الحق بقدر وسعه: فأدناهم المستخلف على نفسه، وأكملهم المستخلف على العالم بأسره."⁽⁴⁾ ويذكر لتلك الخلافة ستة أشكال وهي: الولاية، النبوة، الرسالة، الإمامة، الأمر، الملك⁽⁵⁾. ويقول: "إن أعلى المراتب الإنسانية خلافة الله عز وجل، وأعلى مراتب خلافة الله عز وجل الرسالة، وأعلى مراتب الرسالة، مرتبة أولى العزم من الرسل هم الذين بعثوا بالسيف، وأعلى مراتبهم أجمعها دعوة وهي الرسالة المحمدية..."⁽⁶⁾.

(1) المعجم الصوفي ص 314.

(2) المصدر نفسه ص 314.

(3) المصدر نفسه ص 417.

(4) المصدر نفسه ص 413. هذه العبارة الأخيرة من العقائد التي اختص بها بعض كبار الصوفية.

(5) المصدر نفسه ص 415.

(6) المصدر نفسه ص 421.

ثالثًا: - وأما واجبه نحو نفسه فهو التزكية على المستوى الفردي، والعمارة على المستوى الجماعي:

1- فأما التزكية فيقررّها عز وجل بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿الشَّمْسُ: ٩ - ١٠﴾، ولهذه الوظيفة أهميّة بالغة في اضطلاع الإنسان بباقي وظائفه، وقد شرع الله للإنسان ما يبني هذه الذات ويحسن أدائها من الفروض والنوافل وأبواب المعروف ما يحفظ لها أهليتها لما أنيط بها من واجبات، إذ النفس المؤمنة هي اللبنة الأساسية في بنية المجتمع المؤمن، فنوعية هذا المجتمع متوقّفة على نوعية لبناته.

2- وأما عمارة الأرض فيقررّها الله عز وجل بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَشَقُّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكَ فِيهَا﴾ (١١) هُود: ٦١. - وإن عمارة الأرض إقامة للكيان البشري والمحافظة على وجوده. قال الراغب: (وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره) (١).

ولأجل إقامة هاتين الدعامتين شرع الله تعالى لهذا الفرد ولهذا الإنسان ما يحفظ له إنسانيّته؛ شرع له ما يحفظ له (حياته) من التلف فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (١٢) النساء: ٢٩. وشرع له ما يحفظ عليه (صحة وصحوة عقله)؛ لأنه مناط التكليف وآلة معرفة الله ﷻ فحرمت عليه الخمر وحثته على طلب العلم وذمت له الجهل والجاهلين. وشرع له ما يحفظ له (نسله) الذي به دوام بقاء نوعه لتتواصل عملية الاستخلاف وتستمر عبادة الله في أرضه. وشرع له ما يحفظ له (ماله) الذي استخلف فيه؛ لأن الله جعله سببا من أسباب القوة، ففي حفظه من التلف حفظ لقوة الذات العابدة. وشرع له ما يحفظ عليه (سلامة عرضه)

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني: ص 31 أو 32.

وذلك لما في صفاء الأنساب من دور كبير في الصحة النفسية، والمعنويات العالية، ولكون الأسرة هي أصغر اجتماع في الأمة المؤمنة.

ويكفي لبيان أهمية هذه الوظيفة أن علماء الإسلام عدّوا مقاصد الشريعة، فجعلوا أولها وأهمها حفظ (الدين)، ثم جعلوا سائر المقاصد خاصة بحفظ إنسانية الإنسان.

فهذه الوظائف العملية الثلاث تحدد علاقة الإنسان وواجبه تجاه كل عناصر هذا الوجود:

علاقته العمودية التي تربطه بخالقه وخالق كل هذا الوجود؛ والتي عبر عنها القرآن بالعبادة.

وعلاقته بما حوله من الخلائق وهي علاقة كل راع برعيته وهي ما عبر عنه القرآن بالخلافة (على تفاوت درجاتها).

وعلاقة البشرية بنفسها، وهي ما عبر عنه القرآن بعمارة الأرض. ولنتنقل الآن إلى الكشف عن العلاقة التي تربط بين هذه الأقسام وبين ما عدّه المبين عن الله تعالى جماع أمر هذا الدين وأركان جانبه العملي.

إن الغالب في كلام القرآن عن أركان الإسلام أن يجمع بين ذكر الصلاة والزكاة ويقتصر عليهما في الكثير من سورته. وقد صح أن أعرابيا من أهل نجد جاء يسأل رسول الله (ﷺ) عن الإسلام يريد بذلك أقل ما يكفيه منه، فأجابه النبي (ﷺ) بذكر أركان ثلاثة وهي "خمس صلوات في اليوم والليلة" و"صيام شهر رمضان" وذكر له رسول الله الزكاة" وأخبره (ﷺ) بأن ليس عليه غيرها إلا أن يطوع، فأزعج الرجل بأن لا يزيد عليها ولا ينقص. فقال رسول الله (ﷺ) بعد أن أدبر الرجل: "أفطح إن صدق"⁽¹⁾ ثم لما أراد الله تعالى بيان تلك الأركان بيانا عاما للناس؛ أرسل جبريل عليه السلام يسأل الرسول (ﷺ) عنها، فجمعها له في قوله: "بني

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (41/1)، ورقمه: (11).

الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان⁽¹⁾.

فإذا تجولنا فيما ذكر مفرقا في القرآن وجمعه النبي (ﷺ) في جوامع كلمه من أركان هذا الدين رأينا آثار تلك الوظائف الجزئية تتجلى صورها متفاوتة بوضوح في تلك الشرائع وتلك التي هي أركان الإسلام.

1 - الصلاة: إن الصلاة توجه العبد إلى خالقه ومناجاته إياه بقراءة كلامه، والتضرع إليه بالدعاء كما أمر وبالطريقة التي شرعها الله له، وبينها عنه رسوله الكريم (ﷺ). وفيها من المداومة على الاتصال بالخالق والدينونة له، والمصابرة على دوام ذلك الاتصال ما جعل منها عماد هذا الدين. وغدت أعظم وأوضح تجل لوظيفة العبادة. وشعارا بارزا لهذه العلاقة العمودية.

2 - الزكاة: وأما الزكاة فهي صلة العبد بمن حوله. وفيها تتجلى وظيفة الخلافة بأوضح مظاهرها إذ يقول تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿عَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقِفُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ (٧) الحديد: ٧. فوجوب الزكاة يحسس الإنسان بأنه مجرد مستخلف على ما تحت يده. وأن عليه مسؤولية بقدر ما استخلف فيه. وكما قال (ﷺ): "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. الإمام راع ومسؤول عن رعيته. والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته"⁽²⁾. وتلك هي الخيوط

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (11/1).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: فتح الباري (13/ 139) صحيح مسلم، كتاب الإمارة

(1459/3)، ورقمه: (1829) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الأولى في تكوين الشبكة الاجتماعية ومجتمع الجسد الواحد. من هذا الباب كان هذا الركن أوضح تجل لتلك العلاقة الأفقية وهي علاقة الاستخلاف.

3- الصوم والحج: وأما وظيفة عمارة الأرض فإنها تتجلى بوضوح في ركن الصيام بالنسبة للأفراد. وفي ركن الحج بالنسبة للجماعة أو الأمة.

فأما بالنسبة لبناء الفرد؛ ففي الصوم قصد واضح إلى تكوين وحفظ وتزكية الشخصية الإيمانية القائمة على أمر الله. لقد شرع الله للناس في كل سنة شهرا يجاهدون فيه شهواتهم ونزواتهم ويهذبون فيه حيوانيتهم ليستعيد فيه أفرادهم اعتدال قواهم الروحية والعقلية والجسدية. إن هذا الشهر مدرسة يجدد فيه ما خلق، ويتسابق فيها طلاب الكمال الإنساني من ذوي الهمم.

ففيه ينفض الفرد عن ثوبه غبار الغفلة التي يورثها طول الأمد. إنه لا يريد أن يعتادوا على شيء إلا على عبادته. يريد أن يكسر آفتي العادة والنسيان اللتين عصفت بأديان الأمم السابقة. ويخلق فيهم الحركة ويحفظ عليهم قوة الإرادة التي أودعها فيهم⁽¹⁾.

أجل إن في كل أوامر الشرع ونواهيها جانبا من المجاهدات يرمي إلى تحريك إرادة الإنسان وتقويتها وتربيتها. ولكنه تعالى جعل في شعيرة الصوم أعظم تجل لما يحفظ استمرار وجود عبده. وما يديم قوته وقدرته على الأداء. إذ جعل من هذا الشهر مدرسة لإعادة تأهيل ذات هذا الموظف وفيه من التزكية والتربية لها ما ليس في غيره.

وأما بناء المجتمع فذلك ظاهر في دعوة القرآن إلى القوة وطلب أسبابها كما

في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (٦٠)

(1) ينظر كتاب شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم، د. مصطفى عبد الواحد ص 146-147.

الأنفال: ٦٠. وقد جعل تعالى أعظم أسبابها الاجتماع. لهذا؛ بقدر ما كان الإسلام حريصا على تكوين الأفراد وحفظ اعتدالهم؛ كان حرصه أكبر على جمعهم وتوحيدهم. وصهرهم في أمة واحدة؛ تعبد الله لا تشرك به شيئا. وتخلفه في إنفاذ إرادته الشرعية على أمم الأرض. قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾﴾ آل عمران: ١٠٣. أمة تتجلى فيها أسمى مراتب الخلافة الجماعية في الأرض. قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾﴾ آل عمران: ١٠٤. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم وجود الأمة والسلطان. لذا فقد رتب لهم الشارع في تلك الشعائر ما يجمع شمل شتاتهم شيئا فشيئا إلى أن يجعل منها صرحا مشيدا يحيط به حصن منيع. لقد بدأ بجمع أصغر جماعاتهم خمس مرات في اليوم والليلة. ثم جمع تلك الجماعات الصغيرة في جماعات أكبر فشرع لهم جمعة كل أسبوع. ثم في جماعات أكبر منها دعا إليها حتى النساء والأطفال مرتين في العام وذلك في العيدين. ثم دعا كل مستطيع منهم لحضور أكبر اجتماع بشري على وجه الأرض مرة كل سنة عند بيته المحرم. إنه المؤتمر العالمي الذي يعقده المسلمون مرة كل عام في مواعده المعلوم. وتلك هي خاصية ركن الحج التي لا يشاركه فيها غيره. ففي الحج إذن مقصد واضح المعالم على جمع شتات كل تلك المجهودات الفردية والجهوية ليخلق ذلك المجتمع المنشود، وبناء ذلك الصرح الإسلامي المشيد. أمة ترفع رايته عاليا بين الأمم وتضيء للبشرية طريقها.

فتلك -إذن- هي وظائف الإنسان الجزئية التي يتشابك بعضها ببعض. وهي في جملتها مظاهر لحقيقة تلك العبودية الشاملة التي خلق الإنسان لأجلها.

فوظيفة الإنسان في هذا الكون إذن هي عبادته تعالى في كل ما ظهر أو بطن من الحركات والسكنات، التي منها التقرب إليه بما أمر وبالكيفية التي أمر بها بالقدر المستطاع. وممارسة الخلافة في الأرض بالكيفية التي أمر بها المستخلف مع

محاولة التحلي بصفات المستخلف بقدر الطاقة البشرية. وعدم منازعته أخص خصائص سلطانه التي هي خالصة له دون سواه. مع تهيئة وحفظ وتأهيل من يقوم بهذه الواجبات من الأفراد والجماعات. والإحسان في كل شيء.

ولا يفوتنا في نهاية هذا المبحث التعليق على ما قرّره العلامة البقاعي في ذكر المقصد الأقصى من القرآن وهو التعريف بالملك وما يرضيه، فقد حصر وظيفة القرآن الكريم في التعريف بطرفي العلاقة بين المخلوق المكلف وخالقه، وهي معرفة المعبود (الملك) ومعرفة حقه الذي بيّنه بقوله «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»، والعبودية هي ما يحصل بعد العلم من الإيمان والعمل الصالح، وغالبا ما يعبر القرآن على الإيمان بأهم ركنيه وهما الإيمان بالله واليوم الآخر؛ وهما المعبود والباعث على العبودية. وأمّا العمل الصالح فغالبا ما يعبر عنه بأهم ركنيه وهما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فالصلاة أعظم شعائر علاقة الإنسان العمودية وأعظم مظاهر العبودية، والزكاة أعظم شعائر علاقة الإنسان الأفقية، وأعظمها دلالة على وظيفة الخلافة التي شرف بها، لذلك جمع القرآن بين الجانبين مدللا عليهما بأهم ركنيهما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨). فدل على الإيمان بأهم ركنيه وهما الإيمان بالله واليوم الآخر⁽¹⁾، ودل على العمل الصالح بأهم ركنيه وهما الصلاة والزكاة⁽²⁾.

(1) كرر تعالى في كتابه الجمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر في عبارة واحدة 20 مرة. (راجع موسوعة القرآن الكريم قرص ليزر).

(2) يقول د. مصطفى عبد الواحد: (ولا يذكر القرآن إقامة الصلاة وهي حق الله سبحانه إلا ويقرنها غالبا بأداء الزكاة) (كتاب شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم ص 169) وقد كرر القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة في آحاد الآيات 26 مرة. (راجع موسوعة القرآن الكريم : قرص ليزر).

المبحث الثالث - المقاصد الخادمة.

قد يقال للإنسان إن الحق مع القائلين بوجود إله لهذا الكون، ويقرّ بذلك، ويقال له إن هذا الإله قد سنّ شرائع وأمر بالتزامها، فما الذي يلزمه بالطاعة؟

من هنا تتضح حاجة المكلفين إلى معرفة المسؤولية المنجّرة عن تصرفاتهم في هذه الحياة، فيسرّها القرآن بذكر الوازع الذي يحدّد عواقب الطاعة أو المعصية، فيدفعه ذلك إلى طلب العلوم المنجية.

ثمّ لما كانت تلك العلوم عرضة للنسيان شرع لها الشّارع ما يحفظ لها استمرار وجودها، وهي وظيفة مقصد التذكير في القرآن.

وأما القلب فإنّه قد يؤمن ولكن الإيمان حالة طارئة عليه تزداد وتنقص، لذلك شرع لها القرآن ما يؤجج توهّجها؛ وتلك هي وظيفة مقصد الوعظ. وأما العمل الصالح فإنّه تكاليف قد يعرض لصاحبها الملل والفتور، فيكل عن حملها فتضمحل وتتلاشى، لذلك شرع لها القرآن ما يؤمن لها استمرار وجودها؛ وهي وظيفة الصبر.

كما شرع لهذه المقاصد الأساسية ما ينميها ويبلغ بها غايتها؛ وهو مقصد الإحسان.

وذلك ما بسطنا القول في بيانه من المقاصد الخادمة في هذه المطالب.

المطلب الأول: - القصد إلى حصول الوازع.

إنّ المسألة التي تطرح نفسها للبحث بعد معرفة المقصدين المذكورين وأهميتهما في جهاز الإنسان المعرفي، هي معرفة الوازع الذي يحرك تلك التعاليم ليذعن القلب لها، ويحرك ذلك الإيمان الحاصل في القلب لينقلب عملاً صالحاً، ثم يرجع للاستزادة من العلم كلّما جدّ جديد، وهذا ما يقودنا إلى الوقوف -أولاً- على مسألة الوازع والدوافع في طباع النفس الإنسانية، وكيفية تعامل القرآن معها.

يقول الباري عز وجل: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِّ الْوَرِيدِ﴾ ١٦** ق: ١٦، وقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ١٤** الملك: ١٤، والذي يقتضيه سياق هذه الآيات أن الله تعالى تعامل مع النفس البشرية على وفق ما تقتضيه طبائعها، وأوقع خطابات وأفعاله على الأوتار الحساسة لديها، لأنه خالقها وعالم سرها وعلانياتها، فمن خلال تعامله معها في القرآن يمكننا استخراج تلك الطبائع، فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا نجده قد أجمل ذكر الطبائع التي تحرك إرادة النفس البشرية لتتحرك أو تسكن، لتقبل أو تدبر في خصلتين أو شعبتين رئيسيتين هما:

1 - اتصافه بحب الخير، والرغبة غير المحدودة في الاستزادة منه، والسعي الحثيث لتحصيله والحرص الشديد على حفظه. يوضح ذلك قول الله تعالى في الإنسان **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨** العاديات: ٨، ويبين الله تعالى شيئا من تلك الرغبات فيقول: **قَالَ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ ١٤** آل عمران: ١٤، ويبين تعالى شدة حبه للامتلاك فيقول: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ٢٠** الفجر: ٢٠، ثم يبين الله تعالى رغبة الإنسان غير المحدودة في الاستزادة من الخير فيقول: **قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ ٤٩** فصلت: ٤٩، ويبين حرصه على حفظه إلى درجة الإقتار، قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ١٠٠** الإسراء: ١٠٠، هذا هو طبع الإنسان ودأبه الذي يحركه دائما إلى طلب المزيد

حتى يوسد في التراب قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَتُكَاثِرُ﴾ ١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ
 الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ التكاثر: ١ - ٢، وكل هذا راجع إلى شديد حرصه على
 تحقيق سعادته الأبدية.

2 - اتصافه بكراهية ما يضره والمبالغة في اجتناب ما يؤلمه والحذر منه،
 وكثرة شكواه مما يصيبه من أهوال، وخوفه من ضعفه أمامها، قال تعالى
 عنه: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ٤٩﴾ فصلت: ٤٩ ، بل هي
 طبيعة لا ينفك عنها حتى أهل الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ
 يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ
 لَكُمْ﴾ ٧﴾ الأنفال: ٧، أي: تودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها
 سلاح ولا حرب⁽¹⁾، تحبون ما لا ألم فيه ولا أذى بل إن هذا الطبع لا
 يتخلص منه حتى الأنبياء عليهم السلام، فهاهي الآية الكريمة تروي
 خوف موسى وهارون عليهما السلام من طغيان فرعون وبطشه على
 لسانيهما: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَى﴾ ٤٥﴾ طه:
 ٤٥، وهاهو إبراهيم عليه السلام يخاف من زائريه عندما رأى أيديهم لا تصل
 إلى طعامة: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
 خِيفَةً﴾ ٧٠﴾ هود: ٧٠.

فالخوف من الأذى أيضا وازع شديد التأثير وبالغ الأهمية في إثارة فكر
 الإنسان واستفرازه ليترك خموله، ويشمر عن ساعد الجد، ويطلب خلاصه.
 فهذه الآيات -إذن- تبين الوازعين الرئيسيين اللذين يحركان مشاعر الإنسان
 وفكره وجوارحه، وهما وازع الرغبة فيه بكل مشاعرها من حب وآمال وأمنيات

(1) نقله القرطبي عن الزجاج، انظر الجامع لأحكام القرآن: 369/7.

لكل ما يحقق سعادته، ووازع الرهبة وكل ما يمثلها من خوف ورعب وفزع وجزع وكرهية لكل ما يؤذيه وينغص عليه حياته.

ولمّا كانت هذه هي صفات هذا الكائن، وكان الله تعالى مريداً لهديته وخلصه من أسباب هلاكه، زوّده الباري عزّ وجلّ بما يبسرّ له ذلك الخلاص من أصناف المرغبات والمحبات، وأنواع المرهبات، على القدر الذي يبقى أمر الهداية والاهتداء طوعاً... بل لا تكاد تخلوا زاوية من زوايا المصحف من هذين العاملين، مذكورا مع ما سبق ذكره من المقاصد الأساسية.

فأمّا مرغبات القرآن، فأعظمها أثراً وأكثرها ذكراً في القرآن تبشير المؤمنين العاملين ووعدهم بالحياة الطيبة في الدنيا، أو بالفوز والظفر بالحياة الطيبة والأجر العظيم، والنعيم المقيم في الآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ١ ﴾ المائدة: ٩، وكقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٧٦ ﴾ التوبة: ٧٢، فوعدهم الله تعالى بالخلود في الجنة ورضاه عنهم مقابل إيمانهم به وعمل الصالحات، ويصفها لهم يغريهم بها فيقول: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا... ٣٥ ﴾ الرعد: ٣٥، ثم إنه -تعالى- يؤكد صحة وعده، وعدم إخلافه بما وعد بقوله: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ٥ ﴾ فاطر: ٥، وقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿... وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦ ﴾ الروم: ٦، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عَرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عَرْفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ ٢٠ ﴾ الزمر: ٢٠.

وقد أورد مشاهد عدة لاعتترافات صريحة بصدق هذا الوعد، وذلك بجعله من المستقبل حاضرا، كالذي نبأنا به من خبر إبليس واعترافه يوم القيامة في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) إبراهيم: ٢٢، ووصف لنا مشهدا آخر لقول أهل الجنة عند دخولها: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْثَقَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٤) الزمر: ٧٤، ثم إن وعد الله ليس خاصا بالآخرة فقط بل يشمل الحياة الدنيا أيضا، يقول تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٥٥) النور: ٥٥، وغيرها من الآيات كثير. هذه الوعود في هذه الآيات وفي غيرها وكأنها تنتصب أمام الإنسان في منتهى بهائها وروعتها، تغريه وتجذبه إليها جذبا.

بل إن في شريعتنا العديد من مظاهر هذه المعاملة؛ أشهرها معاملة الإسلام لأهل الذمة بإعطائهم الحق في الزكاة ترغيبا لهم في الإسلام، وتأليفا لقلوبهم.

وأما المرهبات فقد أورد الله تعالى وعيدا بعذاب قاس في الآخرة أو في الدنيا والآخرة معا لمن عصاه وعصى رسله، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٣) الجن: ٢٣.

ويقول تعالى متوعدا إبليس ومن اتبعه: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَنَالَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨) الأعراف: ١٨، ويتوعد الكفار فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٢٦) البقرة: ١٢٦، وبقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ التوبة: ٦٨، ثم يحذر المؤمنون من النار فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ التحريم: ٦.

وهذا النوع من الوعيد و التّخويف إنما هو خاصّ بعاقبة أمور الناس، ولكن لما كان من طبع الإنسان النسيان بطول العهد، ويغلب عليه إثثار العاجل من اللذات على الآجل منها، فقد استعمل الله تعالى معه التّقريع للتذكير في حياته الدّنيا، لإعادة إنعاش قلبه -الذي يوشك أن يموت- فيعرضه للأخطار والمصائب من حين لآخر، يقول تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ ﴿٥٩﴾ الإسراء: ٥٩، وهكذا فعل الله مع جميع الأمم قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٤﴾ الأعراف: ٩٤، ويذكر الله بعض أنواع بلائه فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ البقرة: ١٥٥. وفي شريعتنا العديد من مظاهر هذه المعاملة أيضا من بينها تشريع الحدود ومختلف التعزيرات الشرعية وغيرها.

وأما عن الفرق بين هذين الوازعين وأيهما أقوى أثرا في إثارة النفس البشرية ودفعها قدما نحو طلب العلم، وترجمة العلم إلى إيمان، والإيمان إلى عمل فيُرد إلى كون مشاعر الرغبة محركة لذوي الهمم، وقد تحرك البعض ممن لا همّة له، أما مشاعر الرّهبة فلا يستثني أثرها التّحريكي حتّى أشدّ الناس بلادة وزهدا في طلب المعارف وامتنال الأوامر؛ لأنّ الإنسان قد يسعى لتحصيل مصلحة أو تحقيق لذة وقد لا يسعى إلى ذلك تكاسلا أو اكتفاء بما عنده، ولكنه لا ينفك يفرع إلى الهرب، يدافع عنه المفسد والآلام مهما كان حاله، في منشطه ومكرهه؛ يقول تعالى: قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١)
فصلت: ٥١، فالكل في الانفعال - عند حصول المصائب - سواء.

وأما عن اختلاف ردود أفعال الناس أمام هذين الوازعين فيصف الله تعالى أكثرهم بالكفر ونكران الجميل عندما يبسط لهم فضله فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣) البقرة: ٢٤٣ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١١) غافر: ٦١ ومثل هذه الآية في يونس والنمل، ثم يستثني الله تعالى بعضهم وهم القليلون فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣) سبأ: ١٣.

وكذلك الأمر في الترهيب والتخويف فالغالب على الناس الإذعان والإنابة أو تأثرهم عند حصولهما، ولكن نتيجة ذلك تختلف في نفوسهم؛ فمنهم من يقول فيه تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠) الإسراء: ٦٠، ومنهم من يذعن في ذلك الحين وسرعان ما يزول عنه الأثر، قال تعالى في هؤلاء: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢) يونس: ١٢. ومنهم من إذا أُنذِر تبصّر واعتبر كالذي حصل لسحرة فرعون بعد أن رأوا آية موسى وسمعوا وعيده قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (١٦) طه: ٦٦؛ فسارعوا ساجدين وآمنوا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) طه: ٧٠. وبقي أثر ذلك في قلوبهم إلى آخر رفق فيهم.

إذن فغالب النتائج المتوقعة من الناس أمام هذين الأسلوبين هو أن بعضهم يخافون عند التخويف المادي ثم يكفرون ويتغافلون عند مجرد انتهائه، ويتحقق هذا النموذج من الناس بوضوح في آل فرعون، فقد خوفهم الله بعدة مصائب وكانوا يكفرون بمجرد انكشاف المصيبة عنهم، قال تعالى فيهم: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾﴾ الأعراف: ١٣٣، ثم إن البعض الآخر من الناس يخاف عند حصول المصائب، فيقيم على الشكر والطاعة زمناً بعد انكشاف الضر عنهم فإذا طال عليهم الأمد كفروا؛ ومثال ذلك في القرآن كلامه الكثير عن أهل الكتاب؛ فقد خصّهم الله تعالى بكثرة الرسل وبالكتب والصحف؛ فإذا هم يقيمون على العبادة مدة ثم يكفرون؛ قال تعالى يحذر من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنسَوْنَ ﴿١٦﴾﴾﴾ الحديد: ١٦.

ثم إن لقوة النفوس وضعفها أثراً كبيراً في اختلاف ردود أفعال الناس وتباينها، فكما أن الخوف والبلاء الشديدين يدفعان النفوس القوية إلى الجد في تحصيل أسباب القوة والأمان؛ فإنها في المقابل تشل حركة ضعاف النفوس وتثبط عزائمهم. وإن المتبادر إلى الذهن -بعد ذكر كل ما سبق من المرغبات والمرهبات- أن اجتماع كل هذه الأسباب كاف لجعل كل الناس لا يتوقفون عن السعي في طلب العلوم، والإيمان والازدياد من الأعمال الصالحة، وذلك خلاف لما هو موجود في الواقع، وإنما يفسر معظم ذلك الإعراض بجملة من الأسباب أهمها ما يأتي:

1 - ميوله إلى الراحة والسكينة المادية والمعنوية أو الكسل ما دام لا خطر قريب -في نظره-، قال تعالى في المنافقين: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا

يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ النساء: ١٤٢، ومرجع هذا الاستهانة أو الغفلة عما جاء في القرآن من الوعيد.

2 - الاستعجال: فهو يحبذ اللذة العاجلة على اللذة الآجلة ولو كثرت فلا يكلف نفسه عناء البحث عن الحقائق، ولا العمل بمقتضى ما عنده من اليقينيات؛ قال تعالى يبين هذا الطبع في الإنسان: قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ القيامة: ٢٠ - ٢١.

3 - اختلاف طبائع الناس؛ إذ منهم القوي العنيد عالي الهمة ماضي العزيمة، ومنهم الضعيف الذي سرعان ما يستسلم، ويركن إلى الدعة والسهولة والراحة.

وخلاصة الكلام في هذه المسألة أن الله تعالى استعمل مع الإنسان أسلوبين لتحريكه وتحريك فكره ووجدانه، فهو يجذبه من الأمام بالترغيب والوعد بالفوز والسعادة في الدارين مع التركيز على ذكر الجنة ونعيمها باعتبارها أعظم مرغّب، ثم هو يدفعه من وراء بتخويفه مما قد يصيبه إن هو عصى ربه وكفر بنعمه مع التركيز على ذكر النار وعذابها باعتبارها أعظم منفر ومرهّب. وهذا ما يناسب الطبع الإنساني الذي ينفر من الألم مهما كان نوعه، ويسعى إلى السعادة قُدماً أينما وُجدت.

هذا الأسلوب هو ما استخلصه علماء الإسلام وفقهاء دعوته من الخطابات القرآنية، الذي عبّروا عنه بمصطلحي التّريغيب والتّرهيب، وجعلوهما سبيلاً للدّعوة لهذا الدّين، وهو الذي أشار إليه من ثلث أمهات مقاصد القرآن الكريم بالوعد والوعيد، أو التبشير والإنذار، أو أخبار الآخرة، فكلها يصبّ في هذا الوازع. فالوعد مقدّمة للبشارة ثم انبعاث الرغبة في القلب، وكذلك الوعيد هو آلة الإنذار، وذلك ما يُحدث رهبة في القلب.

وأما من قال هو القصص، فنظر إلى ما فيه من أخبار الصالحين والطلّاحين ومصائرهم في الدنيا وفي الآخرة، ولا تكاد تجد قصة من قصص القرآن مفرغة من وعد أو وعيد، أو ترغيب أو ترهيب، أو على الأقل - تحبيب أو إبداء كره ولو في أسلوب سياق الكلام، ولكن إطلاق مصطلح القصص في القرآن ينصرف في الغالب إلى أخبار الماضين من الأمم والأنبياء والصالحين أو الأشقياء؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ﴾ طه: ٩٩، وليس يدخل فيه شيء من أخبار قيام الساعة وأخبار الآخرة التي تحمل أكثر الدوافع أو المرغبات المؤثرة في النفس البشرية، فقسم القصص ليس بجامع لجميع المؤثرات التي تمثل الوازع، فمن هنا وجه القصور في هذا القسم.

وأما من قال هو قسم أخبار الآخرة، فنظر إلى كونها حاملة لأقوى المؤثرات في المشاعر الإنسانية، بما يذكره من غرابة أحوالها، وعظيم أهوالها، ولكنها في كل الأحوال ليست بكلّ الوازع، لما فيه من ترك ذكر العواقب القريبة من الفعل البشري.

وهذا ما جعلني أجمعها جميعا في هذا الموضع تحت عنوان الوازع، وهو قسم تابع لقسم العلم في حقيقة الأمر، إلا أنه تميّز عنه بوظيفته؛ أي: من حيث كونه عاملا تحويل العلم إلى إيمان، وعاملا على تحويل الإيمان إلى عمل.

المطلب الثاني: - القصد إلى حصول التذكّر.

وهو مقصد أصيل في القرآن وفي كل الشرائع السماوية السابقة، أظنّب القرآن في ذكره والدعوة إليه في كثير من آياته الكريمة، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يُزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾﴾ الإسراء: ٤١، فأخبر أنه تعالى لأجل ذلك يسره بلغة العرب: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتِمَّا يَسِرَّنَا بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾﴾ الدخان: ٥٨، وأخبر عن سبب تيسيره للذكر فقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ

من مذكّر ﴿١٧﴾ القمر: ١٧، وأخبر عن سبب ضربه الأمثال فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ الزمر: ٢٧، وأخبر عن سبب إنزاله عربيا، وما صرف فيه من الوعيد فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾ طه: ١١٣.

وما أكثر ما يذيل القرآن آياته بما يشير إلى هذا المقصد فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٢﴾ الأنعام: ١٥٢، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ الواقعة: ٦٢. وقال معاتبا من أعرض عن ذلك: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ الأنعام: ٨٠، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٣﴾ الأعراف: ٣، وأندر صراحة من أعرض عما في قرآنه: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ طه: ١٢٤.

ويُخبر تعالى أنه على الرغم من كون هذا الذكر موجه إلى جميع المكلفين فإن بذرته لا تثمر إلا في قلوب الخائفين من الله الخاشعين له ممن يريد الاستقامة في هذه الدنيا فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ التكاوير: ٢٧ - ٢٨، ويقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾ ﴿٢﴾ طه: ٢ - ٣.

ومن هذه الوجوه سُمي القرآن ذكراً؛ كما في كثير من آيه منها قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١﴾ الحجر: ٩، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ النحل: ٤٤، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ تُنْكِرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ الأنبياء: ٥٠.

ووصف الله به صاحب رسالته ﴿ﷺ﴾ فقال له: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٢، فهي وظيفة أسندها الله تعالى

إلى رسوله الكريم (ﷺ) فقال له قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝١﴾ ﴿الاعلى: ٩، وقال له: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ الطور: ٢٩، وقال له: قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ ق: ٤٥.

والتذكير والذكر في اللغة اسم مصدر من ذكر يذكر الشيء إذا استحضر معناه أو صورته في الذهن، أو هو التلفظ بالكلمة أو الكلمات الدالة عليه باللسان، فهو "إحضار الشيء في الذهن، بحيث لا يغيب عنه، وهو ضد النسيان."⁽¹⁾ من ذلك قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ الكهف: ٢٤. وقد يرد هذا اللفظ في القرآن⁽²⁾ بما ينصرف ظاهره إلى مجرد التلفظ بالشيء كقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ ۝١٩٨﴾ البقرة: ١٩٨ وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ ۝٢٨﴾ الحج: ٢٨، وهي مرتبة الوجود اللفظي لهذا المعنى، وهو حظ اللسان من هذه الفضيلة وهذا المقصد، ومرجعه إلى المعنى الأول؛ أي: التلفظ

(1) أسماء القرآن في القرآن، محمد محروس: ص25.

(2) وقد ورد هذا اللفظ في القرآن -على مختلف تصاريفه- (292مرة) وليست كلها متعلقة بالمعاني التي ذكرناها له لأن كثيرا منها متعلق بمعنى الذكورية المقابلة لمعنى الأنوثة، ومن هنا دخل الوهم على بعض الباحثين بقوله أن لفظ الذكر ورد اسما للقرآن الكريم في إحدى وعشرين آية، ولو كلف الباحث نفسه بفحص أول موضع وردت فيه هذه الكلمة في القرآن وهي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ﴾ (آل عمران36) لوجدها تنقض ما ذكره، وغيرها كثير. ينظر القرآن في القرآن، محمد شاكر عبد الله الكبيسي: (رسالة دكتوراه بجامعة صدام للعلوم الإسلامية) ص13.

بالشيء لأجل استحضار معناه للمتكلم أو المخاطب؛ كما في قوله تعالى لموسى
العليه السلام: ﴿قَالَ تَعَالَى﴾ وَذَكَرَهُمْ بِأَيْتِمِ اللَّهِ ﴿٥﴾ إبراهيم: ٥.

وقد يرد ويُقصد منه التفكير والتدبر في المعنى وهو المعنى الغائي لهذه الكلمة،
وقد وقع منه كثير في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا
زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ الذاريات: ٤٩.

والمعنى الأول لا يُعد ذكرا كاملا إذا لم يُستحضر معناه في الذهن، فإن
للمصلي من صلاته ما عقل منها⁽¹⁾، وكتشبيبه تعالى لحملة التوراة بالحمار الحامل
لما لا يفقه من كنوز العلم في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴿٥﴾ الجمعة: ٥.

وقد ذكروا له في القرآن غير هذه المعاني كالإتيان بألفاظ ورد الترغيب فيها،
أو المواظبة على العمل بما أوجب الله أو ندب إليه؛ كالتلاوة وقراءة الحديث ودرس
العلم والنفل والصلاة. أو الحفظ، أو الموعظة، أو الشرف والشأن العظيم، أو
التسبيح، وغير هذا من المعاني، والذي يلوح للمتأمل فيها أن مدارها أو مؤدّاها
جميعا إلى معنى دوام استحضار الشيء في الذهن⁽²⁾ لأجل التفكير فيه، فهو المعنى
المُشترك بينها جميعا، فالذكر -إذن- على مراتب؛ أدناها ذكر اللسان، ثم ذكر القلب
وأعلاها التفكير في المذكور.

(1) انظر المنار المنيف: ص32، قال العراقي في تخريجه أحاديث الإحياء: لم أجده مرفوعا.
مغني الأسفار على هامش الإحياء: 1/160، ويرد في الأخبار أنه من قول عمار بن ياسر.
تخريج أحاديث علوم الدين: 1/364-365، ورواه أبو نعيم بسنده إلى سفيان الثوري بلفظ
يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها. حلية الأولياء: 61/7.

(2) ينظر أسماء القرآن في القرآن، محمد محروس: ص25-29.

وأما تسمية القرآن بالذكر فقد أرجعه العلماء إلى معنيين، أحدهما بمعنى استحضار المعنى في الذهن وهو ضدّ النسيان، ويقع إمّا باللسان أو في القلب، وهذا الإطلاق يحمل في الغالب معنى التدبّر والتّفكر أيضا لأنهما في الحقيقة ثمرتان لاستدامة ذلك الاستحضار، فهو ذكر من الله ذكر به الناس بخالفهم وآخرتهم، وما كانوا في غفلة عنه مما وقع للأمم الماضية مع أنبيائها، وعرفهم فيه فرائضه وحدوده.⁽¹⁾

والثاني ما جاء بمعنى رفعة الشأن كما قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ الزخرف: ٤٤؛ أي: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما جاء فيه، فهو ثمرة ضرورية للعمل بمقتضى ذلك المذكور، المتدبّر فيه. وفي هذه المعاني دلالة واضحة على شيء من مقاصد مسمّاه، ألا وهي مهمة استدامة استحضار أمهات علومه في الأذهان، وهو ما يؤدي إلى استدامة التّفكر في معاني تلك العلوم وتدبّرها، وثمره ذلك كلّ هو رفع شأن تعاليم هذا الكتاب ورفعة شأن أهله.

وأما وجه الحاجة إلى هذا المقصد في القرآن الكريم فذلك لأن وجود الوازع المذكور في مقصد العلم عامل كاف لوجود الإيمان والعمل، ولكن تواصل ذلك الإذعان وذلك الإيمان متوقّفان على استمرار وجود ذلك الوازع؛ لأن من طبع الإنسان الغفلة والنسيان، فلذلك كان لا بد لهذه التعاليم من عامل يديم وجودها في ذهن المكلفين لكي يحصل استمرار وجود المقاصد الأساسية المذكورة سالفًا.

فتكمن أهميّة هذا المقصد إذن في كونه عاملا على استدامة وجود تلك العلوم، ومقاومة آفة النسيان، وهي أخطر ما يواجه الإنسان من الآفات في مدّة وجوده، وكفى بها شرًّا تسبّبها في أول معصية من أبي البشر؛ آدم عليه السّلام، كما في قوله

(1) ينظر تفسير النكت والعيون: 35/1، وجواهر الحسان في تفسير القرآن: 18/1.

تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ طه: ١١٥، فمن هنا كان وجه حاجة المكلفين إلى هذا المقصد، وعلى هذا عدّ الكثير من علماء الأمة هذا الجانب ثالث أو رابع أهم مقاصد القرآن الكريم المهمة، فقالوا من مهمّات مقاصد القرآن الكريم التذكير.

فمن هؤلاء أبو بكر بن العربي، فإنه قال بأنّ أمّ علوم القرآن ثلاثة أقسام، جعل من علم التذكير قسما ثالثا: هي التوحيد، والأحكام، والتذكير. وأدرج في التذكير؛ الوعد والوعيد، والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن، مُستدلا بقوله ﴿اهدنا﴾ إلى آخرها⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾﴾ الذاريات: ٥٥⁽²⁾.

وتابعه عليه القرطبي غير أنّه خلط بين الوعظ والتذكير فجعلهما قسما واحدا، قال في سورة الفاتحة: "والفاتحة تضمنت: التوحيد، والعبادة، والوعظ والتذكير"⁽³⁾. ومن أجل أهميّة هذا المقصد عدّ ولي الله الدهلوي أن ثلاثة علوم من علوم القرآن الخمسة -الجامعة لمعاني القرآن المنطوقة- متعلقة بوظيفة التذكير، وهي:

- علم التذكير بآلاء الله: وفيه الحديث عن خلق العالم، وعن خالقه.
 - علم التذكير بأيام الله: وفيه ذكر القصص القرآني الحادث في الدنيا.
 - علم التذكير بالموت وأمور الآخرة.
- والعلمان الآخران هما: علم الأحكام (تحدث فيه عن الفقه)، وعلم المخاصمة (وهو الجدل أو علم الكلام).⁽⁴⁾

(1) أورده الزركشي في البرهان في علوم القرآن: 17/1-18.

(2) ينظر البرهان في علوم القرآن: 17/1-18.

(3) الجامع لأحكام القرآن: 110/1-111.

(4) ينظر الفوز الكبير: ص 11.

وإتماما للفائدة أنبه هنا على ما يحمله قول الإمام الشافعي رحمه الله في سورة العصر من عناية وإشارة إلى أهمية هذا المقصد إذ ذكروا عنه أنه قال فيها: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم. وفي رواية عنه: لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم. وقال غيره: إنها شملت جميع علوم القرآن"⁽¹⁾ وذلك أنها حصرت ما يحصل به الفلاح؛ قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ العصر: ١ - ٣ فذكرت أموراً أربعة:

- الإيمان. - العمل الصالح.
- التواصي بالحق وهو التذكير. - التواصي بالصبر؛ وهو (تحمل مشقة إقامة الحق).

ولا شك أن التواصي بالحق هو مقصد التذكير عينه.

فلذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتخذونها شعاراً لهم في ملتقاتهم، فقد روى الطبراني بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن الحصين الأنصاري - من التابعين - أنه قال: "كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر - أي سلام التفريق - وهو سنة أيضاً مثل سلام القدوم."⁽²⁾

قال ابن عاشور: "وقد اشتمل قوله تعالى ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر"⁽³⁾.

(1) التحرير والتنوير: 528 / 30.

(2) ينظر السلسلة الصحيحة، الألباني: .

(3) التحرير والتنوير: 533 / 30.

وذلك أن الآفة التي تدخل على الإيمان هي الغفلة فكان التواصي بالحق تذكيرا وتنبيها لحقائقه في النفس، والآفة التي تدخل على الأعمال هي الكلال والفتور، فكان علاجها هو التواصي بالصبر، وحمل النفس على التحمل.

فمرجع كونها شاملة لعلوم القرآن وقيامها حجة على الخلائق، أنه تعالى ذكر فيها الإيمان وما يحفظ استمرار وجوده، والعمل الصالح وما يحفظ استمرار وجوده، وفي كل هذا قيام الدين في الناس واستمرار وجوده فيهم.

ففي الأمر بتلاوته وتدبره تذكير دائم للإنسان بوظيفته والمقصد من وجوده، وتذكير له بالمسؤوليات المترتبة على أفعاله؛ فهو عامل مهم لبقاء العلم ودوامه، ومقاومة أخطر آفة تفتك بالإنسان؛ وهي الغفلة والنسيان.

وإلى ذلك رمى من قال بأن أحد مقاصد القرآن الكريم التعبد بتلاوته، فعلى الرغم من كون ذلك من فضائله فإن كون ذلك وسيلة إلى ما فوقه بيبّن؛ وذلك أنه من أعظم أسباب حصول مقصد التذكير؛ وقد صرح به تعالى في قوله لموسى عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ١٤ طه: ١٤، وكذلك فإن كثرة قراءته وسيلة إلى فهمه، ليحصل من ذلك مقصد العلم.

ولحصول الكثير من الفوائد وأمّهات المقاصد القرآنية من خلال تلاوته رتب تعالى على تلاوته أجرا عظيما، فأعطى القارئ له بكل حرف من حروفه عشر حسنات، وجعل الصلّاة لا تصح إلا به، بل لا تصح بأقل من الفاتحة التي أجملت حمل مقاصده الكلية كما ذكرنا سافا.

ولكن مع هذا وذاك ومع كون هذا المقصد من أعظم أسباب الهداية فإنه لا ينتفع به إلا من كان سالم الصدر سليم القلب، يعرف ربّه ويخاف عاقبة مخالفة أوامره؛ قال تعالى لنبيه (ﷺ): قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ٤٥ ق: ٤٥، وقال له أيضا: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ ١ الأعلى: ٩، يقول الخالدي: "وهذا الذكر المبارك لا يستفيد منه إلا من كان صاحب قلب حي متفاعل..

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِنُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ يس: ٦٩ - ٧٠ (١).

ولعل أول ما يبدأ به في التذكير وأولاه هو ما وقع من الله تعالى لبني آدم من الوصايا والعهود، يذكرهم بالعهد الذي أخذ على بني آدم في عالم الذر، كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ الأعراف: ١٧٢، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ يس: ٦٠، ثم باقي ما أوصى به تعالى كما في قوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ لَفِي ذَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبَعَثَ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ الأنعام: ١٥٢.

ويذكرهم بالجنة التي كانوا فيها وبالسبب الذي أخرج أباهم منها كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾﴾ طه: ١١٧. يذكرهم بعدوهم الذي أقسم على غوايتهم ونذر حياته الطويلة لأجل ذلك وأقسم لله فـ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ الأعراف: ١٦ - ١٧. يذكرهم بما خصهم الله به من الكرامة، وما أولاهم به من النعم، .. يذكرهم بما خلقوا لأجله، وسبب وجودهم في هذه الحياة، .. يذكرهم بحقيقة هذه الحياة وحقارتها قياساً بالآخرة، ونفاسة ما فيها من الفرص لإرضاء الرب عز وجل... يذكرهم بما أعده الله لهم من حسن الجزاء إن هم أطاعوا واستقاموا، وبما أعده لمن عصاه.

(1) مفاتيح التعامل مع القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي: ص 26.

يذكرهم بقدر الله تعالى وعظمته.. يذكرهم بمن هو أهل للعبادة دون سواه
 فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
 يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢)
 يونس: ٣، ويذكرهم بالفرق بين الخالق والمخلوق فيقول: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ
 لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) ﴿النحل: ١٧.

يذكرهم بما هم صائرون إليه بعد هذه الحياة، وأن هذه الحياة آيلة إلى الفناء،
 قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ
 سَحَابًا نَقَّالًا سَفْنُهُ لِبَكْرِ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى
 لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٧) ﴿الأعراف: ٥٧.

ولعل أهم ما يتناوله القرآن بالذكر والتذكير، تذكير الناس بالوعيد، فإن ذلك
 كفيل بلفت انتباههم إلى الخطر المحدق بهم فيتقونه، قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ
 أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (١١٣) طه: ١١٣.
 يذكرهم بأمثلة عمّن سبقهم من المسيئين وعاقبتهم فيذكر لهم قصص فرعون
 وهامان وقارون وغيرهم نماذج لطغيان القوة والحكم والمال فيقول: قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا
 سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٤) ﴿غافر: ٢٣ - ٢٤.

ويذكرهم بأمثلة عن المحسنين؛ فيذكر لهم مثال الداعية الصّابرة القائم بدعوته
 على تطاول الزمان وإصرار المدعويين على الكفر فذكر لهم نوحا عليه السلام.
 ويذكر لهم مثال المؤمن الذي لا يرضى بغير الحق بديلا فيشنها حربا كونية
 شاملة فيذكر لهم إبراهيم عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا
 نَبِيًّا﴾ (٤١) ﴿مريم: ٤١.

ويذكر لهم مثال الإسلام الخالص لأوامر الله تعالى في خبر إسماعيل عليه السلام: قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ مريم: ٥٤.

ويذكر لهم مثال المصلح الصابر على طغيان الحاكم واعوجاج الرعية، فيذكر

لهم موسى عليه السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ مريم: ٥١.

ويذكر لهم مثال المرأة الصالحة فيذكرهم بمريم عليها السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ

فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦﴾ مريم: ١٦، ويذكر لهم مثل الملك

المتواضع الذي لا يأكل إلا من عمل يده: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ

١٧﴾ ص: ١٧، ويذكر لهم مثال الصابر المحتسب فيذكرهم بأيوب عليه السلام: قَالَ تَعَالَى:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ٤١﴾ ص: ٤١.

وغير هؤلاء كثير كما في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ٤٥﴾ ص: ٤٥، وقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ

وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ٤٨﴾ ص: ٤٨.

وفي كل ما يذكر القرآن من القصص والأمثال عبر.

وعلى الجملة فإن المقصد من التذكير بالقرآن هو إبقاء مهمات العلوم التي أتى

بها القرآن حاضرة في الذهن؛ التذكير بالخالق والمخلوق، التذكير بقدر الخالق

ووظيفة المخلوق، التذكير بما مضى وما هو آت.

المطلب الثالث:- القصد إلى حصول الاتعاظ.

الوعظ في اللغة التذكير بالخير فيما يرق له القلب⁽¹⁾. وقيل هو زجر مقترن بتخويف⁽²⁾. لذلك فسّره ابن كثير بأنه الزاجر عن المحارم والمآثم⁽³⁾. وقال ابن عاشور: "والموعظة ما به الوعظ وهو الترهيب من الشر"⁽⁴⁾.

يقول ابن باديس: "والموعظة الكلام الملتين للقلب بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السّامع -إذا اتّعظ وقبل الوعظ وأثر فيه- على فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وقد يُطلق على نفس الأمر والنهي"⁽⁵⁾. فالمعنى الجامع للوعظ -إذن- هو تهئية القلوب وتأهيلها لإتيان الأوامر والانتهاز عن المنهيات.

والفرق بين التذكير والوعظ هو أن الأول متعلّق بالذاكرة أو الحافظة، وأما الثاني فمتعلّق بالقلب، فالمقصد الأول من التذكير هو استحضار العلم وحركة الفكر، على حين أن المقصد الأول من الوعظ هو تحريك القلب لتتحرك الجوارح، والعلاقة بينهما هو أن الموعظة ثمرة للتذكير، وقد يرد التذكّر في بعض الآيات بمعنى الاتّعاظ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾  البقرة: ٢٦٩، بل إن الموعظة أقرب إلى الاعتبار في المعنى منها إلى التذكّر، وترتيبها يكون على النحو الآتي:

التذكير، فالتذكّر بمعنى استحضار المعنى والذي هو ضد النسيان، ثمّ التذكّر الذي بمعنى التفكير والتدبّر، ثمّ الاعتبار، ثمّ الاتّعاظ؛ من حركة الحافظة إلى حركة القلب والجوارح.

(1) ذكره القرطبي في تفسيره عن الخليل بن أحمد؛ ينظر الجامع لأحكام القرآن: 444/1.

(2) ينظر المفردات، الراغب ص527.

(3) تفسير القرآن العظيم: 409/1.

(4) التحرير والتنوير: 546/1.

(5) مجالس التذكير ص69.

وأما تخصيصهم الوعظ بالزواج فلا يقتصر الوعظ عليه، وإنما ذكروا له أعظم أسبابه المؤثرة في القلوب كما ذكرنا في مقصد الوازع، وإلا فقد يقع بذكر آلاء الله تعالى ونعمه على المخلوقات وعظيم تكريمه لآدم وبنيه، وذكر ما هيأه للمطيعين من الجزاء في دار كرامته.

وقد ورد لفظ (وعظ) في القرآن خمساً وعشرين مرةً بصيغ مختلفة؛ منها ما ورد أفعالاً منسوبة إلى الباري عزّ وجل، ومنها ما هو منسوب إلى غيره كقوله تعالى لنبيه (ﷺ): **قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾** النساء: ٦٣، ومنها ما ورد مرادفاً للامتثال للأوامر كما في قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُمْ فَاذْكُرُونَهُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارْقُوهُمْ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَظَّعُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** الطلاق: ٢؛ أي: ذلك ما ياتمر به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (١).

ومنها ما ورد وصفاً للقرآن الكريم وبعض الكتب السالفة ووظيفة لها كما في قوله تعالى في توراة موسى (عليه السلام): **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِحَسَنَةٍ سَآوِرِكُمْ بِدَارِ الْفَاسِقِينَ﴾** الأعراف: ١٤٥، وقوله في إنجيل عيسى (عليه السلام): **قَالَ تَعَالَى: ﴿...وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾** المائدة: ٤٦، ووصف بها قرآنه الكريم فقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** يونس: ٥٧، وقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾** آل عمران: ١٣٨؛ فعلى هذا يكون الوعظ صفة

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 380/4.

ووظيفة لكل كتاب، ووظيفة لكل رسول ونبي أو من يخلفهم في إحياء دعوتهم، فهو مقصد عظيم من مقاصد إنزال الكتب، وبعث الرسل.

فالموعظة هي أسلوب الدعوة الأول لكل الكتب السالفة ومن مضى من الأنبياء كما كان أسلوبا للقرآن الكريم ولرسول هذه الأمة (ﷺ)، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿١٢٥﴾﴾ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل: ١٢٥.

قال ابن باديس في تفسير هذه الآية: "الموعظة التي يحصل المقصود منها من ترقيق للقلوب للحمل على الامتثال لما فيه خير الدنيا والآخرة، هي الموعظة الحسنة.

وإنما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها بوضوح دلالاته على معناها، وحسن معناها بعظيم وقعها في النفوس، فعذبت في الأسماع، واستقرت في القلوب، وبلغت مبلغا من دواخل النفس البشرية فأثارت الرغبة والرغبة، وبعثت الرجاء والخوف بلا تقنيط من رحمة الله، ولا تأمين من مكره.."(1).

قال ابن عاشور: "نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما: مقصد الموعظة ومقصد التشريع، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه وهو في هذا النوع يشبه خطبهم، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها"(2).

ومن تجليات هذا الأسلوب في سيرة نبينا (ﷺ) ما حدث به العرياض بن سارية (رضي الله عنه) إذ قال: "وعظنا رسول الله (ﷺ) موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها

(1) مجالس التذكير ص70.

(2) التحرير والتنوير: 115-116.

العيون،... مودّع فأوصنا...⁽¹⁾ وحينها أمرهم ونهاهم، لأن قلوبهم قد لانت واستعدت للامتثال والالتزام.

غير أن الوعظ -على غرار التذكير- وإن كان مطلوباً بذله لكل الناس، فإنه لا يفيد إلا إن كان صادراً من قلوب اكتمل لديها صفات الواعظ؛ التي ذكر منها القرآن جملة أهمها:

- الإخلاص: ويُقصد به الصدق في النصيح لله ولرسوله، فما كان لله أثمر ولو بعد حين.

- الاتّعاظ قبل الوعظ: وللإمام الغزالي قول بليغ في بيان هذا الشرط إذ قال لمن سأله الموعظة: "أما الوعظ فليست أرى نفسي أهلاً له، لأن الوعظ زكاة نصابه الاتّعاظ، ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة وفائد النور كيف يستنير به غيره؟! "⁽²⁾ ومن علامات الاتّعاظ العمل بالشّيء قبل النصيح به، فقد أنكر تعالى على الذين يقولون ما لا يفعلون فقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢)﴾ الصف: ٣، وهو منهج الأنبياء؛ كما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنِ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨)﴾ هود: ٨٨⁽³⁾.

(1) المستدرك على الصحيحين: 1/174، 177، سنن ابن ماجه: 1/15، سنن الترمذي: 44/5 وقال حديث حسن صحيح.

(2) الجواهر الغوالي للإمام الغزالي ص152، وينظر مقاصد القرآن محمد الصالح الصديق ص162.

(3) ينظر المصدر نفسه ص159.

- حسن الموعظة: فيقدم ما وعظ به القرآن ثم ما وعظ به الأنبياء، ثم ما وعظ به العلماء والصالحون على هذا الترتيب، لأن الباري عز وجل أعلم بمن خلق، والأنبياء خير من فهموا عن ربهم هذه الوظيفة، ثم العلماء لأنهم ورثة الأنبياء.

ومع كل هذا فإن هذا الوعظ -بدوره- لا يُثمر إلا في قلوب مؤمنة موقنة خائفة؛ قال عز وجل: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ١٣٨﴾ آل عمران: ١٣٨، وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢٠﴾ هود: ١٢٠؛ قال الماوردي: وخص المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين.⁽¹⁾ ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعِظُ بِهٖ مَن كَانَ مِنكُم مُّؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ١٣٣﴾ البقرة: ٢٣٢.

المطلب الرابع:- القصد إلى حصول الإحسان والتزكية.

الإحسان مصدر من الفعل المزيد أحسن يحسن إحسانا بمعنى فعل الجيد، أو إجابة فعل الشيء، وقيل هو: فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير⁽²⁾ أو من المعروف.⁽³⁾ وقيل: "الإحسان فعل النافع الملائم"⁽⁴⁾.

قال الراغب: "وهو ضربان أحدهما: الإنعام على الغير، والثاني: إحسان في فعله. وذلك إذا علم علما محمودا أو عمل عملا حسنا، ومنه قول علي كرم الله وجهه: الناس أبناء ما يحسنون أي: منسوبون إلى ما يعلمون ويعملون"⁽¹⁾.

(1) الجامع لأحكام القرآن: 444/1.

(2) التعريفات: ص 27.

(3) التوقيف على مهمات التعاريف: 40/1.

(4) التحرير والتنوير: 216/2.

فيرد هذا اللفظ إمّا اسم فعل بمعنى الإجابة والإتيان فنقول أحسنت فعل كذا إذا أجدت القيام به وأتقنته؛ كما في قوله (ﷺ): **«إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقَنَهُ»**(2).

وقد يرد متعدّيًا بمعنى الإنعام على الغير، قال ابن عاشور: "وعندي أن الإحسان إنما يعدى بالباء إذا أريد به الإحسان المتعلق بمعاملة الذات وتوقيرها وإكرامها.. ولذلك جاء **«وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ»**؛ وإذا أريد به إيصال النفع المالي بالي، تقول: أحسن إلى فلان، إذا وصله بمال ونحوه"(3).

قال الجرجاني: "الإحسان هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة أي: رؤية الحق موصوفا بصفاته بعين صفته فهو يراه يقينا ولا يراه حقيقة، ولهذا قال (ﷺ) **«كَأَنَّكَ تَرَاهُ»** لأنه يراه من وراء حجب صفاته فلا يرى الحقيقة بالحقيقة.."(4) وقال الحرّالي: "الإحسان إسلامٌ ظاهر يقيمه إيمان، وباطن يكمله إحسان شهودي"(5).

والإحسان أيضا درجة أو مرتبة في مقامات العبودية، وهو المقام الذي وقع من النبي (ﷺ) بيانه بقوله: **«الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**(6). وهو بهذا المعنى مرادف لدرجة العبودية الخالصة.

(1) التوقيف على مهمات التعاريف: 40/1.

(2) قال الهيثمي رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة؛ مجمع الزوائد: 98/4.

(3) التحرير والتنوير: 49/5.

(4) التعريفات: ص 27.

(5) التوقيف على مهمات التعاريف ص 40.

(6) وبه عُرّف في المعاجم؛ ينظر التعريفات: ص 27، وينظر التوقيف على مهمات التعاريف:

41/1، وغيرهما.

فمفهوم الإحسان ينصرف -إذن- إما إلى إجادة فعل الشيء وإتقانه، وإما إلى فعل المعروف والإنعام على الغير، وإما إلى درجة من درجات الاجتهاد في العبادة؛ ومرجعها جميعاً إلى إجادة فعل الشيء.

وأما مفهومه الشرعي فهو حضور القلب وخضوعه مع حضور الصّواب في الأعمال، ولا يكون ذلك إلا باستحضار دائم لرقابة من لا تخفى عليه خافية وعلى قدر ذلك الاستحضار يكون مقدار الخضوع ومقدار تحري الصواب وذلك جماع مفهوم العبودية الخالصة.

وذلك أنّ معيار قبول الأعمال في الإسلام هو تحقق شرطي الصّواب والإخلاص فيها؛ أي: أن يكون العمل خالصاً لله تعالى، وذلك متعلّق بالقلب، وأن يكون على الهيئة التي أمر الله بها، وذلك متعلّق بالعقل، فإن المعنى الجامع للإحسان هو اجتماع أقصى ما يمكن بذله في جانبي العمل؛ أي: عمل القلب مع عمل الجوارح، فبقدر زيادة تحقّق هذين الشرطين في العمل يزداد العمل في الإسلام حسناً.

وعليه فإنّ للإحسان علاقة وثيقة بمفهوم الحكمة ومفهوم التزكية؛ وذلك أنّ فعل الأحسن هو عمل ما يتوجب فعله في الوقت المناسب وبالكيفية المناسبة والكمية المناسبة وذلك هو مفهوم الحكمة، كما أنّه تخلية للنفس من كل منقصة وتحلية لها بكل كمال⁽¹⁾، بل استبدال الحسن فيها بالأحسن؛ إذ إن الحسن منقصة إذا قيس بالأحسن وذلك هو مفهوم التزكية.

(1) وهو على قول -أهل السلوك- تخلية وتصفية؛ تخلية القلب من المساوئ وتحليته بالمحاسن، ولهم في ذلك مقامات يطول ذكرها، مفادها التدرّج في الرقي في سلّم الكمالات، والمصابرة في مجاهدة النفس على ذلك، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) الشمس: ٧ - ١٠.

فالإحسان هو العمل على الارتقاء في سلم درجات الأعمال ومراتبها؛ ترك الأسوأ إلى السيئ، والسيئ إلى الحسن، أو التحوّل عن الحسن إلى الأحسن، وكل ذلك داخل تحت القاعدة القرآنية ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقد غدت هذه القاعدة شعاراً لكل سالك، ومبدأً إسلامياً يسري حكمه على كل الأقوال والأعمال، فإذا وقف المؤمن أمام فعلين، كان مطالباً أن يأتي الأحسن منهما.

فهو مقصد قرآني عظيم ذكر تعالى أنه خلق السماوات والأرض وزينتهما وخلق الموت والحياة، كل ذلك ليلو عبادهم أحسن عملاً؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ﴾ هود: ٧، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ﴾ الكهف: ٧، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ الملك: ٢.

وذلك أنه لما كانت أعمال الناس ومواجيدهم متعددة ومتنوعة، وهمهم وقدراتهم متفاوتة؛ شرع الله تعالى لهم من النوافل والتطوعات، وما لا حصر له من أبواب القربات ما يلائم ذلك التفاوت والتنوع، وذلك كفيل بامتصاص أي رغبة جامحة في الاستزادة من المجاهدة والتعب كما أنه خصّ كلّاً منهم بما يناسبه من درجات البلاء^(١)، وكلّ ذلك ليميز الخبيث منهم من الطيب، وليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

قال تعالى في الحديث القدسي: "ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش

(١) استخرج حديث أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول "صحيح البخاري: 5/2139 معلقاً.

بها... الحديث⁽¹⁾ فشرع لهم من الأذكار ما يشغل ألسنتهم وقلوبهم. وشرع لهم التفتل في الصلوات، والزيادة على صوم رمضان، والإنفاق تطوعا ومسارة في الخيرات. وشرع لهم الإحسان في كل ما يأتون وما يذرون؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٩٥ البقرة: ١٩٥.

فشرع الله للناس الإحسان في معاملة الوالدين بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا﴾ ١٥١ الأنعام: ١٥١، وبين غاية الإحسان في معاملتهما، وهو طاعتهما بالمعروف، وحرّم إيذاءهما وإن بأف، ولو كانا مشركين. وشرع لهم الإحسان في التصرف في مال اليتيم؛ بالنهي عن التصرف فيه إلا بما هو أصلح له حتى يرشد بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ ١٥٢ الأنعام: ١٥٢.

وشرع لهم إحسان معاشرة الزوجات حتى في طلاقهن بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ ٣٢٩ البقرة: ٢٢٩.

وكما شرع الله ذلك في الأعمال، أمر به في الأقوال أيضا فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ٥٣ الإسراء: ٥٣، ومن ذلك قوله تعالى في رد السلام: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَجِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ ٨٦ النساء: ٨٦. كذلك تأديبه للدعاة حين أمرهم بالإحسان في الجدل بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ١٢٥ النحل: ١٢٥، وشرع ذلك

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري (414/11) في كتاب الرقائق ورقمه (6502).

في مخاطبة من لم يظلم من أهل الكتاب بقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (٦٦) ﴿ العنكبوت: ٦٦ ﴾، وذكرهم بأن الأحسن في حقهم أن لا يدفعوا السيئة إلا بالحسنة فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ المؤمنون: ٩٦ ﴾، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢٤) ﴿ فصلت: ٣٤ ﴾.

ومن جوامع كلمه (ﷺ) في جمع شتات ذلك كله قوله: *إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا نبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدِّ أحدكم شفرته، وليُريح ذبيحته*.^(١) إن في تمثيله (ﷺ) للإحسان بالقتلة والذبحة إيحاء بشمول هذا الحكم لكل شيء حتى ما قد لا يُتصور فيه الإحسان، وهو القتل والذبح، وفي كل ذلك حث لأهل هذا الدين على الاجتهاد والتنافس في مراتب ذلك الإحسان ودرجاته، وأن لا يحقروا من أبواب المعروف شيئاً؛ وقال (ﷺ) في جوامع كلمه: "الإيمان^(٢) بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله. وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء من الإيمان"^(٣). فجمع في هذا الحديث كل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ولم يترك زاوية من زوايا الحياة إلا وشملها بمنطوقه أو بمضمونه.

ووعد بحسن جزاء المحسنين في الدنيا والآخرة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ النحل: ٢٠ ﴾.

(١) صحيح مسلم: 1548/3، وسنن الترمذي: 23/4، وسنن أبي داود: 155/3.

(٢) الإيمان هنا بمعنى الدين كله.

(٣) صحيح البخاري (70/2)، وصحيح مسلم (62/1) في كتاب الإيمان ورقمه: (35). وسنن

أبي داود (219/4) في كتاب السنة.

٣٠، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿يونس: ٢٦﴾، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ ﴿٣١﴾ النجم: ٣١، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٢﴾ آل عمران: ١٧٢.

فالإحسان -إذن- هو وسيلة القرآن التربوية التي ترقى بصاحب الهمة من منزلة إلى منزلة إلى أن يبلغ ما قُدِّرَ له من مراتب الصلاح والكمال، وبه تقع التَّركية، وسلوك الطريق المستقيم، ابتداء من مجرد التلفظ بالشهادتين وانتهاء ببلوغ درجة العبودية الخالصة، وهي درجة الكمال الإنساني.

وهو الذي يأخذ بيد هذا من بين أحضان الإلف وتقل العادة إلى باحة الجدِّ والتجديد بيد حانية، وخطى ثابتة، وذلك أن النَّفس البشرية -كما قال صاحب الظلال- "لا تتحوَّل تحوُّلاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد، إنما تتأثَّر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج وتندرج في مراقبه رويدا رويدا وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً فلا تجفل لو قُدِّمَ لها ضخماً ثقيلاً عسيراً وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح في اليوم التالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية"^(١).

فالقرآن يرتقي بصاحبه من منزلة إلى أخرى فوقها، نقلة عارف بما تقدر عليه النفوس مما لا تطيقه، ولذلك أنزله الله تعالى على نبيِّه (ﷺ) في أكثر من عشرين سنة، وقال في الردِّ على من استنكر من المشركين تنزيله على طول هذه المدة: قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ﴿٣٢﴾ الفرقان: ٣٢.

(١) في ظلال القرآن: 2562/5.

وليس في إحسان العبيد وجه مبادرة أو تفضل منهم، وإنما هو في مقابل إحسان سابق من الله تعالى لهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (القصص: ٧٧)، وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٦٠) الرحمن: ٦٠ ... إحسان في مقابل إحسان بنعم قال فيها عز وجل: ﴿قَالَ تَعَالَى: وَإِنْ نَعُدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (٣٤) إبراهيم: ٣٤ ، والنحل 18؛ فهو إحسان لا يشاركه إلا في الاسم فقط.

المطلب الخامس:- القصد إلى حصول الصبر والثبات.

إن القصد إلى تثبيت المؤمنين وحصول الصبر⁽¹⁾ في نفوسهم مقصد مهم من مقاصد القرآن الكريم، وذلك أن المرء قد يحصل العلم ثم يؤمن ويعمل، غير أن هذا الوضع قد ينقطع في أي وقت، والذي قصد إليه القرآن هو استمرار وجود هذه الأساسيات، ولا يتأتى هذا الأمر إلا بحصول ما يحفظ استمرارها؛ بعد حصول ما يوجددها -الموعظة- وهذا على غرار ما ذكرنا في علاقة التذكير بمقصد العلم.

وهو مقصد قرآني صحيح بصريح الآية القرآنية: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢)، وإشارة القرآن إلى هذا المقصد في غير هذه الآية كثير منها ما ذكره تعالى من أنه إنما قصّ القصص على رسوله ليثبت به قلبه الشريف؛ قال: ﴿قَالَ تَعَالَى:

(1) الصبر في اللغة الحبس، أو حبس النفس على المكروه؛ فتقول صبرت نفسي على الشيء أي:

حبستها عليه، والصبر هو التحمل والثبات على الشيء.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِ ۖ فَؤَادَكَ ﴿١٢٠﴾﴾ هود: ١٢٠، وقال تعالى
ممتنًا على نبيِّه (ﷺ) بهذه النعمة: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ
شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ الإسراء: ٧٤.

ومن ذلك أيضا أنه تعالى ذكر هذا المقصد سببا في إنزاله للقرآن منجما فقال
رأدا على من استنكر ذلك من المشركين: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ الفرقان: ٣٢، وهو
تقوية قلبه عليه الصلاة والسلام؛ قال أبو شامة فإنّ الوحي إذا كان يتجدد في كل
حادثة كان أقوى للقلب وأشدّ عناية بالمرسل إليه... (١).

وهي صفة خير خلق الله تعالى من أولي العزم من الرسل؛ قال تعالى: قَالَ
تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ
يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الأحقاف: ٣٥.

وهو الذي يدعو به أهل الإيمان عندما تنزل بهم الأرض، وتلمّ بهم الملمات
وتفرعنهم النوازل، قال تعالى فيمن خلص لطلوت من أهل الإيمان: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا
بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ البقرة: ٢٥٠.

والصبر قسمان؛ أحدهما متعلق بالمأمورات، والثاني متعلق بالمقدورات:-

فأما المتعلق بالمأمورات أو الشرائع فهو:

- إما صبر على الطاعة؛ وهو حمل النفس على الاستمرار في فعل الواجبات؛

قال تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ

(1) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، أبو شامة المقدسي: ص 28.

تَعَلَّمْ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ مريم: ٦٥، وقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿١٣٢﴾ طه: ١٣٢.

- وإِذَا صَبَرَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، أَي: تَحَمَّلَ النَّفْسَ مَشَقَّةَ الْإِمْسَاكِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ؛ وَهُوَ الَّذِي عَنَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَوْلِهِ -حِينَما نَظَرَ إِلَى مَا أُحِيطَتْ بِهِ جَهَنَّمُ مِنَ الشَّهَوَاتِ^(١).

وَأَمَّا الْمُتَعَلِّقُ بِالْمَقْدُورَاتِ، فَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ، وَمُقَابَلَتُهَا بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِلخَالِقِ وَعَدَمُ الِاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ فِيمَا قَدَّرَ وَقَضَى، وَعَدَمُ إِزَالَتِهَا بِغَيْرِ الْوَجْهِ الْمَأْدُونِ^(٢).

وَأَمَّا عَاقِبَةُ الصَّبْرِ وَالتَّثَابِتِ عَلَى الْحَقِّ فَيَقُولُ تَعَالَى: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ السجدة: ٢٤، فَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً مُهْدِينَ وَهَادِينَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ أَسْكَنَهُمْ خَيْرَ الْمَنَازِلِ فِي الْآخِرَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ الإنسان: ١٢، وَقَالَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِبَ وَسَلَامًا﴾ ﴿٧٥﴾ الفرقان: ٧٥، ثُمَّ يَهْنِئُهُمْ فَيَقُولُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢٤﴾ الرعد: ٢٤ وَلِأَجْلِ تَحْصِيلِ كُلِّ هَذَا الْخَيْرِ دَعَا الْقُرْآنُ إِلَى التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ فَقَالَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ﴾ ﴿١٧﴾ البلد: ١٧، وَأَقْسَمَ تَعَالَى عَلَى خُسْرَانِ كُلِّ بَنِي آدَمَ مُسْتَشْتَبِئًا أَنَا سَا ذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِمُ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ؛ فَقَالَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ الْعَصْرِ: ١ - ٣؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْآفَةَ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى

(١) سنن النسائي: 3/7، سنن الإمام أحمد: 332/2، وانظر فتح الباري: 320/11.

(٢) ينظر مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس: ص 241.

الأعمال - كما ذكرنا آنفاً - هي الكلل والفتور، فكان علاجها هو التواصي بالصبر، وحمل النفس على التحمل، قال تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** آل عمران: ٢٠٠.

المبحث الرابع - منظومة القرآن المقصدية

إن المقصد الأقصى من هداية القرآن هو توحيد الله تعالى بالعبادة، وإخلاص العبودية له، فلا بد أن تتحقق هذه العبودية في جميع جوانب الذات العابدة. وإن تكون الذات العابدة من عقل وروح وجسد يجعل قدر حظها من العبودية متعلقاً بقدر ما يتحقق من عبودية في كل جانب من تلك الجوانب الثلاثة.

فحظ العقل من تلك العبودية هو حظه من العلوم النافعة. وحظ الروح أو القلب من تلك العبودية هو حظه من الإيمان الاعتقاد والأعمال الباطنة. وحظ الجسد من تلك العبودية هو يأتيه من أصناف الطاعات والتكاليف الظاهرة.

وجانب العلم أساس للجانبين الآخرين، لذلك كان أول ما نزل على نبيِّنا هو الأمر بإتيان أعظم أسباب العلم؛ وهو قوله تعالى: **﴿اقْرَأْ﴾**، غير أن هذا العلم لا يكتمل فضله إلا بهما، والإيمان هو أساس العمل الصالح، وشرط قبول الأعمال غير أنه لا يكتمل فضله أيضاً إلا بالجانبين الآخرين؛ العلم والعمل الصالح. والعمل أيضاً لا يكون صالحاً إلا إن أصلحه العلم والإيمان، فالإيمان يجعله خالصاً، والعلم يجعله صواباً؛ فهذه هي الصلّات الجامعة بين أطراف هذه المقاصد الأساسية، فلا يتصور إيمان صحيح بلا علم، ولا يتصور له ثمرة من دون عمل صالح؛ يقول أبو حامد الغزالي في وصيّته: والعلم بغير عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون.

فعلاقة بعض هذه المقاصد الثلاثة ببعضها هو التكامل، فلا يُستغنى ببعضها عن بعض، وأمّا علاقتها بالمقصد الأقصى؛ وهو وظيفة إخلاص العبودية فهي علاقة الجزء بالمجزأ.

ثم إن هذه المقاصد -بدورها- تحتاج في ذاتها إلى ما يقيمها، أو يحفظ وجودها أو ما يخرج ثمرها؛ فالعلم محتاج إلى التذكير به ليستمر وجوده، وإلى الوازع ليثمر. والإيمان يحتاج إلى الوعظ ليستمر وجوده وليحوّل الفكرة إلى حركة، والعمل يحتاج إلى تذكير ليحفظ عليه صوابه، وإلى وعظ ليحفظ عليه إخلاصه، وإلى إحسان لينمو وتزداد ثمرته، وإلى صبر ليحفظ عليه وجوده ونموّه.

وكذلك يحتاج ذلك التذكير إلى صبر وإحسان، كما يحتاج الوازع إلى علم، ويحتاج الوعظ إلى علم وتذكير وإحسان وصبر، ويحتاج الإحسان إلى علم وصبر، وأما الصبر فيحتاج إلى علم وتذكير وإيمان؛ وإليك مزيد بيان لموقع كل مقصد من هذه الأمّهات من هذه المنظومة:

موقع كل مقصد من هذه المنظومة:

فأما موقع العلم من باقي المقاصد الأساسية والخدمية فهو جانبها العقلي، وهو لها بمثابة الضياء في حركات الإنسان المبصر، فبدونه لا يكون لحركاته وجهة ولا طريق، فهي ضرب في العماء، وشتان بين من كان على بينة من أمره ممن هو تائه في ظلمات الجهل، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾﴾ الأنعام: ١٢٢، وقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾﴾ الزمر: ٩.

فعلاقة العلم بالإيمان أنه أساسه الذي يقوم عليه، فلا يكون إيمان القلب وتسليمه سليماً إذا لم يرجح العقل صلاح المصدق به للتصديق، وكونه حقاً.

وعلاقة العلم بالعمل أنه إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازلته^(١)، فهو مقدّم عليه في الوجود، غير أن العمل يفضلّه إن كان مؤسساً على علم صحيح لأنه هو الثمرة.

(١) ينظر زاد المعاد: 1/317.

وأما علاقة العلم بالوازع فهي كون الوازع جانبه المحرك، وأما علاقته بالتذكير فهي كونه مادته، وأما علاقته بالوعظ فلكون الوعظ لا يحسن إلا بما تحقق ثبوته ودلالته، وأما علاقته بالإحسان فلكون العلم هو المبين لمراتب الإحسان، وهو المعرف بالحسن من الأحسن، وأما علاقة العلم بالصبر فهي بيان ثمرته وعاقبته التي تشده وتُمدّه بالقوة.

وأما موقع الإيمان من هذه المنظومة فهو شغله لجانبها القلبي أو الروحي الذي يمدّها بالقوة والعزم والانبعاث إلى الحركة، فهو سرّ قوة النفس ومفتاح قبول الأقوال والأفعال، والأجر عليها؛ إنه سر الحياة في كيان هذا الدّين.

فلا خير في علم لا يورث إيماناً وتسليماً، ولا ثمرة في عملٍ صالحٍ مع الكفر بخالق هذا الكون كلّهُ. وبالجملّة فإنّه ما خلا أي دين أو نحلة من هذا الجانب فيها إلا كانت هيكلاً بلا روح.

وأما موقع العمل الصّالح من باقي المقاصد فهو موقع الثمرة من الشجرة، ومجمّع أنهارها، وهو -إن حاز شروطه- المظهر النهائي لوظيفة العبودية التي خلّق الإنسان لأجل القيام بها.

وأما موقع الوعظ وثمرته في المنظومة المقصدية فهو تحويله للعلم والتذكير إلى حركة في القلب يترجمها إلى امتثال باطني في القلب، والذي يحولّها بدوره إلى امتثال ظاهري في الجوارح للأوامر والنّواهي، لذلك وُصف القرآن في غير موضع بأنّه موعظة.

فالوعظ من هذه المنظومة بمثابة محرك تشغيل كهرباء السيّارة.

وأما موقع الإحسان في هذه المنظومة فهو أنّ لكل مقصد من المقاصد الأساسية حدّين: أحدهما أدنى والثاني أقصى، وهذا التفاوت يمثّله التفاوت الحاصل في همم المكلفين، فمنهم عالي الهمّة نافذ العزيمة جامع الطّامح، ومنهم محبّ للخير

ولكنّه راض بأقل ما تحصل به النّجاة، وبين هذا وذاك مراتب ومنازل متفاوتة، لذلك جعله النبي (ﷺ) أسمى درجات العبودية.

إحسان في تحصيل العلوم بانتقاء النّافع منها مما يفيد في الدنيا والآخرة، وإحسان في أعمال القلوب من حب لله ورسله وعباده الصّالحين، وأداء حقوقهم من حسن الظّن بهم، ومودّتهم. وإحسان في الذكر والتّدبر في آيات الله تعالى. وإحسان في تقبّل الوعد والوعيد بقلب خاشع خاضع. وإحسان في الصبر على ما يحب وما يكره.

وأما موقع خصلة الصبر في منظومة القرآن المقصدية، فذلك أنّه قد يحصل لنا العلم، ويحصل لنا التذكير، ويحصل لنا منه الوازع والاتّعاظ والإيمان، ويقع منا العمل الصّالح، ولكن العمر طويل، وفتن الدنيا وبهرجها، وسهولة المعصية ونيل الملمات كل هذه الأمور تزرع الفتور في القلوب، فينقطع العمل، ويكلّ عن حمل الإيمان والعمل بمقتضاه، ويغفل عن الذكر، فيظلم القلب بنقص الإيمان، وينتكس الإنسان، ولحفظ المؤمن من كل هذا شرع لنا فضيلة الصّبر، وأوجب علينا التواصي به، ليستمر وجود كل ما قد يثبّطه الفتور.

ولتبسيط ذلك يمكننا أن نضرب لذلك مثلاً؛ فإنّ مثل المؤمن كرجل متسلّق بحبل يريد الخروج من هاوية سحيقة إلى برّ الأمان، فهو إن كلّ واستكان وترك الحبل من يده سقط إلى أسفل، قد يتنعم ببعض الراحة في حالة سقوطه الحرّ، لكنّها راحة يسيرة سرعان ما يعقبها الهلاك، وأما إن صبر وحمل على الصّبر وغالبها عليه، فإنّه يتحمل التعب ويتسلّق، ولكنه في نفس الوقت تقوى عضلاته فيسهل عليه التسلّق كلما ازداد صبراً وجلداً، إلى أن ينجو، فهذه حال المؤمن في هذه الدنيا؛ فإنّه

يكابد أنقالها من ولادته إلى ما بعد الممات⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾﴾ البلد: ٤

وقد روي عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، قال الطبري: وصدق علي رضي الله عنه؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمان بالإطلاق، فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذي لا تمام له إلا به⁽²⁾.

لذلك نجد أنه تعالى وإن كانت الصلاة من أعظم مظاهر وظيفة العبودية في الإسلام، فقد جعل من أعظم مقاصدها التذكير بالله تعالى وأوامره؛ كما في قوله تعالى لموسى (عليه السلام): ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾﴾ طه: ١٤. ثم قرن بينها وبين الصبر في الذكر فقال: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾﴾ البقرة: ٤٥،

(1) فذكروا أن أول ما يكابد الإنسان قطع سرته، ثم إذا قمت قماطاً، وشدّ رباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لصاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام الذي هو أشدّ من اللطام، ثم يكابد الختان والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيئته، ثم يكابد شغل النزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن، ويكابد محناً في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مسائلة الملك، وضغطة القبر وظلمته؛ ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار. ينظر الجامع لأحكام القرآن: 63-62/20.

(2) الجامع لأحكام القرآن: 372/1.

وقرن في الآية الأخرى بين الثبات والذكر فقال: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ (٤٥)﴾ الأنفال: ٤٥، والثبات هو الصبر، والذكر من مقاصد الصلاة كما ذكرت.

فذلك هو الزاد في طريق الصراط المستقيم ... علم مع وجود الوازع، ثم الوعظ، ثم الإيمان والعمل، ثم الإحسان، ثم التذكير والصبر والثبات لأجل استمرار وجود ذلك كله.

مكونات الإنسان	الوظيفة	الوسيلة
العقل	العلم	وازع + تذكير
القلب	العبودية الخالصة	الإيمان + وعظ
الجسد	العمل	إحسان + صبر

فالعبودية الخالصة -إذن- هي أم المقاصد وغايتها، وقصد القرآن إلى تحصيل العلم وحصول الإيمان والعمل الصالح هي أسس هذا المقصد، وقصده إلى إيجاد الوازع، والتذكير، والوعظ، والإحسان، والصبر، هي أعظم ما يتوصل به إلى إقامة تلك الأسس، وذلك المقصد؛ وتلك هي عناصر المنظومة المقصدية في القرآن الكريم.

الخاتمة

في ختام هذا الجهد المتواضع، أضع بين يدي القارئ الكريم أهم ما علق بقرحتي من نتائجه، وهي كالآتي:-

إن لهذه الوجهة في الدراسات القرآنية بذورا مبكرة في تاريخ العلوم الإسلامية، وجذورا ضاربة في القدم.

إن هذا العلم قد تطوّر عبر عدّة روافد وطرق منها:-

طريق علم المناسبة: مقاصد الألفاظ ← نظرية النظم ← مقاصد الآيات ← علم المناسبة ← مقاصد السور ← الوحدة الموضوعية للسورة ← مقاصد القرآن العامة.

طريق التفسير الموضوعي: تفسير القرآن بالقرآن ← التفسير الموضوعي ← تحديد موضوعات القرآن الكريم الكلية ومقاصده العامة.

طريق الدراسات الفقهية، وله رافدان:

(أ) أحكام القرآن ← تعليل الأحكام ← القواعد الفقهية ← أصول الفقه ← القواعد الأصولية ← مقاصد الشريعة ← المقاصد العامة للقرآن.

(ب) الكتاب والسنة والإجماع ← القياس ← التعليل ← الوصف المناسب (مسلك تعليل) ← المصالح المرسلة ← مقاصد الشريعة الإسلامية ← المقاصد العامة للقرآن.

طريق البحث في تفسير أحاديث وردت في بعض السور والآيات كون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وكون الفاتحة جامعة لمقاصد القرآن... الخ.

إن أكثر شخصيّة أسهمت في تطوير هذه الوجهة قديما من خلال أكثر الطرق المذكورة هو الإمام الحجة أبو حامد الغزالي بلا منازع.

إنّ التأليف في هذا الموضوع بقي مفرقاّ وسطحياّ بعد تلك النشأة المبكرة.

اختلف عدد تقسيمات مواضيع القرآن وتنوّعت نتيجة لاختلاف أغراض كلّ

تقسيم.

فالذي توصلنا إليه -إذن- في مسألة اختيار أمهات مقاصد القرآن، أو المقاصد الكلية هو اختيار ما لا يُستغنى عنه بحال من جملة المقاصد المذكورة في القرآن أو أُشير إليها في السنة، أو التي ذكرها أهل العلم.

انحصرت وظيفة القرآن الأساسية في التعريف بالملك وما يرضيه، فوظيفة الإنسان -إذن- هي معرفة الملك وما يرضيه. إن المقصد الأقصى من إنزال القرآن الكريم هو تحقيق ما أوجدنا الله لأجله، وهو القيام بوظيفة العبودية الخالصة لجلالته.

وقد اختصر القرآن ما يرضي الله تعالى وحصره في وظيفة العبودية الخالصة له فقال: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** ﴿الذاريات: ٥٦﴾، وهو المقصد الأقصى لنزوله، وأكثر ما يعبر به القرآن عن هذه العبودية هو عبارة (الإيمان والعمل الصالح)؛ فخير ما عبّر به القرآن عن الإيمان هما (الإيمان بالله واليوم الآخر)، وخير ما عبّر به القرآن عن العمل الصالح هما (ركنا الصلاة والزكاة).

إن هذا المقصد لا يقوم إلا على ثلاثة أسس، وهي القصد إلى حصول العلم في العقل، والقصد إلى حصول الإيمان في القلب، والقصد إلى حصول العمل الصالح في الجوارح.

مقاصد القرآن الأساسية هي إمداد كل جانب من مكونات الإنسان الأساسية بما ييسر لها تحقيق ما يتعلق بها من وظيفة العبودية، وذلك بإمداد العقل بحاجته من العلم الصحيح، وإمداد القلب أو الروح بما يتوجب عليهما من الإيمان والأعمال الباطنة، وإمداد الجسد بالصالح من الأعمال الظاهرة.

إن قيام هذه المقاصد الأساسية وعملها لا يقوم إلا على مقاصد خادمة، وهي الوازع والتذكير والوعظ والصبر والإحسان، إذ لمّا كان العلم عرضة للنسيان، وكان الإيمان عرضة للبلوى، وكان العمل عرضة للخمود، كانت هذه المقاصد بحاجة إلى ما يقيمها ويحفظها، أو ما ينميها ويخرج ثمرتها؛ لذلك كانت حاجة العلم إلى التذكير لحفظه من النسيان، وحاجته إلى وازع يحولّه من فكرة إلى حركة، وكانت حاجة الإيمان إلى النفخ فيه بالوعظ ليتقد ويضيء، وكانت حاجة العمل الصالح إلى

صبر يحفظ له وجوده، وإلى إحسان ينميّه ليثمر بعد ذلك كلّ عبودية خالصة لله تعالى.

إنّ هذه المقاصد بعضها مفضّ إلى بعض ووسيلة إليه، وهذا الحكم جار على جُلّها، فمجموع هذه المقاصد تُكوّن منظومة مقاصدية متكاملة تصبّ في مقصدها الأساسي.

التوصيات

ونوصي إخواننا الباحثين في حقل الدراسات القرآنية، بضرورة الاقتصار على تحقيق المسائل المشكّلة في الواجهة التحزئية في التفسير الإجمالي للقرآن، ونقل الاهتمام والعناية إلى الدراسات التركيبية، للوقوف على بهاء الهندسة القرآنية. وأما من شغف بهذا الموضوع، وتطلّع إلى الاشتغال به فنوصيه بما يأتي:-

تتبع الطرّق المذكورة في هذه الأطروحة أو في غيره طريقا طريقا، لاستخلاص أمّهات المقاصد من أكبر قدر ممكن من الطرّق.

تتبع مقاصد السور سورة سورة مع ترتيبها حسب النزول، وحسب ترتيب المصحف لمعرفة أوائل ما أراد الله تعالى من المقاصد، ومعرفة أوائل ما أراد الباري لقارئ القرآن أن يقف عليه.

تتبع أمّهات المقاصد في دعوات الأنبياء عليهم السلام تتبعا مركزا، للخروج بالحصيلة المشتركة، لكل الرسائل السماوية.

توزيع ما أمكن من آيات القرآن الكريم على مراحل السيرة النبوية العطرة، ففي ذلك بيان لتدرّج الشّارع في بيان مقاصده، وترتيبها في الأهمية والوجود.

مقارنة كلية بين أمّهات مقاصد القرآن وأمّهات مباحث الفلسفة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أبجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي، تحقيق عبد الجبار زكار: دار الكتب العلمية/ بيروت - ط: 1978م.

أبرز أسس التعامل مع القرآن الكريم، د. عيادة بن أيوب الكبيسي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث/ دولة الإمارات، ط1/ 1418هـ - 1997م.

الإبهاج، علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق جماعة من العلماء: دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1/ 1404هـ.

إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، أحمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء، تعليق علي محمد الضباع: دار الندوة/ بيروت، (د.ت).

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي:

أجوبة القرآن على أسئلة الإنسان الثلاثة - من أين؟ لماذا؟ وإلى أين؟ - عز الدين كشنيط. (رسالة ماجستير، بإشراف د. مشعان سعود العيسوي/ كلية الشريعة، جامعة بغداد 1419هـ - 1998م).

الأحرف السبعة للقرآن، أبو عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني (و371-444)، تح: د. عبد المهيم طحان: مكتبة المنارة/ مكة المكرمة، ط1/ 1408.

أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي (الفقيه المالكي). مطبعة مصطفى البابي الحلبي / القاهرة، 1387هـ - 1967م.

أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر (و305-370): تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط: 1405هـ.

الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد علي ابن حزم الظاهري، دار الآفاق الجديدة/ بيروت، ط2/ 1983م.

الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي، تحقيق سيد الجميلي: دار الكتاب العربي، بيروت، ط1/ 1404هـ.

- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي: دار الفكر/ دمشق، ط2/ 1400هـ-1980م.
- أخلاق القرآن، د/ أحمد الشرباصي. دار الرائد العربي. بيروت لبنان ط1/ 1971م (1مج).
- إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد بن علي الشوكاني: تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية/ بيروت- ط1/ 1984.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت951): دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
- إرشاد الفحول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق محمد سعيد البدري: دار الفكر/ بيروت، ط1/ 1412-1992.
- الأسئلة الخالدة، سامي أحمد الموصلي 1989م.
- أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي (و849-ت911)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا: دار الاعتصام/ القاهرة.
- الإسلام (حقيقته وموجباته)، د. محمد عقلة. شركة الشهاب / الجزائر. 1988.
- الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد: ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين/ بيروت- ط: 1398هـ.
- الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية، د. محمد غلاب. (د.ت)
- أسماء القرآن في البيان القرآني، د. محمود سعد: دار المعرفة الجامعية/ مصر، ط1/ 1991م.
- أسماء القرآن في القرآن، د. محمد محروس المدرّس الأعظمي: مجمّع السنة المحمّدية/ الهند، ط: 1420هـ-2000م.
- أسماء الله الحسنى (دراسة في البنية والدلالة)، د. أحمد مختار عمر: عالم الكتب/ القاهرة، ط1/ 1417هـ-1997.
- الأشباه والنظائر، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1/ 1403هـ.

الأصالة (ملتقى القرآن) ، وزارة الشؤون الدينية / الجزائر: (من محاضرة ألقاها د. معروف الدواليبي في ملتقى القرآن بعنوان: القرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسان -في المبدأ، والمعاد، والمعاش-) أصول الفقه الإسلامي في نسيجه الجديد، أ.د. مصطفى إبراهيم الزلمي: شركة الخنساء/ بغداد، ط5/1999م.

أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي: دار الفكر/ دمشق، ط/ 1986.

أصول الفقه، فخر الإسلام البزدوي: طبعة الشركة العثمانية. (د.ت)

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. ط: 1400هـ - 1980م.

إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد: دار الجيل/بيروت، ط: 1973م.

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (691-751)، تحقيق محمد حامد الفقي: ط2/1395-1975، دار المعرفة/ بيروت.

الإمام بأصول الأحكام، محمد فيض الله: ط1/1410هـ-1989م، دار التقدم/ الكويت.

إلى القرآن الكريم (تفسير)، محمود شلتوت: شركة الشهاب/ الجزائر، (د.ت).

أليس الصبح بقريب، محمد الطاهر بن عاشور. الشركة التونسية لفنون الرسم/ تونس. ط: 1985.

أم القرآن (دراسة وتحليل)، د.مُصعب الراوي: وزارة الثقافة/ العراق، ط1/2001م.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية، تحقيق/ د. صلاح الدين المنجد: دار الكتاب الجديد/ بيروت-لبنان، ط2/ 1404هـ-1984م.

أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي(ت978)، تحقيق د. أحمد بن عبد الرزاق الكبيسي، ط1/ 1406، دار الوفاء/جدة.

أهداف كل سورة ومقاصدها، عبد الله شحاتة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ط: 1986م.

بحث جديد عن القرآن، محمد صبيح:
البحر الزخار(مسند البزار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق
البزار(215-292)، تحقيق د.محفوظ الرحمن زين الله: مؤسسة علوم القرآن،
مكتبة العلوم والحكم/بيروت، المدينة، ط1409/1.

البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي/ تحرير: عبد الستار
أبو غدة، ومراجعة: عبد القادر العاني، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية/
الكويت، ط1409 هـ-1988م.

البحر المحيط، محمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد
الموجود وعلي محمد معوض وآخرون/دار الكتب العلمية، بيروت،
ط1413 هـ-1993م.

بحوث في أصول التفسير، محمد بن لطف الصبّاغ:
البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي (ضمن المجموعة الصّغرى للفوائد الكبرى، تح:
صفوت السقا: مكتبة ربيع، حلب، 1962م.
البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله
(745-794)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعرفة/ بيروت،
1391هـ.

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمّد بن يعقوب
الفيروز آبادي. تحقيق أ. محمد علي النجار. ج1، طبعة 1384هـ/ 1964م،
صادر عن لجنة إحياء التراث الإسلامي/القاهرة.
البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: جمعية
إحياء التراث الإسلامي/ الكويت، ط1407/1هـ.

بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد عبد الحليم بن تيمية
الحراني أبو العباس(661-728)، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم:
ط1392 هـ، مطبعة الحكومة/مكة المكرمة.

- البيان والتبيين، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق فوزي عطوي: دار صعب/ بيروت، ط1/1986.
- تأويل مختلف الحديث، عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوريذ (213-276)، تح: محمد زهري النجار، دار الجيل/ بيروت، ط1393-1972.
- تاريخ التشريع الإسلامي، محمد الخضري بك: دار الكتب العلمية/ بيروت، ط9/1390-1970.
- تاريخ الفقه الإسلامي، د. عمر سليمان الأشقر: ط3/1412هـ-1991م. دار النفائس/ عمان.
- تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي (393-463)، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- التبيان في أسماء القرآن، محمد بليّ الفوتي: مطبعة المنار/ تونس، ط: 1389هـ-1969م.
- التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني . مكتبة رحاب/ الجزائر. ط3/ (1407هـ - 1986م).
- التحرير والتنوير (تفسير)، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر/ تونس، 1984.
- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا (1283-1353)، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- التربية في كتاب الله، محمود عبد الوهاب فايد: دار الاعتصام/ القاهرة- ط5/ 1398هـ.
- تطور تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد . إصدار وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- جامعة بغداد / بيت الحكمة. 1989م.
- التعريف بالقرآن والحديث، محمد الزفزاف: مكتبة الفلاح/ الكويت. ط3/1399هـ-1979م.
- تعريف عام بالعلوم الشرعية، محمد الزحيلي: دار الكوثر/ الجزائر (د.ت).

- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني. تحقيق: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي/ بيروت- ط1/1405هـ.
- تفسير البيضاوي، البيضاوي(ت791هـ)، تح: عبد القادر عرفات العشا حسونة: ط: (1416-1996)، دار الفكر/ بيروت.
- تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي: ط1، دار الحديث/ القاهرة.
- التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة (دراسة وتحليل): عبد الحكيم محمد الأنيس. رسالة ماجستير في كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، إشراف عبد الرحيم الزرقا، 1413هـ-1993م.
- التفسير الحديث، محمد عزة دروزة: دار إحياء الكتب العربية، ط: 1381هـ-1962م.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا: دار المعرفة/ بيروت- لبنان، ط2/ (د.ت).
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء (ت774): دار الفكر/ بيروت، ط: 1401هـ. وطبعة دار ومكتبة الهلال / بيروت - لبنان.
- تفسير القرآن، عبد الرزاق بن همام الصنعاني(126-211)، تح: د. مصطفى مسلم محمد: ط1/1410هـ، مكتبة الرشد/الرياض.
- التفسير الكبير (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب)، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر، دار الفكر، بيروت، ط1/1401هـ-1981م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ.د. وهبة الزحيلي: دار الفكر المعاصر/ بيروت، دار الفكر/ دمشق، ط1/ 1411-1991.
- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، حكمت عبيد حسين الخفاجي: رسالة ماجستير، إشراف أ.د. محمد حسين علي الصغير/كلية الشريعة، جامعة بغداد، 1412هـ-1992م.

التفسير الميسر، نخبة من العلماء تحت إشراف د. عبد الله بن عبد المحسن التركي: مركز الدراسات القرآنية، وزارة الأوقاف/ المدينة المنورة، 1419هـ - 1999م.

تفصيل آيات القرآن الحكيم، جول لابوم، ومعه المستدرك، إدوار مونتيه، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي: دار الكتاب العربي/بيروت-لبنان.

تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773-852هـ)، تحقيق محمد عوامة: دار الرشيد/ سوريا، ط1/ 1406 - 1986.

تقريب النشر في القراءات العشر، شمس الدين بن الجزري، تحقيق علي عبد القدوس عثمان الوزير: دار إحياء التراث العربي/ بيروت- لبنان، ط1/ 1421هـ-2000م.

تقريب الوصول، ابن جزي، تحقيق د. عبد الله الجبوري. ط: 1410هـ - 1990م، بغداد.

التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (368-463هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي محمد عبد الكبير البكري: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية/ المغرب، 1387هـ.

التمييز، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أبو الحسين (204-261)، تح: د. محمد مصطفى الأعظمي: مكتبة الكونثر/ المربع - السعودية، ط3/ 1410هـ.

تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1/ 1406هـ-1986م.

تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، السيوطي: المكتبة التجارية الكبرى/ مصر، 1389هـ-1969م.

تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (773-852)، دار الفكر/ بيروت، ط1/ 1404هـ - 1984م.

التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي (952-1031)، تح: د. محمد رضوان الداية: ط1/ 1410، دار الفكر المعاصر، دار الفكر/ بيروت، دمشق.

جامع الأصول، ابن الأثير تحقيق عبد القادر الأرناؤوط: دار البيان/ دمشق
ط: 1392هـ - 1972م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر
(224-310) دار الفكر/ بيروت، 1405هـ. وطبعة الخشاب / 1323هـ.
و(الطبعة المحققة).

الجامع الصحيح، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق كمال
يوسف الحوت. دار الكتب العلمية/ بيروت - لبنان. ط (1) / 1408هـ -
1987م.

جامع بيان العلم وفضله، لحافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر، تحقيق
أبي الأشبال الزهيري: دار ابن الجوزي/ السعودية، ط 1/ 1419-1998.
الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد
الله (ت 671هـ)، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني: دار الشعب/ القاهرة، ط 2/
1372هـ.

الجامع لمواضيع القرآن الكريم: محمد فارس بركات. المكتبة الهاشمية/ دمشق
- 1379هـ/ 1959م.

الجدول (ديوان شعري)، إيليا أبو ماضي: دار العلم للملايين/ بيروت، ط 11/
1977.

جنور البلاء، عبد الله التل: المكتب الإسلامي/ بيروت، ط 2/ 1978م
جلء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر أيوب
الزرعي أبو عبد الله (691-751)، دار العروبة/ الكويت - ط 1/ 1407 - 1987.
جواهر البيان في تناسب سور القرآن، محمد صديق الغماري: ط 2/
1406هـ - 1986م، عالم الكتب/ بيروت.

جواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي: منشورات مؤسسة
الأعلمي للمطبوعات/ بيروت-لبنان.

جواهر القرآن ودرره، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: طبعة دار الكتب
العلمية/ بيروت، ط 1/ 1409هـ - 1988م.

حاشية العلامة اللبناني على شرح الجلال شمس الدين بن أحمد المحلي على متن جمع الجوامع للإمام تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي، وبهامشها تقرير شيخ الإسلام عبد الرحمن الشربيني: دار إحياء الكتب العربية/ مصر، (د.ت). الحدود الأنيفة، زكريا بن محمد الأنصاري. تحقيق: د.مازن المبارك، دار الفكر المعاصر/ بيروت-ط1/ 1411هـ.

حضارة العرب، غوستاف لوبون:
الخصائص العامة للإسلام د.يوسف القرضاوي: مكتبة وهبة/ مصر، ط1/ 1397هـ-1977م.
خصائص القرآن الكريم، د.فهد الرومي: مكتبة العبيكان/ السعودية، ط9/ 1417هـ-1997م.
الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون، أنور الجندي: دار الاعتصام/ القاهرة، سلسلة في دائرة الضوء.
الدر المنثور، السيوطي: دار الفكر/ بيروت، ط: 1993م.
دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د.زاهر بن عواض الألمعي: مطابع الفرزدق التجارية/الرياض، ط1/ 1405هـ.
دعائم الفلسفة، إدريس خضير. المؤسسة الوطنية للكتاب/ الجزائر. (ط4)/ 1992م.

دقائق التفسير (الجامع لتفسير ابن تيمية)، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (661-728)، تحقيق د. محمد السيد الجليند: مؤسسة علوم القرآن/ دمشق، ط2/ 1404.
دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): تحقيق د.محمد التتجي، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط1/ 1995م.
دليل الدراسات العليا في كلية العلوم الإسلامية (1)، إعداد د. محمد صالح عطية الحمداني 1999م.

- الديباج على صحيح مسلم، السيوطي، تحقيق أبو إسحاق الحويني الأثري:
دار ابن عفان/ الخبر - السعودية، 1416م - 1996م.
- الدين في عصر العلم، د. يوسف القرضاوي . دار الفرقان للنشر والتوزيع/
عمان - الأردن، 1417هـ - 1996م.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طبارة. دار العلم للملايين/ بيروت -
لبنان. ط (13) / 1976م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي
أبو الفضل (ت1270): دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (و508-
ت597): المكتب الإسلامي/ بيروت، ط3/ 1404هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله
(691-751)، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط: مؤسسة الرسالة
- مكتبة المنار الإسلامية/ بيروت - الكويت، ط4/ 1407هـ - 1986م.
- الزهد، عبد الله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب
العلمية/ بيروت.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي (202-275)،
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: دار الفكر/ دمشق.
- سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي (306-385)،
تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني: دار المعرفة/ بيروت، ط: 1386هـ -
1966م.
- سنن الدارمي، عبدالله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي (181-255هـ)،
تحقيق فواز أحمد زمرلي خالد السبع العلمي: دار الكتاب العربي/ بيروت،
ط1/ 1407.

السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (215-303)، تحقيق
د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية/ بيروت-
ط1411/1هـ-1991م.

سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور (ت227هـ)، تحقيق سعد بن عبد
الله بن عبد العزيز آل حميد: دار العصيمي/ الرياض، ط1414/1.
سورة الفتح دراسة وتحليل، قيصر عبد الرحمن: رسالة ماجستير، إشراف:
أ.د. خالد رشيد الجميلي/ كلية الشريعة، جامعة بغداد، 1419هـ-1999م.
السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، د. يوسف القرضاوي:
مكتبة وهبة/ القاهرة، ط1419/1هـ-1998م.

الشاطبي ومنهجه في مقاصد الشريعة، بشير مهدي الكبيسي: رسالة ماجستير،
إشراف د. صبحي جميل خياط/ كلية الشريعة، جامعة بغداد، 1408هـ-1987م.
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف: المطبعة
السلفية/ بيروت، بالأوفست عن طبعة 1346هـ.

شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم، د. مصطفى عبد الواحد. صادر
عن إدارة الشؤون الدينية بدولة قطر، ط4 / 1401هـ-1981م.
شرح السيوطي على سنن النسائي، السيوطي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة:
مكتب المطبوعات الإسلامية/ حلب، ط2/ 1406-1986.

شرح القواعد الفقهية، أحمد بن محمد الزرقا. اعتنى بها د. عبد الستار أبو غدة
ومصطفى أحمد الزرقا. ط4/ 1418هـ-1996م، دار القلم/ دمشق.

شرح المقاصد، النفذاني، تحقيق عبد الرحمان عميرة: عالم الكتب/ بيروت.
شرح النووي على صحيح مسلم، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (631-
676): دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط2/ 1392هـ.

شرح النيل، أبو إسحاق إبراهيم أطفيش:
شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر/
ط1348هـ-1930م.

شرح سنن ابن ماجه، السيوطي وآخرون: قديمي كتب خانة/ كراتشي.

- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (384-458): دار الكتب العلمية/ بيروت، ط1/ 1410هـ.
- شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، أبو حامد الغزالي، حمد الكبيسي: مطبعة الإرشاد/ بغداد، ط: 1971م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي (ت354هـ-)، تحقيق شعيب الأرنؤوط: مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط2/ 1414-1993.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، محمد بن إسماعيل البخاري: (1876/4) تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير/ بيروت، ط3/ 1407هـ- 1987م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصّابوني: دار القرآن الكريم/ بيروت-لبنان، ط2/ 1401هـ-1981م.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (691-751)، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله: دار العاصمة/ الرياض، ط3/ 1418هـ-1998م.
- طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأذنوي، تحقيق سليمان بن صالح الحزي: مكتبة العلوم والحكم/ المدينة المنورة، ط1/ 1997م.
- طبقات المفسرين، عبد الرحمن السيوطي: تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة/ القاهرة، ط1/ 1396هـ.
- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة/ الجزائر، ط (2).
- العبودية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية. دار الكتب العلمية/ بغداد.
- العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر. دار النفائس للنشر والتوزيع/ عمان - الأردن. ط(10)/ 1415هـ-1995.
- علوم القرآن الكريم، د. غانم قدوري حمد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة بغداد، كلية الشريعة.

غاية الوصول شرح لبّ الأصول، أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي. ط1/
1413هـ.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني (773-852)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب:
دار المعرفة/بيروت، 1379هـ.

فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: دار إحياء التراث الإسلامي/
قطر، 1410-1979.

فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد. تحقيق
د. محمد عابد الجابري: مركز الوحدة العربية/بيروت، ط1/ .

فصول في الفكر الإسلامي في المغرب العربي، عبد عمر المجيد النجار،
بيروت/دار الغرب الإسلامي.

فضائل القرآن، الحافظ ابن كثير:

الفقه الحركي في العمل الإسلامي المعاصر، (دراسة تأصيلية نقدية)،
موسى إبراهيم الشيخ: دار عمّار/الأردن، ط1/1418هـ-1997م.

الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد. ط: 1947م. لجنة البيان العربي/
القاهرة.

الفلسفة والإنسان، د. حسام الألوسي. وزارة التعليم العالي والبحث
العلمي (منشورات دار الحكمة)/بغداد.

الفهرس الموضوعي للقرآن الكريم: محمد مصطفى محمد. ط4/ (د.ت.).
دار الجيل/بيروت.

الفوائد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (691-751)، دار الكتب
العلمية/بيروت، ط2/ 1393هـ-1973م.

الفوز الكبير، شاه ولي الله الدهلوي: دار قتيبة/بيروت، 1409هـ-1989م.
في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك: المكتب المصري الحديث/ القاهرة.

في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط17/1412هـ-1992م0

في فقه الأولويات، د.يوسف القرضاوي: مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط1/1421هـ-2000م.

فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي: المكتبة التجارية الكبرى/ مصر، ط1/1356هـ.

قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم: ط2/1395هـ.
القرآن في القرآن، محمد شاکر عبد الله الكبسي: (رسالة دكتوراه بجامعة صدام للعلوم الإسلامية)

قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، عبد الله نديم بن حسين الجسر. دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع. بغداد. (د.ت)

القصد الجنائي في الشريعة والقانون، عبد الرحمن محمد يحيى الضحيانى: (رسالة دكتوراه في كلية العلوم الإسلامية، إشراف: أ.د.هاشم جميل وأ.د.فخري الحديثي/ جامعة بغداد، 1417هـ-1997م).

قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس: دار الفتح/ الأردن، الطبعة (1) / 1421هـ-2000م.

قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل.

قواعد الفقه، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي: الصدف ببشر/ كراتشي، ط1/ 1407-1976.

قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي، د. عبد الرحمن إبراهيم الكيلاني. المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار الفكر/ دمشق. ط1/ 1421هـ-2000م.

القواعد والإشارات في أصول القراءات، أحمد بن عمر بن محمد بن أبي الرضا الحموي أبو العباس (ت791هـ)، تحقيق د. عبد الكريم محمد الحسن بكاز: دار القلم/ دمشق، ط1/ 1406.

قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام، د.يوسف القرضاوي: دار الوفاء/ مصر ودار الصحوة/ القاهرة، ط2/ 1416هـ-1995م.

كبرى اليقينيّات الكونية (وجود الخالق ووظيفة المخلوق)، د. محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر/ دمشق. ط (8) / 1402هـ.

كشّاف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي: كلكتة سنة 1862، أوفسيت طهران 1948م.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق وتعليق محمد مرسي عامر. دار المصحف/ القاهرة . ط (2) / 1397هـ - 1977م. واستعملت طبعة دار المعرفة/ بيروت المهمّشة بكتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري.

كشف الأسرار، لحافظ الدين النسفي: ومعه شرح نور الأنوار على المنار، ملاجيون الصديقي الميهوي. دار الكتب العلمية/ بيروت. ط 1/ 1406هـ - 1986م. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت 1162)، تحقيق أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط 4/ 1405.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي (1017-1067هـ): دار الكتب العلمية/ بيروت، 1413هـ - 1992م.

كلمات القرآن تفسير وبيان، حسنين محمد مخلوف: دار ابن حزم/ بيروت، ط: 1418هـ - 1997م.

كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي: مركز بحوث السنة والسيرة/ جامعة قطر، ط: 1997م.

كيف نفهم القرآن، محمد بن جميل زينو: دار الفتحة/ الشارقة، ط 1/ 1414هـ - 1994م.

لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري. الدار المصرية للتأليف والترجمة.

لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (و773-ت852)،
تحقيق دائرة المعارف النظامية - الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت،
ط3/1406 - 1986.

مباحث العلّة في القياس عند الأصوليين، د. عبد الحكيم عبد الرحمن السّعدي:
دار البشائر الإسلامية/ بيروت، ط1/1406هـ-1986م.

مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم: دار القلم/ دمشق، ط3/
1421هـ-2000م.

مباحث في علم التفسير، د. عبد الستار حامد الدّباغ:
مباحث في علوم القرآن، مناع القطان: مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط35/
1418هـ-1998م.

المبادئ الأساسية لفهم القرآن. أبو الأعلى المودودي، تعريب خليل أحمد
الحامدي: دار القلم/ الكويت، ط8/ 1413-1993م.

مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (تفسير)، عبد الحميد بن باديس: وزارة
الشؤون الدينية، دار البعث للطباعة والنشر/ قسنطينة - الجزائر. الطبعة الأولى -
1402هـ 1982.

المجتبى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (215-303)،
تحقيق عبدالفتاح أبو غدة: مكتب المطبوعات الإسلامية/ حلب، ط2/ 1406-
1986.

المجروحين، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (354هـ)، تحقيق محمود إبراهيم
زايد: دار الوعي/ حلب.

مجلة الأحكام العدلية، جمعية المجلة:

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي،
بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر. دار الكتاب العربي، بيروت/ لبنان.
ط2/ 1967م.

مجموع الفتاوى، أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية، المملكة العربية السعودية، ط(1) 1381هـ ، وطبعة الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين/السعودية، ط: 1404.

محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي. بعناية محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية. ط (1) / 1376هـ - 1957م.

محاکمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة، بديع الزمان سعيد النورسي، تر: إحسان قاسم الصالحي: ط1/ 1411هـ - 1991م.
المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي: دار المعرفة/الجزائر، طبعة 1999م.

مختار الصحاح، أبو بكر الرازي:

مختارات من المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي، اختارها وقدم لها أديب إبراهيم الدباغ: مطبعة الزهراء الحديثة/ الموصل - العراق، ط1 / 1404هـ - 1983م.

مختصر علوم القرآن، محمد علي عبد الكريم الرديني: دار الشهاب/ باتنة، الجزائر، (د.ت.).

مدارج السالكين، ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي: دار الكتاب العربي/ بيروت، ط1972م-1392هـ.

مدخل إلى فهم الجذور (من أين؟ ولماذا؟ وإلى أين)، محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر/ دمشق-سورية. ط (1)/ 1412هـ - 1991م.

المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، عبد القادر بن بدران الدمشقي (ت 1346)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط2/ 1401.

المدخل في فقه القرآن، فرج توفيق الوليد: دار الرسالة للطباعة/ بغداد، 1976-1977م.

المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط16/ 1421هـ - 2001م.

المدخل للفقه الإسلامي، د. حسن علي الشاذلي: دار الطباعة الحديثة.
مذكرات في مصادر التشريع الإسلامي وطرق استنباط الأحكام، مديرية الكتب
والمطبوعات الجامعية، دمشق/ ط1- 1965م.
مسألة الألوهية وأصل العالم، زياد الأحذب، دار الكتب العربية/ دمشق -
سورية.

المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري
(321-405)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا: ط1/ 1411-1990، دار الكتب
العلمية/ بيروت.

المستشرقون ، نجيب العقيقي: دار المعارف/ مصر، ط3/ 1964.
المستشرقون والدراسات القرآنية، د. محمد حسين علي الصغير: دار المؤرخ
العربي/ بيروت، لبنان، ط1/ 1420هـ- 1999م.

المستشرقون والقرآن الكريم، محمد بهاء الدين حسين: رسالة ماجستير/
1993م. كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد، إشراف د. عبد الستار حامد الدباغ.
المستصفي في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تحقيق محمد عبد الشافي:
ط1/ 1413هـ، دار الكتب العلمية/ بيروت.
مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني (164-241):
مؤسسة قرطبة/ مصر.

مساعد النظر في الإشراف على مقاصد السور؛ البقاعي، (مصور عن
مخطوط موجود لدى الشيخ صبحي السامرائي. قد أخبرني بأنه محقق.
المصطلحات القانونية في التشريع الجزائري، ابتسام القرام: قصر الكتاب /
البليدة- الجزائر - ط: 1998م.

المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (126-211)، تحقيق حبيب
الرحمن الأعظمي: ط2/ 1403هـ، المكتب الإسلامي/ بيروت.
معالم في الفلسفة الإسلامية، عبد الحميد خطّاب: مطبعة النخلة/ الجزائر،
ط: 1416هـ- 1991م.

معجم الدراسات القرآنية، د. ابتسام مرهون الصّفار: مطابع جامعة الموصل/ العراق، ط: 83/1984م.

المعجم الصوفي، د. سعاد الحكيم: دار ندرة للطباعة والنشر/ بيروت - لبنان. ط1/1401-1981.

معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر - بيروت، (د.ت)
المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (260-360)،
تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي: مكتبة العلوم والحكم/ الموصل، ط2/
1404هـ-1983م.

المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، صبحي عبد الرؤوف عصر.
دار الفضيلة/ مصر 1990.

معجم مصنفات القرآن الكريم، د. علي شواخ إسحاق: دار الرفاعي/ الرياض،
ط1/1404هـ-1984م.

معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق عبد السلام
هارون. دار الفكر، 1399هـ - 1973م.

معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، محمد بن أحمد بن عثمان
بن قايمار الذهبي أبو عبد الله (673-748هـ)، تحقيق بشار عواد معروف وشعيب
الأرنؤوط وصالح مهدي عباس: مؤسسة الرسالة/ بيروت - ط1/1404هـ.
مفاتيح للتعامل مع القرآن، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي: مكتبة المنار/
الأردن، ط1/1406هـ-1985م.

مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني:

مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر
الميساوي. دار الفجر/ كوالالمفور ودار النفائس/ عمان، ط1/1420هـ - 1999م.
مقاصد الشريعة ومكارمها، علال الفاسي: دار الغرب الإسلامي، ط5/1993م.
مقاصد الشريعة، تحرير وحوار (عبد الجبار الرفاعي)، من (حوار مع
د. طه جابر العلواني): دار الفكر، ودار الفكر المعاصر/ سورية، لبنان، ط1/
1422هـ-2002م.

- المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، د. يوسف حامد العالم. الدار العالمية للكتاب الإسلامي / السعودية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي / أمريكا. ط2/ 1415هـ-1994م.
- مقاصد القرآن الكريم، حسن البناء. دار بوسلامة للطباعة/ تونس، ط3/ 1981م.
- مقاصد القرآن، محمد الصالح الصديق. ط1/ 1375هـ- 1955م. المطبعة العربية/ الجزائر.
- مقدمة ابن خلدون: طبعة دار الفكر.
- مناهج المحدثين في التصنيف؛ (بحث مخطوط للدكتور مظفر شاکر الحیانی) - مقررٌ لصف الدكتوراه بكلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني: تحقيق مركز البحوث والدراسات، دار الفكر/ بيروت، ط1/ 1996م.
- المنثور في القواعد، الزركشي. تح: تيسير فائق أحمد محمود: وزارة الأوقاف/ الكويت، ط2/ 1405هـ.
- المنقذ من الضلال، الغزالي أبو حامد: ص81. مكتبة النشر العربي/ دمشق، ط3/ 1358-1939.
- منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس(661-728)، تح:د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط1/ 1406هـ.
- منهاج الصالحين، عز الدين بليق: دار الفتح للطباعة والنشر/ بيروت، ط1/ 1398-1978م.
- منهج ابن القيم في التفسير، محمد أحمد السنباطي: دار القلم/ الكويت، ط2/ 1400-1980.
- الموافقات في أصول الفقه، أبو إسحاق الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت790)، تحقيق عبد الله دراز: دار المعرفة/ بيروت، (د.ت).
- موجز في علوم القرآن، د.داود العطار: مؤسسة الأعلمي للطبوعات/ بيروت، ط2/ 1399هـ-1973م.

موسوعة أخلاق القرآن، د/ أحمد الشرباصي. دار الرائد العربي. بيروت لبنان
ط1/ 1401-1981.

ميزان الأصول في نتائج العقول في أصول الفقه، علاء الدين شمس النظر
أبو بكر السمرقندي، تحقيق: د. عبد الملك السعدي: مطبعة الخلود/ بغداد،
ط1/ 1407-1987.

النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز:
نشأة الدين بين التصور الإنساني والتصور الإسلامي، حسن علي مصطفى
حمدان: مؤسسة الإسرائاء/ الجزائر، ط1/ 1991م.

نظرات في تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد:
نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني: المعهد العالمي للفكر
الإسلامي/ الولايات المتحدة الأمريكية، ط4/ 1415هـ-1995م.

نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسني. المعهد
العالمي للفكر الإسلامي/ أمريكا. ط1/ 1416هـ-1995م.
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر
البقاعي (ت885هـ/1480م). ط1/ 1398هـ-1978م. وزارة المعارف والشئون
الثقافية/ الهند.

نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول، محمد بن أبي بكر أيوب
الزرعي أبو عبد الله (691-751)، تحقيق حسن السماعي سويدان: دار القادري/
بيروت، ط1/ 1411-1990.

نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن
محمد الشوكاني (ت1255): دار الجيل/ بيروت، ط: 1973.

هذا القرآن فأين المسلمون منه؛ محمد زكي الدين محمد قاسم: دار البحوث
العلمية/ الكويت، ط1/ 1408هـ-1987م.

الوافي في شرح الشاطبية، عبد الفتاح عبد الغني القاضي: مكتبة الدار/ المدينة
المنورة، ط2/ 1410هـ-1989م.

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي
(ت468هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي: دار القلم دمشق-الدار الشامية
بيروت، ط1 / 1415هـ-1995م).

الوجيز في شرح القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان:
مؤسسة الرسالة/ بيروت، (د.ت).

الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا. ط9/1399هـ-1979م. المكتب
الإسلامي/ بيروت.

يسألونك (في الدين والحياة)، د. أحمد الشرباصي. دار الجيل / بيروت لبنان.
ط(2) / 1977م.